وصايا الرسول ﷺ

وأثرها في تقويم الفرد وإصلاح المجتمع

الدكتور محمد بكر إسماعيل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
جامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار المنار

وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم

وأثرها في تقويم الفرد وإصلاح المجتمع

الدكتور محمد بكر إسماعيل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
جامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع حسن العدوي - ميدان الحسين
ص . ب ٦١ هليوبولس
ت : ٥٩١٥٠٨٥

٩ ش حسن العدوي الحسين ت : ٥٩١٥٠٨٥

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

(١٢٢) إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا مَرَرْتُمْ برِيَاضِ الجنة، فَارْتَعُوا».

قُلْتُ : يا رسول الله ، وما رياض الجنة؟

قال: «المَسَاجِدُ».

قلتُ: وما الرَّتْعُ يا رسول الله؟

قال: «سبحانَ اللهِ والحمدُ لله ولا إلَهَ إلا الله والله أكبر».

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا مَرَرْتُمْ برِيَاضِ الجنةِ، فَارْتَعُوا».

قال: وما رياض الجنة؟

قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ».

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا مَرَرْتُمْ برِيَاضِ الجنةِ، فَارْتَعُوا».

قالوا: وما رياض الجنة؟

قال: «مَجَالِسُ العِلْمِ» (١) .

* * *

المساجد جنة الله فى أرضه، والذِّكْرُ نعيمها، والعلم غراسها، فمن أراد الله به خيراً فَقَّهَهُ فى الدين ، وأعانه على ذكره وشكره وحسن عبادته ، وجعل قلبه مُعَلَّقاً بالمساجد، فكان العلم غذاءه والذِّكرُ دواءه والمسجد مَأْمَنَهُ ، ولم يكن له وراء ذلك مطلب .

---

(١) أخرج الحديث الأول والثانى الترمذى فى كتاب الدعوات باب (٨٣) وقال: حسن غريب.

وأخرج الثالث الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : فيه رجل لم يسم. أقول: ولكن له شواهد تقويه، فهو حسن.

وأى مطلب أعظم من ذلك.

أما الذكر: فهو الرَّوْحُ والريحان، وأفضل أماكنه المساجد.

وأفضل الذكر: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

والطريق إلى معرفة الله هو العلم، فنحن لا نستطيع أن نذكر الله حَقَّ ذكره إلا به.

قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ (١).

وفى هذه الآية دليل على أن إيمان المُقَلِّد ليس كإيمان العارف بالله، الواقف على ما يقتضيه التوحيد من الواجبات والآداب.

وهذا الحديث برواياته الثلاثة يحمل إلينا وصية من أعظم الوصايا وأنفعها لنا فى الدنيا والآخرة.

* * *

فقوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة، فارتعوا» فيه أربع لطائف:

الأولى: فى التعبير «بإذا» وهى ظرف يفيد تحقيق الوقوع، أى حتماً ولابد أن تمروا برياض الجنة.

ولو قال: إن مَرَرْتُم. ما أفاد هذا المعنى؛ لأن «إن» يؤتى بها لما يُظَنُّ وقوعه لا لما يتحقق وقوعه (٢).

الثانية: فى قوله: «مَرَرْتُم» فإن المرور قد يكون حِسِّيّاً وقد يكون معنوياً، فالمسلم إذا كان يمشى في الطريق فوجد قوماً يذكرون الله – عز وجل – أو يتعلمون أو وجد مسجداً، فالمرور حِسِّيٌّ.

وإذا خطر بقلبه ومَرَّ على خاطره أن يحضر مجالس الذكر أو مجالس العلم فى المساجد وغيرها، فالمرور مَعْنَوِيّ.

وكل منهما محتمل ومراد بقوله: «إذا مَرَرْتُمْ».

---

(١) سورة محمد آية ١٩.

(٢) وقد تأتى كل منهما مكان الأخرى لغرض بلاغى.

والثالثة: فى قوله: «برياض الجنة» وهى بساتينها، جمع روضة. سميت بذلك لكثرة ما فيها من الثمار اليانعة والمناظر الخلابة والطبيعة الجذابة.

وتكمن هذه اللطيفة فى التشبيه، فقد شَبَّه النبى - ﷺ - المساجد ومجالس الذكر والعلم برياض الجنة، لما فيها من التَّمتُّع بحلاوة العلم والذكر؛ إذ التمتع بهما يفوق التمتع بكل طيبات الحياة مجتمعة.

فالعلم خير ما يسعى إليه الساعون ويجدُّ فى طلبه المجدّون، فلا شىء يفوق العلم فى قدره وشرفه، كما سيأتى بيانه.

ومن ذاق حلاوة الذكر ذاق حلاوة الإيمان، ومن ذاق حلاوة الإيمان لم يشغله عن طلب رضا الله شىء، ولا الجنة؛ فإن الجنة هى مطلب عامة المؤمنين، ورضا الله طلب الخواص منهم.

واللطيفة الرابعة: تكمن فى قوله - ﷺ - : «فارتعوا» فإنك لا تجد لفظاً يؤدى ما يؤديه هذا اللفظ، فهو تعبير دقيق فى معناه ومرماه، بليغ فى تصوير الحقيقة وتعميقها فى عقل السامع وقلبه، وفيها من الخفة والظرف والإقناع والإمتاع ما يعجز اللسان والقلم عن بيانه.

فما الرتع إذاً فى مفهوم اللغة؟

الرَّتْعُ فى مفهوم اللغة: الاتساع فى الأكل والشرب والتنزه والمرح، مأخوذ من الرتعة: وهى الأرض الخصبة.

قال فى القاموس: رتع: أكل وشرب ما شاء فى خصب وسعة.

ومن هذا المعنى اللغوى يتبينْ لنا بلاغة الكلمة فى هذه الوصية، فإنه - ﷺ - شَبَّه الذكر والعلم وارتياد المساجد بما فيه قوام الحياة، وهو الأكل والشرب.

ووجه الشبه أن كلاً من هذا وذاك لا غنى عنه، فالأكل والشرب غذاء الجسم، والذكر والعلم وارتياد المساجد غذاء الروح، ولا جسم بلا روح.

فإن كان الإنسان يريد أن يرتع حقاً، فليرتع فى هذه المجالس ولا يرتع فى الأكل والشرب؛ فإنه ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه.

ومَن اهتم بغذاء الروح أخذ الجسم حقه من غذائها فاستغنى عن الكثير من الطعام والشراب، واكتفى بلقيمات يقمن صلبه.

«والمؤمن يأكل فى مِعًى واحـد والكافر يأكل فى سـبعة أمعاء» كما جاء فى الحديث [1] .

فعلى المسلم أن يجعل مبلغ همه فى طلب ذلك المرعى الروحى الخصيب؛ فإنه جَنَّتُه التى لا ينضب معينها ولا ينفد رزقها، ولا يفنى نعيمها.

بل إن أهل الجنة فى الجنة لا يتنعمـون بشىء أكـثر من تنعمـهم بذكـر الله وطلب المزيد من معرفة الله.

وهم فى الدنيا يعيشون فى جنة لا يعرفها سواهم.

ولقد قال قائلهم: نحن فى نعمة لو علم بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم.

وقال رجل منهم: عجبت لقوم خرجوا من الدنيا ولم يستمتعوا بنعيمها!!

قالوا : أو فى الدنيا نعيم يا رجل !!

قال: إن فيها نعيماً يَعْدِلُ نعيم الجنة.

قالوا: وما هو؟

قال: ذكر الله.

نعم هو ذكر الله، ومَنْ ذاق عرف.

ولذا أوصى النبى – ﷺ – معاذ بن جبل – رضى الله عنه – بوصية جامعة ينبغى أن نضعها نصب أعيننا.

قال: «يا معاذ، إنى لأحبك – مرتين – يا معاذ، لا تَدَعَنَّ دبر كل صلاة تقول: اللهم أعِنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وقد تَقَدَّمَ شرح هذا الحديث [2] .

* * *

(١) رواه البخارى فى الأطعمة ١٢، ومسلم في الأشربة ١٨٢ – ١٨٦، وغيرهما.
(٢) الوصية رقم ٦٠.

وأفضل أنواع الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ففيها يكون الرتع حقاً، لأنها غِراس الجنة، من قالهن كثر فى الجنة ميراثه، وسمت بين أهلها درجاته.

وذلك لأن كل كلمة منهن جمعت أصول التوحيد كلها، فمن أراد الهدى، فهن من أمهات الهدى.

ومن أراد النعيم، فهن ينبوع النعيم.

إنهن بحق جنة الله فى الدنيا والآخرة - كما أشرنا من قبل.

* * *

وأما المساجد فإنها بيوت الله المقدسة، التى من زاره فيها أكرمه بنوره العظيم، وأعطاه ما يعطى السائلين من عباده المخلصين، وأظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ورفع مكانته فى الأولين والآخرين، وأعد له فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعُمَّار المساجد هم خيرة الرجال وعظماؤهم وأسعد الناس بحياتهم.

قلوبهم مصابيح الهدى، وصدورهم منشرحة بذكر الله، ونفوسهم راضية مرضية، لا تبتغى سوى رضا الله بديلاً.

وقد وصفهم الله بالرجولة والزهد، والتقى والخشية من عذابه، ووعدهم وعداً كريماً فى قوله جل شأنه: ﴿رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزقُ من يشاء بغيرِ حساب﴾ (١) .

وقد أشاد بذكرهم فى قوله جل وعلا: ﴿إنما يَعْمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ (٢) .

---

(١) سورة النور: ٣٧ - ٣٨ .

(٢) سورة التوبة: ١٨ .

والمساجد إنما تعمر بالصلوات الخمس وتلاوة القرآن وسائر أنواع الذكر وتدريس العلم والاعتكاف وغير ذلك من أنواع العبادات، فهى ملاذ المؤمنين ومتنزههم، ومنتدى شوراهم، وملتقاهم الفكرى والاجتماعى، فمن عظمها عظم الله قدره وأجره، ومن أسهم فى بنائها ولو بقدر عش طائر بنى الله له بيتاً فى الجنة.

* * *

وفى حديث أنس ذكر النبى - ﷺ - أن رياض الجنة حِلَقُ الذكر، بكسر الحاء وفتح اللام، وهى مجالسه.

إذ جرت العادة أن المتعلمين يلتفون حول المعلم على هيئة حلقة.

والذكر قيل هو العلم أخذاً من قوله تعالى: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١).

وهو قول سديد رجحه جمهور المفسرين؛ لأن المسئول عن الأخبار والأحكام وغيرها من أمور الدين والدنيا هم أهل العلم.

ويشهد لهذا ما جاء فى الرواية الثالثة التى أخرجها الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما:

قالوا: وما رياض الجنة؟

قال: « مجالسُ العلم ».

والعلم هو سلطان العقل، وملاك الفكر، وعماد الذكر، وبرهان صحة الإيمان وسلامة المعتقد.

فلا إيمان بلا علم.

قال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (٢).

---

(١) النحل آية ٤٣، الأنبياء آية ٧.

(٢) محمد آية ١٩.

فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر.

من ذاق حلاوته لا يشبع من طلبه ، ولا يمل من تحصيله.

وأهل العلم أشرف الناس، وأعظمهم قدراً عند الله - عز وجل - وعند الناس.

يقول الله عز وجل: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (١) .

ويقول جل شأنه: ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٢) .

ويقول عز من قائل: ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ (٣) .

فإن كان لأحد أن يفخر فليفخر بالعلم الذى يزينه حسن العمل.

وما أحسن قول الشاعر:

الناس من جهة التمثال(٤) أكفاءُ ... أبوهمُ آدم والأم حواءُ

فإن يكن لهم فى أصلهم شرفٌ ... يتفاخرون به فالطين والماء

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاَّءُ

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

نعم أهل العلم أحياء بعلمهم فى نفوس الناس ما داموا ينتفعون بعلمهم.

فالعلم - كما نعلم - صدقة جارية، وذكر طيب، وسيرة عطرة.

مات قومٌ وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم فى الناس أموات

---

(١) المجادلة آية ١١.

(٢) الزمر آية ٩.

(٣) فاطر آية ٢٨.

(٤) الجسم.

كيف يموت من تحيا بهم القلوب، وتستنير بهم العقول، وتعمر بهم الأرض فى كل زمان ومكان.

تحيا بهم كل أرض ينزلون بها كأنهم فى بقاع الأرض أمطار

فكما أن الناس لا يستغنون عن الأمطار بأى حال لا يستغنون عن العلماء فى أى مجال.

والعلم الذى يرفع مكانة صاحبه هو العلم المصحوب بالعمل الصالح، والخلق الفاضل، والسلوك النبيل.

وعلم بلا أدب كشجر بلا ثمر.

والعلم – كما يقولون – قدرة وقيمة؛ فإذا فقد قدرته فقد قيمته، وإذا فقد قيمته فقد آثاره وثماره.

وقدرة العلم محدودة، ولكنها قوية عند من يستعين بالله ويطلب المزيد من علمه ؛ إذ لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق.

وقيمة العلم فى مدى نفعه للناس، وذلك إذا سخر للإصلاح والتعمير.

أما إذا سخر للتخريب والتدمير فقد فَقَدَ قدرته وقيمته معاً.

ولنا عودة لبيان فضل العلم وأقسامه وأنواع كل قسم منها فى وصية أخرى – إن شاء الله تعالى.

والله ولى التوفيق.

* * *

(١٢٣) من نذر أن يطيعَ اللهَ فليطعْه

عن عـائشـة - رضى الله عنهـا - عن النبى - ﷺ - قـال : «من نذر أن يطيعَ اللهَ فليطعْه، ومن نذر أن يعصيَه فلا يعصِه» (١) .

* * *

النذر فى عرف الفقهاء هو : « إيجاب ما لم يجب من القربات » .

وهـو عبـادة قديمـة نبأنا القرآن بهـا حكاية عن امرأة عمـران - رضى الله عنها - .

فقال جل شأنه : ﴿ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ (٢) .

وأمر الله - عز وجل - مريم به على لسان جبريل - عليه السلام -، أو على لسان ولدها عيسى وهو فى مهده .

قال - جل شأنه : ﴿ فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (٣) .

الصوم : هو مطلق الإمساك عن الكلام وغيره، وكان الإمساك عن الكلام - فيما يبدو والله أعلم - نوعاً من العبادة، لما فيه من صيانة اللسان عن لهو الكلام ولغوه .

والنـذر من الأمـور المباحـة على الجملة، بشرط أن يكون فيـه قربة إلى الله تعالى .

يدل على إباحته قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (٤) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الإيمان والنذور، باب النذر فى طاعة ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٢) آل عمران : ٣٥ . (٣) مريم : ٢٦ . (٤) البقرة : ٢٧٠ .

وقوله جل شأنه: ﴿ ثم ليقضوا تَفَثَهم وليُوفُوا نذورهم وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق ﴾ (١) .

والتفث : هو الحج.

وقال – عز من قائل – فى وصف الأبرار: ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ (٢) .

وقال – تبارك وتعالى – فى وصف المجاهدين: ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً ﴾ (٣) .

والنحب فى الآية : النذر، كما قال أكثر المفسرين.

وأحياناً يكون النذر مندوباً، كأن يكون تعبيراً عن شكر العبد لله تعالى على نعمة من نعمه.

وأحياناً يكون مكروهاً، إذا علقه على شيء يبتغيه من ربه – عز وجل –، كأن يقول: إن شفانى الله لأذبحن كبشاً، أو لأصلين مائة ركعة، أو لأصومن يومين فى الأسبوع؛ فإن فى ذلك إساءة أدب مع الله، فلا ينبغى أن ينذر المسلم لله نذراً ليدرك شيئاً لم يقدره الله له ، أو يدفع شيئاً قد قدره الله عليه.

والوفاء بالنذر واجب ؛ لا ينعقد نذره ، ولا يجب الوفاء به ، كما هو مقتضى هذا الحديث الذى نحن بصدد بيان معانيه ومراميه.

* * *

فقوله – ﷺ –: «من نذر أن يطيع الله فليطعه».

معناه: أنه من تطوع بنذر يتقرب به إلى الله – تبارك وتعالى –، وكان نذره من الطاعات المندوبة شرعاً فليوف به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإنه دين فى ذمته لا يسقط عنه إلا فى حالة العجز عن تأديته.

هذا، ولا نذر فى واجب ؛ لأن ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ فإن النذر يقتضى الوجوب ، فكيف ينذر المسلم شيئاً هو واجب عليه.

---

(١) الحج: ٢٩.　　(٢) الإنسان: ٧.　　(٣) الأحزاب: ٢٣.

لكن إذا نذر أن يؤدى الواجب على النحو الأكمل مع ما فى ذلك من المشقة جاز، ووجب الوفاء به . كأن يقول : لله علىّ نذر أن أصلى الصلوات كلها فى أول وقتها مع الجماعة، أو يقول: لله علىّ نذر أن أحج فى هذا العام ، فلا أرفث ولا أفسق ولا أجادل فى الحج - وكان مستطيعاً؛ فإن الحج واجب عليه لكن ليس على الفور، فكونه قد نذره فى عامه هذا يعتبر مبالغة فى التقرب إلى الله - تعالى - لتأدية الواجب فوراً على النحو الأكمل.

ومن هذا البيان نفهم أن قوله - ﷺ -: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» مراد به تأدية الأمور المستحبة، أو تأدية الواجبات بأوصاف يعينها من وجبت عليه؛ زيادة فى التقرب إلى الله تعالى، وتأديباً لنفسه الأمارة بالسوء، وكبحاً لجماح هواه.

فالرسول - ﷺ - يُعين من أراد أن يبالغ فى الطاعة على نفسه وشيطانه وهواه، وكأنه يقول له: احرص على الوفاء بنذرك، ولا يصدنّك الشيطان عما عزمت عليه، وأكدته بالنذر الذى هو كاليمين فى وجوب الوفاء.

وليكن الناذر عند وعده، فلا ينبغى أن يتكاسل أو يتباطأ، أو يتخاذل عن الوفاء؛ فإنه لو قصر فى الوفاء بنذره لا يكون من الأبرار الذين وعدهم الله وعداً حسناً، وأجزل لهم العطاء فى قوله - جل وعلا -: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزَاجُها كافوراً .... ﴾ إلى قوله: ﴿إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكَوراً ﴾ (١) .

* * *

وقوله - ﷺ -: «من نذر أن يعصيه فلا يعصه».

نهى صريح عن الوفاء به ؛ لأن الوفاء به يتنافى مع الوفاء بحق الله - تعالى -، فلا يكون قربة، بل يكون ذنباً.

وهو يتضمن - أيضاً - النهى عن نذر المعصية أصلاً لكن بطريق ضمنى، بمعنى أنه عبث يجب أن يتنزه المسلم عنه، وسوء أدب مع الله - عز وجل - وجرأة عليه.

---

(١) الإنسان: ٥ - ٢٢.

فمن غرته نفسه فنذر أن يقطع رحمه فلا يفعل؛ لأن قطيعة الأرحام من أكبر المعاصى، وكذلك من نذر أن يقسو على نفسه بلا داع يقتضيه، كأن يقول: لله علىّ نذر أن أحج ماشياً، أو أصلى فى مسجد البلد الفلانى، وهو بعيد عنه مسافة القصر، إلى آخر ما هنالك من الأمور التى هى إلى المعاصى أقرب منها إلى الطاعات، فإن الله – عز وجل – يقول: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾(١) .

فلا ينبغى أن يشق على نفسه بفعل شىء لا طاقة له به، أو كان فعله مما يحرجه، ويجلب عليه العسر فى أمر معاشه، أو يجر عليه من الأمراض والعلل ما يثقل عليه تحمله، فالنذر – كما عرفنا – قربة من القربات، ولا قربة فى معصية، ولا فى أمر خارج عن نطاق الأمور المستحبة شرعاً.

روى أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى – ﷺ – قال: «لا نذر إلا فيما ابتُغى به وجه الله».

وروى البخارى وابن ماجه وأبو داود عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: بينما النبى – ﷺ – يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس، ولا يقعد ولا يستظل، ولا يتكلم، وأن يصوم، فقال النبى – ﷺ –: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه».

وروى البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال: «نذرت أختى أن تمشى إلى بيت الله فأمرتنى أن أستفتى لها رسول الله – ﷺ – فاستفتيه فقال: لتمش ولتركب».

أى: لتمش بقدر طاقتها مسافة لا يشق عليها المشى فيها، ولتركب إذا تعبت، فكأنه – ﷺ – يخيرها فى ذلك، ويحب لها أن تأخذ باليسر فتركب؛ فإن المشى ليس قربة إلى الله – تبارك وتعالى – وإنما الحج هو القربة، فليكن بما تيسر.

وروى أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه عن كريب عن ابن عباس –

---

(١) البقرة: ١٨٥.

رضى الله عنهما – قال: «جاءت امرأة إلى النبى – ﷺ – فقالت : يا رسول الله! إن أختى نذرت أن تحج ماشية، فقال : «إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً لتخرج راكبة ولتكفر عن يمينها» .

فقد اعتبر النبى – ﷺ – النذر فى هذه الحالة يميناً يجب أن تكفر عنه إن حنثت فيه، بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، أو تصوم ثلاثة أيام ، إن لم تجد ما تطعم به وتكسو.

والله – عز وجل – رءوف رحيم يعفو ويصفح عن كثير.

يقول – جل شأنه –: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً﴾ (١) .

*　　*　　*

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما تقدم: أن نذر المعصية لا يجوز ابتداءً، ولو وقع لا ينعقد ، ولا يجب الوفاء به ، وفاعله يُعد عاصياً على كل حال؛ لما فيه من الجرأة، وسوء الأدب مع الله – تعالى –.

وكأنى برسول الله – ﷺ – يكره النذر فى الطاعة لما فيه من كلفة بإيجاب ما لم يجب، ولكنه مباح على الجملة كما ذكرنا ، فمن نذر فليوف بنذره.

والحديث منصب أساساً على النهى عن نذر المعصية ، لكن قد مهد له بنذر الطاعة ؛ ليكون الكلام مقنعاً والنهى مؤكداً بفعل ضده ، وهو الوفاء بنذر الطاعة.

والشيطان قد يغرى الإنسان بالنذر، فإذا ما نذر قربة حاول جهده أن يصده عنها، فيحزنه بذلك، ويحرجه، ويضعف من همته، ويشغله عن المضى فى طاعة ربه، ويجعله نادماً على نذره هذا .

لذلك أوصى النبى – ﷺ – أن يحمل المرء نفسه على الأخذ باليسر فى أمره كله، فقال : «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» .

---

(١) النساء : ١٤٧ .

وقد تقدم شرح هذا الحديث.

لكن من نذر شيئاً وهو قادر على الوفاء به فليبادر بالوفاء؛ فإنه لا يدرى متى يموت ، والنذر دين فى ذمة صاحبه - كما أشرنا من قبل - ودين الله أحق بالقضاء.

والقضاء على الفور أولى من التراخى فيه ، ولا شك أنه من تخفف من أعمال الواجبات أولاً بأول انشرح صدره أكثر وأكثر للمزيد من العمل الصالح، وخلا قلبه من الشبهات والوساوس الشيطانية، واطمأن بذكر الله ، وازداد شكراً له على نعمة التوفيق.

والإنسان فقيه نفسه، فمن الحكمة ألا يتكلف ما يشق عليه ، ولكن يأخذ نفسه باليسر والسداد فى القول والعمل بقدر وسعه.

والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٢٤) إياكم ومحقَّراتِ الذنوب

عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم ومحقِّراتِ الذنوب ، فإنما مثلُ محقراتِ الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما انضجوا به خبزهم ، وإن محقراتِ الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» (١) .

* * *

إن من أخطر الذنوب وأشدها عذاباً أن يحتقر المرء ذنباً اقترفه دون أن يبالى بعواقبه فى الدنيا والآخرة .

فرب ذنب يراه المرء صغيراً يكون سبباً فى حرمانه من نعمة أو إصابته بنقمة .

يقول النبى ﷺ : «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» (٢) .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنى لأحسب الرجل ينسى العلم كما تعلمه بالخطيئة يعملها (٣) .

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالعذاب أشد وأبقى ، فرب ذنب يعده الناس من الصغائر يدخل به فاعله النار مع الفساق والفجار .

يقول النبى ﷺ : «دخلت امرأة النار من جراء هرة لها - أو هرٍّ -

---

(١) أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى كلهم عن سهل بن سعد ، قال الهيثمى والمنذرى : رجال أحمد رجال الصحيح ، ورواه الطبرانى فى الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة .انظر فيض القدير جـ ٣ ص ١٢٨ .

وفى رواية : «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» .

(٢) رواه النسائى عن ثوبان - رضى الله عنه - بسند صحيح .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير موقوفاً ورواته ثقات .

ربطتها . فلا هى أطعمتها . ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً » (١) .

إن أصحاب النبى – ﷺ – كانوا لا يفرقون بين ذنب وذنب لشدة خشيتهم من الله تعالى ، فهم يراقبونه فى سرهم وعلانيتهم ولا يغفلون عن ذكره ساعة . وإذا غفلوا ساعة كانوا يروحون فيها عن أنفسهم ندموا على ضياعها واستغفروا الله من ذلك وتابوا إليه .

قال أنس بن مالك – رضى الله عنه –: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله – ﷺ – من الموبقات ، يعنى المهلكات (٢) .

وما أحسن قول من قال: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر من عصيت .

نعم ، ولكن انظر من عصيت ، إنك عصيت رب العرش العظيم الذى لا تخفى عليه خافية .

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ (٣) .

وقد قسم العلماء الذنوب إلى صغائر وكبائر ليرتبوا على هذا التقسيم أحكاماً لا ليحقروا ذنوباً ويعظموا أخرى ، فالمؤمن يرى الذنب – مهما كان صغيراً – كجبل فوق رأسه .

والفاسق يرى الذنب العظيم كذبابة مرت على وجهه ثم انصرفت .

وقد استمدوا هذا التقسيم من القرآن الكريم . فقد قال الله – عز وجل –:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى وغيره.

(٣) فاطر: ٤٥ .

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (١) .

والمراد بالسيئات الصغائر لأنها جاءت فى مَقابل الكبائر.

وقال جل وعلا: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ (٢) .

واللمم هى الصغائر التى يلم بها العبد من غير قصد أو بقصد دون أن يصر عليها، فالإصرار على الصغيرة يُصَيِّرها كبيرة ، فلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

وقد شرط الله – تبارك وتعالى – فى قبول التوبة عدم الإصرار على الذنب فقال جل شأنه: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ (٣) .

والله – عز وجل – يحصى أعمال عباده فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى، فإذا جاء العبد يوم القيامة ووضع له كتابه وجد فيه جميع أعماله الصالحة والسيئة فيجزى على إحسانه ويجازى على سيئاته، فالمحسن يقول: ليتنى زدت، والمسىء يقول: ليتنى ما أسأت . حيث لا ينفع الندم.

يقول الله عز وجل: ﴿ووُضِع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ (٤) .

ويقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ (٥) .

---

(١) النساء: ٣١. (٢) النجم: ٣٢.
(٣) آل عمران: ١٣٥ – ١٣٦. (٤) الكهف: ٤٩.
(٥) الأنبياء: ٤٧.

ويقول الله عز وجل في الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن نفسه».

* * *

والرسول ﷺ يحذرنا تحذيراً شديداً من محقرات الذنوب لا لأنها حقيرة في نفسها ولكن لأنها تبدو حقيرة لمن لا علم له بالله ، فيقدم عليها وهو يقول في نفسه: هذه ذنوب يكفرها الوضوء وتكفرها الصلاة.

ويستدل بآيات وأحاديث تفيد ذلك فعلاً، ولكنها مخصوصة بمن لم يستخف بالذنب أو يُصر على فعله.

فلا ينبغي أن يقرأ المرء قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ ويهمل قول جل شأنه: ﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ (1).

إن الذنوب التي يكفرها الوضوء وتكفرها الصلاة ونحوها هي الصغائر . أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة النصوح والعمل الصالح الذي يعتبر برهاناً على صحتها، كما فهم من الآيات السابقة.

* * *

وقد ضرب النبي – ﷺ – مثلاً يوضح لنا أن الذنوب التي تبدو صغيرة لو جمعت فإنها تصير عظيمة تكفي لإحراق من في الأرض جميعاً إذا لم يتغمدهم الله برحمته. فقال: «إنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى حملوا ما انضجوا به خبزهم».

وهذا المثل منتزع من البيئة التي يعيشون فيها ، وهو مثل حي يرينا ما هو أوسع مدى وأبعد غوراً من النار التي أنضجت الخبز والتي أوقدت بمجموعة من الحطب .

أنه يرينا خطر النار التي لو استعرت في عود واحد وتركت مستعرة وسط

---

(1) الحجر: ٤٩ – ٥٠.

أعواد أخرى فإنها قد يشتد أوارها ويرتفع لهيبها حتى يبلغ عنان السماء ، ويتسع مداها حتى تأتي على الأخضر واليابس.

ومعظم النار من مستصغر الشرر.

فرب ذنب يلتقي بآخر ثم بآخر حتى تذهب الذنوب بصاحبها مذهباً لا يعود منه إلى ما كان عليه.

فإن كثرة الذنوب تذهب بنور القلب وتعكر صفوه فيقسو ويسود.

قال تعالى: ﴿ كلا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يَكسبون ﴾(١) والرين اسوداد القلب.

فمن أراد أن يجعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً فليتق الله عز وجل حيثما كان ، وليتخفف من ذنبه بقدر الإمكان ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ (٢) .

نسأل الله لنا ولكم العفو والمغفرة.

* * *

---

(١) المطففين: ١٤ .

(٢) الطلاق: ٢ ــ ٣ .

(١٢٥) أطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة

عن أبى وائل - شقيق ابن سلمة - قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان ، لقد أبلغت وأوجزت - فلو كنت تنفست ! !

فقال : إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «إن طولَ صلاةِ الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان سحراً» (١) .

*　　*　　*

الإسلام يسر لا عسر فيه ولا حرج؛ فمن تشدد فيه، أو شق على نفسه فى أمر من الأمور التى أمره الله بها، أو شق على الناس - فإن الإسلام يغلبه بسماحته ووسطيته التى لا إفراط فيها ولا تفريط .

يقول النبى - ﷺ -: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا ، وقاربوا، وأبشروا» .

فالدين هو اليسر نفسه - كما يفيده هذا الحديث - وهو بهذا اليسر يغلب كل من يغلو فيه أو يَكْلَفُ من الأعمال ما لا يطيق، أو يحمل غيره على ذلك .

وقد مضى شرح هذا الحديث فى هذا الكتاب (٢) .

ونحن الآن أمام وصية غالية ينبغى أن يضعها الخطباء نصب أعينهم ليريحوا، ويستريحوا من عناء الشطط فى التطويل الممل، الذى يسبب حرجاً للمرضى، وكبار السن، ومن له حاجة يريد أن يقضيها، أو يعزم على سفر يريد أن يدرك الوسيلة التى تبلغه المكان الذى ينوى الرحيل إليه .

وهذا الحديث يشبه الحديث الذى سبق شرحه، وهو قوله - ﷺ -: « من أمَّ بالناس فليخفف » (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم - كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة ح ٨٦٩ .

(٢) الوصية ٤٢ .　　(٣) الوصية ٢٢ .

وخطبة الجمعة تسبق الصلاة، والناس ينتظرونها وهم على وضوء، وفيهم من به عاهة تمنعه من طول الانتظار، والزحام شديد ، فلا هو يستطيع أن يصبر على حبسة الفضلات فى جوفه، ولا هو قادر على تجديد وضوئه فماذا يفعل؟! والخطيب ماض فى خطبته ينتقل من موضوع إلى موضوع، وينسى هؤلاء المرضى، وأمثالهم من ذوى الحاجات، والذين يجلسون فى الشمس ، فأى ذنبٍ هذا الذى يقترفه هذا الخطيب فى حق هؤلاء المظاليم!

إنه قد أساء وظلم، وخالف سنة النبى - ﷺ -، وبغَّض الناس فى الصلاة، والنصائح التى يسديها لهم ، وربما يترك بعض الناس صلاة الجمعة من أجل تطويل هذا الخطيب.

وفى هذا من الضرر ما فيه.

وقد قال النبى - ﷺ -: «لا ضرر ولا ضرار» (١) .

إن يوم الجمعة عيد للمسلمين يترك الناس فيه أعمالهم قبل الأذان على سبيل الاستحباب، وعند الأذان على سبيل الوجوب ، ليسمعوا كلمات تنفعهم فى دينهم ودنياهم ، ثم يصلون الجمعة ، ثم بعد ذلك يعودون إلى أعمالهم كما أمرهم الله - جل وعلا - فى قوله:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

ولو نظر هذا الخطيب الممل فى هاتين الآيتين لتعلم منهما كيف يكون التيسير على الناس فى أمور دينهم ودنياهم.

إن الله - عز وجل - لم يأمر الناس بالإتيان إلى صلاة الجمعة من أول النهار، ولا قبل الأذان بكثير، ولكن أمرهم بالإتيان إليها عند النداء تخفيفاً من طول الانتظار، ووكل ذلك إلى رغبتهم فى التبكير إليها ، فكان التبكير سنةً لا واجباً

---

(١) رواه مالك فى الموطأ وابن ماجه فى سننه.
(٢) الجمعة: ٩ - ١٠.

وبعد الصلاة مباشرة أباح لهم الانصراف إلى أعمالهم راشدين ذاكرين الله – عز وجل –، ووعدهم بالفلاح إن فعلوا ذلك الواجب، وأخذوا بالرخصة بعد الانتهاء من هذه العبادة العظيمة التى يجتمع لها الناس فى بيت من بيوت الله على الإخاء والحب والصفاء.

* * *

وراوى هذا الحديث وهو شقيق ابن سلمة يذكر أن عمار بن ياسر – رضى الله عنهما - خطب الناس – يعنى يوم الجمعة – فأوجز وأبلغ.

أى : أجاد وأفاد. فالإيجاز ضرب من الإعجاز البيانى، الذى لا يقدر على صياغته إلا الفصحاء من الناس، وأصحاب الملكات العالية، والأذواق الراقية. وهو تأدية المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة وافية بالمراد، يبلغ بها المتكلم قصده من كلامه، ويصل به إلى أعماق القلوب فى لطف وخفة وقبول.

فقول الراوى: «فأوجز وأبلغ» معناه أنه أصاب الغرض الذى يهدف إليه فى كلمات قليلة أغنت عن كلام كثير.

وعمار بن ياسر هو الشهيد الذى اشتاقت إليه الجنة، وتربى فى مدرسة محمد – ﷺ – تربية إيمانية وعلمية ، فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم ، فكان ملء السمع والبصر بين أصحاب النبى – ﷺ – وهو من السابقين إلى الإسلام هو وأخوه عبد الله وأبو ياسر، وأمه سمية، تلك الأسرة التى أبلت فى الإسلام بلاءً حسناً .

وكان إسلام عمار وصهيب الرومى – رضى الله عنهما – فى يوم واحد، وفى مكان واحد هو دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، وكان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثين رجلاً إلا قليلاً.

وقد عاش عمار أكثر من تسعين سنة نَقِيَّ السريرة، حميد السيرة، يجاهد فى سبيل الله حتى استشهد. وهو من المبشرين بالجنة – رضى الله عنه وأرضاه.

وهذا طرف من سيرته لا يغنى عن دراستها، والنظر إلى جوانبها المشرقة.

إنه لما خطب فى الناس يوم الجمعة أسر الناس بكلامه فاشتاقوا إلى المزيد، ولكن قصَّر فى الخطبة رعاية لمصالح الناس ، وتحقيقاً للسنة النبوية التى سار على نهجها الخلفاء الراشدين.

فقالوا له: «يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست» أى: أطلت النَفَسَ فى الخطبة؛ فالتنفيس معناه التطويل والتأخير.

فقال - رضى الله عنه - معلماً ومعتذراً -: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه. فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان سحراً».

وقوله - ﷺ - : «مَئِنَّة» - بفتح الميم وكسر الهمزة وتشديد النون - أى علامة من علامات فقهه ، وأمارة من أمارات فطنته ورحمته بمن يستمع إلى خطبته.

وقوله: «وإن من البيان سحراً» معناه أن البيان قدرة لغوية جذابة تقتحم القلوب بلطف وخفة فتجلو عنها الصدأ، وتطرد منها شبح النزوات والشبهات، وتؤلف القلوب على المودة والمحبة.

والخطيب من الناس من سلمت فطرته وسمت نفسه، وكان على بصيرة من ربه.

والبصيرة هى الحجة البالغة التى تأخذ بتلابيب العقول فلا يسعها إلا الاقتناع والتسليم بما يقول.

وهى تشخيص الداء ومعرفة الدواء بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (١) .

وإنى أهيب بكل خطيب أن يتبع هذه السنة النبوية، وأن يتخير من الكلام ما يناسب عقول الناس على اختلاف درجاتهم فى الثقافة والفهم، وأن يتخير الموضوع الذى يريد أن يتكلم فيه فيحصر ذهنه فى عناصره، ولا يخرج عنها

---

(١) يوسف: ١٠٨.

فتختلف به السبل فى التعبير هنا وهناك ، فيقطع صلة الناس بالموضوع الذى تعلقت أذهانهم به عند البدء فيه .

على الخطيب أن يدعم قوله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى صح نقلها عنه - ﷺ - بالسند المتصل .

وعليه أن يتبع فى أسلوبه سَنَنَ الدعاة المرشدين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم كمؤمن آل فرعون، وكالذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وهو المذكور فى سورة « يس » فإن فى أساليبهم حكمة بالغة، وملاطفة نفسية تجذب القلوب الشاردة، وترد العقول الحائرة إلى صوابها .

إن الخطابة فن مبنى على رقة الأحاسيس والمشاعر، ومعرفة أحوال الناس وأدوائهم، واختيار ما يناسبهم فى الأقوال والأفعال، وتحرى الأوقات التى يكونون فيها أكثر إصغاءً وقبولاً لما يلقى إليهم .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(١٢٦) وَيْحَكَ قطعتَ عنقَ صاحبكَ

عن أبى بكر - رضى الله عنه - أن رجلاً ذُكر عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً ، فقال النبيِ ﷺ : « ويحك قطعتَ عنقَ صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل : أحسب كذا وكذا ، إن كان يُرَى أنه كذلك وحَسِيبه الله ، ولا يُزَكِّى على الله أحداً » (١) .

* * *

المدح مدرجة للكذب ، يوقع صاحبه أحياناً بغير قصد منه فى المبالغة فى الوصف أو الخبر أو الإعجاب بالممدوح ، والمبالغة فى ذلك نوع من النفاق، والنفاق نوع من الكذب ، إن لم يكون هو الكذب نفسه .

فالمسلم الحريص على دينه ومروءته يجب عليه أن يحاذر حينما يُثنى على غيره من المبالغة فى الثناء والإطراء ، فلا يذكر إلا ما يعلم من خير ، بأسلوب مهذب لا يشم منه رائحة المداهنه أو المحاكاة للغير فيما قال ، إذ إن الكثير من الناس يرددون ما يقوله المادحون عن فلان وفلان من غير تمحيص وتحقق ، فيقعون فى لغط الحديث بجهلهم وعدم تحريهم عن صحة القول الذى نقلوه عن الغير. ومن كثر لغطه كثر غلطه كما يقولون.

فلا ينبغى أن يكون المسلم إمعة يردد ما يقوله الناس بلا وعى ولا إدراك ولا تثبت ، ولا يجنح إلى المبالغة فى تضخيم المحامد وطىِّ المثالب ، فإن تضخيم المحامد له آفات كثيرة تعود على المادح والممدوح .

فالمادح يتعرض للقيل والقال ، ويتهم بالمجاملة أو بالجهل أو بالنفاق .

وقد يفقد الناس ثقتهم به فلا يقبلون له قولاً حتى لو كان صادقاً فيه، ولا يقيمون لخبره أو وصفه وزناً ، وبهذا تسقط هيبته من نفوس الناس ويصفونه فوق ذلك كله بأوصاف أقلها أنه مداح .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب ، باب ما يكره من التمادح ج ٧ : ص ٨٧.

وقد تقدم شرح قوله ﷺ : « أحثوا فى وجوه المداحين التراب » .

والممدوح قد يغريه المدح بالتمادى فيما خفى على المادح من سوء الأدب وقبح الفعال ، فربما يكون من أصحاب النفوس الضعيفة فيغتر بما قيل له فيقع فى العُجب والرياء والخيلاء وغير ذلك مما يندرج تحت الكبر ، فيستوجب غضب الله فى الدنيا ، والآخرة فيتمنى من أعماق قلبه يوم القيامة ألا يكون قد مدحه مادح أو ذكاه على الله أحد بعلم أو بغير علم .

ومهما كان الممدوح جديراً بالثناء فإن إطراءه فى وجهه ليس محموداً فى جميع الأحوال ، وإنما يكون محموداً إذا كان المادح متأكداً من قوة إمانه وسلامة قلبه وصدق يقينه بخالقه ومولاه .

فقد كان النبى ﷺ يمدح فى وجهه ، فما كان يمنع عن ذلك ، ولكنه كان ينهى عن المبالغة فى المدح الذى يخرج به عن الحقيقة أو يتجاوز به حد الأدب مع الله عز وجل .

ولهذا قال عليه الصلاه والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »[1] .

* * *

وفى هذه الوصية التى نحن بصدد النظر فيها آداب خلقية واجتماعية ينبغى أن نضعها موضع الاعتبار فى المدح والثناء والوصف والإخبار .

فقوله – ﷺ – للرجل الذى أثنى على صاحبه بخير : « ويحك قطعت عنق صاحبك » زجر له ولأمثاله عن المبالغة فى الثناء لا عن الثناء فى ذاته دون مبالغة ، بدليل قوله : « قطعت عنق صاحبك » ، لأن الثناء المُجَرَّد عن الإطراء والمجاملة لا يُحْرِج الممدوح هذا الإحراج الذى كَنَّى عنه النبى ﷺ بقطع العنق .

---

(١) تقدم شرح هذا الحديث . وصية ٤٦ .

ولو كان المادح غير مبالغ في مدحه ما كَرَّرَ هذا الزجر مراراً ، بل كان يكتفي بمرة واحدة .

وكلمة « ويحك » تستخدم في الزجر – كما في هذا الحديث – وتستخدم في الإعجاب بما يأتي به المرء من أفعال.

وأحياناً يقولون : « وَيْلَكَ » بدلاً من « ويحك » كما جاء في مسند أحمد في رواية هذا الحديث ، ولا يقصدون بها الدعاء عليه بالويل.

وقوله : « قطعت عنق صاحبك » يدل على أن الممدوح كان حاضراً ، فمدحه له أحرجه غاية الإحراج ، لأنه مؤمن يخشى الله عز وجل ، ويتهم نفسه بالتقصير في حقه دائماً، ولا يحب أن يُعَرِّضَ نفسه لمحبطات الأعمال، فإن الإطراء يُدْخِلُ عليه شيئاً من الرياء والعجب والغرور والخيلاء والكبر ، فإذا سمع شيئاً من الثناء عليه خشي على نفسه من الوقوع في الهلكة ، فإن هذه الآفات التي يسببها الثناء قد تقطع صلته بالله عز وجل فيخسر دينه ودنياه ، فهل بعد هذا الهلاك من هلاك !! .

إن قوله – ﷺ – : « قطعت عنق صاحبك » تصوير بليغ لحال الممدوح حين مُدِحَ ، فقد كان الرجل مرفوع الرأس فلما سمع بأذنيه الثناء عليه طأطأ رأسه استحياءً كالذي يطأطئ رأسه للسَّيَّاف ، فكأنه يقول له : لو عُدتَ إلى هذا لكنت سبباً في هلاك دينه ، وهو أصعب من هلاك بدنه .

إن الرسول ﷺ يعلم أصحابه الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال ، ويغرس في نفوسهم التواضع لله وللناس من غير منقصة .

والتواضع أول صفه من صفات عباد الرحمن ، وهو أول خطوة في الطريق إلى الله .

و يُعَلِّمهم كيف يتعاملون فيما بينهم ، وكيف يقي بعضهم بعضاً من الآفات التي تُعَكِّرُ صفو الإيمان ، ويصف لهم الأدوية الناجعة للأدواء الكامنة في النفوس البشرية ، ويُحَذِّرُهم من الملق والنفاق وسوء الأخلاق بوجه عام.

وإذا خلا المرء بنفسه ووضع نفسه موضع الرجل الذى ذكاه صاحبه وبالغ فى الثناء عليه وكان ذا قلب يقظ وضمير حى - فإنه سيتحقق تماماً من هذه النظرة الخُلُقية التى أدلى بها النبى ﷺ فى هذا الحديث من غير تَكَلُّف.

إنه سيشعر حتماً بالحرج الشديد ويستحى مما ذكره المادح فى شأنه استيحاءً ربما يؤدى به إلى اعتزال الناس.

وربما يؤدى به هذا الثناء إلى العجب والغرور، والرياء وحب الظهور، إذا كان ضعيف الإيمان أو سفيه العقل.

وفى كلا الحالتين يقع عليه ضرر قد لا يُدْرَك مداه، ولا يمكن تحاشيه.

فما كان أغناه لو كف صاحبه عن مدحه فى حضرته.

هذا هو الجانب الخُلُقى الأول فى هذا الحديث.

أما الجانب الآخر فإنه يتجلى لنا بوضوح فى قوله - ﷺ - : «إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يُرَى أنه كذلك وحسيبه الله، ولا يزكى على الله أحداً».

والمعنى: أن المسلم إذا أراد أن يُثنى على صاحبه بما يظنه فيه ولم يكن من ذلك بُدٌّ فإنه لا يقطع بما يظنه فيه، فإن الحقيقة لا يعلمها إلا الله، والظن لا يغنى عن الحق شيئاً كما هو معلوم، والقلوب أوعية لا يعلم ما فيها إلا الله، والناس معادن، وللمعادن خصائص نعرف القليل منها ونجهل الأكثر، فلا ينبغى أن يقول: هو كذا وكذا بالقطع، ولكن يقول: أحسبه كذا وكذا، أى أظنه أو أُرَجِّح أنه كيت وكيت، فالظن هو إدراك الطرف الراجح فى الغالب، وقد ينقلب الظن وهماً. كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إن يتَّبعون إلا الظن وإن الظن لا يُغنى من الحق شيئاً﴾ (١).

وقوله - ﷺ - : «إن كان يُرَى أنه كذلك» - بضم الياء - معناه: إن كان يظن أنه كما قال.

---

(١) سورة النجم: ٢٨.

لكن هذا إنما يكون فى المدح ونحوه من الأخبار التى لا يتعلق بها حقوق الآخرين .

أما إذا كان الأمر يتطلب القطع فى ذكر الأوصاف فإنه لابد أن يذكر ما عَلِم ويقول فى نهاية حديثه : هذا ما أعلمه عنه.

وذلك كأن يكون شاهداً فى قضية أو مُزَكِّياً للشهود .

ومع ذلك فإنه لابد أن يأتى بالأدلة التى تفيد القطع وإلا لم تقبل شهادته ولا تزكيته للشهود .

فالشهادة ليست من قبيل المدح والثناء، ولكنها من قبيل العدل فى القضاء ، فإن الشاهد قد يكيل الثناء على صاحب الحق نصرة له، فلا يقالِ : إنه قَطَعَ عنق صاحبه حينئذ ، لأن الضرورة اقتضت ذلك .

وقوله – ﷺ – : « وحسيبه الله » معناه : محاسباً له وفق علمه به على ما يضمره فى نفسه وما يخفيه عن الناس من العيوب ، وما يقترفه فى الخفاء من الذنوب .

وهذا لقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ (١) .

فالمادح أوالذكى يختم قوله بهذه المقولة ، لكى يُخَلِّصَ نفسه من الافتيات على الله فيما هو من أخص خصائصه ، وهو العلم بمضمرات القلوب وخفايا الأمور، وكأنه يقول : قلت ما قلت ولا أدرى على وجه اليقين صحة ما قلت، ولا أدعى إنى أعلم شيئاً من الغيب ، فالعلم لله وحده، وأنا عبد أصيب وأخطئ، فإن تبين خلاف ما قلته فالخير أردت . على حد ما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ (٢) .

وقوله – ﷺ – : « ولا يزكى على الله أحداً » معناه : أنه إذا قال ما قال لا يَدَّعى أنه زكاه عند الناس طمعاً فى ثواب الله عز وجل أو رغبة فى إثارة العطف عليه وجمع القلوب على حبه.

---

(١) النساء : ٦.

(٢) يوسف : ٨١.

أو معناه : لا يقطع بأنه من الصالحين أو أنه من أهل الجنة ، فإن ذلك قول على الله بغير علم ، وهو من الكبائر ، لأنه كذب على الله وافتراء عليه ، فالله وحده هو الذى يعلم بأحوال عباده ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وقد كان النبى ﷺ لا يزكى أحداً على الله أبداً ، ولا يقطع بأن فلاناً من أهل الجنة وفلاناً من أهل النار إلا بوحى .

روى أحمد فى مسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : لما مات عثمان بن مظعون – رضى الله عنه – قالت امرأته : هنيئاً لك يا ابن مظعون الجنة فنظر رسول الله ﷺ نظرة غضب فقال : « وما يدريك » قالت : يا رسول الله ، فارسك وصاحبك . فقال رسول الله ﷺ – : « والله إنى رسول الله وما أدرى ما يفعل بى » فأشفق الناس على عثمان ، فلما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ –: « الحقى بسلفنا الصالح الخير : عثمان بن مظعون » .

وقد نهى الله عز وجل عباده عن تزكية أنفسهم ، فقال : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١) . أى فلا تمدحوا أنفسكم ولا تحمدوا فعالكم وتتمنوا بأعمالكم أن تكونوا من أهل الجنة ، ولا ترضوا لأنفسكم أن يزكيكم أحد ، ودعوا ذلك لله وحده فهو أعلم بمن اتَّقَى منكم .

وقد ذَمَّ الله الذين يزكوا أنفسهم من اليهود وغيرهم ويزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم من أهل الجنة ، فقال جل وعلا : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴾ (٢) .

وفى عصرنا هذا من يَدَّعُون ما ليس لهم من العلم والعمل ، ويفخرون بأنساب مزيفة وأحساب لا يَمُتُّون إليها بصلة ، ويتنكرون فى زى العظماء من الرجال ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ويعتقدون أن الناس يُصَدِّقونهم

---

(١) سورة النجم: ٣٢.

(٢) سورة النساء: ٤٩ – ٥٠.

فيما يَدَّعُون ويبالغون فى تعظيمهم لظهورهم بهذه المظاهر البراقة ، مع أن الناس لا يخفى عليهم أمرهم لأنه من حاول إخفاء شيء ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وقد غَرَّهُم من أنفسهم أن هناك جمعاً من الناس يظهرون الإعجاب بهم فيما يقولون وما يفعلون ، ويصفقون لهم فى كل كبيرة وصغيرة ، ويتخذون من المدائح الفارغة بضاعة يتملقون بها ، ويصوغون من الشعر القصائد المطولة، ومن النثر الخطب المرسلة ، فيكيلون الثناء جزافاً ، ويهرفون بما لا يعرفون ، وربما وصفوا بالعدالة الحكام الجائرين ، ووصفوا بالشجاعة الأغنياء الخوارين ، ابتغاء عَرَضٍ من الدنيا عند هؤلاء وأولئك .

إن هناك فرقاً شاسعاً بين الزبد الذى يذهب جفاءً وما يمكث في الأرض لمنفعة الناس ، فأين هؤلاء المتملقين من الحق وأين الحق منهم .

والناسُ أصنافٌ إذا ما أَنْتَ ذُقْتهمُو لاَ يَسْتَوُون كَمَا لاَ يَسْتَوِى الثَّمَرُ

فمنهم الذين يقولون الحق ولو كان مُرّاً ، ولا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا يسألون أحداً إلا الله ، ولا يبيعون دينهم بعَرَضٍ من الدنيا ، ومنهم من هم على النقيض من ذلك .

يقول ابن مسعود – رضى الله عنه – : «إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه من شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له ضراً ولا نفعاً فيقول له : إنك والله كيت وكيت . فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ، ثم قرأ : ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾»[1] .

* * *

وخلاصة ما ذكرناه فى شرح هذه الوصية أن مدح الأخ لأخيه فى حضوره أو فى ظهر الغيب لا يكره إلا إذا بالغ فيه وقطع به ، فإن المبالغة نوع من الكذب وباب من أبواب النفاق ، وهذا ليس من شأن المؤمن .

---

(١) رواه ابن جرير بسنده عن طارق بن شهاب.

وقد علمنا ما يترتب على المبالغة فى المدح من آفات بعضها يلحق بالمادح وبعضها يلحق بالممدوح . فالمادح يتعرض للقيل والقال والاتهام بالمحاباة والمجاملة وضعف الرأى وغير ذلك ، والممدوح يتعرض للرياء والعجب والغرور والخيلاء إن كان ضعيف الإيمان ، وهو الهلاك بعينه ، ويتعرض للإحراج الشديد والاستحياء من الناس والخوف على دينه منهم إن كان قوىّ الإيمان .

ونَتَعَلَّمُ منها - أيضاً - أننا إذا اضطررنا إلى الثناء على أحد أن نقول : نحسبه كذا وكذا ، والله حسيبه ، ولا نزكى على الله أحداً . ونحو ذلك من الكلام الذى لا يفيد القطع ولا ينافى الأدب مع الله عز وجل .

واعلم - أيها الأخ المسلم - أن الأدب مع الله مقام من أعظم المقامات ، لا يصل إليه إلا من أخذ من العلم بحظ وافر ، وبدأ الطريق إليه بالتوبة والتواضع وإظهار الافتقار إليه فى جميع الأحوال .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

*　　*　　*

(١٢٧) لا يقضينَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان

عن عبد الرحمن بن أبى بكرة قال : كتب أبو بكرة إلى ابنه وكان بسَجِسْتان بأن لا تقضى بين اثنين وأنت غضبان ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يقضينَّ حكم بين اثنين وهو غضبان» (١) .

* * *

الحكم الذى ينصبه الناس فى القضاء فيما بينهم هو رجل اجتمعت له عشر خصال :

الأولى : أن يكون ذا عقل ذكى لماح ، يفطن إلى مواطن الخير والإصلاح فيدعو إليها من يرغب فيها بأسلوب بليغ يأخذ بمجامع القلوب .

الثانية : أن يكون ذا رأى رشيد نابع من قلبه اليقظ وضميره الحى، يدعمه بقول سديد يسد مسده ويصيب موضعه .

الثالثة : أن يكون ذا تجربة واعية فى القضاء بين الناس يستطيع بها أن يميز بين الصواب والخطأ ، فالتجربة وليدة الواقع الملموس لا يخطئ صاحبها فى الأمور التى عرفها عن طريقها .

الرابعة : أن يكون ذا خبرة واسعة بأحوال الناس وأخلاقهم وعاداتهم وحيلهم فى التلبيس والتدليس .

الخامسة : أن يكون على علم غزير بأحكام الشريعة حتى تقع أحكامه موافقة لها . فالحكم لا يصح حكمه بمقتضى العقل ولكن يصح حكمه بمقتضى الشرع ، والشرع لا يتناقض مع العقل .

السادسة : أن يكون حكيماً فى تصرفاته مع الخصوم ، فيهدئ من روع المظلوم، ويقسو بعض القسوة على الظالم ، فيقول بلسان حاله ومقاله للخصوم ما قاله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : الضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه. كتاب الأحكام باب / هل يقتضى الحاكم أويفتى وهو غضبان ١٣ .

السابعة : أن يكون الحاكم قوى الشخصية يهابه الصغير والكبير ، ويجله الأخيار من الرجال؛ فإن الناس لا يستمعون لمن لا يعجبهم سمته وتخجلهم نظراته ويأسرهم برجاحة عقله وثاقب فكره وعظيم همته وكمال وعيه وانتباهه .

الثامنة : أن يكون الحكم ذا نسب شريف وأدب رفيع، فإن ذلك يحمل الناس على تحكيمه والرضا بحكمه .

التاسعة : أن يكون رجلاً صالحاً يتقى الله حيث كان، ويخشاه فى أقواله وأفعاله فإنه من أطاع الله أطاعه الناس ووثقوا فى حكمه واطمأنوا إلى عدله .

العاشرة : أن يكون بطىء الغضب سريع الفىء كما هو شأن المؤمن دائماً. وإذا غضب لا يغضب إلا لحق .

* * *

ولا يحكم الحكم الذى اجتمعت فيه هذه الخصال العشرة وهو غضبان .

وذلك لأن الغضب حالة من الحالات التى يفقد فيها المرء جزءاً كبيراً من عقله ووعيه ، ويعوقه عن التفكير فيما هو بصدده ، فلا يصدر عنه ما ينتظر منه من رأى سديد وحكم رشيد ، وفى هذه الحالة لا يصلح حاكماً ، وبالتالى لا يحكم فى شىء حتى يذهب غضبه تماماً ويعود إليه حلمه وأناته وسعة صدره .

إن الغضب إذا اشتد ملك على الإنسان عقله ، فصدر منه ما يصدر عن المجنون فلا يعتد بما صدر عنه من أقوال وأفعال إلا فى غُرم ما أتلفه من أملاك الناس وعندئذ ينسب قوله وفعله إلى الغضب ولا ينسب إليه ، فقد قص القرآن علينا ما فعله موسى بأخيه هارون عليهما السلام، وهو رسول مثله وأكبر منه بعام، وذلك حين رأى قومه قد عبدوا العجل من بعده ، فنسب الله فعله كله إلى الغضب .

فقال جل وعلا : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ (١) .

* * *

---

(١) الأعراف : ١٥٤ .

فإذا قضى القاضى وهو غضبان لم يقع حكمه صحيحاً، وعليه أن يعود إلى النظر فى القضية مرة ثانية إن كان قد ولاه إمام المسلمين.

أما إن كان قد حكمه الخصوم فيما بينهم فحكم وهو غضبان فلا يقبلونه حكماً بعد ذلك ، وحكموا غيره ممن اجتمعت فيه الخصال العشرة.

واعلم أن أنواع الغضب ثلاثة :

الأول : غضب شديد ، وهو الذى يفقد الإنسان معه وعيه فلا يدرى ما يفعل، ولا ما يقول. ويسمى هذا النوع من الغضب بالإغلاق، وقد جاء فى الحديث الصحيصح : «لا طلاق فى إغلاق».

والثانى : غضب خفيف ، وهو غير مؤثر بالنسبة لحكم الحاكم ، والطلاق يقع به وهو فى حكم العدم ؛ لأن توقيه يصعب على من خالط الناس – ولاسيما الخصوم منهم – وكثرت عنده القضايا التى كُلّف البت فيها.

والثالث من أنواع الغضب : الغضب المتوسط ، وهو نوعان:

نوع إلى الشديد أقرب ، فيلحق به.

ونوع إلى الخفيف أقرب ، فيلحق به.

* * *

ويقاس على الغضبان : الجائع والعطشان ، والحاقن : وهو من حبس البول، والحاقب : وهو من حبس البراز ، والحاذق : وهو من حبس الريح.

ويقاس على الغضبان أيضاً : من عضه الفقر وكثرت عياله وانتابه الهم والحزن.

ومن باب أولى من اشتد مرضه الجسمى أو النفسى ، وكذلك من اشتد خوفه على نفسه أو على عياله إذا حكم على فلان بالعدل ، فإن هذه الأمور ونحوها يعكر صفو الحَكم ويؤثر فى عدالة الحُكم قطعاً.

* * *

ومن الخير لك أيها المسلم ألا تحكم بين اثنين إلا إذا لم تجد من ذلك بداً.

وإذا حكمت بين الناس فتحرى الدقة - ما أمكن - فى معرفة الحُجج والبينات وتعرف على الظالم والمظلوم من لحن قوله، ومكن صاحب الحق من الدفاع عن حقه، وانتظر حتى ينتهى من كلامه وعرض قضيته ولو أطال فى ذلك. والتمس له العذر إن دفعه الغضب إلى التجاوز فى القول؛ فإن لصاحب الحق مقالاً. كما قال الرسول ﷺ.

ومكن المدعى عليه أيضاً من الدفاع عن نفسه، ثم وازن بين الأقوال والحُجج، واستعن بالله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

وليكن معك ساعة الحكم عقلك وعلمك وحلمك، واجتنب الغضب وما يؤدى إليه. واعتبر بما جاء فى هذه الوصية، وضعها نصب عينيك فى شأنك كله.

وكن عند حسن ظن الناس بك، واعمل بوصية عمر بن الخطاب إلى أبى موسى - رضى الله عنهما - ؛ فهى وصية جمعت أصول الحكم كلها.

فقد كتب إليه: «أما بعد، فإن القضاءَ فريضة مُحْكَمة، وسنة متبعة، فافْهَم إذا أُدلى إليك؛ فإنه لا يَنْفعُ تَكلُّمٌ بحق لا نفاذ له، آس الناسَ فى مَجْلسِك وفى وَجْهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك [1]، ولا يَيْأس ضعيف من عدلك.

البينة على المدعى، واليمين على من أنكر، والصلحُ جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحَلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً.

ومن ادَّعَى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمَداً ينتهى إليه، فإن بَيَّنه أعطيته بحقه، وإن أعْجزَه ذلك اسْتَحْلَلْتَ عليه القضية؛ فإن ذلك هو أبلغ فى العُذْر وأجْلَى للعَمَاء.

ولا يمنعنَّكَ قضاء قضيت فيه اليوم فراجعْتَ فيه رأيَكَ فهُديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق؛ فإن الحق قديم لا يُبْطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

---

(١) جورك.

والمسلمون عُدُول بعضُهم على بعض، إلا مجرباً عليه شهادة زور، أو مَجْلُوداً فى حَدٍّ، أو ظنيناً[1] فى ولاء أو قرابة؛ فإن الله تعالى تَوَلَّى من العباد السرائر، وسَتر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان.

ثم الفَهْمَ الفَهْمَ فيما أدلى إليك مما ورَدَ عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة، ثم قايسِ الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحَبِّها إلى الله وأشبهها بالحق.

وإياك والغضب والقلق والضَّجَر، والتأذى بالناس، والتنكر عند الخصومة؛ فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس.

ومن تَزَيَّنَ بما ليس فى نفسه شَانَه الله، فإن الله تعالى لا يَقْبَلُ من العباد إلا ما كان خالصاً.

فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله».

قال ابن القيم فى أعلام الموقعين: «وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول، وبَنَوْا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتى أحْوَجُ شىء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه».

وقد بنى ابن القيم - رحمه الله - كتابه أعلام الموقعين على هذه الوصية العمرية التى استمدها من رسول الله - ﷺ - وترجمها بأسلوبه الخاص، وأحالها إلى واقع ملموس فى خلافته. فكان مثلاً فى العدل بين الرعية.

وبعد، فهذا ما وسعنا ذكره فى هذه الوصية.

وقد تكلمنا عن الغضب وآثاره فى الجزء الأول من هذا الكتاب[2] وقلنا: (إن العاقل من يتريث فى الأمور، ويحسب للعواقب حسابها، ولا يقدم على

---

(١) متهماً.

(٢) الوصية رقم ١١.

شيء ولا يحجم عنه إلا بحكمة. فلا يجبن حين يستلزم الأمر إقداماً، ولا يتهور حين يستلزم الأمر إحجاماً؛ فالفضيلة وسط بين رذيلتين.

وإذا أوتي المرء الحكمة لا تدفعه المثيرات إلى فعل ما لا تحمد عواقبه؛ فإن المثيرات تسلب الإنسان لبه – أحياناً – فيفقد توازنه فيتصرف تصرف الحمقى أو المجانين؛ لهذا كان قول النبي – ﷺ – لرجل يريد أن يوصيه بوصيه نافعة: «لا تغضب»[1] فكان درساً جامعاً للحكمة من أطرافها.

فمن ترك الغضب وتحلى بالعلم فقد استمسك بالعروة الوثقى وتسلح بسلاح لا يقهر، وأمن على نفسه من الوقوع في مواطن الزلل والهلكة ...) إلى آخر ما قلناه هناك.

والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

(١) رواه مالك في الموطأ وابن ماجه في سننه.

(١٢٨) الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ

عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، عن النبى ﷺ قال « إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُون ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ ، فإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ كانت فى النساء »(١) .

* * *

الدنيا تحمد وتذم لا باعتبار الزمن ، ولكن باعتبار العمل الذى يقوم به أهلها ؛ فإن منهم من يعمل لها فحسب ، ولا يعمل للآخرة شيئاً .

ومنهم من يعمل للآخرة عملاً لا يبلغه المنزل الذى يسعى إليه الأبرار ، ويجعل الدنيا مبلغ همه ، ومنتهى أمله .

ومنهم من يسعى لها سعيها ، ولا يبالى بالدنيا أقبلت عليه أم أدبرت عنه .

وأنت خبيرٌ – بعد هذا التقسيم – من يحمد فيها ومن يذم .

فلا يقال : الدنيا شر محض ، ولكن يقال : الدنيا مزرعة للآخرة ، فمن جد فيها وجد ، ومن زرع حصد .

هو رأس ماله إن شاء انتفع به ، وإن شاء جعله وبالاً عليه .

والحياة الدنيا مليئة بالحيوية ، وفى العيش فيها حلاوة ، لكنها عاجلة .

فمن شاء أخذ منها ما يحلو له ويستمتع به .

ومن شاء حرم نفسه من متاعها بأى حجة من الحجج التى قد لا تُسَلَّم له .

فقد يدعى الزهد رجل وهو عنه بمعزل .

وقد يتكاسل رجل عن العمل ويرضى بالكفاف ويقول : « القناعة كنز لا يفنى » وهو حق أريد به باطل .

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، حديث رقم: ٢٧٤٢ .

فقد استعاذ النبي ﷺ من العجز والكسل وأمرنا أن نستعيذ منهما ومما ينشأ عنهما ويلازمهما .

فقال لأبى أمامة الأنصارى : قل حين تمسى وحين تصبح : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » (١) .

وقد يقول قائل : لقد مضى من العمر أكثره وأصبحت شيخاً كبيراً ، فلماذا أعمل ؟! .. وهو مخطئ بكل المقاييس؛ فقد قال النبي ﷺ : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (٢) .

* * *

فقوله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة » يفيد أمرين :-

الأول : أن لها حلاوة ما ، على نحو ما ، بقدر ما ، لشخص ما ، في زمن ما ينبغي أن يتمتع المؤمن بقدر ما يكتب الله له منها ، ويشكر ربه على ما آتاه من فضله ، فالبشكر تزداد النعم .

الأمر الثاني : أنها سريعة الزوال ، لأن الخضرة لا تلبث أن تفسد أو تيبس أو تضمحل . فليأخذ المرء حظه منها ، ويرضى به ، فالرضا أعظم المقامات الإيمانية على الإطلاق ، ليس بعده مقام يطلب . والراضون هم خير البرية ، وهم الذين بدأهم الله بالرضا ، فكان الفضل منه أولاً وآخراً .

واقرأ بتأمل - إن شئت - قول الله تبارك وتعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾ (٣) .

* * *

---

(١) تقدم شرح هذا الحديث ، وصية رقم ٨٨ .

(٢) قال المناوي في فيض القدير: رواه أحمد في المسند، والبخاري في الأدب المفرد، والبزار، والطيالسى، والديلمي عن أنس. قال الهيثمي: رجاله ثقات وأثبات.
والفسيلة جمعها فسائل، وهو صغار النخل.

(٣) البينة: ٧ - ٨.

وقوله - ﷺ - : « وإن الله مستخلفكم فيها » معناه أن الله تبارك وتعالى قد خلق آدم وذريته لعمارة الأرض وإصلاحها مع التفرغ لعبادته والإخلاص فيها ، واعتبار العمل الصالح جزءاً منها .

وإصلاح الأرض وعمارتها عمل صالح يقوم على التوحيد الخالص ، وبذلك يكون لهذا العمل قدرة وقيمة ، وإلاَّ كان هباءً لا خير فيه ، ولا طائل تحته .

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (١) .

ومعنى محياى ومماتى ما فيهما من عمل ، فإن العمل فى الحياة قد تمتد آثاره ويكتب لصاحبه بعد مماته ، وهو ما يسمى بالحسنات الجارية : كعلم ينتفع الناس به ، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية .

فهذه الأعمال تبقى لصاحبها إلى أن تنتهى آثارها . يقول الله عز وجل: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارَهُم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ (٢) .

ويقول النبى ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده ، كتب له مثل أجرها وأجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » (٣) .

والخلافة فى الأرض وظيفة للبشر، ورفع لمكانتهم بين سائر المخلوقات فضلاً من الله ونعمة.

فقد خلق الله آدم - عليه السلام - وزوده بالعقل والعلم، وأسجد له ملائكته، وخلق منه ذريته، وأمدهم بما أمده به من العقل والعلم، ورفع من شأنهم بالتكاليف الشرعية، ووعدهم على الطاعة والإصلاح جنة عرضها السماوات والأرض.

---

(١) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.   (٢) يس: ١٢.

(٣) رواه مسلم فى كتاب العلم، حديث: ١٠١٧ من حديث طويل.

﴿ ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (١) .

* * *

وقوله – ﷺ – : « فينظر كيف تعملون » . معناه : فيكتب عملكم ويحصيه لكم ويجزيكم به . هذا هو المعنى اللائق بجلاله، فهو يعلم أحوال عباده فلا يحتاج إلى نظر ولا استدلال .

وقد جعل الله لعباده مشيئة واختياراً لا يخرج عن مشيئته واختياره – جل شأنه –، فمن أراد الهدى هداه الله، ومن أراد الضلال أضله الله .

قال تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢) .

وقال عز شأنه : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (٤) .

* * *

وقوله – ﷺ –: « فاتقوا الدنيا » أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من غرورها وخداعها بالزهد فيها، والكف عن الغلو فى طلبها، واجعلوها لأنفسكم دار ممر ولا تجعلوها دار مقر، واستعينوا على ذلك بطاعة الله تعالى وبكثرة الذكر والدعاء، ولا تتنافسوا فيها مع المتنافسين، واتركوها لهم إن غلبوكم عليها، واجعلوها مزرعة للآخرة ومنطلقاً إليها، ولا تنسوا نصيبكم منها، والزموا العدل والوسطية فى مأكلكم ومشربكم وملبسكم وفى شأنكم كله، وأكثروا من ذكر الموت وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا .

كل هذه الأمور يجمعها قوله – ﷺ –: « فاتقوا الدنيا » .

* * *

---

(١) الإسراء : ٧٠ .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) محمد : ١٧ .
(٤) فصلت : ١٧ .

وقوله ﷺ : «واتقوا النساء» هو من باب عطف الخاص على العام؛ فإن النساء من خير متاع الدنيا، ولهذا بدأ الله بهن في ذكر متاعها.

فقال عز وجل: ﴿ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (١) .

والنساء فتنة للرجال وفتنة لأنفسهن أيضاً ، وذلك حين تغتر بجمالها أو مالها أو حسبها، وترى أنها خير نساء الدنيا، ويخدعها الثناء عليها، وتفتتن بالرجال كما يفتتن الرجال بها، ولكنه وَجَّه الأمر في هذه الوصية للرجال؛ لأن فتنتهن لهم أكثر من فتنتهم لهن في الغالب.

* * *

وقوله - ﷺ -: «فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» تعليل وتوكيد لهذا الأمر وتذكير لهم بأن هذه الفتنة لم ينج منهما أحد، وأن بني إسرائيل قد ابتلوا بنارها ، فكانوا يجعلون النساء مبلغ أمرهم ومحط أنظارهم ومنتهى بغيتهم، فقتل بعضهم بعضاً بسبب التنافس عليهن والوقوع في حبالهن والتفاني في الاستمتاع بهن بالطرق غير المشروعة.

* * *

وبعد ، فإن هذه الوصية لها مقدمة وخاتمة.

أما مقدمتها فتعريف بقيمة الدنيا ومنزلتها عند الأبرار وعند الفجار، وتذكير بسرعة زوالها، وبيان لوظيفة الناس فيها .

وأما الخاتمة: فإنها تذكير بما كان عليه بنو إسرائيل من عشق النساء والافتتان بهن والتفنن في التنافس عليهن، وقد أمرنا بمخالفتهم ونهينا عن التشبه بهم في عاداتهم ومعاملاتهم؛ لأنهم قوم سوء ما عرفت البشرية أخبث منهم، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً وهم قليل.

ولنا في ذكر مساويهم حديث طويل يأتي في وصية أخرى إن شاء الله تعالى.

وعلى الله قصد السبيل.

* * *

---

(١) آل عمران: ١٤.

(١٢٩) حكم وصية المسلم فيما له وعليه

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «ما حَقُّ امرئ مسلم له شئٌ يُوصِى فيه يبيت لَيْلَتين إلاَّ ووَصِيَّتُهُ مكتوبةٌ عِنْدَهُ»(١) .

*　*　*

الموت يأتى بغتة لا يدرى الأنسان متى ينزل به ، فإذا لم يوص فى ماله بما يحفظه على ورثته فقد ضَيَّعَ حقهم وفَرَّطَ فى واجبه نحوهم ، وأساء إلى نفسه بتَحَمُّل هذا الوزر ، وهو راع فى بيته ، وكل راع مسئول عن رعيته .

فلا بد أن يوصى أهله فى المال الذى يريد أن يوصى فيه من أجل حفظه على نفسه وعلى أولاده وسائر ورثته، فيقول : لى عند فلان كذا وكذا ، وفى المكان الفلانى كذا وكذا ، وعَلَىَّ لفلان كذا وكذا ؛ حتى يتمكن ورثته من إحصاء ما عليهم من التركة والقيام بواجبهم فيها على النحو المشروع .

وهذه الوصية واجبة على الصحيح من أقوال الفقهاء ، إذا كان المال كثيراً، وأوجبها بعض الفقهاء بالقليل والكثير أخذاً بظاهر هذا الحديث .

والإيصاء نوعان : إيصاء بما له وما عليه، وإخبار بالمكان الذى فيه المال كما أشرنا . وإيصاء لمن يريد أن يوصى له بشىء من غير الورثة ، فيقول : أعطوا فلاناً كذا وفلاناً كذا - فى حدود الثلث - فإذا كان يريد ذلك فليعجل به قبل أن يموت أو يعجز عن الإيصاء . وخير البر عاجله .

هذه مقدمة ضرورية لفهم هذا الحديث ، وتمهيد لذكر ما اشتمل عليه من فوائد .

*　*　*

---

(١) أخرجه البخارى ، فى كتاب الوصيا ، باب (١) .

قوله – ﷺ – : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى به » يفيد القليل والكثير؛ لأن الشيء لفظ يطلق ويراد به الموجود عنده من مال ومتاع . ولكن ورد فى حديث آخر عن مالك رحمه الله : « ما حق امرئ مسلم له مال » .

والمال يطلق على الكثير غالباً ،والكثير أمر نسبى ، فما يراه الأغنياء قليلاً قد يراه الفقراء كثيراً .

والوصية فى الغالب إنما تكون من سعة ، فيحمل الشيء فى الحديث الذى معنا على المال الذى يراه صاحبه كثيراً ، فيجعل لنفسه منه نصيباً فى الآخرة ، ولا يتركه كله للورثة يتمتعون به ويُسأل هو عنه : من أين جمعه ، وكيف جمعه ولماذا لم ينفق منه هنا وهناك ؟ . ومن نوقش الحساب هلك .

وقوله : « يوصى فيه » معناه يستحق أن يوصى فيه لكثرته ، ويحتمل أن يكون المراد : وأراد أن يوصى فيه . كما صرحت بذلك رواية مسلم فى صحيحه، قال – عليه الصلاة والسلام – : « ما حق امرئٍ مسلم ، له شيء يريد أن يوصى فيه، يبيت ليلتين » الخ .

وقوله – ﷺ – : « يبيت ليلتين » ليس على وجه التحديد بل على وجه التقريب ، وذلك لمارواه مسلم فى صحيحه قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه ، يبيت ثلاث ليال » الخ .

فالعدد لا مفهوم له لكنه يرشد إلى وجوب المسارعة فى كتابة الوصية ، خوفاً من أن يحول بينه وبينها حائل ، والدهر ذو غِيَرٌ ، فقد تعتريه ساعة بخل فيقرر عدم الإيصاء ، وربما يغضبه من يريد أن يوصى له فيعدل عن الوصية ويقسم على ذلك . والشيطان للإنسان عدو مضل مبين .

وقد يسافر سفراً طويلاً فينسى من كان يريد أن يوصى له ، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب . وقد يفتقر فلا يكون معه ما يوصى له به . وربما لو أوصى لم يفتقر ، لأن الله هو الأكرم وهو مع الكريم بعفوه ورحمته وفضله .

فكان من الخير له أن يعجل بالوصية ويكتبها فى كتاب يكون معروفاً لدى من يعنيهم الأمر . فما كتب لا يسوغ إنكاره .

وقوله - ﷺ - : «إلا وَوَصِيَّتُه مكتوبة عنده» أمرٌ أحيط بأسلوب بليغ، وهو ما يُسَمَّى عند البلاغين بأسلوب القصر، أى لا يكن أحدكم له مال من شأنه أن يوصى فيه لكثرته ، أو أراد أن يوصى فيه بِغَضِّ النظر عن كثرته وقلته - إلاَّ أوصى فيه ، وكتب وصيته عنده فى أقرب وقت ممكن.

فهو بمنزلة قوله : ليكتب كل واحد منكم وصيته ويجعلها قريبة منه، ويخبر بها من يعنيهم الأمر، ولا يهمل فى ذلك فيكون آثماً مقصراً فى حق نفسه وحَقِّ من يريد أن يوصى له ، وفى حق الورثة إذا كان له مال هنا وهناك .

فقولى لك - مثلاً - : ما جئتَ إلى بلدى يوماً إلا وزرتنى .أى إلا وجبت عليك زيارتى ، أو زرنى كلما جئت إلى بلدى، فزيارتك لى واجبة ، فهو أبلغ من قوله : زرنى .

والواو فى قوله: «إلا ووصيته» واو الحال ، أى إلا والحال أن وصيته مكتوبة عنده.

والحال صفة تؤكد المعنى وتقويه ، وتجعله كأنه أمر مفروغ منه. فما أبلغ هذا الأسلوب وما أعذبه ، يحمل من المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة يستطيع كل من له خبرة فى فنون المقال وأساليب البيان أن يستنبط منه ما وسعه الاستنباط ، ويبقى لمن يعاصره أو يأتى بعده ما يمكنه استنباطه فوق ما وفق إليه .

والبلاغة النبوية لا يدانيها فى عظمتها أساليب العظماء من الأدباء ، فهى دون بلاغة القرآن وفوق بلاغة البلغاء متفرقين ومجتمعين .

* * *

ولو أردنا أن نتعمق فى فهم أسلوب هذا الحديث ، لوجدنا فيه فوق ما ذكرناه لطائف منها:

١ - فى قوله : « ما حق » سلب الحق ممن قَصَّرَ فى الوصية أو أخرها عن وقت الإمكان ، فهو أبلغ من قولك : لا ينبغى أو لا يجوز .

وهذا اللفظ فيه عتاب لطيف لأصحاب الأموال الذين يكنزون أموالهم بعيداً عن زوجاتهم وأولادهم لأى أمر فى أنفسهم ، مع أن المال فى الحقيقة عما قليل سيكون لغيره .

وعتاب ألطف منه لمن له مال ولا يوصى فيه فى حدود الثلث، فيفوت على نفسه خيراً كثيراً ، يجزى عليه فى الدنيا والآخرة .

والله – عز وجل – قد جعل للمسلم حق التصرف فى ماله فى حدود الثلث ولو فى مرض موته ، صدقه عليه ، فلماذا لا يقبل صدقة الله التى تَصَدَّقَ بها عليه؟

فى الحقيقة ليس له حق فى ذلك ، إنه تقصير كبير فى حق النفس ، وهى إلى ما تُقَدِّمُهُ أحوج .

أنا إذا أردت أن أعاتبك فى أمر يتلعق بك أقول لك : يا فلان ، ليس لك حق فى إرهاق نفسك ، أو فى التقليل من طعامك وشرابك والإهمال فى صحتك. فهذاعتاب لطيف من أولى الحب و الرحمة . فتأمل ذلك ولا تغفل عنه: « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » كما قال رسول الله ﷺ .

٢ – وقوله : « مسلم » بعد قوله « ما حق امرئ » يدل على التخصيص بعد التعميم ، فيكون التعميم مراداً أيضاً ، لكن مع صرف الهمة إلى خطاب المسلم بالذات ، لأنه هو الذى يقبل النصح ويمتثل الأمر ، ويثاب على فعله ويعاقب على تركه ، لكن لو نظر الكافر فيه وعمل به ، نفعه ذلك فى دنياه .

فكلام الرسول ﷺ : حكمة ينتفع بها الناس جميعاً ، إلا أن الكافر ينتفع بها فى الدنيا ولا ينتفع بها فى الآخرة .

ولو لم يكن التعميم مراداً لقال – ﷺ – : ماحق المسلم؛ لأن البلاغة تقتضى حذف ما لا حاجة لذكره .

٣ – وقوله : « يوصى فيه » أولى من قوله: يوصى به ؛ فإن الوصية فى الشىء تعنى فى جزء من أجزائه، أو فى بعض دون بعض. فلو قال: يوصى به – لتوهم متوهم أن الوصية تكون بجميع ما يملكه.

وقوله : « مكتوبة عنده » يدل على قرب الوصية منه ، فيكون من السهل عليه أن يزيد فيها أو ينقص منها أو يجعلها لأكثر من واحد ؛ لأنها إذا لم تكن عنده قد لا يتمكن من ذلك ، ولا سيما إذا كانت عند من أوصى له .

وأيضاً لتكون قريبة ممن يعنيهم الأمر كما أشرنا من قبل .

فنحن فى حاجة – والله – لدراسة الحديث النبوى على هذا النحو ، لا على النحو المذكور فى كثير من الكتب ، التى اهتم أصحابها بالإعراب وذكر الخلاف والإكثار من قيل وقال .

نعم نحن فى حاجة إلى فقه الحديث ، والتعمق فيه وأخذ العبرة منه لحاضرنا ومستقبلنا .

نسأل الله أن يفقهنا فى الدين ويعلمنا التأويل .

* * *

(١٣٠) فاظفر بذات الدين

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسـول الله - ﷺ - قـال : «تُنكحُ المرأةُ لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك» (١) .

*　　*　　*

الزواج مطلب من أسمى المطالب العلية لما فيه من حفظ النسل، واستقرار الحياة البشرية على الأرض فى وضع يتمكن فيه الإنسان من عمارتها وإصلاحها على النحو الذى أراده الخالق - عز وجل - .

فالمرأة والرجل شريكان فى هذه الخلافة يتعاونان معاً فى إقامة حدود الله، وتأدية ما افترض الله عليهما، بحيث يكون كل منهما رِدْءاً للآخر فى تحقيق ما يصبو إليه كل منهما، وشريكاً له فى تحمل تبعات الحياة بقدر طاقته البشرية .

ولكى يستطيع كل منهما أن يقوم بواجبه نحو الآخر كان لا بد لكل منهما أن يتخير من يألفه قلبه، ويميل إليه طبعه، وتسكن إليه نفسه، ويجد فيه أنسه وسلواه، ويرى فيه من المحاسن ما يحمله على الزواج منه، والاقتران به فى بيت واحد يسمى بيت الزوجية، ويكفل لهما الحياة الكريمة فى جو هَادِئ يسوده الحب والوفاء، ويعمه الأمن والرخاء .

ولو ترك المرء لفطرته لأحسن الاختيار؛ فإنه لا يختار حينئذ إلا من ائتلفت روحه بروحه، واتفقت طباعه مع طباعه، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف كما قال رسول الله - ﷺ (٢) .

ولكن الإنسان قد تتخطفه الشياطين فتهوى به إلى مكان سحيق فيضل

---

(١) رواه البخارى فى النكاح، باب الأكفاء فى الدين ٩ / ١١٥ ، ومسلم فى الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين ١٤٦٦ وغيرهما .

(٢) الحديث أخرجه البخارى .

ويذل ويخطئ الطريق، أو تتلاعب به الأهواء فتنسيه خصائص فطرته فيرغب عن متطلباتها كلها أو بعضها، فيتخبط فى الحياة ولا يحسن الاختيار فى كثير من الأمور ، فيقع فيما يُرْديه فيندم حيث لا ينفعه الندم.

فالرجل مثلاً عندما يرغب فى الزواج تتناوشه عدة أغراض فى المرأة التى يريد الزواج منها ، بعضها بالنسبة له أولى والآخر ثانوى.

فمنهم من جعل المال هو أساس الاختيار، ومنهم من يجعل الجمال هو الأساس، ومنهم من يجعل النسب هو الأساس، ومنهم من يجعل الدين هو الأساس وما سواه تبعاً له، فأيهم المخطئ وأيهم المصيب؟.

فى هذا الحديث جواب عن هذا السؤال مقرون بوصية غالية فيها الخير كله للأفراد والأسر والمجتمعات، وهى قوله: « فاظفر بذات الدين تربت يداك ».

والرسول - ﷺ - معلم حكيم، لا يلقى بهذه الوصية دون مقدمات تمهد الطريق لها بأسلوب يعمقها فى النفوس المؤمنة ، بحيث لا يسعها إلا قبولها والعمل بها. فهو يقدر الأغراض العامة التى من أجلها تنكح المرأة ويجعل الدين آخرها ليرتب عليه هذه الوصية ؛ حتى يعلو الدين فى نظر الناس عن سائر الأغراض المذكورة قبله ، وهو فن من فنون البلاغة عجيب ينبغى أن نتعلم منه كيف نعمق المفاهيم الصحيحة فى عقول الناس وندعوهم إلى التأمل والنظر فيما ألقى إليهم ليختاروا من الأمور أحسنها وأنفعها بثقة وقناعة.

* * *

فقوله - ﷺ - : « تنكح المرأة لأربع » كلام مجمل فَصَّلَه بقوله: « لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها »، والتفصيل بعد الإجمال فيه دفع للتوهم والإشكال، وإزالة لما قد يعترى العقول من لَبْسٍ واشتباه.

وهذه الأمور الأربعة ليست هى كل الأغراض التى من أجلها تنكح المرأة، وإنما هى أصولها العامة. ولو كان يريد الحصر لقال : إنما تنكح المرأة لأربع.

ولا شك أن هناك أغراضاً أخرى يبتغيها الرجل فى المرأة عند الاختيار، بعضها لنفسه، وبعضها لله - عز وجل.

فهناك من يرغب في المرأة المثقفة ثقافة دينية أو دنيوية أو هما معاً.

وهناك من يتزوج أم اليتامى ليعولها ويعولهم ويحسن إليهم؛ رغبة في الثواب العظيم.

بل هناك من يتزوج العانس رغبة في التخفيف عنها والإنعام عليها.

وهناك من يتزوج المرأة لتربية أولاده من غيرها.. إلى غير ذلك من الأغراض التي نعرفها.

لكن هذه الأغراض الأربعة المذكورة في الحديث هي التي يضعها الأزواج في الغالب موضع الاعتبار.

فالمال خَضِرة حلوة يتطلع إليها الرجال والنساء، فهو يرغب فيها وهي ترغب فيه من أجله – أليس هو عصب الحياة وشريانها الحيوي وعمودها الفقري؟!

إنه كذلك حقاً. لا يشك في ذلك أحد.

وما أحسن ما قال شوقي:

إن الدراهم في الأماكنِ كلها ... تكسو الرجالَ مهابةً وجمالاً

فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السلاح لمن أراد قتالاً

إن الغني إذا تكلم بالخطا ... قالوا أصبت وصدقوا ما قالاً

وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالاً

والواقع يشهد أن طلب المال ضرورة لابد منها، والدين يحتم طلبه بشدة؛ لأن منهجه يقوم على الواقع ويلبي رغبات الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم في قواعد كلية يندرج تحتها من الجزئيات ما لا ينحصر.

من هذه القواعد قوله تعالى: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ (١).

وقوله جل شأنه: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (٢).

---

(١) القصص: من الآية ٧٧.

(٢) الملك: ١٥.

وقوله عز من قائل: ﴿وإذا قُضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ (١) .

أى وابتغوا من رزق الله بالتجارة والصناعة ونحوها من الأعمال.

وبنى الإسلام على طلب المال أحكاماً كثيرة منها ما يوافق موضوع هذا الحديث.

كقوله جل شأنه فى سورة النور: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيَهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ (٢) .

فالرجل إذا لم يجد نفقات الزواج فلا يقدم عليه، وليصبر حتى يغنيه الله من فضله العظيم بالسعى والتكسب.

وقد وضح النبى - ﷺ - هذا المفهوم بقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج. فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (٣) .

والباءة هى القدرة على النفقة وتأدية الحقوق الجنسية.

والرجل أحياناً يرغب فى المرأة ذات المال لينتفع به هو وأولاده منها، وقد لا تمكنه المرأة من ذلك فيكون بخلها عليه سبباً فى الشقاق بينهما غالباً، وربما تطغى عليه بمالها، وتمن عليه بما تعطيه منه وتشعره بأنه ليس رجلاً كالرجال، فمن شأن الرجل أن يعطى وليس من شأنه أن يأخذ.

والمرأة المَنَّانَةُ شر لا يطاق، والرجل لو كان يسمع أو يعقل ما وقع فى حبالها، لكنه الطمع الذى يعمى ويصم.

ولقد قال النبى - ﷺ: «عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر» (٤) .

---

(١) الجمعة: ١٠.

(٢) آية ٣٣.

(٣) البخارى. وقد تقدم شرحه.

(٤) تقدم بسط هذا الحديث بتمامه فراجعه إن شئت. وصية ٢٩.

وليس عيباً أن يتزوج الرجل المرأة ذات المال ، فإن المال نعمة من نعم الله تعالى، وهو حصن لها إن غاب أو مات عنها، وحصن لأولاده، ولكن العيب أن ينظر إلى المال وحده، ويجعله مبلغ همه.

ولا بأس أن يرغب الرجل فى المرأة لجمالها، بل هو المطلوب شرعاً؛ لأنها بجمالها تعصمه من الافتتان بغيرها، وتمتعه بنفسها متعة يجب أن يشكر الله عليها، ولكن ينبغى ألاَّ يجعله مبلغ همه أيضاً؛ فإن جمالها قد يرديها ويوقعها فيما لا تحمد عواقبه، فيكون وبالاً عليه وعليها وعلى أولاده منها، بل ربما يتعدى هذا الوبال إلى أسرتها وأسرته.

يقول الرسول ﷺ: «لا تَزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يُردِيَهن، ولا تَزَوَّجُوهُن لإموالهن، فعسى أموالُهن أن تطغيَهُنَّ، ولكن تَزَوَّجُوهُنَّ على الدين» (١).

والنسب الشريف من الأمور المعتبرة بين الناس فى الزواج على وجه الخصوص، وفى غيره على وجه العموم؛ لأنه انصهار بين أسرتين، فلابد أن يكون بين المتصاهرين من توافق مادى ومعنوى حتى لا يقع الضرر على إحدى الأسرتين.

والكفاءة فى الأنساب شرط من شروط صحة الزواج عند كثير من الفقهاء بمعنى أن يكون الرجل كفئاً للمرأة؛ لأنها تضاف إليه وتُعْرَفُ به.

فإذا ما رغب الرجل فى المرأة ذات النسب الشريف والحسب الرفيع، فإنه يكون قد أصاب الهدف وأحسن التقدير، بشرط أن يكون لهذه الحَسِيبَة النسيبة دين يعصمها من الوقوع فى الزلل.

لهذا قال النبى - ﷺ - : «فاظفر بذات الدين تربت يداك».

أى اجعلها منتهى البغية؛ فإن فى نكاحها نصرة لك ولدينك، لأن ذات الدين جمالها فى خلقها وحسن تصرفها؛ لأنها قد استمسكت بما فيه عصمة أمرها، فصَانَها عما يَشِينُهَا وحَلاَّها بما يَزِينُها.

---

(١) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو.

والجمال نوعان: جِسْمِيٌّ ومَعْنَوِيّ.

والجسمى معروف له مقاييسه وسماته.

والمعنوى جمال خَفِيٌّ لا يعرفه إلا أولو الأحلام والنهى، وهو يغنى عن النوع الأول عند مَنْ أوتى الحكمة.

ولا يغنى الأول عن الثانى قطعاً؛ لأنه عبارة عن مظهر بَرَّاقٍ سرعان ما يزول وتعتريه كدرة تُذْهب ببعضه أو به كله.

وما أحسن قول الشاعر:

جَمَالُ القَدِّ مَعْ قُبْحِ النفوسِ ... كَقِنـْدِيلٍ عَلَى قَبْرِ المَجُوسِ

ورأس مالها فى دينها أيضاً؛ لأن ذات الدين مباركة، يجعل الله القليل فى يدها كثيراً، وهى غالباً ما تكون قنوعة، ليس فى قلبها من الأهواء ما يدفعها إلى الطمع وتكليف الزوج ما لا يطيق، وهى غالباً ما تكون وَسَطاً فى الإنفاق؛ لأن دينها عَلَّمَهَا ذلك.

ولا شك أن هذه الأمور تنفى الفقر وتجلب الغنى.

ولقد قال النبى - ﷺ -: «ما عال من اقتصد» (١).

أى: لا افتقر من عدل فى الإنفاق، فكان وسطاً بين الإسراف والتقتير.

والدين نسب مَنْ لا نسب له، وحسب مَنْ لا حسب له.

وقد جاء فى الحديث الصحيح: «من بَطَّأ به عمله، لم يسرع به نسبه»(٢).

وقوله - ﷺ -: «فاظفر بذات الدين» إغراءٌ بأسلوب يُشْعِرُ الأزواج بأن نكاح ذات الدين غنيمة من الغنائم التى تأتى بعد النصر فى المعارك الحربية، وصيد ثمين يُسَرُّ به صاحبه سروراً بالغاً.

ولو قال: فانكح ذات الدين، أو عليك بذات الدين - ما أدى هذا المعنى المكنون فى قوله: «فاظفر».

---

(١) رواه أحمد حديث رقم: ٤٢٦٩.

(٢) رواه أبو داود فى العلم ١، والترمذى فى القرآن ١٠، وابن ماجه فى المقدمة ١٧. وغيرهم.

وقوله - ﷺ - : «تَرِبَتْ يداك» معناه : أصبت الغنى . يقولون : أترب الرجل : صار ذا مال ، ومعناه أيضاً : إن لم تنكح ذات الدين ، افتقرت والتصقت يدك بالتراب، أو التصق التراب بها، كناية عن شدة الفقر.

ويحتمل أن يكون هذه الجملة مُجَرَّدَ إغراء وتحريض على الفعل دون أن يقصد له معنى جرياً على عادة العرب.

والنص يحتمل المعانى كلها بلا استثناء؛ لأنها متلازمة.

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرنا أحكاماً وحِكَماً ولطائف كثيرة منها:

١ - أن الأسلام دين الفطرة، ويسايرها ولا يصطدم بها، فالفطرة تقتضى أن الرجل بطبعه مَيَّالٌ إلى المرأة، وهى مَيَّالَةٌ إليه بطبعها، تسكن إليه ويسكن إليها نفسياً وجنسياً؛ لكى تستمر الحياة على النحو الذى أراد الله - عز وجل.

والميل النفسى والجنسى له أسباب تدفع إليه وتُقَوِّيه وتُنَمِّيه باطراد، وهذه الأسباب لا تنحصر فى المال ولا فى الجمال ولا فى النسب ، ولا فى هذه الثلاثة مجتمعة، ولكن تنحصر كلها فى الدين، والدين - كما نعلم - عقيدة وعمل وأخلاق وسلوك.

فالعقيدة هى جمال الباطن، والعمل الصالح ترجمة له، والأخلاق جِبِلَّةٌ تُنْبِئُ عن الفطرة السليمة، والسلوك ترجمة لها.

فالمرأة ذات الدين يتجلى فيها جمال الظاهر وجمال الباطن فى أقوالها وأفعالها وأحوالها.

أما أقوالها فالصدق رائدها، وأما أفعالها فالإيمان صبغتها، وأما أحوالها فالاعتدال شِيمَتُها بحيث لو غضبت لا تتمادى فى الغضب ولا تتهور بسببه.

فالمؤمن بطىء الغضب سريع الفىء كما جاء فى الحديث الصحيح[1] .

---

(١) انظر الحديث فى مسند أحمد ١١٥٢٥ والترمذى فى الفتن ٣٦ .

وإذا فرحت، لا تتمادى فى الفرح إلى الحد الذى يخرجها عن الفرح المحمود، وهو الذى لا غرور فيه ولا عُجب ولا خيلاء.

ومثل هذه المرأة مصدر خير لزوجها؛ لأنها تحسن التدبير على هدى من الله ونور، وتعرف كيف تسوس بيتها وترعى شئون زوجها وأولادها، ويعرف زوجها كيف يتعامل معها إذا كان على خلق ودينٍ مِثْلَهَا، ويستطيع كل منهما أن يؤدى للآخر حَقَّه عليه بالمعروف. وهذا - والله - هو الغنى حقاً.

يقول النبى - ﷺ -: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله، خيراً له من زَوْجَةٍ صالحة. إنْ أَمَرَهَا أطاعته، وإن نظر إليها سَرَّتْهُ، وإنْ أقسم عليها أَبَرَّتْهُ، وإن غاب عنها نَصَحَتْهُ فى نفسها وَمَاله» (١).

وقال عليه الصلاة والسلام - أيضاً -: «إنَّما الدنيا مَتَاعٌ، وليس من متاع الدنيا شيءٌ أفضل من المرأة الصالحة» (٢).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال:

«أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجة لا تبتغيه حُوبا (٣) فى نفسها وماله» (٤).

وقال رسول الله - ﷺ -: «من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء» (٥).

ونحن نعلم أن الزوجة هى سكن الرجل وفراشه، وربة بيته وشريكة حياته، وأم أولاده، والأمينة على ماله وعرضه، فإن كانت صالحة، فهى حسنة من حسنات الدنيا ونعمة من نعم الله الكبرى.

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى أمامة - رضى الله عنه.
(٢) رواه ابن ماجه - أيضاً - عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما.
(٣) الحوب: هو الظلم.
(٤) رواه الطبرانى.
(٥) رواه أحمد.

والرجل الصالح – أيضاً – حسنة من حسنات الدنيا ونعمة من نعم الله الكبرى على الزوجة الصالحة. فكما يجب عليه أن يَتَخَيَّرهَا، يجب عليها أن تَتَخَيَّرَه من بين أولئك الذين اجتمعت لديهم صفات الرجولة من المروءة والنخوة، والشجاعة والغيرة على الدين والعرض، والشدة فى الحق والرحمة بالصغير والكبير.

والزواج عقد من أشرف العقود وأوثقها عند الله عز وجل، به يصير كل من الزوجين لباساً للآخر، يسكن إليه، ويحنو عليه، ويحرص على راحته ومتعته.

يقول الله – عز وجل –: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ (١).

إنه الميثاق الغليظ الذى يباركه الله، ويحب بقاءه، ويكره فسخه من غير ضرورة.

قال تعالى: ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٢).

فيكف يتخذ المؤمن امرأة لا دين لها سكناً له وربة لبيته وأماً لأولاده.

إن المؤمن لا يسكن ولا يستريح إلا لمؤمنة مِثْلِه، ولا يأمن على نفسه ولا على أولاده من امرأة لا خلق لها ولا دين.

يقول الله – عز وجل –: ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ (٣).

٢ – إن البواعث الحسية – لاختيار الزوج والزوجة – سريعة الزوال، فمن يختار زوجته لجمالها الجسمى من غير ملاحظة الجانب المعنوى من حسن الطباع، وقوة الأخلاق – تكون حياته الزوجية عرضة للاضطراب حتماً.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء: ٢٠ – ٢١.

(٣) سورة النور: من الآية ٢٦.

وماذا بعد الاضطراب إلا الشقاق الذى يستحيل معه الوفاق ويقع بعده الطلاق!

وكذلك الحال فيمن يراعى الناحية المادية، فيتزوجها لأنها ذات مال أو لها مسكن خاص بها – والأزمة فى المساكن محكمة كما نعلم – أو يقول فى نفسه: إن أباها شيخ كبير وله مال وفير وسوف ترثه بعد موته. فنسعد نحن وأولادنا بما نحصل عليه منها إلى غير ذلك من الآمال الموقوتة، التى لا يدرى هل تتحقق أم لا، والطمع قَتَّالٌ، وشدة الحرص على طلب الدنيا بلاء عظيم.

والرجل الشهم لا يتزوج المرأة لمالها ولا يطلب منه شيئاً بعد الزواج، بل ولا يسكن فى مسكنها الخاص ولا مع أبويها، فإن ذلك ينقص من رجولته ويُحدّ من حريته، ويجلب عليه النكد والخزى، ويشعر بأنها هى التى تعوله، فتنقلب الموازين وتتناقص القيم أو تزول.

والمرأة بطبعها مَنَّانَةٌ، والمَنٌّ يحرج الرجل إحراجاً شديداً ويسقط هيبته ومروءته، ويقلل من شأنه عندها إلى الحد الذى لا تعترف بقوامته عليها، وتعوقه عن تَحَمُّلِ التَّبِعَاتِ وتأدية الواجبات التى تلقى على عاتقه.

فما كان الرجل قَوَّاماً على المرأة إلا بما فضله الله به عليها، وبما ينفق من ماله على طعامها وشرابها وكسوتها ومسكنها، كما صَرَّح بذلك قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فَضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (١).

٣ – وهناك فرق دقيق بين المرأة المتدينة والمرأة ذات الدين.

فالمرأة المتدينة هى المنسوبة إلى الدين، وهى منه بمعزل.

يقال: تَدَيَّنَ فلان: انتسب إلى الدين، أو تكلف فيه بما لم يؤمر به، أو تَشَدَّدَ فى أمره من حيث أمر أن يأخذ باليُسْرِ.

أما ذات الدين فهى صاحبته الملازمة له، المستمسكة بتعاليمه، فذا بمعنى صاحب، وذات بمعنى صاحبة، فأين هذه من تلك؟!

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٤.

ولذا فإنى أهيب بالرجال ألا يغتروا بمظاهر التدين، فيحكموا على المرأة بأنها ذات خلق ودين لمجرد أن رأوها تلبس النقاب والجلباب الطويل وغير ذلك؛ فإن هذه المظاهر الخارجية ليست دليلاً قاطعاً على أنها ذات خلق ودين، فلابد إذاً من التعرف عليها أكثر وأكثر ، والتحقق من خلقها ودينها بالوسائل المشروعة، كأن يجلس إليها فى غير خُلْوَة ويسألها عن الأحكام الشرعية التى هى موضع خلاف بين الأئمة وسائر الناس، فإن لم تكن تعرف ذلك، فليسألها كيف تصلى، كيف تعامل الناس، كيف تتصرف فى حال الرضا وحال الغضب ، إلى آخر ما هنالك من الأسئلة التى يكتشف بها خلقها ودينها ، وعقلها وثقافتها ، ومدى سلامتها من الأمراض النفسية والجسمية.

فإن رأى ما يعجبه منها، استخار الله – عز وجل – بالاستخارة المشروعة المروية فى صحيح البخارى والتى تقدم ذكرها فى هذا الكتاب.

فإن شرح الله صدره إلى الزواج منها، تَقَدَّمَ وإلا أَحْجَمَ.

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٣١) تَزَوَّجوا الودودَ الولودَ

عن مـعـقـل بن يسـار - رضى الله عنـه - قـال : جـاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أحببت امرأة ذات حَسَبٍ وجمال ، وإنها لا تلد أفأتزوجها ؟

قـال : «لا» ، ثم أتاه الثـانيـة ، فنهـاه ، ثم أتاه الثـالثـة ، فـقـال : «تزوَّجـوا الوَدودَ الولودَ ، فإنى مكاثرٌ بكم الأمم» (١) .

* * *

الإنجاب ثمرة من أعظم ثمرات الزواج ومقصد من أهم المقاصد ، بل هو المقصد الأصلى وما سواه تبع له ، وطلبه واجب على الكفاية ، بمعنى أن الناس لو تركوا هذا المطلب ولم يسعوا إلى تحصيله أثموا جميعاً .

وذلك لأن الإنجاب حفظٌ للنسل واستمرار لبقاء الإنسانية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن أجل ذلك شَرَعَ الله الزواج وَوَضَعَ له نظاماً دقيقاً محكماً يكفل لكل من الزوجين حقه على الآخر فى ظل المودة والرحمة ، وَحَثَّهما على الإنجاب بأسلوب يُفْصِحُ عن مدى الحاجة إليه والرغبة فيه ، والتمتع به والشكر عليه .

قال تعالى : ﴿ نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم أنَّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشِّر المؤمنين ﴾ (٢) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى من الأولاد ما ينفعكم فى حياتكم وبعد مماتكم وفى آخرتكم ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ . فالحرث أرض صالحة للزراعة ، والأمر بإتيان الحرث أمر بزراعتها ، فما أشبه المرأة بالأرض الخصبة ، وما أشبه ماء الرجل بالماء الذى يسقى الأرض ويكون سبباً فى إحيائها بالنبات الحسن .

---

(١) رواه أبو داود في النكاح ، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ٢٥٠ ، والنسائى فى النكاح ، باب كراهية تزويج العقيم ٦ / ٦٥ ، ٦٦ . وإسناده حسن .

(٢) البقرة : ٢٢٣ .

وقد أمر الله بإتيان النساء بعد الطهر من الحيض مباشرة لتحقيق هذا المطلب، فقال في الآية التي قبلها: ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ (١)؛ لأن البويضة تنزل عَقب الطُّهْر لتتلقى الحيوان المنوى الذى يتدفق مع المنى بطريقة تثير الإعجاب وتبعث على الدهشة والاعتبار.

وقال جل شأنه مُمْتَنّاً على على عباده: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾ (٢).

وفى هذه المِنَّة توجيه للأزواج أن يضعوا الإنجاب نصب أعينهم، ويشكروا الله عليه.

والحَفَدَةَ هم أبناء الأبناء وأبناء البنات، وهم فى المَعزَّة سواءٌ، بل ربما كانت مَعَزَّتُهُم عند أجدادهم أكثر.

وقد قالوا فى المثل: «أعَزّ من الوِلْد وِلْدُ الوِلْد».

وقال الله عز وجل: ﴿المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ (٣).

والزينة ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للناس عنها.

وقد ذكر الله عز وجل من أوصاف عباد الرحمن أنهم يسألونه جل شأنه من أعماق قلوبهم أن يهب لهم ذرية طيبة تقر بهم أعينهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتهم عند آبائهم ولضرورة إيجادهم لعمارة الأرض وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذُرِّيَّاتِنَا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾ (٤).

وقرة الأعين هى الأشياء التى تَقَرُّ العين عندها وتثبت لرؤيتها وتستريح بالنظر الدائم إليها.

ولما كان الولد من أعظم المطالب كما ذكرنا عَبَّرَ الله عنه بالهبة فقال: ﴿لله ملكُ السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ (٥).

---

(١) البقرة: ٢٢٢.
(٢) النحل: ٧٢.
(٣) الكهف: ٤٦.
(٤) سورة الفرقان: ٧٤.
(٥) الشورى: ٤٩.

وقال تبارك وتعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ (١) .

وقال سبحانه: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ (٢) .

وقال زكريا – عليه السلام – كما حكى القرآن عنه: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه فى سورة الأنبياء: ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ (٤) .

وقال الله – عز وجل – حكاية عن مريم البتول – رضى الله عنها – : ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ (٥) .

وقال عز من قائل: ﴿ ووهبنا لداود سليمانَ نعم العبد إنه أواب ﴾ (٦) .

وقال فى شأن أيوب عليه السلام: ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ (٧) .

* * *

ولما كان الإنجاب على هذا القدر من الأهمية، جاء الرجل يستشير النبى – ﷺ – فى الزواج من المرأة التى أحبها لحسبها وجمالها، وهى لا تلد، هل يتزوجها لمَيْله إليها وحبه لها ولما تتميز به من عراقة الحسب والنسب ، وما خصها الله به من جمال ساحر ، ويتنازل عن رغبته فى الإنجاب، أم لا يتزوجها لهذا العيب، الذى سيحرمه من فلذات الكبد وقرة الأعين.

إنه لو تزوجها يكون قد أرضى نفسه من جانب وأساء إليها من جانب آخر، وأساء إلى أهله أيضاً؛ فإنهم ينتظرون بشغف ولَهْفٍ ما ينتجه الزواج من نتاج لا يقاس بمُلْك الدنيا عند أبويه وجده وجدته على وجه الخصوص ، وعند أعمامه وأخواله على وجه العموم.

---

(١) الصافات: ١٠٠ . (٢) مريم: ٤٩ . (٣) مريم: ٥ .
(٤) ٩٠ . (٥) مريم: ١٩ .
(٦) ص: ٣٠ . (٧) ص: ٤٣ .

إنه حائر، لا يدرى ماذا يفعل، فإذا برسول الله - ﷺ - ينهاه عن ذلك، فيذهب الرجل فلا يلبث أن تزداد حيرته، فبعد أن كانت بين أمرين صارت بين ثلاثة أمور.

أيطيع نفسه وهواه فيتجوزها وليكن ما يكون؟ أم يطيع نداء العقل وغريزة حب الأبناء فيعدل عنها إلى غيرها؟

أم يراجع الرسول - ﷺ - لعله يرضى؟

فعاد إليه يكرر عليه السؤال وهو يطمع فى أن يأذن له فيعتبر الإذن بمنزلة الواجب، فيقبل على الزواج منها وإن رغب فى الولد تزوج بأخرى، هذا الخاطر يدور فى خلد أمثاله من المترددين فى الإقدام والإحجام.

ولو كنت مكانه لدار فى ذهنى هذا الخاطر، ولكن الرسول ﷺ ينهاه عن الزواج منها، فكان عليه أن ينتهى، ولكن الحب جنون ، فجاءه مرة أخرى يسأله هذا السؤال ، فقال عليه الصلاة والسلام: « تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم ».

فكانت هذه الوصية قاطعة فى النهى عن الزواج من العقيم التى لا تلد.

وَعَبَّرَ بصيغة الجمع للتعميم، فكانت وصية له ولغيره من المسلمين، وعلل النهى برغبة الإسلام فى تكثير النسل، لكنه أسند الرغبة لنفسه؛ ليكون النهى أوقع فى النفس، وإلا فإن الرسول - ﷺ - لا يكون هواه إلا تبعاً لما جاء به.

والمباهاة يومئذ تكون جائزة؛ إذ لا تكليف يوم القيامة، وهى نوع من التنافس الشريف فى إكثار المهتدين.

فكل نبى يفخر يوم القيامة بأتباعه مداعبة لإخوانه من الأنبياء، وهو يوم السرور والحبور لجميع المؤمنين من كل أمة.

* * *

والأمر فى هذه الوصية يبدو أنه للوجوب، ولكن هناك ضرورات وقرائن تجعله للندب لا للوجوب.

منها: أن الكفالة الاجتماعية تقتضى أن يكون للمرأة زوجاً يكفلها وينفق

عليها ويعفها ويصون عرضها، فلو عدل الرجال عن الزواج منها ضاعت وضاع الكثيرات من أمثالها، فحاجتها إلى الزواج متعددة الجوانب لا تجدها إلا مع رجل تسكن إليه ويسكن إليها، ويأنس بها وتأنس به، ويكون كلاً منهما لباساً للآخر وستراً له.

وهناك من الرجال من لا ينجب لكبر سنه أو لآفة فيه.

وهناك من الرجال من لا تكون له رغبة فى الإنجاب؛ لأنه كثير الأسفار أو فقير الحال أو مشغول بطلب العلم، أو لأى سبب من الأسباب أو مانع من الموانع.

هذا ولم أجد فيما قرأت فقيهاً نَصَّ على بطلان هذا الزواج بمقتضى هذا الحديث؛ لأن للزواج أركاناً وشروطاً معروفة إذا توفرت صَحَّ بلا منازع.

ومن هنا نرى أن هذه الوصية مجرد إرشاد وتوصية لهذا الرجل وأمثاله.

ولعله كان شاباً ارتجى النبىُّ - ﷺ - أن يُخرج من صلبه من يؤمن بالله ويجاهد فى سبيله.

والحاجة يومئذ ماسة لكثرة النسل؛ ليتمكن المسلمون من مواجهة عَدُوِّهم بالأعداد اللازمة لقتالهم.

* * *

لكن ما معنى: «الودود»؟

أقول: «الودود» من كَثُرَ ودُّها لزوجها وأحمائها وجيرانها وذوى قرباه وذوى قرباها.

هى الودود بطبعها لا بالتَّصَنُّع والتكلف؛ فإن التَّصَنُّعَ فى الود والتكلف فى إظهاره سرعان ما يُكْتَشَفُ زيفه فتقف من زوجها وأهله موقف الخزى والهوان وينقلب الحال وتسوء العشرة؛ لأن الطبع يغلب التَّطَبُّعَ.

والرجل العاقل هو الذى يَتَخَيَّرُ من النساء من حسنت طباعُها واشتهرت بالخلق الفاضل والسلوك النبيل.

يعرف ذلك منها بالنظر الدقيق فى أقوالها وأفعالها وسيرتها بين المقربين إليها.

ويعرف ذلك أيضاً بالرجوع إلى ما كان عليه آباؤها وأمهاتها، فلعلها ورثت منهم ما كانوا عليه من الطِّباع السليمة والعادات المحمودة، أو ورثت منهم ما هو على الضِّدِّ من ذلك.

وقد جاء في الخبر: «تَزَوَّجوا في الحُجْزِ الصَّالِح ؛ فإن العرق دَسَّاس »[1] .

والحُجْز – بضم الحاء وسكون الجيم – معناه : الأصل والمنبت .

ومعنى دسَّاس : دَخَّالٌ يُدْخِلُ خلائق الآباء في الأبناء فيرثون منهم الكثير من طباعهم وسلوكهم .

وقانون الوراثة معترف به بين أهل العلم ، والقرآن قد أقره .

قال تعالى حكاية عن مريم – رضى الله عنها – : ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فَرِيّاً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾[2] . أى من أين ورثت هذا الخلق المذموم ، وما كان أبوك رجل سوء وما كانت أمك زانية ، وقد لعنوا بما قالوا ، ولكن دل قولهم هذا على أن الوراثة حاصلة .

فالقرآن الكريم إذا أخبر بشيء ولم يُعَلِّق عليه بالنفى فهو يُقِرُّهُ .

ولو كان اليهود عقلاء ما اتهموا مريم بمثل هذا أبداً وهم يعرفون صلاحها وتقواها ، ويعرفون مَن أبوها ومَن أمها .

إن أباها هو سيد القوم وأتقاهم ، وأمها طاهرة الحسب والنسب زكية النفس طيبة القلب ، ذكر الله قصة نذرها في القرآن وأثنى عليها ثناء حسناً ، فكيف تكون على ما وصفوا ، لبئس ما قالوا ولبئس ما فعلوا .

والموفق من الرجال من هدى إلى زوجة تَسُرُّه إذا نظر إليها بنظراتها الحانية وحديثها الهادئ وهدوئها عند اللقاء ، فهى سمحة الوجه طلقة المحيا ، مبتسمة

---

(١) رواه ابن عدى عن أنس ، والديلمى فى مسند الفردوس، والمدينى فى كتاب « تضييع العمر» عن ابن عمر ، وزاد : « وانظر فى أى نصاب تضع ولدك » . قال العراقى : وكلها ضعيف . انظر فيض القدير . أقول : وإن كان ضعيف السند فمعناه صحيح .

(٢) مريم : ٢٧ – ٢٨ .

الثغر قريرة العينين ، لا تحملق فى زوجها ولا تستخف بنظراته ، ولا تريه من نفسها شيئاً يكرهه .

وإذا أمرها بأمر أطاعته فيه وقامت بتنفيذه خير قيام ما لم يكن فى معصية الله عز وجل .

فالمرأة المطيعة بطبعها أو بتَطَبُّعِهَا تريح الرجل كثيراً من المحاورة والمداورة والجدل العقيم ، وتحول بينه وبين الغضب عليها ، وتجعل بينها وبين شياطين الإنس والجن حاجزاً منيعاً، وتقى نفسها من عذاب الله في الدنيا والآخرة .

وهى فوق هذا وذاك امرأة وفية لزوجها أمينة على ماله وعرضه ، لا تُدخل فى بيتها إنساناً إلا بإذنه ، ولا تأتى أمراً من الأمور الهامة إلا بمشورته .

وهى بهذا تكون حسنة من أعظم حسنات الدنيا .

وهذه هى الودود حَقًّا ، جمعت بين صلاح الدين والدنيا .

وقد وصفها النبى – ﷺ – بأوصاف جامعة لهذه الخصال كلها فقال :

« ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسه وماله »[(1)] .

ومعنى « أبرته » : فعلت ما أقسم عليها أن تفعله ، وتركت ما أقسم عليها أن تتركه .

ومعنى نصحته فى نفسه : حافظت على سره وعرضه وحرمته ، ولم تخنه فى شيء أثناء غيبته .

وقد عرفنا المرأة الودود وبقى لنا أن نعرف المرأة الولود فنقول : هى التى يكثر نَسْلُهَا، بمعنى أنها تلد فى السنة مَرَّةً فتسعد زوجها بذلك ولا سيما إن ولدت ذكراً؛ فالعرب كانوا – ولا يزالون – يحبون الذكور أكثر من حبهم للإناث، مع أن فى الإناث خيراً لأبويهن فى الدنيا والآخرة ، لو كانوا يعلمون .

---

(1) رواه ابن ماجه .

وكثرة الولادة قد تدل على وفور الصحة وسلامة الجسم ، وغالباً ما تكون الولود شابة أو فى متوسط العمر .

والرسول - ﷺ - يُرَغِّبُ فى الزوج منها من أجل تكثير النسل الصالح ، الذى يباهى به الأمم يوم القيامة .

أما النسل الفاسد فليس له بالرسول - ﷺ - صلة ، فهو لا يعرف الرسول ، ولا الرسول يعرفه ، فهم غثاء كغثاء السيل ، ليس فيهم من الإسلام حبة خردل ، قِلَّتهم خير من كثرتهم ؛ لأن كثرتهم وبال على المجتمع المسلم ودمار للمبادئ الخلقية والقيم المثالية .

نسأل الله السلامة والعافية

* * *

(١٣٢) أعْلنوا هذا النكاح

عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال :

«أَعْلِنُوا هـذا النِّكَاحَ وَاجْعَلُوهُ فى المَسَاجِدِ ، واضْرِبُوا عَلَيْهِ بالدُّفُوفِ» (١) .

* * *

النكاح عقد مقدس وميثاق غليظ ، يأخذه كل من الزوجين على الآخر ، بمقتضاه يباح لهما أن يستمتع كل منهما بصاحبه فى الحدود التى حدها الله عز وجل .

وهو سنة من سنن الفطرة وضرورة من ضرورات الحياة ، به تتوثق الصلات بين الأسر والمجتمعات وبه يحفظ النسل ، وبه تعمر الأرض .

والشأن فى هذا العقد أن يكون معلناً مشتهراً بين الأهل والجيران ومن فى حكمهم ممن له صلة بالمتعاقدين ، حفظاً للأنساب والحرمات من القيل والقال .

لهذا أوصى النبى - ﷺ - أهل الزوجين أن يعلنوا عنه بالوسائل المعروفة فى عصرهم وفى الأماكن التى يرتادونها فى عبادتهم .

وهى وصية تساير الفطرة ولا تنحرف عنها ، وتوافق الطباع السليمة ولا تتناقض معها ، وتتجاوب مع الغرائز البشرية المعتدلة ولا تكبتها ، وتتعاطف مع الأعراف المستقيمة ولا تنفّر منها ، والإسلام - كما نعلم - هو دين الفطرة ومنهج الحياة .

* * *

وهذا الحديث يشتمل على ثلاث وصايا متلازمة :

الوصية الأولى : إعلان النكاح بالطرق المشروعة وهى كثيرة ومعروفة ،

---

(١) رواه الترمذى ، فى كتاب النكاح ، حديث : ١٠٨٩ ، وقال : حديث غريبٌ حسنٌ فى هذا الباب ، وصححه العجلونى فى كشف الخفا ، وذكر له شواهد تُقَوِّيه ، ص ١٣٢ - ١٦٣ ، قال المناوى فى فيض القدير : جزم البيهقى بصحته وضعف سنده آخرونَ والحديث له شواهد تقويه .

وللناس عادات موروثة فى إشهار النكاح ، أقر الإسلام ما كان منها حسناً وأنكر ما كان منها قبيحاً .

والإنسان إذا بقى على فطرته ، فإنه يقر الحسن وينكر القبيح بعقله وقلبه ، فالبر « ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى الصدر وكرهتَ أن يَطَّلِعَ الناس عليه وإن أفتاك الناس وأفتوك »(١) – كما قال الرسول ﷺ .

والنفوس السوية والقلوب المطمئنة هى التى تميز الخبيث من الطيب ، وتدرك حُسْنَ ما هو حسن وقبح ما هو قبيح .

أما النفوس المنحرفة والقلوب المريضة ، فإنها لا تُحَكَّمُ فى شىء ؛ لخروجها عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

والوصية الثانية : بيان للمكان الذى يُعْلَن فيه النكاح ، وهو المساجد التى يجتمع فيها الصالحون فى كل صلاة ، وهى أفضل بقاع الأرض وأشرفها ، وعقد النكاح كذلك من أفضل العقود وأشرفها ، فلا عجب أن يأمر النبى – ﷺ – بجعله فيها .

وفى ذلك من الفوائد ما فيه .

ومنها : أن الله – عز وجل – يبارك هذا العقد ، ويَمُنُّ على المتعاقِدَين بحسن الصحبة ودوام العشرة ، ويزيدهما مودة ورحمة .

وهناك فائدة أخرى لا يكاد الناس ينظرون إليها ، وهى أن الزوجين يتعاهدان فى بيت الله على الصدق والإخلاص وحسن العشرة أمام الله عز وجل فى أحب البقاع إليه ، فيخرجان من المسجد تغمرهما السكينة والوقار ، ويجدان فى أنفسهما قبولاً حسناً لا يجدانه لو عقد النكاح فى غيره ، ويظل كل منهما على ذُكْرٍ من هذا المكان المهيب ، الذى تَمَّ العقد فيه ، فيتجدد بينهما الود ويَتَعَمَّقُ الحب .

---

(١) رواه أحمد وغيره .

وإذا غضب أحدهما من الآخر ، عاودته الذكرى ، فخففت من غضبه وَحَدَّت من ثورته ، وقال كل منهما للآخر بلسان الحال أو المقال : ألسنا قد تعاقدنا وتعاهدنا فى بيت من بيوت الله على الصدق والإخلاص والتفاهم فيما بيننا .

ألسنا قد أشهدنا أولئك الأخيار ، الذين كانوا معنا فى المسجد ، ومنهم فلان وفلان .

إننا لم نعقد هذا العقد فى مكان ماجن تَحِلُّ فيه الشياطين ، ولكننا تعاقدنا فى مكان هو من أطهر الأماكن على وجه الأرض ، وقد بارك الله هذا العقد وأَيَّدَهُ من فوق سبع سماوات ، فلنكن على العهد ، ولنحافظ على هذه الصلة الوثيقة ما استطعنا ؛ رعاية لحق الزوجية وحق الله ، الذى عقدنا العقد فى بيت من بيوته أولاً .

وأىُّ زواج بَدَأَ بالطاعة والتقرب إلى الله ، فإنه عُروة لا تنفصم إن شاء الله، فليستبشر كل عروسين بالعقد وبالمكان الذى تَمَّ فيه ، فالسرور كل السرور فى طاعة الله والاتجاه إليه فى أمره كله .

ولا شك أن شهادة من فى المسجد ليست كشهادة من فى النادى أو فى الفندق أو فى المنازل ، فإن العقد يتم دائماً عقب صلاة من الصلوات ، ويكون أكثر الناس على وضوء ، وقد أكثروا من ذكر الله والدعاء .

ولا شك أن الدعاء فى المسجد للعروسين يكون أفضل من الدعاء فى غيره من الأماكن . فللدعاء أوقات وأماكن يكون فيها أقرب إلى الإجابة . ومنها المساجد وعقب الصلوات .

قد عرفنا إذاً لماذا أمر النبى – ﷺ – بجعل عقد النكاح فى المساجد ، ولكن يجدر بنا أن نشير إلى الآداب التى ينبغى أن تراعى عند إجراء العقد فيها فنقول :

ينبغى فصل النساء عن الرجال ، بحيث يكون كل منهما فى مكان ؛ دَرْءاً للفتنة ، ودفعاً للشبهة .

وينبغى ألا ترتفع الأصوات فيه جداً بالأحاديث الدنيوية ولا بالضحك السخيف .

وينبغى أن تنزه المساجد عن كل ما يُلَوِّثُهَا من أطعمة وأشربة وغيرها ، فإن كانت هذه الأطعمة والأشربة محفوظة في مُعَلَّبَات لا يتساقط منها شيء على بُسُط المسجد ، فلا تُمْنَعُ ، بل تكون تعبيراً عن حفاوة أهل العروسين بالحضور ، وتعبيراً عن سرورهما بهذا العقد المبارك ، ولا يخفى ما فيه من معانى الهدية والهبة والصدقة والوليمة ونحو ذلك من القرابين وأنواع التحية .

ولا بأس باستخدام آلات التصوير ؛ لكى يحتفظ العروسان بهذه الذكرى ، فيعاودان النظر إلى ما استخرجوه من صور فى هذه المناسبة ، فيتجدد سرورهما ويَنْتَشِي كل منهما بالآخر وتنبعث المشاعر من كوامنها ويكون النظر إلى هذه الصور بمثابة تأكيد للعهد وتجديد لبيعة المرأة للرجل بالقوامة ، وهى تتمثل فى التبعة والمسئولية .

ولا يقولن قائل : إن التصوير حرام ، فهذا ليس على إطلاقه ، وإنما الحرام هو التصوير المُجَسَّم من ذوات الأرواح ، كالتماثيل ونحوها مما له ظل ، أما الصور الفوتوغرافية فلا أشك فى حِلِّهَا .

وكونها فى المسجد لا يتناقض مع حرمته أبداً ، فهو لا يعدو أن يكون شرارة كهربائية تلتقط معها الصورة فى لمح البصر .

وسيأتى تفصيل واسع بالأدلة عن حكم التصوير فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

وإذا عَبَّرَتِ المرأة عن مشاعرها بالزغاريد ، فلا ينبغى أن نكبت مشاعرها فى هذا الموقف الذى دفعها إلى ذلك ، ولكن نُعَلِّمُهَا فيما بعد ألا تعود لمثل ذلك ، فإنَّ منعها فى هذا الحال يُبَغِّضُ الناس رجالاً ونساءً فى أن يعقدوا الزواج فى المساجد ، ويتهمون من ينهى عن ذلك بالتزمت والتشدد والتَّنَطُّع ، بل ربما اتهموا الإسلام نفسه بذلك .

وقد تكون المرأة حديثة عهد بدخول المساجد ، فيصدها هذا الذى كَبَتَ

مشاعرها – فى وقت لا ينبغى فيه كبت المشاعر – عن ارتياده والحضور إليه فى مثل هذه المناسبة ولا غيرها .

والعقلاء من الدعاة والمرشدين يتغاضون عن مثل هذه الأمور إلى حين ، ويشغلون أنفسهم بما هو أهم وأخطر .

ولو حاولنا أن ندعو الناس إلى التمسك بكل صغيرة وكبيرة ما استطعنا ذلك ، فَلْنُوَجِّه عنايتنا أولاً إلى ما يحمى العقيدة الإسلامية من الشبهات والأهواء، ويحفظ الأخلاق السوية من التَّخَبُّط والانحراف ، والتقليد الأعمى للغربيِّين والشرقيين .

والوصية الثالثة : هى الأمر بضرب الدفوف، ويكون فى غير المساجد قطعاً.

والأمر فيه للاستحباب لا للوجوب ، ولكن الأمر بجعل العقد فى المساجد سنة ، والسنة آكد من المستحب .

والأمر بضرب الدفوف خاص بالنساء على المشهور من أقوال العلماء .

وقيل هو عامّ ، والأصح الأول والله أعلم .

والدُّفُوف جمع دُفٍّ ، وهو آلة من جِلْدٍ مستدير على خشب خفيف يُشْبِهُ الغربال من غير جلاجلَ ويسميه بعض العرب : بالغربال ، كما ورد فى بعض روايات هذا الحديث .

ويُسَمَّى عندنا فى مصر بالطَّار .

ويقاس على الدفوف الطبول كما قال بعض العلماء.

والحد الذى يوقف عنده أن يكون التعبير عن السرور بما لا يتعارض مع النصوص الشرعية بأى حال من الأحوال .

وفى الحديث الذى بعده مزيد بيان لهذه المسألة .

* * *

وقد سألنى طالب من طلاب العلم عن اسم الإشارة فى هذا الحديث ، ما فائدته وما السر فى ذكره مع أن المعنى يتأدى بدونه ، فيقال : «أعلنوا النكاح»؟.

فأجبته بأن علماء البلاغة يُقَرِّرون أن اسم الإشارة إنما يؤتى به لما هو مشاهد بالحس على الحقيقة، وأحياناً يُنَزَّل غير المشاهد منزلة المشاهد على سبيل المجاز؛ مبالغة فى جلب الانتباه إليه والحث على طلبه والعناية به ونحو ذلك من المقاصد التى يعنيها المتكلم من كلامه، كقوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾ (١) . فالإشارة فيه للتفخيم وحث الناس على تَدَبُّرِه والعمل بما فيه.

* * *

ويسألنى آخر عن نكاح السر. هل هو جائز شرعاً، ومتى يخرج النكاح عن السرية إلى حَيِّز الظهور والاشتهار، وما الفرق بينه وبين اتخاذ الأخدان الوارد فى قوله تعالى: ﴿ولا متخذى أخدان ﴾، وما الفرق بينه وبين الزواج العرفى؟

والجواب: أن نكاح السر لا يجوز شرعاً؛ لأنه يشبه الزنا، بل يكون هو الزنا نفسه إذا خلا من الشاهدين وإذن الولى.

فإذا شهد على العقد شاهدا عدلٍ وأذن الولى فيه، لم يعد سِرًّا، ولكن الإشهار أولى وأفضل.

والمالكية يعتبرون أن الإشهار فى النكاح شرط كمال، وليس من الضرورى أن يعلمه الكثير من الناس، بل يكفى أن يعلمه الأهل والأقارب والجيران أو أكثرهم.

وتوثيق العقد فى المحاكم الشرعية يقوم مقام الإشهار فى هذا العصر ، ولكن للإشهار فائدة وهى قطع الألسنة عن القيل والقال كما سبق بيانه.

وأما نكاح الأخدان فهو زنا قطعاً، حرمه الله بقوله فى سورة النساء: ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩ .
(٢) الآية: ٢٥ .

وقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿ولا متخذى أخدان﴾[1] .

والخِدْنُ: هو صديق السر، يصحب المرأة ويزنى بها سِراً.

قال القرطبى فى تفسيره: كانت العرب تعيب بالزنا ولا تعيب اتخاذ الأخدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك، وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ روى ذلك عن ابن عباس وغيره. أ. هـ[2] .

أما الزواج العرفى فهو الذى ينعقد بين رجل وامرأة سِراً بإذن الولى أو بغير إذنه بشاهدى عدل أو بغيرهما.

وتسميته زواجاً عرفياً غير دقيق، إلاّ أنهم أطلقوا عليه ذلك فى مقابل الزواج الموثق فى المحاكم الشرعية.

وهذا الزواج إن كان قد تم بإذن الولى وبشاهدى عدل، فهو صحيح وإن لم يشتهر، وإلا فهو زنا.

وهذا الزواج له مخاطره الكثيرة.

فقد يترك الزوج زوجته مُعَلَّقَةً لا هى متزوجة ولا هى مطلقة، وتطلب الطلاق منه بكل حيلة فلا يستجيب لها، فلا تستطيع أن ترفع أمرها للقاضى؛ لعدم وجود الوثيقة الرسمية، وهو أمر بالغ الضرر، وقد يساومها على الطلاق بكل ما لديها من مال.

وقد تنجب منه أولاداً لا ينفق عليهم، وتقاضيه فى المحاكم الشرعية فيروغ منها كما يروغ الثعلب.

ومن ناحية أخرى قد تتزوج رجلاً غيره زواجاً عرفياً.

وربما تتزوج برجلين أو ثلاثة أو أربعة ، فما الذى يمنعها من ذلك مادامت على غير خلق ودين!!

ومشكلات الزواج العرفى لا تنتهى إلى حسم، ولا تقف مخاطره عند حد، وليس هناك من سبيل إلا الزواج المُعْلَن المُوَثَّق فى الأوراق الرسمية.

---

(١) من الآية: ٥.

(٢) جـ ٥ ص ١٤٣.

ومن المؤسف أننى رأيت بعض الجماعات يعقدون الزواج فى المساجد ويشهرونه فعلاً بالوسائل المباحة، ولكن لا يُوَثِّقونه فى الأوراق الرسمية.

فإن سألتهم عن ذلك قالوا: الحكومة كافرة، وتوثيق الزواج فى سِجلاَّتها يعتبر موافقة لها على الكفر، إلى غيرذلك من الهوس الفكرى.

وبعد ، فهذا ما وسعنى ذكره فى هذه الوصية، والله هو الهادى والموفق إلى سواء السبيل.

*　　*　　*

(١٣٣) أَمَا كان معكم لهوٌ؟

عن عائشة – رضى الله عنها ـ أنها زَفَّت امرأة إلى رَجُلٍ من الأَنصار فقال نَبيُّ الله – ﷺ –: «يا عائشةُ، ما كانَ معكَم لَهْوٌ؟ فإن الأَنصار يُعْجِبُهُمُ اللَّهْوُ»(١).

* * *

للناس عادات وتقاليد فى التعبير عن أفراحهم، منها ما يُقرُّه الشرع ويرتضيه، ومنها ما لا يقره ولا يرتضيه، ومنها ما يقره بعد تعديله وإزالة ما فيه من العيوب الخُلقية أو الاجتماعية.

والإسلام – كما نعلم – دين الفطرة، لا يَحْجُرُ عنها ما يوافقها ويحفظ حَيَوِيَّتَهَا ومُرُونَتَها، ولكنه يزيل من طريقها ما يتعارض معها أو لا يتجاوب مع متطلباتها أو يؤثر على مسارها فى الخَلِيقة.

فالناس بخير ما ظلوا على فطرتهم التى فطرهم الله عليها، ولذلك سُمِّىَ هذا الدين، دين الفطرة.

وقد بُعثَ النبى – ﷺ – والعرب على ما هم عليه من العادات الموروثة، فتركهم وشأنهم فى أكثرها، كالشجاعة والكرم، وإغاثة الملهوف ونحو ذلك مما يُحْمَدُونَ عليه، ومنعهم بالحكمة والموعظة الحسنة من كل ما يسوء فعله وقوله، وأرشدهم إلى التزام الأدب الإسلامى فى بعض العادات التى لم ير بأساً من مسايرتها والسير فى رحابها إلى تحقيق الآمال والمطالب بالوسائل المُرْضِية.

وفى هذه الوصية مسايرة للفطرة وتعبير عن الفرح بأشرف العقود وأوثقها بما يُحْمَدُ ولا يُذَمّ.

فالزواج نعمة من أَجَلِّ النِّعَم وفرصة من الفرص، التى قد لا تتكرر، فلا بد أن يُعَبِّر الإنسان عن سروره بها بما يحب، وبما جرى به العرف من غير شطط ولا خروج عن الأخلاق السامية، التى بعثها الإسلام من كوامنها الفطرية.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح، باب ٦٣: النِّسوَةِ اللاتى يُهْدِيَن المرأة إلى زوجها.

فها هى عائشة – رضى الله عنها – تَقُصُّ علينا أنها زَفَّتِ امرأة إلى رجل من الأنصار، فسألها النبى – ﷺ – سؤالاً يترتب عليه ما بعده، قد فهمنا منه أموراً نشير إليها هنا بإيجاز؛ فتحاً لأبواب التأمل والنظر لمن كان أذكى منى وأعلم.

* * *

زفت عائشة – رضى الله عنها – امرأة إلى رجل من الأنصار، أى دفعتها إليه، وأدخلتها عليه في سرور وحبور، وإقبال فيه شيء من السرعة، كما يقتضيه الفعل «زَفَّ»، فالزَّفُّ والزَّفِيفُ معناه: الدَّفْعُ والاندفاعُ فى صوت وحركة فيها شيء من السرعة.

قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿ فأقبلوا إليه يَزِفُّونَ ﴾ (١). أى أقبلوا إليه يدفع بعضهم بعضاً فى حركة شديدة وجلبة.

وهذا الزَّفُّ إنما يكون فى الأمور المهمة التى تقتضى العجلة.

وقد أطلق الزفاف فى العرف اللغوى على الزواج وإدخال المرأة على زوجها.

وعائشة – رضى الله عنها – وإن كانت صغيرة فى السن لها مهابة عظيمة فى نفوس المؤمنين والمؤمنات؛ لذلك تفعل ما يفعله النساء الكبار؛ لأن التى تزف المرأة لزوجها غالباً ما تكون كبيرة فى السن أو مشهورة بهذا العمل؛ لأنها تُكافأ عليه أحياناً بهدية من قبل الزوج أو من قبل الزوجة كما هو معروف حتى الآن فى بعض القرى المصرية وغيرها من بلاد المسلمين.

وجاء فى بعض الروايات أن هذه المرأة كانت من أقاربها.

(فقد روى ابن ماجه من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: أنكحت عائشة قرابة لها.

ولأبى الشيخ من حديث جابر – رضى الله عنه –: أن عائشة زوجت بنت أخيها أو ذات قرابة لها.

وفى أمالى المحاملى من وجه آخر عن جابر: نكح بعض أهل الأنصار بعض أهل عائشة فأهدتها إلى قباء.

---

(١) سورة الصافات: ٩٤.

وجاء في أسد الغابة أن اسم هذه المرأة التي زَفَّتْهَا عائشة: الفارعة بنت أسعد بن زرارة، وأن اسم زوجها: نبيط بن جابر الأنصاري، وقال في ترجمة الفارعة: إن أباها أسعد بن زرارة أوصى بها إلى رسول الله - ﷺ - فزوجها رسول الله - ﷺ - نبيط بن جابر الأنصاري) (١).

ويحتمل أن تكون عائشة قد زَفَّت امرأتين: إحداهما من قرابتها والأخرى من غيرهم، وهي الفارعة.

ونحن لا يعنينا ما يذكره المحدثون من الأسماء؛ لأنه لا يتعلق بذكره فائدة، وإنما يعنينا ما تشتمله هذه الوصية من الأحكام واللطائف.

* * *

وقوله - ﷺ -: «ما كان معكم لهوٌ» استفهام، الغرض منه: الحث والترغيب.

وفي رواية رأيتها في جامع الأصول من حديث البخاري: «أما يكون معكم لهو». أي كان أولى بكم أن تصحبوا معكم لهواً، وهو أمرٌ فيه حَثٌّ وترغيبٌ، كأنه قال: هَلاَّ أخذتم معكم لهواً.

واللهو: هو الدُّفُّ والغناء. وقد سُمِّي لهواً لأن الناس يُعَبِّرُونَ به عن سرورهم واستبشارهم بالخير القادم عليهم.

واللهو نوعان: لهو برىء محمود، ولهو مشبوه مذموم.

والأول هو المراد هنا قطعاً؛ لأنه إعلان للنكاح يحضره الأقارب والجيران والأصدقاء؛ مشاركة لأهل العرس أفراحهم وآمالهم فيما يترتب على الزواج من الإنجاب ودوام العشرة وحلول البركة في الرزق والعمر.

* * *

وقوله - ﷺ -: «فإن الأنصار يعجبهم اللهو» جملةٌ تعليليَّةٌ تؤكد الأمر وتقويه.

والمعنى: أنهم يحبون اللهو أكثر من غيرهم، وليس المعنى: أن غيرهم ليس مثلهم في حُبِّ اللهو، فحب اللهو فطرة في البشر، إلا أنهم يتفاوتون فيه.

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١٩ ص ٢٧١.

والأنصار قوم يتميزون برقة الطبع وخفة الظل أكثر ممن حولهم من الأعراب.

والرسول - ﷺ - لم يُرِد المفاضلة بينهم وبين غيرهم في ذلك، ولكنه أراد الإخبار عنهم بهذه الصفة؛ ليضع الناس في اعتبارهم ذلك، فيصحبونه معهم إذا زفوا إلى واحد منهم امرأة: منهم أو من غيرهم.

* * *

وقد وردت روايات لا بأس من ذكرها هنا على ما فيها من ضعف في السند، ترينا مدى عظمة الإسلام في اليسر والسماحة ورفع الحرج ومسايرة الفطرة.

روى أحمد والبزّار عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال لعائشة: «أهديتم الجارية إلى بيتها»، قالت: نعم.

قال: «فهلا بعثتم معها من يغنيهم، يقول: أتيناكم أتيناكم فَحَيُّونَا نُحَيِّيكُمْ؛ فإن الأنصار قوم فيهم غزل» (١).

وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - قال: «ما فعلت فلانة؟» - ليتيمة كانت عندها - فقلت: أهديناها إلى زوجها.

قال: «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني».

قالت: تقول ماذا؟.

قال: «تقول:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَيِّيكُمْ

لولا الذهبُ الأحمر ما حَلّتْ بواديكم

لولا الحنطة السمرا ما سَمِنَتْ عَذَارِيكُمْ» (٢)

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات، انظر جـ ٤ ص ٢٨٩.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه رواد بن الجراح وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وفيه ضعف، انظر جـ ٤ ص ٢٨٩.

وهذا الرجز إما أن يكون جاء من النبى - ﷺ - عفو الخاطر، وإما أن يكون قد سمعه من بعض الجوارى اللاتى يغنين فى العرس؛ لأنه - ﷺ - لم يكن يقول الشعر، وإنما كان يقرأ القرآن وكفى.

﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (١) .

ومن هذا يتبين لنا أن الغناء البرىء لا شىء فيه، بل يكون أحياناً من المستحبات إذا كان يدعو إلى فضيلة أو ينهى عن رذيلة أو يعبر عن سرور أو حزن.

فالأغانى - كما قال كثير من الفقهاء - كلام حَسَنُهُ حَسَنٌ وقبيحه قبيح.

* * *

ويؤخذ من هذه الوصية فوق ما ذكرنا: أن الزواج نعمة من نعم الله الكبرى، وأن التعبير عنها بما هو مشروع يُعَدُّ شكراً لله على هذه النعمة، وعلى المسلم أن ينوى ذلك؛ حتى يكون مأجوراً على ما يأتى به من الأفعال المُعَبِّرَة عن السرور والاستبشار، فأنفاس المؤمن إن وهبها لله أحصاها الله إليه وأثابه عليها.

ويؤخذ منها: أن اللهو البرىء فى مثل هذه المناسبات من المستحبات، فمن قَصَّرَ فيه، فقد حرم نفسه وحرم العروسين من التمتع بهذا اللهو المُرَخَّصِ فيه.

وأى إنسان يفتى بترك هذا اللهو يكون قد تسبب فى كبتِ المشاعر، التى لا ينبغى أن تكبت فى مثل هذه المناسبات.

ومن هنا لا تحسب فتواه هذه ديناً، بل هى من قبيل التَّزَمُّت والتَّشَدُّدِ، والدين يسر لا عسر فيه ولا حرج.

والمؤمن ينبغى عليه أن يروح عن نفسه ساعة بعد ساعة مغتنماً فى ذلك أى مناسبة سَارة من غير أن يتعدى على حرمات الشريعة وحدودها، حتى يتفرغ للعبادة بعد ذلك فيؤديها وهو منشرح الصدر قوى الجسم.

ولولا هذه المناسبات السارة التى يروح فيها الإنسان عن نفسه، لاختل توازنه النفسى والعقلى وضاق ذرعاً بهذه الحياة.

---

(١) سورة يس: ٦٩.

فليأخذ كل منا حذره من التزمت والتَّنَطُّع ، والقول بأن هذا حرام وهذا حلال بغير علم؛ فإن ذلك افتراءٌ على الله يجب الإقلاع عنه والتوبة منه .

إن التعبير عن السرور بالزواج بضرب الدفوف والأغانى البريئة يحدث ألفة بين الزوجين وبين أسرتيهما ، وتبقى هذه الذكرى ماثلة فى أذهانهم عمراً طويلاً ولاسيما الزوجان .

فهذا علاج نفسى من أمراض كثيرة ربما لا تزال إلا به، كالكبت والانطواء وعدم الثقة بالنفس ونحو ذلك من العقد النفسية التى قد يعجز الأطباء عن علاجها .

وليس هناك فرحة يعتز بها كل من الزوجين وأسرتيهما مثل هذه الفرحة .

وقد عرفت فتاة كان بها لوث أو جنون وقد تقدمت فى السِّنِّ، فأشرت على أهلها أن يبحثوا لها عن زوج بأى وسيلة ممكنة، وقلت لهم : إن علاجها زواجها، وقد وقع فى قلبى ذلك، ولا أدرى مدى صحته، وقلت فى نفسى : إنها وصية فيها خيرٌ لها ولهم، وربما يحدث ما توقعته، وربما تظل كذلك وزوجها يرضى بها على ما هى عليه، وربما يسعى فى علاجها .

لكن ما حدث كان مذهلاً، فما إن عقدوا قِرانها وزَفُّوهَا لزوجها بعد أن أقاموا لها حفلاً كريماً بالطريقة الشرعية، حتى أفاقت من جنونها ولم تكن تعرف أمها ولا أبوها، فقامت إليهما تُقَبِّلُهما بلهفة وفرح شديدين .

ومن يومها لم تظهر عليها أى أمارة من أمارات الجنون .

ولله فى خلقه شئون، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

*   *   *

(١٣٤) اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا تزوج أحدُكم امرأةً، أو اشترى خادماً، فليقل: اللهم إنى أسألك خَيْرَهَا وخير ما جَبَلْتَهَا عليه، وأعوذ بك من شَرِّها وشَرِّ ما جَبَلْتَهَا عليه.

وإن اشترى بعيراً، فَلْيَأْخُذْ بذِرْوَةِ سَنَامِه، وليقل مثل ذلك».

وفى رواية قال: «ثُمَّ ليأخذ بناصيتها ولْيَدْعُ بالبركة» أى فى المرأة والخادم(١).

* * *

المرأة الصالحة حسنة من حسنات الدنيا ونعمة من أجل النعم التى يمن الله بها على الرجل؛ لإنه يشعر معها بالسكون النفسى والجنسى، ويجد فيها رَوْحه وريحانه، ويعتمد عليها فى حماية بيته وتدبير شئونه وتربية أولاده، ويلقى منها ما يتمنى أن يلقاه كل رجل من الزوجة التى يتخيرها ويبذل وسعه فى اختيارها، فهى أفضل ما يؤتاه المرء بعد تقوى الله عز وجل - كما جاء فى الحديث الصحيح الذى تقدم ذكره فى وصية سابقة.

والمرأة السوء عقوبة لزوجها قد عجلت له بسبب ذنب اقترفه، ومحنة يبتليه الله بها فهى من شقاوته العاجلة، وربما تكون - أيضاً - من شقاوته الآجلة.

والمرأة التى يغلب خيرها على شرها قليل أمثالها، لذا كان من الواجب على الرجل أن يتخير لنفسه ذات الخلق والدين.

فإن وجدها، فليحمد الله حمداً كثيرا متواصلاً على نعمة التوفيق.

---

(١) رواه أبو داود، في كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، حديث رقم: ٢١٦٠، ورواه الحاكم ٢ / ١٨٥ وصححه.

فإن دخل بها ونظر إليها وتمكن منها، فليضع يده اليمنى على ناصية رأسها اليمنى وليقل هذا الدعاء المذكور فى الحديث فعسى الله أن يستجيب له.

وكذلك يفعل إذا اشترى خادماً ، أى امرأة مملوكة من اللاتى أخذن فى الحرب سبياً ، وكذلك الحال لو اشترى بعيراً فإنه يدعو بهذا الدعاء.

وتعالوا بنا ننظر فى هذا الحديث نظرة أخرى أوسع دائرة من هذه النظرة التى هى بمثابة تقدمة توضيحية له.

* * *

قوله - ﷺ : «إذا تزوج أحدكم امرأة» أى إذا أدخلت عليه وأسلمت نفسها إليه، فإنه يأخذ بناصيتها ويدعو بهذا الدعاء بعد أن يحمد الله - عز وجل - بقلبه ولسانه ويثنى عليه بما هو أهله، ويصلى ويسلم على نبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - كما هو معروف عند البدء فى الدعاء.

وقد ذكرت آداب الدعاء بتوسع فى كتاب: «صفحات من نور فى الدعاء المأثور» فراجعه إن شئت.

وقوله - ﷺ -: «فليقل اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه»، معناه: اللهم إنى أسألك أن تنفعنى بما فيها من خير ، فتجعلها حصناً لى من الحرام، وتغنينى بها عن التطلع إلى ما لا يحل لى النظر إليه، وتمتعنى بمالها وجمالها - إن كانت ذات مال وجمال - وتؤنس بها وحدتى، وتفرج بها همى، وتوفقها لطاعتك ثم توفقها لطاعتى، وترزقنى منها البنين والبنات، إلى غير ذلك من المطالب التى يستحضرها الداعى فى دعائه؛ فإن الخير كلمة واسعة الدلالة تشمل هذا كله وغيره.

ومعنى قوله: «وخير ما جبلتها عليه» أى خير ما فطرتها عليه من خلق فاضل؛ فإن الجبلة والفطرة بمعنى واحد ، وهى الطبع الراسخ فى الإنسان.

يقال : فلان فُطِرَ أو جُبِلَ على كذا أو كذا من الأخلاق، أى خلق به وكان طبعاً فيه لا يستطيع التخلى عنه فى الغالب.

وقوله – ﷺ –: «وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه» توكيد للدعاء الأول؛ فمن سأل الله الخير، فقد استعاذ من الشر ضمناً، لكن إذا أردف الاستعاذة من الشر بعد سؤال الخير، كان ذلك أولى؛ لأن مقام الضراعة يقتضي ذلك.

فالداعي كلما كرر الدعاء بلفظه أو بمعناه كان ذلك أحب إلى الله – عز وجل –، وكان هذا الإلحاح فى الدعاء معيناً على قبوله إن شاء الله.

والاستعاذة معناها: طلب العون والحماية والعصمة من الله تبارك وتعالى من كل ما من شأنه أن يتقى ويحذر.

وكل امرئ فيه جانب من الخير وجانب من الشر يضيق هذا ويتسع ذاك، وليس الكمال البشرى إلا للأنبياء.

فلكى يستجاب للرجل فى هذا الدعاء عليه أن يدعو لزوجته بأن يرزقها خيره ويكفيها شره.

قد تقول: إن هذا ليس مذكوراً فى الحديث.

أقول: نعم ولكن لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، كما قال ﷺ.

ودعاؤه لها يذكره بنقصه وقصوره عن إدراك جوانب الخير كلها، ويحمله على التخلص من الأخلاق التى لا يحب أن تكون فى زوجته.

ويستحب لها أن تدعو لنفسها بما يدعو هو به لنفسه، وإن لم تكن مأمورة بذلك فى هذا الحديث.

ولو وضعت يدها اليمنى على ناصيته اليمنى لم يكن فى ذلك بأس إن شاء الله.

ويستحب أن يمكنها من ذلك إن أرادت تطييباً لنفسها.

ويستحب أن يكون الدعاء سراً منعاً من الإحراج ودفعاً لما قد يتوهمه أحدهما أنه من سوء الأدب، وإذا كان كل منهما ملماً بهذه الآداب، فلا يجد فى نفسه حرجاً إن شاء الله، ولا يشعر نحو الآخر إلا بما يشعر به المحب لمن يحب.

أليس كل منهما حريصاً على دوام العشرة وبقاء المودة بينهما؟!

بلى فإن كلاً منهما يتمنى من أعماق قلبه أن تدوم الحياة صفواً بينهما لا يكدرها مُكدِّرٌ ولا يعتريها أى نوع من القلق والاضطراب.

والدعاء فى هذه الحال يُدخل الطمأنينة والسكينة على الزوجين ويجعلهما أكثر تودداً وألفة، إذ يشعر كل منهما بحرص الآخر على حصول الخير منه فى عاجل أمره وآجله.

ولا شك أن فى الدعاء إظهاراً للعبودية الخالصة لله رب العالمين، وتعبيراً صادقاً عن كمال الافتقار لله الواحد القهار. فقد تزوجا بكلمة الله وجمع الله بينهما بإرادته النافذة وقدرته المنفذة، فكان من الخير لهما أن يسألاه تمام المنة بما يحمله هذا الدعاء من المعانى والمرامى.

«والدعاء مخ العبادة»، كما جاء فى الحديث(١)، وهو فى جميع المواطن محمود، وفى مواطن يكون أعظم حمداً، منها هذا الموطن المهيب.

وإنه لمهيب حقاً بالنسبة للزوجين، فإنه ليس من السهل أن تمكن المرأة رجلاً من نفسها بسهولة، فإنها تفضل أن تقتل ولا تمكنه من النظر إليها فضلاً من أن يقترب منها ويضع يده على رأسها، لكن الميثاق الغليظ الذى أخذه كل منهما على الآخر جعل التلاقى موضع قبول وحبور.

وأول التلاقى أصعب مما بعده، فإذا أفضى بعضهم إلى بعض زالت الحواجز النفسية وذهب الخوف وحصل الأنس، فكان كل منهما لباساً للآخر يسكن إليه سكوناً لا يجده الرجل مع أمه ولا مع أخته، ولا تجده المرأة مع أبيها ولا مع أخيها.

هو سكون خاص، يبنى على مودة خاصة، لها طعم خاص، ورحمة خاصة، لها جلال خاص.

يقول الله عز وجل: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾(٢).

ويقول جل شأنه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(٣).

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعاء.

(٢) البقرة: من الآية ١٨٧.

(٣) الروم: ٢١.

وهذا الدعاء ليس مقصوراً على أول لقاء، ولكن مطلوب عندما يشعر كل منهما بشيء من الشر قد أقبل عليه من جهة صاحبه ، أو خاف أن يقبل عليه. إلا أنه في أول لقاء آكد وأحب.

* * *

وقوله: «أو اشترى خادماً» أى جارية تخدمه ويستمتع بها بملك اليمين كما يستمتع بزوجته، فلفظ الخادم يطلق على المذكر والمؤنث، والمراد به هنا ما ذكرناه.

والجارية التى تباع وتشترى: هى التى سُبيت - أى أخذت - فى حرب دينية بين المسلمين والكفار، وليست هى الخادمة التى تستأجر.

وقد عمل الإسلام على إلغاء الرق بأسلوب حضارى أذهل الباحثين المُجدِّين.

واقرأ فى ذلك بحثاً فريداً كتبه الأستاذ/ عباس محمود العقاد فى كتابه (بلال مؤذن الرسول ﷺ).

والخدم شرهم أكثر من خيرهم، والاستغناء عنهم أفضل من استخدامهم ولكن للضرورة أحكام.

ولا يَغيْبَنَّ عنك أن الدعاء إنما يكون عند الدخول على الخادم التى يجوز له الاستمتاع بها، ولكن لا بأس أن يدعو بذلك إذا استأجر خادماً.

فالنص وإن كان مقصوراً على الجارية لا يحجر أن يكون فى الخدم بل وفى الأصدقاء والجلساء والعمال الذين يعمل معهم ونحو ذلك ممن يرجى خيره ويتقى شره، فكن بعيد النظر ولا تُحَجِّر ما كان واسعاً، غير أنك لا تضع يدك على ناصية من لا يجوز لك الاستمتاع بها.

* * *

وقوله ﷺ: «وإن اشترى بعيراً، فليأخذ بذروة سنامه وليقل مثل ذلك» واضح لا يحتاج إلى بيان، وذكر البعير - وهو الجمل أو الناقة - مع ذكر الزوجة

والخادم فيه مناسبة لطيفة؛ لأن فى البعير من المشاكسات والمعاكسات مثل ما لهما.

ويقاس على البعير كل ما يركب من السيارات ونحوها من وسائل النقل البرى والبحرى والجوى.

فإذا اشترى مسلم دابة من الدواب، فليدع بهذا الدعاء، لكن إذا ركبها قرأ قوله تعالى: ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾[1].

أى تنزه الذى ذلل لنا هذه الدابة، وما كنا له - أى لهذا الحيوان وغيره من الناقلات المخترعة - مسخرين أو قادرين على تذليلها وإمساكها، وإنا إلى ربنا راجعون وتاركون هذه المنافع لغيرنا؛ فهو الذى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجع الأمر كله.

*　　*　　*

(١) الزخرف: الآية ١٣ - ١٤.

(١٣٥) إياكم والدخولَ على النساء

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ - رضيِ الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إياكم والدُّخولَ على النِّسَاء» فقال رجُلٌ من الأنصار: يا رسول الله، أَفَرأَيْتَ الحَمْوَ، قال: «الحَمْوُ المَوْتُ»(١).

* * *

يحرص الإسلام الحرص كله على صيانة الأعراض والحرمات من أن تُنال بسوء، أو يعتريها لَمْزٌ أو همز أو غمز، أو يلحق بها ما يَشِينُها ولو من طريق غير مباشر.

وليس عند المؤمن أعزُّ إليه من دينه وعرضه، فدينه هو عصمة أمره، وسلطان عقله وفكره، لا يفرط في شيءٍ من أوامره ونواهيه، ولا يُقَصِّرُ في حق من حقوق خالقة ومولاه، ولا يستخف بسنة من سنن رسول الله - ﷺ.

وأما عرضه فصيانته من صميم دينه، فهو لا يَأْلو جهداً في حمايته والمحافظة على نقائه وصفائه؛ ولذا قيل: من صان دينه، فقد صان عرضه.

ومن أجل صيانة الدين والعرض حَذَّر النبي - ﷺ - من الوقوع في الشبهات، وهي الأمور التي تؤدي في الغالب إلى الوقوع في الحرام، وتفضي - أيضاً - إلى القيل والقال.

فقال: «إن الحلال بَيِّنٌ وإن الحرام بَيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحِمَى يوشك أن يواقعه»(٢).

والأعراض مَثَلُهَا كَمَثَلِ اللبن الخالص، تؤثر عليه أَقَلُّ الشوائب، فإذا عَرَّضَهُ للقيل والقال، فقد لَوَّثَهُ وَعَكَّرَ صَفْوَهَ، وصعب عليه أن يُعيده إلى صفائه ونقائه مرة أخرى.

---

(١) أخرجه البخاري، في كتاب النكاح، باب (١١١) لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأةٍ ...، ومسلم كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية حديث: ٢١٧٢ وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في الإيمان ٣٩، البيوع ٣، ومسلم في المساقاة ١٠٧ - ١٠٨، وغيرهما.

وذلك لأن الناس إذا انتهى إليهم خبرٌ يشين العِرض سرعان ما يصدقونه وتُغرس فى نفوسهم آثاره، وسفهاء الأحلام يزيدون فيه ما شاءوا ويُطَيِّرُونَهُ هنا وهناك، فينتشر هذا الخبر وتشيع الفاحشة بين أهل الفسق والفجور، ويتخذون من هذا الخبر منطلقاً إلى التشهير بمن يعنيهم الأمر، فلا يستطيعون دفعه عن أنفسهم ولا رفع آثاره التى لحقت بهم.

لقد قِيلَ ما قيلَ إن صدقاً وإن كَذِباً   فمـا اعْتِـذَارُكَ مِن قَوْلٍ إذا قِيلاَ

ومن أجل ذلك نهى النبى - ﷺ - عن الدخول على النساء غير المحارم والزوجات؛ لأن مجرد الدخول عَلَيْهِنَّ يثير الشبهة، وربما يُوقع فى الفتنة، ولاسيما إذا تكرّر وصار عادة لا ينكرها العرف الخاص، وهو عرف مزيف لا يؤخذ به ولا يعتمد عليه ولا يُحَكَّمُ فى شىء من أمور الدين ولا فى شىء من أمور الدنيا.

ومن نظر فى هذا الحديث عرف متى يدخل على النساء ومتى لا يدخل عليهن، ومن هنَّ اللاتى يجوز له أن يدخل عليهن واللاتى لا يجوز أن يدخل عليهن، وما الشروط التى يجب توفرها فى الزواج، وما الخطر الذى يلحق الداخل والمدخول عليه، إذا تهاون كل منهما فى هذه الوصية وما يماثلها من الوصايا التى لابد من الأخذ بها لصيانة الأعراض والحرمات.

فتعالوا بنا ننظر فى هذا الحديث نظرات نتعرف من خلالها على أحكام ما قد ذكرناه، وعلى صدق ما قررناه.

* * *

قوله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» أمر ليس على عمومه كما يشهد له الشرع والعقل والواقع، فالنساء اسم جنس لا واحد له من لفظه، يشمل بعمومه: الأمهات والبنات والأخوات وغيرهن من المحرمات، ويدخل فيه الزوجات والإماء، إن كان هناك إماء، فلابد حينئذ أن يحمل على غير الزوجات والمحارم قطعاً.

وقد قال علماء الأصول: «العام يخصص بأدنى قرينة». وهنا عدة قرائن منتزعة من الشرع والعقل والواقع لا حاجة إلى سَرْدِهَا لأنها معروفة مألوفة.

فإن قلتَ لمَ لم يقل ﷺ : إياكم والدخولَ على غير الأزواج والمحارم ؛ حتى يكون الكلام أقرب إلى الفهم وأدق فى تقرير الحكم.

قلت : إنه لو قال ذلك لاستخف بعقول الناس، واتهمهم بسوء الفهم وعدم الخبرة بمعالم الشرع ومقاصده، وهذا لا يلجأ إليه الفصحاء من عامة الناس، فكيف بمن جمع البلاغة كلها فى منطقه وسحر بيانه، لقد كان فى أسلوبه تدريب للعقل فى إسناد كل شىء لما يستحقه، ووضع كل لفظ موضعه، ومعرفة كل معنى من المعانى على حِدَةٍ، والإحاطة بمرماه على قدر طاقته.

وفى القرآن الكريم كثير وكثير من ألفاظ العموم يراد بها الخصوص. وذلك معروف مشهور عند علماء الأصول وغيرهم.

و «إياكم» أسلوب تحذير على أبلغ ما يكون التحذير، فهو أسلوب يُشعر بخطر ما يُحذر منه وبضرورة الابتعاد عنه؛ حماية للدِّين ووقاية للنفس، وصيانة للعرض وحفظاً للعقل والمال.

وأى شىء أشد خطراً على الرجال من النساء؟ فهن حلفاء الشيطان ومصائده ، وأسهمه التى تقتحم العيون لتفتك بالقلوب.

يقول النبى - ﷺ -: «ما تركت بعدى فِتْنَةً هى أَضَرُّ على الرِّجَالِ من النساء» (١) .

وعن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مسموم من سهام إبليسَ ، من تَرَكَهَا من مخافتى أَبْدَلْتُهُ إيماناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فى قلبه» (٢) .

* * *

ولما سمع أصحاب النبى - ﷺ - هذا التحذير، قال رجل منهم: «يا رسول الله، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ» .

---

(١) رواه مسلم عن أسامة بن زيد، حديث رقم: ٢٧٤٠ .

(٢) رواه الطبرانى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

أى إنى أسـألك عن الحـمـو هل يدخل على من اعـتـاد الناس أن يدخلوا عليهن، فأخبرنى بحكمهم، هل هو كسائر الناس أم له خصوصية؟

ومن حق هذا الرجل أن يسأل ليتعلم ويستوثق من الرسول - ﷺ - فى ذلك، فيجيبه الرسول - ﷺ - بكلمة موجزة بليغة، تُذهب الشك وتقطع دابر تلك العادة، التى يترتب عليها فسادٌ فى الخلق وإفساد للعرض، فيقول: «الحَمْوُ المَوْتُ».

والحمو أخو الزوج وابن أخيه وعمه وابن عمه وأشباههم.

ولعل المراد به أخو الزوج بالأصالة، وغيره ممن ذكرنا بالتبعية؛ لأنه هو الذى يتكرر دخوله فى بيت أخيه، والناس لا ينكرون عليه ذلك، ولا يشكون فى أمانته؛ نظراً لحرمة أخيه.

وتكرار دخوله يؤدى حتماً إلى النظر إليها فى أحوالها المختلفة، ويتحدث إليها من غير خجل ولا وجل فيما يعم وما يخص، ويباسطها وتباسطه فى ألفة أدى إليها قربه منها وقربها منه، وللشيطان فى ذلك حِيَلٌ عجيبة وخطوات سريعة متلاحقة، فيزينها له ويزينه لها فتنبعث شهواته وشهواتها من كوامنها، ويطيش العقل، ويتجمد التفكير فى عواقب الأمور، ويذهب الإيمان شيئاً فشيئاً، وينسى الأخ حرمة أخيه، وتنسى المرأة حرمة زوجها، وتقترب النار من الوقود فتشتعل وتستعر، فيندم كل منهما على ما فعل بصاحبه، وربما يَسْتَمْرِآن هذا العمل ويستمران عليه ولا يتوبان منه، فتكون العواقب وخيمة، لا يدرك مداها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

تَفْنَى اللذائذُ ممَّنْ نَالَ شَهْوَتَهُ مِنَ الحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ والعَارُ
وَتَبْقَى مَغَبَّةُ سُوءٍ فى مَعَرَّتِهَا لا خيرَ فى لَذَّةٍ من بَعْدِهَا نَارُ

وأكبر مَغَبَّة تلحقها قسوة القلب، وموت الضمير، وفساد الأخلاق واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المآسى التى تترتب على هذه الخيانة العظمى لو افتضح أمرهما.

وكلنا يعرف ماذا يترتب لو فاحت رائحة الخبر، ثم شاع وانتشر، وكان

الزوج آخر من يعلم، وهو لم يكن يتوقع شيئاً مما فعله أخوه بمن ائتمنه عليها ووكل إليه إصلاح أمرها وسمح له بالدخول عليها.

هل يقتله؟ ، ربما - ولَمَ لا؟ والغيرة على الحرمات تسلب الرجل لُبَّهُ، وتُذهب الحنان من قلبه فيُقدم على من انتهك عرضه كالأسد الذى يهجم على فريسته.

وهل يُطَلِّقُ زوجته التى لم تحفظه فى عرضه أثناء غيبته؟.

نعم يفعل ذلك وأكثر من ذلك، فربما يكون عقابها القتل أيضاً.

إنها خيانة يتوقع المرء لها من الآثار والأخبار ما لم يكن فى الحسبان.

ونحن نقرأ فى الصحف من ذلك الكثير والكثير.

من هنا كانت هذه الوصية على قدر عظيم من الأهمية وعلى درجة عالية من السمو الخلقى والوعى الاجتماعى.

فالحمو إذاً هو الموت نفسه، فإن لم يكن هو فكأنه هو.

فإذا كان المرء يخاف على نفسه من الموت، فليخف على نفسه وعلى زوجه ومحارمه من هذا القريب، الذى تسمح له العادة أن يقتحم البيوت كلما أراد: باستئذان وبغير استئذان. فإذا سئل عن ذلك أو نهى عنه أو عُيِّرَ به يقول: ما لكم!! هذا بيت أخى وفيه امرأة أخى، ليس فى البيت امرأة غريبة، إلى آخر ما يمليه عليه الشيطان من المعاذير والأقاويل.

والناس ينظرون إليه فى حنق وغضب وخجل، تدفعهم الغيرة إلى تَتَبُّعه وتَقصِّى أخباره مع امرأة أخيه هذه، فينقلب الشك ظناً وربما ينقلب الظن علماً.

فإن لم يستطيعوا أن يجدوا عليه شيئاً توهموا أنه قد فعل وفعل، وسرعان ما يصبح الوهم حقيقة، فلا يستطيع رَدَّهَا، فيتمنى من أعماق نفسه أن يكون قد أخذ بهذه الوصية النبوية وعمل بها، ولكن لا ينفع الندم ولا يفيد التمنى شيئاً.

وقد قالوا فى الأمثال العامية: زرعوا لو طرحت يا ليت.

اعلم - أيها الأخ الكريم - أن البعد عن مواطن الشك والشبهة واجب من

أعظم الواجبات؛ استبراءً للدين والعِرْضِ وقطعاً لألسنة المرجفين الذين لا هم لهم إلا تتبع العورات وترويج الشائعات والأخذ بالظن فى عظائم الأمور.

فاتقاء الريبة والبعد عن مواطنها وعن الأسباب التى تؤدى إليها، يوفر علينا مؤنة دفعها عن أنفسنا عند وقوعها، وغالباً ما نعجز عن دفعها للأسباب التى ذكرناها من قبل.

والوقاية خير من العلاج ، كما يقولون.

واعلم – أيها الأخ الكريم – أن الحق أحق أن يتبع، ومن الحق أن تصون بيتك من كل من يدخله من غير أن تأذن له بالدخول، ولا سيما الأقارب من جهتك أو من جهة امرأتك.

ولا تأذن لأحد فى دخول بيتك فى غيبتك إلا للمحارم.

فإن كنت حاضراً فَأذن لمن شئت، واحجب زوجتك وسائر من فى بيتك من النساء عن الرجال ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وإن كان ولابد أن تجلس امرأتك فى المجلس الذى فيه ضيفك فلتكن مختمرة بعيدة عن نظره، ولا تتكلم إلا عند الضرورة، وإذا تكلمت، فليكن كلامها معتدلاً، ليس فيه شىء من الميوعة والخضوع.

والمؤمن من شأنه أن يكون غيوراً على دينه وعرضه، ولكن لا ينبغى أن تدفعه الغيرة إلى التشدد والتزمت، فخير الأمور أوساطها.

والتشدد فى الدين أخطر من التهاون فيه، والمؤمن معه عقله وضميره، يتصرف فى الأمور على حسب مقتضيات الأحوال وفق تعاليم دينه، فيأتى من الأقوال والأفعال بما لا يتنافى مع الدين والأدب والعرف المتبع، الذى يُقِرُّهُ الدين ويرتضيه العقل السليم.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٣٦) لا يَخلُونَّ رجلٌ بامرأة

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال: «لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، ولا تسافِرِ المَرْأَةُ إلاَّ مع ذى مَحْرَمٍ».

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امْرَأَتِى خَرَجَتْ حاجةً وإنِّى اكْتُتِبْتُ فى غزوةِ كذا وكذا. قال: «انْطَلِقْ فَحُجَّ مع امْرَأَتِكَ»(١).

* * *

الخلوة بالأجنبية ريبة ومذمة، وخيانة وفتنة، وإثم عظيم لمن تكرر منه ذلك أو تهاون بهذا الأمر واستخف بما يترتب عليه من الآثار.

وقد سبق بيان هذه الآثار فى الوصية التى قبلها.

وسفر المرأة من غير محرم مسافة يخشى عليها من التعرض لخطر يلحقها مخاطرة بالنفس، وخروج عن حَدّ اللياقة والأدب والعرف الذى ينبغى أن يراعى ويتبع.

والرجل الحازم الغيور لا يدع امرأته تخرج فى سفر - ولو إلى طاعة - وحدها دون أن يكون معها، أو يكون معها ذو محرم منها.

وفى هذه الوصية تحذير شديد للمرأة وللرجل معاً، بوصفه قواماً عليها ومسئولاً عن حمايتها.

وهذه الوصية واضحة فى معانيها ومراميها، لا تحتاج منا إلاَّ إلى لَمَسَاتٍ من البيان.

وإليك - أيها الأخ المسلم - هذه اللمسات فى خفة وتعفف عن سوء المقال وذكر سيئات الأعمال، التى تترتب على الخلوة بالمرأة وعلى سفرها دون أن يصحبها زوجها أو ذو محرم منها.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، حديث رقم: ١٣٤١.

قوله - ﷺ -: «لا يَخْلُوَنَّ» نَهْى شديد اللهجة مؤكد بنون التوكيد الثقيلة عن الخلو بالأجنبيات فى أى مكان تتحقق فيه الخلوة.

والخلوة معناها: أن يلتقى الرجل مع المرأة فى مكان يتمكن فيه منها لو أراد ذلك.

وحُرّ النساء بعدهن عن الرجال بقدر الإمكان درءاً للمفسدة ودفعاً للتهمة وصيانة لأعظم شيء ينبغى أن يصان.

وقوله - ﷺ -: «إلا ومعها ذو مَحْرَمٍ منها» ليس شرطاً فى الخلوة؛ لأنه لو كان معها محرم لا تسمى خلوة، ولكنه بيان للحال التى ينبغى أن تكون مصاحبة للمرأة عند الالتقاء بالرجال، بدليل ذكر الواو، فإن لم يكن فى الرواية واو فإنها تُقَدَّرُ؛ لأنها أحياناً تحذف تخفيفاً.

والمعنى أنه لا ينبغى أن يلتقى الرجل بالمرأة إلا فى حالة وجود المحرم، ولا تسمح له بهذا إلا ومعها محرم حاضر، لا ليدافع عنها إن وقع اعتداء عليها فحسب، ولكن لتدفع عن نفسها الريب والشبهة ومقالة السفهاء، والعرض كما ذكرنا كاللبن الخالص تعكره أى شائبة، فلا يعود إلى ما كان عليه غالباً.

وقوله ﷺ: «ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم» أسلوب نهى من غير توكيد؛ لأن سفرها فى الغالب لا يكون إلا مع محرم، وقَلَّ أن تفكر فى السفر؛ لأنها ليست فى حاجة إليه كالرجل، فالرجل يسافر كثيراً من أجل طلب الرزق، أما هى فإنها تكون تابعة لزوجها إن أراد أن تصحبه، أو تسافر لتأدية فريضة الحج؛ لهذا لم يؤكد هذا النهى بأداة التوكيد، فتأمل فى هذا الأسلوب الحكيم ولا يغب عن ذهنك دقته فى التعبير.

وقول الراوى: «فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتى خَرَجَتْ حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا»: يدل على أنها خرجت من غير مَحْرم، وإن لم يصرح بذلك، وبدليل قوله ﷺ: «انطلق فحج مع امرأتك»؛ إذ لو كان معها محرم ما منعه من الجهاد وهو قربة من أعظم القربات.

وقد تسألنى : كيف أمره أن يترك الجهاد فى سبيل الله ليحج مع امرأته، وقد نواه وعزم عليه وتأهب للقاء العدو ، والجهاد من أفضل الأعمال .

فأقول لك : إن صيانة العرض من أوجب الواجبات، وهو أمر مُتَعَيِّنٌ عليه، والجهاد فرض على الكفاية : إن قام به البعض سقط عن الباقين.

وقد يضاف إلى ذلك أن الحاجة قد لا تكون إليه ماسة، والجند يومئذ كثير.

وربما يؤدى به التفكير فى امرأته وتأنيب نفسه على تركها تحج وحدها فى سفر طويل ذاهبة وآيبة، فيعوقه هذا التفكير عن القتال، ويحطم روحه المعنوية أو يقلل من عزمه ويحد من حركته فى الكر والفر.

ولا يخفى علينا ما يعانيه المرء من الأحوال النفسية والعصبية عندما ينقطع عن أهله وهم فى غير مأمن، وليس معهم من يعولهم ويدفع عنهم السوء ويخفف عنهم ما قد ينزل بهم من مصاب.

والرسول – ﷺ – طبيب الأطباء وحكيم الحكماء، وهو مع عبقريته التى لا تدانى يتلقى الوحى من ربه ، فلا يكون لأمره أو نهيه رَدٌّ ولا على حكمه اعتراض – صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين – .

* * *

والسفر الذى لابد للمرأة فيه من محرم لا يُحد بمسافة القصر ولا بالليالى والأيام، ولكنه يُحَدُّ بالمسافة أو المدة التى يتوقع أنها تكون فى خطر، إذا لم يكن معها محرم.

وقد يقال : إنه قد وردت أحاديث تُحَدِّدُ المسافة والمدة وكلها فى صحيح مسلم(١) .

فعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا تسافر المرأة ثلاثاً، إلا ومعها ذو مَحْرَمٍ » .

وفى رواية عنه : « ثلاثَ ليالٍ » .

---

(١) انظر كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره .

وعن أبى سعيد الخدرى قال فى حديث طويل: وسمعته يقول: «لا تُسَافِرِ المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها، أو زوجها».

وعنه أيضاً أن نبى الله - ﷺ - قال: «لا تسافر امرأةٌ فوق ثلاث ليال، إلا مع ذى محرم».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة، إلا ومعها رَجُلٌ ذو حرمة منها».

أقول: إن هذه الأحاديث تدل على عدم التحديد لا على التحديد، وتفيد فى جملتها أن العدد لا مفهوم له، وأن المعول عليه هو ما ذكرناه من أن السفر الذى لابد فيه من المحرم هو الذى يخشى عليها فيه من الخطر.

فإذا أرادت المرأة أن تسافر إلى مكان ولو كان بعيداً والطريق آمن ومعها رفقة مأمونة، قامت هذه الرفقة مقام المحرم.

والرفقة المأمومة هى المكونة من رجلين وثلاث نسوة كما يقول المالكية، أو أربع نسوة كما يقول الشافعية.

ولا ينبغى أن نتشدد فى هذا الأمر كثيراً، ولكن يجب أن نراعى الظروف التى تسافر فيها المرأة، ونراعى أيضاً قدرتها على حماية نفسها وخبرتها بالطريق وثقافتها، ومدى العمران الذى تسير فيه، فإن هذا يجعلنا نفتى بما يوافق سماحة الإسلام ويسره، ونرخص فى إباحة ما منع من أجل الضرورة وفقاً لعموم قوله تعالى: ﴿فمن اضطُر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (١).

وقد أخذ الأصوليون من هذه الآية قولهم فى القواعد الفقهية: «الضرورات تبيح المحظورات»، وقولهم: «الأمر إذا ضاق اتسع»، وقولهم: «المشقة تجلب التيسير».

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

---

(١) البقرة: ١٧٣.

(١٣٧) تَصَدَّقْنَ ولو من حَلْيكُن

عن زينب امرأة عبد الله - رضي الله عنهما - قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقْنَ، يا معشرَ النساء ولو من حَلْيِكُن».

قالت: فرجعت إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله - ﷺ - قد أمرنا بالصدقة. فأته فاسأله. فإن كان ذلك يجزى عنى وإلا صرفتها إلى غيركم.

قالت: فقال لى عبد الله: بل ائتيه أنت.

قالت: فانطلقت. فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله - ﷺ - حاجتى حاجتها.

قالت: وكان رسول الله - ﷺ - قد ألقيت عليه المهابة.

قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله - ﷺ - فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزى الصدقة عنهما، على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟. ولا تخبره من نحن.

قالت: فدخل بلال على رسول الله - ﷺ - فسأله. فقال له رسول الله - ﷺ - «من هما»؟ فقال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله - ﷺ -: «أى الزيانب؟» قال: امرأة عبد الله. فقال له رسول الله - ﷺ - «لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة»[1].

* * *

كان النبى - ﷺ - يتجه إلى النساء بعد أن يفرغ من الرجال فيعظهن بمثل ما وعظهم به، ويخصهن بالخطاب مع أنهن شقائق الرجال فى الأعمال الصالحة والإثابة عليها؛ مبالغة فى حضهن على فعل الخير وإشعارهن بتحمل التبعة فى

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين حديث رقم: ١٠٠٠.

إطعام الفقراء والمساكين من فضول أموالهن كما يفعل الرجال سواءً بسواء مادام لهن مال ينفقن منه.

وكانت النساء يجدن فى هذا الخطاب حلاوة تدفعهن إلى السمع والطاعة أكثر من الرجال أحياناً، فيسارعن فى الخيرات ويتنافسن مع الرجال فى الصلاة والصوم والزكاة وسائر أنواع العبادات والقربات.

فقد أقبل عليهن يوماً فأوصاهن بهذه الوصية المقتضبة، فبلغت منهن مبلغ العظة والاعتبار، وأخذت كل واحدة منهن تبحث فى بيتها عن شىء تتقرب به إلى الله تبارك وتعالى.

والنساء أرق من الرجال عاطفة وأحن منهم على ذوى القربى واليتامى والمساكين، وهن أحوج من الرجال إلى إخراج الصدقات لكثرة ذنوبهن؛ فأنهن يكثرن اللعن ويكفرن العشير، وهو الزوج، ويأتين من الأفعال ما يوجب دخولهن النار.

فقد اطلع النبى - ﷺ - فى النار فوجد أكثر سكانها النساء. فلا عجب أن يحضهن الرسول - ﷺ - بهذا الخطاب دون الرجال وإن كانوا مأمورين بذلك مثلهن.

* * *

فقوله - ﷺ -: «تصدقن يا معشر النساء ولو من حَليكن» (١) ترغيب لهن فى إخراج شىء من أموالهن تطوعاً للفقراء واليتامى والمساكين إبتغاء مرضاة الله تعالى، ولو من حليهن وهو أعظم ما لديهن، وهن فى الغالب لا يجدن بشىء منها لحبهن للزينة والمفاخرة، وكأنه يقول لهن: لا تبخلن بشىء من أموالكن مهما كانت عزيزة عليكن؛ فإن الآخرة خير وأبقى، ولن يحصل العبد على حسن الثواب إلا إذا جاء بما يحب.

---

(١) الحلى - بفتح الحاء وسكون اللام - مفرد، والحُلى - بضم الحاء وكسر اللام - جمع حلية.

يقول الله عز وجل: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾ (١) .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله - ﷺ -: «ولو من حليكن» قطع أعذارهن عن البخل بما فى أيديهن ، ولو كان التصدق بشىء مما تستطيع المرأة أن تستعيض عنه بشىء آخر أو تستغنى عنه.

وذلك مبنى على أن المرأة المسلمة كانت تتحلى فى الغالب بما ليس له ثمن مرتفع زهداً فى الدنيا ورغبة فى الآخرة.

وكان أكثر المهاجرين والأنصار من الفقراء حتى أن الرجل لم يكن يملك إلا ثوباً واحداً يتبادله مع امرأته أحياناً.

وما أغناهم الله عز وجل إلا بعد أن جاهدوا فى سبيله وغنموا من أموال الكفار غنائم كثيرة.

وكانت بعض النسوة يستنكفن أن يخرجن التمرة ونحوها لمن هو فى حاجة إليها. فحثهن النبى - ﷺ - على التصدق بمثلها دون إحراج أو خجل، فقد تشبع التمرة جائعاً، وقد تشبع جائعين ببركة الله عز وجل، فقال فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه: «لا تحقرن جارة لجارتها. ولو فرسن شاة» وفرسن الشاة ظلفها مما يلى القدم.

والمعنى لا تستخف جارة بالشىء الذى عندها مهما كان قليلاً أن تهديه لجارتها، فإن الهدية تحفظ الود وتجلب المحبة ، وتقضى الحاجة وتقى من عذاب النار.

وقد روى مسلم أيضاً عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - قال: سمعت النبى - ﷺ - يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة، فليفعل».

وروى مسلم أيضاً عن عدى بن حاتم قال: ذكر رسول الله - ﷺ - النار

---

(١) آل عمران: ٩٢.

فأعرض وأشاح ثم قال: «اتقوا النار»، ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها. ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة. فمن لم يجد، فبكلمة طيبة».

* * *

ولكن هل يجوز للمرأة أن تتصدق من مالها بغير إذن زوجها.

أقول: في المسألة خلاف بين الفقهاء. فمنهم من يرى أن لها الحق في ذلك وأن استئذانه من الأمور المستحبة لا من الأمور الواجبة لعموم قوله - ﷺ -: «تصدقن يا معشر النساء».

ومنهم من يرى أن استئذان الزوج واجب في الصدقة التي تعلم أن زوجها لا يأذن فيها غالباً؛ لأنه قوام عليها ومسئول عن حفظ مالها، وقد يكون هو في حاجة إليها.

أما في القليل فلا بأس أن تخرجه من غير أن تستأذنه فيه، وهذا هو الراجح من أقوال الفقهاء؛ لأن زينب راوية هذا الحديث قد أتت زوجها تعرض عليه صدقتها لحاجته إليها بشرط أن يذهب إلى النبي - ﷺ - فيسأله عن ذلك.

فلما ذهبت إليه وجدت امرأة أخرى تريد أن تسأله عن الذي جاءت تسأل عنه، فأرسلتا بلالاً إليه؛ هيبة له ﷺ وحياءً منه، فسأله، فقال ﷺ: «لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة».

وذلك لأن مودة ذوي القربى في ذاتها لها أجرها العظيم، ولو كانت بغير صدقة، فكيف لو كانت بصدقة!!

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ (١).

وأما الصدقة فإن أجرها يكون بقدر الإخلاص فيها، ويكون بقدر حال صاحبها من الفقر والغنى.

قال عليه الصلاة والسلام: «سبق درهم مائة ألف درهم».

قالوا: وكيف؟

---

(١) الشورى: ٢٣.

قال: «كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عُرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها»[1].

والمراد بالصدقة: صدقة التطوع.

أما الزكاة فإنها لا تعطى للزوج إلا إذا كان عليه دَين قد اقترضه قبل الزواج منها، أو اقترضه لقضاء حاجة لا تخصها كالنفقة على أمه أو على ولده العاجز من غيرها، وذلك عند الضرورة.

أما الأقارب فإنهم يأخذون من الزكاة إلا الأصول والفروع، وهم الآباء والأبناء؛ وذلك لأن نفقة الآباء واجبة على الأبناء، ونفقة الأبناء واجبة على الآباء في حال العجز.

هذا والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه النسائي، في كتاب الزكاة، باب جهد المقل.

(١٣٨) إِيَّاكُمْ والظنَّ

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال: «إِيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكُونوا عبادَ الله، إخْوَاناً»(١) .

* * *

أحكام الشريعة الإسلامية تبنى على الصدق واليقين لا على الظن والتخمين.

فقواعد الإسلام العقدية والشرعية قطعية، لاشك فيها ولا التباس، ولا تناقض فيها ولا اختلاف.

ومن هذه القواعد قولهم: اليقين لا يرتفع إلا بقين.

وقولهم: لا عبرة بالظن البَيِّن خطؤه.

وقولهم: استصحاب الأصل وطرح الشك، وبقاء ما كان على ما كان.

والعمدة فى هذه القواعد ونحوها قوله تعالى: ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً﴾ (٢) .

وقوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة» (٣) .

أى اترك الشىء الذى ترتاب فى حلِّه، أو تشك فى منفعته، أو تجد فى نفسك حرجاً فى تصديقه، أو تظن أنك لو أخذته لعاد عليك من وراء أخذه

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض، وأخرجه أيضاً فى كتاب النكاح باب ٤٤ بزيادة ونقص، وأخرجه مسلم، فى كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس بزيادة قوله: «ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا».

(٢) النجم: آية ٢٨.

(٣) رواه الترمذى عن الحسن بن على – رضى الله عنهما –، وقد تَقَدَّم شرحه.

شيء لا ترضاه لنفسك، أو هو مما يقدح في مروءتك وسلامة دينك، والزم ما يطمئن إليه قلبك فافعله أو خذه، ودع الشبهات؛ فإنها من المهلكات.

والصدق ثبات في الدين وطمأنينة في القلب وسكينة للنفس، والكذب على الضد من ذلك.

والإسلام حريص كل الحرص على تحرير المسلم من بوائق الشك وغوائله، وهواجس النفس وخطراتها، ووساوس الشيطان وخطواته.

والمرء رهين قلبه فصلاحه في صلاحه، وفساده في فساده.

ولا يصلح القلب إلا بترك الظنون السانحة، والتي ترد عليه من هنا وهناك؛ فإنها تُعَكِّرُ عليه صفوه، وتُكَدِّرُ جلوته، وتطفيء نوره، وتَذْهَبُ بما فيه من سكينة وطمأنينة.

ولهذا حذرنا الرسول - ﷺ - في هذه الوصية من الظن السَّيِّئ فقال: «إياكم والظن؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث».

أي احذروا الظن كل الحذر، واخشوا على أنفسكم من بوائقه، ولا تطلقوا له العنان فيما لا يعنيكم أمره، وَتَثَبَّتُوا من الأنباء الواردة على ألسنة الفساق، ولا تأخذوا بأقوال المرجفين في البلاد، ولا تعتمدوا على الشائعات المغرضة في إحقاق الحق وإبطال الباطل، والزموا الأدب مع الله في الأقوال والأفعال، والزموا الأدب مع الناس في أعراضهم وحرماتهم، ولا تجعلوا للظن دخلاً في اتهام هذا وتبرئة ذاك؛ فالظن أكثره وَهْمٌ، لا يُعتمد عليه في نفي ولا في إثبات، ولا يُعَوَّلُ عليه في أي أمر من أمور الدين، بل ولا في أي أمر من أمور الدنيا، ولا سيما إذا كان الظن بَيِّناً خطؤه.

فإن الظن أكذب الحديث عند الله وعند العقلاء من الناس.

والمراد بالحديث: حديث النفس؛ فإنها أَمَّارة بالسوء، تُمْلي لصاحبها من وحي خيالها أوهاماً لو عُرِضَت على العقل السليم لَكَبَتَها في مَهْدِهَا، وقضى عليها إبَّانَ وُرُودِهَا، وما تركها لحظة تغادر الخيال.

والظن قسمان: ظن حسن يهدى إلى البر، ويقطع الشك المؤدى إلى إفساد المعتقد.

وظن سيىء يؤدى إلى تَتَبُّع العورات وانتهاك الحرمات، وتخوين الأبرياء وإيقاع الفتن بين الناس.

والظن المنهى عنه فى هذه الوصية هو الظن السيئ كما أشرنا، وليس الظن بنوعيه؛ فالعام يخصص بأدنى قرينة كما يقول علماء الأصول.

وآية الحجرات دليل قاطع على هذا التخصيص، وهى قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ (١).

فقد نهى الله عن الكثير من أنواع الظن؛ لأن أكثر أنواعه موضع للتهمة والتخون فى الأعراض والحرمات، وهو الأمر الذى يؤدى إلى التجسس وتتبع العورات كما سيأتى بيانه فى قوله: «ولا تجسسوا».

فلا ينبغى أن يترك المسلم نفسه نهباً للوساوس الشيطانية والهواجس النفسية لما يدور حول الآخرين من شكوك وشبهات.

والنهى منصب على أكثر الظن، والإثم متعلق ببعضه دون بعض، ومادام الأمر كذلك كان النهى مقتضياً لاجتناب الظن أصلاً دفعاً للشبهة وسداً للذريعة فإنه لا يدرى أى ظنونه تكون إثماً، بهذا الأمر يطهر الله قلوب عباده من التلوث بالظن السيئ المؤدى حتماً إلى الوقوع فى الإثم، ويدعها نقية بريئة من الهواجس والشكوك سليمة من كل ما يعكر صفو إيمانها.

ونحن نعلم أن العبد لا ينجو من عذاب الله فى الآخرة إلا بسلامة القلب وصدق اليقين.

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٢).

وعلى المسلم أن يحسن الظن بأخيه المسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فإن ذلك يعينه على تطهير قلبه من غوائل سوء الظن ومفسداته الأخلاقية والاجتماعية.

---

(١) آية: ١٢.

(٢) الشعراء: ٨٨ – ٨٩.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً.

فقد يذهب الرجل إلى أخيه فيسأله قرضاً حسناً، فيقول له أخوه: ليس عندى ما أقرضك. فيظن أنه بخل عليه بماله ولم يُرْث لحاله فيقاطعه ويهجره، وربما يغلظ له فى القول أو يدبر له مكيدة، أو يشنع عليه ويشهر به، مع أنه كان من الواجب عليه أن يحسن الظن به، ويلتمس له العذر فى ذلك، ويقول فى نفسه: ربما لا يكون معه شيء يقرضنى منه، أو معه شيء هو فى حاجة إليه. أو ما أشبه ذلك من الأعذار، ويبحث فى حاله معه، فربما يكون الرجل قد أقرضه يوماً شيئاً من المال فماطل فى السداد، أو اقترضه منه ولم يكن فى حاجة إليه، أو اقترض منه شيئاً أنفقه فى غير محله أو فى غير الوجه الذى أخبره إنه ما اقترض منه هذا المبلغ إلا لأجله.

وبذلك ينصف الرجل وينصف نفسه.

وخير الناس من نظر فى عيبه فاستعظم ذلة نفسه وحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره.

وما يقال فى القرض يقال فى العِرض، فإذا رأى منظراً ساءه من جاره أو من امرأة جاره فليعرض عنه ولا يحاول أن يتحقق من جلية الأمر؛ فذاك تجسس مبنى على الظن، وربما لو تحقق من جلية الأمر لترتب على ذلك ما لا تحمد عواقبه.

وقد قال النبى ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (١).

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لازِمات لأمتى: الطِّيرة والحسد وسوء الظن».

فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟

قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض» (٢).

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه.

أى إذا دَبَّ الحسد فى قلبك فاستغفر الله من ذلك، واذكر الله فى نفسك، وقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. كما جاء فى الأخبار الصحيحة؛ فإن فعلت ذهب عنك حسدك، ولم يُؤَثِّر فى المحسود.

وإذا وقع فى قلبك الظن السيئ فلا تحاول أن تحقق هذا الظن بالتقصى والتَّحَسُّس والتجسس واتباع العورات.

وإذا تشاءمت من شيء فاستبدله بالتفاؤل، وامض فى طريقك متوكلاً على ربك عز وجل.

والمسلم الحق من يحمل الظن على أحسن وجوهه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يدخر وسعاً فى تبرئة الناس مما يتهمون فيه أو يعابون به؛ خوفاً من أن يقع فيما وقعوا فيه أو يصاب بما أصيبوا به؛ فإن من حفر لأخيه جُبّاً وقع فيه مُكِبّاً. وكما تدين تدان.

* * *

وقوله ﷺ فى هذه الوصية: «ولا تحسسوا، ولا تجسسوا» معناه: لا تحققوا الظن الذى خطر لكم بالتحسس ولا بالتجسس.

لكن ما الفرق بين التحسس والتجسس؟

أقول: التحسس: الاستماع لحديث القوم، والتجسس: البحث عن العورات.

وقيل التجسس هو: التفتيش عن بواطن الأمور من غير داع يقتضيه.

وغالباً ما يطلق التحسس فى الخير والتجسس فى الشر.

والنهى عن التحسس هنا إنما هو نهى عن المذموم منه، وهو الاستماع إلى ما يُرَوِّجُهُ قالة السوء عن الأحرار والحرائر من الشائعات المُغْرِضة والتّهم التى لا يؤيدها الدليل.

أما التحسس فى الخير فلا شيء فيه.

ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف: ﴿ يا بَنِىَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (١).

أى اسألوا الناس عنهما، واستمعوا إلى ما يقولونه فى شأنهما.

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن السيئ، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات.

والإسلام يقاوم هذا العمل الدنىء مقاومة لا هوادة فيها، لتطهير القلوب من مثل هذا الاتجاه اللئيم فى تتبع عورات الآخرين، وكشف سوءاتهم؛ وتمشياً مع مقاصده فى تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك.

وهذه المبادئ الأخلاقية التى حث عليها الإسلام تنسحب على المجتمع كله؛ إذ الفرد لبنة فى بنائه العام.

فللناس حُرِّيَّاتهم وحرماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى أى صورة من الصور، ولا أن تمس بأى حال من الأحوال.

ففى المجتمع الإسلامى الرفيع يعيش الناس آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم فى ظل هذا الدين القويم، فلا يوجد مبرر فى نظامه العام والخاص لانتهاك حرمة من الحرمات ولا انتهاش لعرض من الأعراض. ولا اعتداء على ملكية أحد يتمتع بالحصانة الإسلامية والعدالة الاجتماعية.

حتى الذريعة التى تتخذها بعض القوانين فى تتبع بعض الآثمين الذين يرتكبون آثامهم فى الخفاء بعيداً عن أعين الناس لا يسمح بها الإسلام ما دامت لا تتعدى على حقوق الآخرين مبالغة فى صيانة الأعراض والحرمات والحريات الشخصية؛ فالناس قد وُكِلُوا إلى بواطنهم، فإن ظهر منهم شىء يُخِلُّ بالآداب العامة أخذنا على أيديهم؛ إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، وحماية للمجتمع من شرهم وخطرهم وليس لأحد أن يتعقبهم فى عقر ديارهم ليكشف ما ستروه عن الناس.

---

(١) آية: ٨٧.

وليس لأحد أن يظن فيهم ظن السَّوْءِ فيحقق ظنه بالتَّطَلُّعِ عليهم وتفقد أحوالهم فى بيوتهم، حتى ولو كان هو الحاكم؛ إذ ليس له أن يوقع بهم العقاب لمجرد الظن أو لخبر نقله فاسق أو صالح، بل إنه لو نقل إليه شخص عن شخص ما رآه فيه من سوء انتهره على ذلك وأَنَّبَهُ، ونهاه عن ذلك، ووعظه وَذَكَّرَهُ بالله وحذره من عواقب التجسس والنميمة، وأخذ منه العهد ألا يعود لمثلها.

هذا هو الإسلام فى أسمى تشريعاته وأرقاها. فأى نظام يدانيه فى ذلك؟

إن الحرية الشخصية شيء مقدس فى نظر الإسلام ما لم يتجاوز بها الفرد حدود اللياقة والأدب، فهو دين الوسطية، لا إفراط فيه ولا تفريط.

روى أبو داود فى سننه، أن ابن مسعود - رضى الله عنه - قيل له: إن فلاناً تقطر لحيته خمراً، فقال - رضى الله عنه -: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به.

قال مجاهد: لا تجسسوا، وخذوا بما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله.

وروى أبو داود عن الليث بن سعد قصة خلاصتها: أن رجلاً قال لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر وسوف أدعو لهم الشُّرَط ليأخذوهم، فقال له: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم، قال: فعلت ولكن لم ينتهوا، وسوف أدعو لهم الشرط ليأخذوهم،قال عقبة: لا تفعل؛ فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من ستر عورة امرئ فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال له رجل: إن فلاناً يشرب الخمر، فكتب إليه كتاباً وأرسل به رجلاً إليه، فلما فَضَّ الرجل الكتاب نظر فيه، فإذا هو يقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطَّول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (١) فبكى الرجل بكاءً شديداً وتاب إلى الله عز وجل، فلما جاءه الرسول وأخبره خبره فرح بذلك فرحاً شديداً، وقال لجلسائه: هكذا فافعلوا بإخوانكم.

---

(١) غافر: ١ - ٣.

ورأى عمر – رضى الله عنه – يوماً جمعاً من الناس خلف رجل وجارية يرمونهما بالحجارة، فلم يتحقق عمر من جَلِيَّةِ الأمر ولكن زجرهم وصَدَّهم عنهما وقال: اغربوا عن وجهى، وجوه لا تُرى إلا فى الشر.

ومن اطلع على الشروط التى وضعها الإسلام فى إقامة الحدود – عرف صدق ما قلناه من أن حرية النفوس فى الإسلام مصانة، وأن كشف الأسرار عدوان مبين وجرم عظيم.

* * *

وقوله ﷺ فى هذا الحديث: «ولا تباغضوا» أى: ولا يبغض بعضكم بعضاً فى غير الله تعالى؛ فإن البغض فى الله واجب؛ وغيرة على حرمات الدين، وصيانة لأعراض المسلمين؛ فإن المسلمين إخوة جمعت بينهم كلمة التوحيد، وألفت قلوبهم على الحب والإيثار.

قال رسول الله – ﷺ –: «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١).

وقد حَرَّم الله على المؤمنين كل ما من شأنه أن يوقع بينهم العدواة والبغضاء، كتعاطى الخمر ولعب الميسر، والتجسس والغيبة والنميمة، وما إلى ذلك مما هو من مصايد الشيطان ومكايده.

روى أحمد فى مسنده أن النبى – ﷺ – قال: «ألا أخبركم بشراركم؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «المشاءون بالنميمة، المُفَرِّقُونَ بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب».

وأما البغض فى الله فهو واجب – كما ذكرنا – وهو من أوثق عرى الإيمان، فلو ظهر لرجل من أخيه شرٌّ فأبغضه عليه، وكان الرجل معذوراً فيه – أثيب على بغضه له.

---

(١) رواه مسلم.

قال عمر بن الخطاب: إنا كنا نعرفكم إذ رسول الله - ﷺ - بين أظهرنا، وإذ ينزل الوحى وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإن رسول الله - ﷺ - قد انُطلقَ به وانقطع الوحى، وإنما نعرفكم بما نخبُرُكُم [1]، ألا من أظهر منكم لنا خيراً ظَننا به خيراً وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم شَرّاً ظننا به شَرّاً وأبغضناه عليه، سرايركم بينكم وبين ربكم تعالى.

هذا .. ولما كثر اختلاف الناس فى مسائل الدين وكثر تفرقهم - كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم.

* * *

وقوله ﷺ: «ولا تدابروا» معناه: لا يقاطع بعضكم بعضاً؛ فإن التراحم بين المسلمين حبل موصول الحلقات، لا يجوز فصم عراه بسبب النزاع على غرض من أغراض الدنيا، أو الخصومة فى أمر من أمور الدين؛ فإن الخلاف لا يفسد للود قضية.

وسُمِّىَ التدابر تدابراً لأن كل واحد يُولِّى دبره للآخر عند المفارقة والمقاطعة.

والتدابر من الكبائر - كما هو معلوم من نصوص الكتاب والسنة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون﴾ [3].

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى أيوب - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام».

---

(١) أى بما نمتحنكم فيه.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الحجرات: ١٠.

وهذا الحديث محمول على الهجران لأمر من أمور الدنيا.

أما إذا كان الهجران لأمر من أمور الدين فإنه يجوز أن يزيد على الثلاثة عند جمهور العلماء، بدليل هجران النبي - ﷺ - وأصحابه للثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تبوك، فقد أمر النبي - ﷺ - بهجرانهم حتى أنزل الله توبتهم، وقد ظل الهجران قائماً نحو خمسين يوماً.

وكذلك يباح هجران أهل البدع والمنكرات؛ احتقاراً لهم وتَوَقِّياً من شرهم.

وذكر الخطابي أن هجران الوالد لولده والزوج لزوجته وما كان في معنى ذلك تأديباً - تجوز الزيادة فيه على الثلاث؛ لأن النبي - ﷺ - هجر نساءه شهراً.

واختلفوا هل ينقطع الهجران بالسلام.

فقالت طائفة: ينقطع بذلك، وهو الصحيح إن شاء الله؛ فقد روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «لا يَحلُّ لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليلقَه فليسلم عليه، فإن ردّ عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يردّ عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلِّم من الهجر».

وقال مالك - رحمه الله - : لا يُقْطَعُ الهجرانُ بدون العودة إلى المَوَدّة.

وَفَرَّقَ بعضهم بين الأقارب والأجانب، فقال في الأجانب: يزول الهجر بينهم بمجردّ السلام، بخلاف الأقارب، وإنما قال هذا لوجوب صلة الرحم.

* * *

وقوله - ﷺ - في نهاية هذا الحديث: «وكونوا عباد الله إخواناً» توكيد لما تقدم وتعليل له، وبيان لفحوى هذه النواهي، فإنها من الأمور التي تقطع هذه الأخوة أو تؤثر فيها تأثيراً سلبياً يجعلها كالسراب، يراه الناظر فيحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ونحن نسمع الرجل يقول لأخيه: يا أخي، أو أنت أخي وأنا أخوك، ونحن إخوة، وحضر الإخوة، وذهب الإخوة، وليس بينهم من الإخاء شيء يذكر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فكن – يا أخي – عند حسن ظن النبي – ﷺ – بك، واقبل نصحه لك؛ فهو رحيم بك وبأمثالك من المؤمنين، يريدك أن تكون مثالاً حياً للخلق الفاضل والكمال الوافر والسلوك النبيل.

يريدك أن تكون أخاً لكل المؤمنين، تحب لهم ما تحب لنفسك، وتحسن عشرتهم، وتخفض جناحك لهم، وتتواضع للكبير والصغير، والغنى والفقير، وتتعاون معهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

فالأخوة بنيان روحى، وتفاعل بين القلوب المؤمنة، وتجاذب بين الأرواح الخَيِّرَة.

وهى – يا أخى – ثلاثة مراتب ، ذكرها الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء، أذكرها لك هنا بالمعنى من غير خوض فى التفاصيل ، فأقول:

المرتبة الأولى: أن تعطى أخاك ما هو فى حاجة إليه دون أن يسألك ، فإن تركته حتى يسألك فلست له بأخ كما ينبغى أن تكون الأخوة.

المرتبة الثانية: أن تخلط مالك بمال أخيك، فلا تسأله: كم أخذ، فإن سألته فلست له بأخ كما ينبغى أن تكون الأخوة.

المرتبة الثالثة: أن تؤثر أخاك على نفسك بأعز ما تملك إن كان هو فى حاجة إليه وكنت إليه أحوج.

وهذه المرتبة فاز بها الأنصار – رضوان الله عليهم – فقد قال الله فيهم: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (١) .

نسأل الله أن يلحقنا بهم فى أعلى عليين بفضله ورحمته.

* * *

---

(١) الحشر: آية ٩.

(١٣٩) عليك بالرِّفق

عن شُرَيْحِ بنِ هَانِئٍ - رضى الله عنهما - قال: رَكِبَتْ عَائِشَةُ - زوج النبى ﷺ - بَعِيراً، فكانت فيه صعوبة، فجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ، فقال لها رسول الله - ﷺ -: «عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، فإنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ فى شَىْءٍ إلاَّ زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ من شىءٍ إلاَّ شَانَهُ»(١).

* * *

كان النبى ﷺ رحيماً بالحيوان كما كان رحيماً بالإنسان، فهو ﷺ ينبوع العطف والحنان والإحسان فى كل شىء.

قال جل شأنه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أى لجميع الخلق من إنس وجن وحيوان وغيره من المخلوقات التى من شأنها أن تُرحم.

والإسلام هو الدين الذى جمع فى تشريعاته أصول الحكمة التى بها يتراحم الناس فيما بينهم، ويرحمون بها ما تحت أيديهم من الحيوان، لأنها خلقت لهم رحمة بهم وإنعاماً عليهم، فكان من واجب الشكر عليها أن يعطفوا عليها ويحسنوا إليها، ويكفوا عن أذاها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وهذه الوصية واحدة من عشرات الوصايا التى جاءت فى الرحمة بالحيوان والرفق به، وهى وصية واضحة فى معانيها لا تحتاج إلى تأمل طويل.

* * *

فهذا البعير الذى ركبته عائشة كان فى طبعه شدة وجموح، فحاولت عائشة رضى الله عنها أن ترده إلى الاعتدال فى مشيته بشىء من العنف كما يفعل كثير من الناس بركائبهم، فقال لها النبى ﷺ: «يا عائشة عليك بالرفق» أى الزميه فى شأنك كله، ولا تكونى فظة غليظة القلب، فإن الرفق خلق حسن وطبع جميل يزين صاحبه ويحول بينه وبين القبيح من الأقوال والأفعال،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث: ٢٥٩٤.

ويدفعه إلى التأنى والتريث فى الأمور ، «فإن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه».

والمراد بالشىء هنا الإنسان ، كما يدل عليه سياق الكلام.

والزين مأخوذ من الزينة وهى نوع من الجمال الظاهرى والباطنى.

والشين ضده وهو ما يؤدى إلى القبح فى المظهر والمخبر.

ولكن ما معنى الرفق؟

الرفق هو الرقة واللين، والرأفة والرحمة ومعالجة الأمور فى تؤدة واتزان.

فهو جماع الخير كله ، وهو حسن الخلق فى أسمى درجاته ؛ لأنه فى الغالب يكون جبلّة فى صاحبه وطبعاً له لا يفارقه ولا يتخلى عنه أينما كان.

ولا شك أنه من كان رفيقاً بنفسه لم يدخلها فيما لا يعنيها، ولا يقحمها فيما لا يرضيها، ولا يحملها على التسرع فى اتخاذ القرار من غير وعى ولا دراسة ولا يعامل الناس إلا بما يحب أن يعاملوه به.

من هنا كان الرفق هو صمام الأمان لصاحبه لا يوقعه أبداً فى شىء يندم على فعله ، ولا يجلب عليه من الشر ما هو فى غنى عنه.

إن الرفق خُلق فاضل وكمال وافر ، وعز دائم وسلوك نبيل ، يغبط عليه أهله فى كل زمان ومكان.

والرفق والحلم صنوان لا فرق بينهما فكل رفيق حليم، وكل حليم رفيق، إلا أن الحلم أوسع دائرة من الرفق فهو سيد الأخلاق على الإطلاق لما فيه من زيادة كرم وشهامة وعلو نفس ورباطة جأش وقوة تحمل وثبات.

فالحليم إنسان رقيق المشاعر والأحاسيس لا يغضب حيث يغضب الناس ولا يجزع مما يجزع منه الناس.

الرفق ديدنه والعفو دينه والسماحة مذهبه ، لا يقطع صلته بالقاصى ولا بالدانى ، بل يجمع ما تفرق ويرأب ما تصدع.

يحبه الناس كما يحبهم ويألفونه كما يألفهم ، وذلك لأنه قد أرضى الله بحسن فعاله فوضع له القبول فى الأرض.

والمؤمن إلف مؤلف فلا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

واقتضى السمو الخلقى فى الإسلام أن يعم نفعه الإنسان والحيوان ؛ لأن الحيوان صديق الإنسان يخدمه ويستخدمه وله فيه منافع كثيرة يجب أن يشكر الله عليها، وذلك بالرفق به في جميع أحواله.

فإذا جاع أطعمه وإذا عطش سقاه، وإذا استعمله في حمل الأثقال لم يكلفه فوق طاقته ، وإذا ركب عليه لم يضربه من أجل أن يسرع فى مشيته؛ فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، كما جاء فى الحديث الذى أخرجه البزار فى مسنده.

والمنبت هو المسرع بدابته ليصل إلى هدفه قبل غيره فتؤدى به السرعة إلى فقد دابته وهلاك نفسه ، فلا هو قطع الأرض التى يريد قطعها ولا هو أبقى الظهر الذى يركبه.

وهذا مثل تمثل به النبى ﷺ كما تمثل به العرب، فقد روى أن رجلاً ضرب جمله ليسرع به حتى يقطع الطريق إلى هدفه قبل القافلة فسقط جمله على الأرض ميتاً وسقط هو من فوقه ميتاً، فلما مرت به القافلة قال قائلهم هذا المثل فأصبح مضرباً لكل من يتسرع فى الأمر ويتشدد فيه.

* * *

ومن أحاديث الرفق بالحيوان ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار. لا هى أطعمتها وسقتها ، إذ هى حبستها . ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وهذا ذنب يحسبه الناس هيناً ، وهو عند الله عظيم.

فالمرأة التى حبست هذه الهرة كانت متعمدة حبسها قطعاً قسوة عليها، أو استخفافاً بشأنها، ولو حبستها نسياناً ما دخلت بسبب حبسها النار.

وفى هذا الحديث تنبيه على أن الرحمة بالحيوان واجبة، وأن ظلم الحيوان بالحبس والضرب والتجويع ... وما إلى ذلك حرام كحرمة ظلم الإنسان للإنسان؛ فالحيوان له روح تجب المحافظة عليها رحمة به وعطفاً عليه ، وإحساناً إليه.

والله – عز وجل – قد كتب الإحسان على كل شيء.

والمؤمن رحيم بنفسه، رحيم بإخوانه، رحيم بما يملك من الدواب والأنعام، وما يراه فى البر والبحر من حيوان، فيسقيه إن كان ظمآناً، ويطعمه إن كان جائعاً، ويطلقه إن كان محبوساً بلا داعٍ يقتضيه، ويرفق به فى معاملته إن أراد أن يبقيه أو أراد أن يذبحه ليأكله.

يقول الرسول – ﷺ –: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، فليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» (١).

وقد تقدم شرح هذا الحديث، وبينا فيه كيف يكون الرفق بالحيوان، وإلى أي حد اهتم الإسلام به.

وقد قال – ﷺ –: «من يُحرم الرفق يُحرم الخير» (٢).

وذلك لأن الرفق يتيح لصاحبه أن يأخذ نفسه بالحزم مع اللين، وبالعزم مع اليقين فى كل شأن من شئونه؛ فيصيب الخير من قرونه ويحقق الآمال بأناته وثباته وحسن معاملته للناس، بخلاف القسوة والعنف؛ فإن القاسية قلوبهم لا يحبون من الخير إلا نَكِداً (٣)، ولا يلقون فى حياتهم ما يسعدهم أو يرضيهم، وسرعان ما يأخذ العنف بتلابيبهم فيمنعهم من مجاراة الناس والتعاون معهم فى حب وإخلاص.

فالقسوة ظلام فى القلب، وانتكاس فى الشعور.

والعنف طبع معوج، وسلوك منحرف، وغضب لا مبرر له.

وذكر الله – عز وجل – يخفف كثيراً من قسوة القلب وعنف الطبع، وشدة الغضب، ويشرح الصدر ويوسع مدارك الحس ويهدى العقل إلى الرشد وتحرى الحق من أيسر طريق وبأعدل إسلوب.

---

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس.

(٢) رواه مسلم عن جرير.

(٣) النكد: القليل.

يقول الله – عز وجل –: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ (١) .

ويقول الله – عز وجل –: ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً هو الذى يصلى عليكم وملائكته وليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ (٢) .

أى من ظلمات الجهل والمعاصى وسوء الطبع وفساد الخلق إلى نور العلم والإيمان الكامل الذى يهدى إلى الرشد وإلى طريق مستقيم.

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يهدينا وإياكم سواء السبيل.

* * *

(١) الزمر: ٢٢.   (٢) الأحزاب: ٤١ – ٤٣.

(١٤٠) إياكم وكثرةَ الحَلف فى البيع

عن أبى قَتَادَةَ الأنصارىِّ ، أنه سمع رسولَ اللهَ - ﷺ - يقول : «إيَّاكُمْ وكَثْرَةَ الحَلفِ فى البيعِ ، فإنه يُنفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ» (١) .

* * *

دأب التجار فى الأسواق وغيرها على الحلف بأغلظ الأيْمان لترويج بضائعهم، وإغراء الناس بشراء ما معهم بأثمان مرتفعة يحددونها بأنفسهم ويغالون فيها؛ بدافع من الطمع والجشع الذى عرفوا به وجبلوا عليه.

ويستخدمون فى ذلك شتى الحيل، وهم لا يبالون بما يرتكبون من الكبائر التى تكون هى السبب فى خسرانهم فى الدنيا والآخرة.

ومن الكبائر التى يرتكبونها: الحلف بالله العظيم، وهو أمر منهى عنه إلا فى حالة الاضطرار. كأن يتهم الإنسان فى دينه أو فى عرضه أو فى أخذ مال من فلان وفلان فيأمره الحاكم بحلف اليمين ، أو يرى أنه لا يخلصه من هذه التهمة إلا أن يحلف للمدعى أنه برىء.

يقول الله عز وجل: ﴿ولا تجعلوا الله عرضةً لأيْمانكم أن تَبَرُّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ (٢) .

أى لا تجعلوا الله مجالاً للحلف به فى كل حال من أجل أن تحملوا أنفسكم على البر أو على عدم البر، وعلى أن تتقوا فعل كذا وكذا، أو أن تقدموا على فعل كذا وكذا، وعلى أن تصلحوا بين الناس أو لا تصلحوا بينهم.

ففى الآية تقديران:

الأول: من أجل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساقاة ، باب النهى عن الحلف فى البيع ، حديث رقم: (١٦٠٧).

(٢) البقرة: ٢٢٤ .

والثانى: على تقدير (لا) أى لئلا تبروا ولئلا تتقوا ولئلا تصلحوا بين الناس على حد قوله تعالى: ﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾.

أى لئلا تميد بكم، فالعرب أحياناً يحذفون حرف النفى بعد (أن) تخفيفاً.

ولما كان الحلف فى التجارة يقع بكثرة بين البائعين والمشترين بقصد وبغير قصد - شدد النبى - ﷺ - فى النهى عنه، وحذر من مغبته وعاقبته، وبين أنه يمحق البركة ويذهب آثارها، فلا يكون الربح حلالاً ولا نافعاً، وتكون الخسارة أقرب إلى الحالف من شراك نعله، ويقع له من البؤس والحرمان ما لم يكن يتوقعه.

وعلى الباغى تدور الدوائر.

* * *

فقوله ﷺ: «إياكم وكثرة الحلف فى البيع» تحذير شديد لمن يكثر منه الحلف، سواء كان بائعاً أم كان مشترياً؛ لأن البيع يطلق على الأمرين معاً، فيقال لهما: البيعان، كما سيأتى فى الحديث الآتى بعد قليل.

والنهى عن كثرة الحلف فى البيع لا يدل على إباحة القليل منه، وإنما هو أمر جاء مناسباً للحال التى كانوا عليها، فقد كانوا يكثرون الحلف بالله على القليل والكثير، وعلى الصدق والكذب، حتى تعودت ألسنتهم على ذلك وأصبح طبعاً فيهم، ودفعهم هذا إلى الاستخفاف بعظمة من يحلفون به، وهذا أمر يتنافى مع الإيمان، ويتناقض مع اليقين بأن ما كان مقدراً فإنه يقع على النحو الذى قُدر وفى الوقت المحدد.

ويقاس على البيع ما فى معناه: كالإيجارة، والترغيب فى نكاح فلان وفلانة ونحو ذلك.

وقد بين النبى - ﷺ - أن الحلف قد يروج السلعة ويرغب الناس فى شرائها، فتنفد فى وقت قصير، ويأتى بغيرها، فيربح ويربح، حتى إذا ظن أنه قد تمكن من نواصى التجارة، واشتهر بين التجار بكثرة المشترين، وجرى الخير فى يده انتكس حاله فجأة فيخسر فى ساعة ما ربحه فى سنة.

فـقـال – ﷺ –: «فـإنه يُنَفِّقُ ثـم يَـمْـحَقُ» أى فـإن الحلف يروج السلعـة ثـم يمحق البركة منها، فهى وسيلة خاسرة وحيلة جائرة، لا يلجأ إليها إلا من فَقَد عقله وسفه نفسه، ولم يكن ذا خبرة بأصول التجارة وفنونها ووسائلها المربحة .

فمن أصول التجارة : الصدق الدائم مع الله ومع الناس، بحيث لا يكون التاجر غشاشاً ولا مُدلِّساً ولا مُرَوِّجاً لبضاعته بالطرق الملتوية والحيل المُقَنَّعَة .

قال رسول الله – ﷺ - : «البَيِّعَان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البَيِّعَان وبَيَّنَا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحاً ما، ويمحق بركة بيعهما . اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب» (١) .

والأمانة من الصدق بمنزلة الروح من الجسد، فلا صدقَ بلا أمانة ولا أمانة بلا صدق .

فالبيعان لابد أن يكون كل منهما أميناً مع صاحبه إلى أبعد حدود الأمانة، فلا يخلفه فى وعد ولا يظلمه فى شىء ، ولا يخونه فى أى أمر من الأمور، فكل منهما فى ذمة صاحبه وموضع ثقته، ينصح له ويرشده إلى ما فيه صلاحه فى دينه ودنياه، ويحب له ما يحبه لنفسه بقدر طاقته البشرية، فإن فعل ذلك عَظَّمَ الله أجره وأربحه فى تجارته .

يقول النبى – ﷺ –: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» (٢) .

وفى رواية : «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» (٣) .

والتجارة – كما نعلم – سلاح ذو حدين، فإما أن يصدق البائع فى بيعه وشرائه ويتحرى العدل ما أمكن فى تجارته ، ويراعى الأمانة فى جميع

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه الترمذى بسند حسن عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن عمر.

أحـواله فـيـفـوز فـوزاً عظيـمـاً في دنيـاه وآخـرتـه، وإما أن يغش ويدلس، ويغـدر ويخون، ويكثر من الحلف على القليل والكثير، فيبوأ بالخسران المبين في الدنيا والآخـرة.

فالتجار إما أن يكونوا أبراراً وإما أن يكونوا فجاراً، وأنت خبير بموطن الأبرار وموطن الفجار.

روى الترمذي في جامعه وابن ماجه في سننه، بسند صحيح عن رفاعة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «يا معشر التجار»، فاستجابوا لرسول الله - ﷺ - ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وَبرَّ وصدق».

وروى أحمد في مسنده بسند جيد عن عبد الرحمن بن شبل - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن التجار هم الفجار».

قالوا: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟

قال: «بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويُحَدِّثُونَ فيكذبون».

فالتاجر قد يكذب في نوع سلعته ومقدار ثمنها، وقد يُلْبِسُ البضاعة الرديئة ثوب البضاعة الحسنة، وقد يُغْرِي المشترين بشتى المغريات، ويخدعهم بفنون من الخدع المستوردة من كبار الغشاشين في أمريكا وأوربا وغيرها، ويزعم أنها بضاعة مستوردة من فرنسا، أو من إيطاليا، أو من ألمانيا، وهي في الحقيقة مصنوعة في الخُرُنْفُش، أو في الجبل الأصفر، أو في وكالة البلح وغيرها من الأماكن المحلية، فأين يذهب هؤلاء من الله!

﴿ولا تحسبن اللهَ غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ (١).

إن هذا التاجر قد باء بغضب من الله، باع دينه بعرض من الدنيا، وخان الأمانة، وغدر بالعهد، وأساء صنعاً بنفسه، فألقاها في مكان سحيق، ولو أنصف

---

(١) إبراهيم: ٤٢ - ٤٣.

نفسه ورحمها ما اشتغل بالتجارة؛ إذ هى مورد من موارد الهلكة لمن لم يتق الله ويلزم البر والصدق والأمانة فى أقواله وأفعاله.

يقول النبى - ﷺ -: « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب » (١) .

وعن ابن أبى أوفى : أن رجلاً أقام سلعة فى السوق فحلف بالله: لقد أعطى بها ما لم يعط ؛ ليوقع فيها رجلاً من المسلمين - فنزل قوله تعالى: ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٢) .

إن الصدق - يا أخى - صفة جامعة لخصال الخير كلها، فما من خصلة محمودة إلا كان الصدق منبعها ومصبها.

والأمانة - يا أخى - قلب حى وضمير يقظ، به تحفظ حقوق الله وحقوق الناس، وبه تصان الأعمال من التخليط والإهمال.

ضمير حى يقظ مع فهم كامل لكتاب الله تعالى وسنة رسوله - ﷺ -.

وهذا الضمير يولد ويعيش معه فى أعماقه، فإما أن يظل حَيّاً يقظاً كما هو، وإما أن يموت أو تعتريه من العوامل البيئية ما يضعفه ويمرضه.

واعلم - يا أخى - أن التجارة نوعان: تجارة مع الله، وتجارة مع الناس ، فإياك أن تشتغل بالثانية وتنسى الأولى، بل كن ممن لا تلهيهم مطالب الدنيا عن مطالب الآخرة.

يقول الله - عز وجل -: ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ (٣) .

---

(١) رواه البخارى.
(٢) آل عمران : ٧٧ .
(٣) القصص : ٧٧ .

والتجارة مع الله إنما تكون صحيحة مقبولة إذا كان الإنسان ممتثلاً لأوامره مخلصاً له فى أقواله وأفعاله، صادقاً معه ومع نفسه ومع الناس.

يقول الله – عز وجل –: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾ (١) .

هدانا الله وإياك إلى صراطه المستقيم ، وجعلنا وإياك من عباده الصالحين.

* * *

---

(١) فاطر: ٢٩ – ٣٠.

(١٤١) اسقه عسلاً

عن أبي سعيد - رضى الله عنه - أن رجلاً أتى النبى - ﷺ - فقال : أخى يشتكى بطنه ، فقال : «اسقه عسلاً» ، ثم أتى الثانية فقال : «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة فقال : «اسقه عسلاً» ، ثم أتاه فقال : فعلتُ ، فقال : «صدق الله وكذب بطنُ أخيك ، اسقه عسلاً ، فسقاه فبرأ»[١] .

* * *

اشتهر النبى - ﷺ - بين أصحابه بالطب والحكمة ، فكان يعرف كيف يُشَخِّصُ الداء ويصف الدواء، وتلك بصيرة من بصائره ، التى خصه الله بها دون سائر الخلق، فكان - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح صدره لمن جاءه يسأله عن أى شيء يتعلق به حكم شرعى أو نفع دنيوى خاص به أو بواحد من إخوانه، فيجيبه إجابة مقنعة ، يسعد بها ويعتبرها وحياً من الله إليه بواسطة الإلهام أو بواسطة جبريل - عليه السلام - ويعمل بما يوصيه به ويرشده إليه.

وهذا هو رجل من أصحابه يشكو إليه وجع بطن أخيه، فيصف له العسل، فيذهب الرجل فيسقى أخيه عسلاً ، فلا يراه قد برئ من مرضه ، فيأتى إليه ثانية وثالثة فيقول له فى كل مرة: اسقه عسلاً ، ثم أتاه الرابعة فقال: فعلت، أى سقيته عسلاً فلم يبرأ، فقال رسول الله - ﷺ -: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً» فذهب الرجل ولم ييأس من رحمة الله، ولم يشك أدنى شك فى هذه الوصية النبوية فسقى أخاه عسلاً فبرئت بطنه بإذن الله - عز وجل.

هذا هو معنى الحديث إجمالاً، ولنا فيه نظرات.

النظرة الأولى فى أفضل أنواع العسل، والمراد به هنا عسل النحل الخالص الخالى من الغش، وهو أنواع ثلاثة بحسب الخلايا.

فهناك الخلايا الجبلية وعسلها أجود أنواعه، وهناك الخلايا الشجرية وعسلها جيد، والخلايا الصناعية وعسلها أقلها جودة.

---

(١) أخرجه البخارى ، فى كتاب الطب ، باب الدواء بالعسل.

وقد رتب الله هذه الخلايا ترتيباً بحسب الأفضلية، فقال جل شأنه: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبلَ ربِّك ذُلُلاً يَخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس إن فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون ﴾ [١].

والوحى فى الآية إلهام من الرب جل شأنه إلى النحل كل النحل فى جميع العصور - إلهاماً فطرياً يوافق الحكمة التى من أجلها خلق.

فقد سخره الله لمنفعة الإنسان فى كل زمان ومكان وجلعه الله من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وعظيم صنعته.

فللنحل نظام دقيق فى أحواله كلها؛ فهو مملكةقائمة بذاتها، لها أوضاعها الخاصة التى حار العلماء فى إدراك مسالكها وسلوكها، وأسرارها، وآثارها.

ونحن هنا لا نتكلم عن النظام الفريد الذى تتخذه النحل ديدنها فى السبل التى تسلكها، وفى البيوت التى تبنيها، وفى الوظائف التى تشغلها؛ فهذا له مجال آخر.

وإنما نتكلم عن هذا الشراب المبارك الذى يخرج منها فنقول:

إن البيوت التى تعملها بنفسها يكون عسلها أجود لأنها تتخذها بإلهام يفوق إلهام الإنسان، وبقدرة تفوق قدرته، وبخبرة أقوى من خبرته فى هذا المجال الذى يخصها؛ ولأنها تتصرف فى بنائها بما يوافق فطرتها وظروفها، وأحوالها النفسية.

والذى يبنى بيته بنفسه على هواه أفضل من بيت يبنيه له غيره على هواه؛ لأنه مهما بذل فيه الآخر من جهد فى تحرى الدقة وفق المواصفات المتفق عليها لن يصادف هوى الذى يسكن فيه مئة فى المئة. بل لابد أن يفوته شىء لم يجعله فى حسبانه لجهله به، أو تهاونه فيه.

---

(١) النحل: ٦٨ - ٦٩.

من هنا كانت الخلايا الصناعية لا تروق النحل كما تروقه البيوت التى يبنيها بنفسه ، فلا يكون عسله بالجودة التى تكون فى الخلايا الجبلية والشجرية .

ولهذا أخر الله هذه البيوت التى يصنعها الإنسان بعقله القاصر ؛ ونظره المحدود عن النوعين السابقين فى الذكر.

أضف إلى ذلك ما يفعله الإنسان بهذا العسل الذى يقع بين يديه من تخليط يقلل من قيمته الغذائية والدوائية .

* * *

والنظرة الثانية فى هذه الوصية فى أمر الرجل الذى ظل ثلاثة أيام وأكثر يشرب عسلاً ، ولم تبرأ بطنه .

فقد قرأت فى بعض الكتب أن العسل إذا شربه المبطون أحدث له استطلاقاً – أى إسهالاً – تخرج معه الجراثيم المسببة للمرض شيئاً فشيئاً حتى يبرأ تماماً .

فالعسل فيه شفاء ما، بقدر ما، فى وقت ما، لمرض ما ، وشخص ما . وليس فيه شفاء كله فى التو والساعة لجميع الأمراض، ولكل الناس كما يتوهم بعض من لافقه لهم بالقرآن والسنة ، والطبيعة البشرية .

فهم يحسبون أن التنكير فى قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ للتعميم . والحق أن للإبهام؛ والإبهام معناه الإخفاء. والإخفاء قد يكون للتقليل أو للتكثير أو للتعظيم. والإبهام هنا للتعظيم بلا شك، فتذهب النفس فى تأويله كل مذهب؛ وهو الأمر الذى يفتح للعلماء أبواباً كثيرة للتأمل والنظر فى كشف منافعه الخاصة والعامة .

والذى ثبت لدينا وأيده الواقع هو : أنه شفاء لكثير وكثير من الأمراض المستعصية، ولكن ليس لجميع الأمراض، ولا لجميع الأشخاص. بل هو كما قلنا فيه شفاء ما، بقدر ما . . . إلى آخر ما ذكرنا .

* * *

وفى هذه الوصية يتجلى لنا يقين الرسول – ﷺ – بأن العسل هو العلاج الناجح لأمراض البطن بوجه عام.

فالرجل يتردد عليه ثلاث مرات لعله يجد لأخيه دواءً لبطنه غير العسل فلا يصف له إلا العسل، وما ذاك إلا لأنه يرى أنه هو الدواء الفريد الذى ينبغى أن يتناوله من أصيب بطنه بمرض من الأمراض التى كانت متفشية فى عصره بوجه خاص، وفى العصور الأخرى على الجملة.

وهذا لا يمنع أن يكون هناك أدوية أخرى غير العسل ، ولا يمنع أيضاً أن يكون هناك أمراض أخرى غير التى كانت متفشية فى عصره لا ينفع العسل علاجاً لها. إذ ليس فى القرآن ولا فى السنة ما يدل على التعميم.

حتى ولو قال الله – تبارك وتعالى – فيه شفاء من كل داء؛ لأن لفظ « كل » لا تدل على الجميع، ولكنها تدل على الأكثرية. كما جاء فى قوله تعالى حكاية عن داود وسليمان – عليهما السلام –: ﴿ وأوتينا من كل شىء ﴾ أى من كل شىء نحن فى حاجة إليه من علم، وطعام وشراب، وكساء.

وكذلك قول الهدهد لسليمان عن ملكة سبأ: ﴿ وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ﴾ أى أوتيت نعماً كثيرة، ولم تؤت جميع النعم.

وهذا مما يطول شرحه، فلا يقولن قائل: إن الرسول – ﷺ – لم يجد دواءً يعالج أمراض البطن جميعها إلا العسل.

صحيح أن النبى – ﷺ – لم يسأل الرجل عن نوع المرض الذى أصاب أخاه فى بطنه؛ وذلك لأن الأمراض يومئذٍ كانت محدودة ومشهورة، وأدويتها بسيطة يعرفها – أو يعرف أكثرها – كثير من الناس، ولا سيما طبيب الأطباء محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وخلاصة القول فى هذه المسألة – أننا فى حاجة ماسة إلى فهم اللغة العربية من نحو، وصرف، وبلاغة وغيرها.

وفى حاجة إلى معرفة القواعد الفقهية ، والبحوث المتعلقة بالعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، وغير ذلك مما هو منشور فى كتب الأصول، وفى كتب علوم القران.

وإنى أهيب بالمتخصصين فى علم الحديث أن يهتموا كثيراً بفقه الحديث أكثر من اهتمامهم بالأسانيد ورجالها؛ فإن الحديث يعرف الصحيح منه والضعيف بعرضه على كتاب الله تعالى أكثر مما يعرف بالأسانيد.

فكم من حديث صح سنده ولم يصح متنه ، وهذا كلام شرحه يطول ؛ وليس هذا موضعه.

فلنكتف بما ذكرناه – فى هذه الوصية – مما فتح الله به علينا ، وهو الفتاح العليم.

* * *

(١٤٢) إن الغضب من الشيطان

عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال ك إن رسول الله - ﷺ - قال لنا : «إذا غَضِبَ أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع».

وعن أبى وائل القاص قال : دخلنا على عروة بن محمد بن السعدى فكلمه رجل فأغضبه، فقام فتوضأ، ثم رجع وقد توضأ فقال : حدثنى أبى، عن جدى عطية، قال : قال رسول الله - ﷺ - : «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تُطْفَأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»(١).

* * *

الغضب آفة من الآفات التى تسلب لب الإنسان فى كثير من الأحيان، وتطغى على مشاعره الجياشة بالحب فتفسدها وتعكس أوضاعها، وتحدث فى النفس لوعة وأسى.

والغضب كما يؤثر على القوى العقلية والنفسية يؤثر بالضرورة تأثيراً شديداً على القوى العصبية والأوعية الدموية؛ فيصاب المرء الغضوب باضطراب شديد فى هذه الأجهزة وارتفاع فى ضغط الدم، وسرعة شديدة فى ضربات القلب.

وأكثر الأمراض التى يعانى منها الإنسان سببها الغضب الشديد كما يقرر الأطباء.

فعلى المسلم أن يجتنب أسبابه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويتوقى مواطنه بقدر إمكانه، ويحتاط لنفسه من المثيرات التى تغضبه، ويعظ نفسه دائماً بما يدفع

---

(١) رواهما أبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقال عند الغضب ، حديث رقم : ٤٧٨٢، ٤٧٨٤.

ثورته إذا غضب، ويفعل ما يخفف عنه حدته ويذهب أثره إن تملكه أو كاد يتملكه.

ولاشك أن الوقاية خير من العلاج، ولكن الإنسان دم ولحم - كما يقولون - لا يستطيع أن يرى ما يسوءه ويسكت أو يتغاضى عما لا يمكن التغاضى عنه لا سيما إذا جاوز الأمر حده وتمادى المسىء فى غيه وإساءته.

وقد تكلمت عن الغضب فى الوصية الحادية عشرة من هذا الكتاب ، ونريد هنا أن نذكر ما ورد فى هذه الوصية من الأدوية الناجعة لهذا الداء البغيض.

وفى هذه الوصية ثلاثة أنواع من العلاج هى الجلوس والاضطجاع والوضوء.

فإذا غضب أحدنا وهو قائم جلس؛ لأن الجلوس يكسر من حدة الاندفاع إلى الشر؛ فإن القائم وهو غضبان قد تصدر عنه أقوال تدفع من أغضبه إلى الهيجان عليه والانتقام منه.

وقد لا يملك الغضبان نفسه فيندفع إلى من أغضبه فيضربه وربما يقتله.

والشيطان يغتنم هذه الفرصة السانحة فيفجر براكين الغضب بين المتخاصمين، ويسول لكل منهما أن يوسع صاحبه سباً وشتماً، أو يطوع لكل منهما قتل صاحبه كما طوع لقابيل قتل أخيه هابيل.

والشيطان للإنسان عدو مبين ، والنفس أمارة بالسوء ، والغضب جمرة من نار، وأسبابه تبدأ تافهة، ثم تكبر وتتسع كالنار تبدأ من شرارة ثم يشتد لهيبها ويرتفع إلى عنان السماء وينتشر فى الآفاق هنا وهناك. ومعظم النار من مستصغر الشرر.

والثانى: الاضطجاع إذا لم يجد الجلوس شيئاً حتى تتراخى الأعصاب وتنكسر حدة الغضب تماماً - إن شاء الله -.

والثالث: الوضوء ، فإنه طهارة روحية أكثر منها بدنية، وهو شطر الإيمان فى بابه، والإيمان طمأنينة، والطمأنينة ضد الغضب، بل هو دواؤه الناجع وسلطانه المسيطر عليه.

والوضوء يذهب وساوس الشيطان وهواجس النفس، وينسى الإنسان مآسيه ومآسى من أغضبه.

ومحمد - ﷺ - طبيب الأطباء يصف الدواء لكل من يؤمن بالله ويثق بفضله ويتوكل عليه فى أمره كله.

وليس الجلوس والاضطجاع والوضوء هى كل الأدوية التى تقطع دابر الغضب، ولكن هناك أدوية أخرى ذكرها النبى - ﷺ - منها:

السكوت عند الغضب حتى لا يتفوّه بكلمة نابية فيندم عليها حيث لا ينفعه الندم؛ فالكلمة إذا خرجت من الفم لا تعود إليه أبداً.

وربما يقول كلمة تزيد فى غضب خصمه فيكيل له الصاع صاعين فيدفعه الغضب إلى أن يرد عليه بأكثر مما سَبه بُه، ويحتدم النزاع ويشتد الخصومة؛ فلا يكون هناك للصلح موضعاً.

وقد تتسع دائرة الخصومة فيندفع كل ذى قرابة إلى مناصرة قريبه فيتسع الخرَق على الراقع كما يقولون.

روى أحمد فى مسنده من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبىّ - ﷺ - قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت» قالها ثلاثاً. قال مورق العجلى - رحمه الله -: ما امتلأت غضباً قط ولا تكلمت فى غضبٍ قط بما أندم عليه إذا رضيت.

وقال ميمون بن مهران: جاء رجل إلى سليمان فقال: يا أبا عبد الله أوصنى، قال لا تغضب، قال: أمرتنى أن لا أغضب وإنه ليغشانى ما لا أملك، قال: فإن غضبت فاملك لسانك ويدك».

ومن الأدوية التى يُعالج بها الغضب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ فمن استعاذ بالله أعاذه وعصمه ممن استعاذ به منه.

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن سليمان بن صرد - رضى الله عنه -

قال : «استب رجلان عند النبى – ﷺ – ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبىّ – ﷺ –: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول النبىّ – ﷺ ؟ قال: إنى لست بمجنون».

وقول الرجل: «إنى لست بمجنون» كلمة فيها غلظة وسوء أدب دفعه لقولها الغضب نعوذ بالله من شره.

وعلى المسلم إذا اشتد غضبه أن يذكر قول الله تبارك وتعالى فى أوصاف المؤمنين ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (١) .

وليذكر أيضاً قوله تعالى فى أوصاف المتقين ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (٢) .

وليذكر ما كان عليه النبىّ – ﷺ – من الحلم والعفو والصفح الجميل، وما كان عليه أصحابه الكرام البررة.

وسيإتى فى ذلك شرح موسع لهذه الأخلاق الفاضلة فى وصايا أخرى.

واعلم – أيها الأخ المسلم – أن المؤمن القوىّ فى إيمانه وفى حزمه وعزمه، هو الذى يستطيع أن يملك نفسه عند الغضب فينتشل نفسه منه قبل أن يفتك به، وينتزع نفسه من خصمه بالسكوت عنه وعدم مواجهته والانسحاب المأمون من طريقه حتى يسلم من شره وشر الغضب الذى أحاط به.

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال: «ليس الشديد بالصُرَعة (٣) ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب».

---

(١) الشورى: ٣٧.
(٢) آل عمران: ١٣٤.
(٣) الصُرَعة: بضم الصاد، وفتح الراء، من يصرع غيره ويغلبه.

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبى - ﷺ - قال: «ما تعدون الصرَعة فيكم؟ قلنا الذى لا تصرعه الرجال، قال: ليس ذلك، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب».

وبعد فإن العاقل من دان نفسه وعرف قدرها ولو ردها موارد السلامة والعافية وكبح جماحها ولم يجعل للشيطان عليها سلطاناً، ولا للهوى عليها سبيلاً، وتسلح بالعلم والحلم، وكان من الناس على حذر مع معايشتهم والتهاون معهم على البر والتقوى والصبر على أذاهم بقدر الطاقة.

والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٤٣) لا تدعوا على أنفسكم

عن جـابرٍ - رضـى الله عنـه - أن رسـول الله ﷺ قـال: «لا تَدْعُـوا على أَنْفُسكُمْ ، ولا تَدْعُوا عليِ أولادكُم ، ولا تدْعُوا على أَمْوَالكُم ، لا تُوَافقُوا من اللهِ ساعةً يُسْأَلُ فيها عَطَاء ، فَيَسْتَجيبَ لَكُم»(١) .

* * *

الإنسـان عجـول بطبعه ، كـفور فى أكـثر أحواله ، كـثيـر الجدل حـتى مع نفسه، يغضب أحياناً لأتفه الأسباب، ويثور على من يغضبه حتى ينسى ما قد فعله به من صنائع المعروف، وما يُكنه له من الاحـترام والحب، فيسبـه ويشـتـمـه ويدعو عليه، بالويل والثبور وعظائم الأمور.

وأحياناً يملكه الغضب فيدعو على نفسه دعاءً لو أفاق من غضبه لاستنكره غاية الاستنكار، وندم على التفوه به إن صَدَّق نفسـه أنه قد دعا به؛ فالغضب يسلب الإنسـان لبـه ، ويفـقـده إرادته، ويسيطر على كيـانه كله، ويجـعله دمـيـة تُصَرِّفُهَا الرياح إلى هنا وهناك، وحتى تهوى بها فى نهاية الأمر إلى مكانٍ سحيق.

وقد تحدثنا فى الحديث السابق، وكذلك فى الحديث الحادى عشر - عن الغضب وويلاته، وذكرنا كثيراً من الأسباب التى تؤدى إليه والأدوية التى تقضى عليه، ولم يبق إلا أن نبين هنا معنى هذه الوصية بإيجاز فنقول:

إنهـا وصيـة من رءوف رحيم بالمؤمنين، يتلقاها المؤمن بصدر رحب وقلب مطمئن، ويجد فيهـا تبصرة لضميره الحى اليقظ، فلا يسعه إلا أن يشكره عليه بعد شكره لله تعالى ويزداد حباً له وقرباً منه وتقديراً لهذه الرسالة الجامعة التى لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا شملتها بالتشريع والبيان.

إن رسول الله - ﷺ - يقـول لنـا بدافع من الحق العميـق والود الرفيـق: «لا تدعـوا على أنفسكم» أى بالشـر فى وقت الغضب أو وقت الشعور بالنكد

---

(١) أخرجه مسلم من حديث طويل فى كتاب الزهد، حديث رقم: ٣٠٠٩

واليأس والجزع؛ فإن المؤمن يطرد من نفسه بنفسه أى شبح من الأشباح المثبطة للعزائم والهمم، والمنافية للتوكل على الله والثقة بفضله، ويعالج نفسه بنفسه من تلك الآفات التى تعكر صفو الإيمان وتكدر جلوة اليقين.

وعندئذ يجد نفسه معتدل المزاج ، هادئ الشعور، قد ملك زمام نفسه، واستعاد سلطانه عليها، فلا يدع حينئذ على نفسه بالشر كما هو شأن الكافر ومن فى حكمه، ولكن يدعو لها بالعفو والمغفرة وصلاح الحال.

وهذا ما يبغيه الرسول - ﷺ - من قوله : «لا تدعوا على أنفسكم».

ثم عطف على ذلك قوله : «ولا تدعوا على أولادكم» أى ذكورهم وإناثهم؛ فإن الولد يطلق على كل مولود، ويشمل أولاد الأولاد مهما نزلوا.

والمعنى : لا تدعوا عليهم إن أساءوا إليكم، أو قَصَّرُوا فى واجب من واجباتكم، أو رأيتم منهم ما لا يسركم؛ فإن ذلك ليس من الحكمة فى شىء.

ولو دعونا لهم بالهداية والتوفيق لكان ذلك أجدى لنا ولهم؛ فإن حنان الأبوة يتنافى مع الدعاء بالشر على من هم قرة الأعين وفلذات الأكباد.

فأى عاقل يعرف عواقب الأمور - لا يدعوا على نفسه أبداً ولا على أولاده مهما كانت الظروف صعبة، ومهما بدا له أن سَوْرَةَ الغضب لا ينقشع إلا بذلك.

وقد عرفنا فى الحديث السابق الأدوية التى يعالج المرء بها نفسه من الغضب، فلماذا نتركها ونحن أحوج ما نكون إليها. إن هذا مما لا ينبغى أبداً.

وأضاف النبى - ﷺ - قوله : «ولا على أموالكم» فالمال عصب الحياة وشريانها الحيوى، وعمودها الفقرى وطاقتها الفعالة، وأساسها المتين.

وقد علل النبى - ﷺ - النهى عن ذلك بقوله: «لا توافقوا من الله ساعة يُسألُ فيها عطاءً ، فيستجيب لكم» أى: لئلا توافقوا بدعائكم ساعة منحة من الله - تبارك وتعالى - تكون فيها أبواب القبول مفتوحة، فيستجيب لكم فيما سألتموه فتندمون على ذلك حيث لا ينفعكم الندم.

وما كان أغناكم عن هذا لو تَسَلَّحْتُم بالحلم والعفو والصبر الجميل، وتَأَنَّيتم فى رفع الأكف بالدعاء اليائس البائس، الخائب المُخَيِّب للآمال.

سلوا الله - عز وجل - أن يرحمكم، وأن يغفر لكم ذنوبكم، وأن يطهر قلوبكم من الآفات والعلل، وأن يشفى صدوركم من كل ما يسبب لها الضيق والحرج.

* * *

ويستفاد من هذا الحديث فوق ما ذكرنا: أن يكون العبد مؤدباً مع ربه - عز وجل - فلا يسأله عن شيء هو لا يرجوه منه فى قرارة نفسه، ولا يتمناه لنفسه ولا لأولاده ولا لماله، فإذا دعا بالشر على نفسه وولده وماله فقد أساء الأدب مع الله - عز وجل -، وفى ذلك من الإثم ما فيه، فليس هناك جرم أعظم من سوء الأدب مع الكبير المتعال عز جاهه وقوى سلطانه ولا إله غيره.

والمرء يكذب على نفسه عندما يدعو عليها وعلى من تحبه وما تحبه بالشر، والكذوب مُعَذَّب فى الدنيا بفساد القلب وسوء الحال، ومعَّذب فى الآخرة بسوء المآل.

وهو فى الحقيقة يكذب على الله فى هذا الدعاء، فكيف يكون حاله ومآله.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾(١).

فلا يَسْتَخِفَّنَّ بهذه الوصية إلا مَن فَقَدَ عقله وسفه نفسه؛ فإن أقبح شيء فى الحياة شيء يفعله المرء ثم يندم عليه.

وكيف يسأل اللهَ عبدٌ شيئاً ليس من المُسْتَحَبِّ أن يسأله عنه.

كيف يسأله الشر وهو ليس منه؛ فالخير منه وإليه والشر ليس إليه.

ولهذا نعى الله عمن يفعل ذلك بقوله: ﴿ويَدْعُ الإنسانُ بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾(٢).

والمعنى: أن الإنسان العجول وهو الكافر ومن فى حكمه يدعو بالشر على

---

(١) الأنعام: ٢١.

(٢) الإسراء: ١١.

نفسه وولده وماله ، مثل ما يدعو لها بالخير ، فهو لجهله لا يفرق بين دعاء ودعاء؛ فالدعاء بالشر مردود على صاحبه، لكن يخشى عليه من أن يوافق ساعة إجابة فيستجاب له فيه ، فضلاً عن أنه لا يثاب عليه ، ولا يعد نوعاً من أنواع العبادة، بخلاف الدعاء بالخير، فإنه مستجاب قطعاً بواحدة من ثلاث :

إما أن يستجيب الله له فيعطيه ما طلب على وجه التحديد .

وإما أن يدفع عنه من الشر ما يساويه وأكثر.

وإما أن يدخر له ثواب دعائه فى صحائف أعماله، وهو فى الأحوال الثلاثة مأجور، والدعاء مخ العبادة بل هو العبادة نفسها كما جاء فى الحديث الذى بسطنا القول فيه فى بعض الوصايا، وفى كتابنا «صفحات من نور فى الدعاء المأثور» .

إن هذه الوصية ترقى بنا إلى أعظم المقامات مع الله – تبارك وتعالى – لأنها تهدينا إلى الرشد ، وتدعونا إلى التأنى والتثبت فى الأمور والحلم فى جميع التصرفات على الجملة ، وتعودنا الأدب فى الدعاء والسمو به إلى آفاق الخير فحسب، من غير تكلف ولا اعتساف .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

(١٤٤) مَنْ كانت عنده مَظْلمَةٌ لأخيه فَلْيَتَحَلَّلْهُ منها

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال: «من كانت عنده مَظْلمَةٌ لأخيه فَلْيَتَحَلَّلْهُ منها؛ فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»(١).

* * *

هذه وصية تبدو وكأنها وصية مُوَدِّعٌ، تحمل فى طَيَّاتهَا أموراً ذات بال، قد ينساها الإنسان أو يتناساها؛ لبعده عن الله عز وجل؛ وشدة تعلقه بالدنيا واتِّبَاعه للهوى، وانطباعه على الأثرة وحب الذات.

من هذه الأمور الأخوة الصادقة بين المؤمنين وما لها من حقوق يجب أن تؤدى، وآداب ينبغى أن تراعى، وحرمات يجب أن تصان.

ومنها تَوَخِّى العدل بين الناس مسلمين وغير مسلمين؛ ومعرفة الأسس التى يقوم عليها، وكيفية تطبيقه على النحو الأمثل؛ من أجل استقرار الأمن ونشر السلام فى ربوع البلاد بين العباد.

ومنها أن الإنسان خَطَّاءٌ بطبعه، ومادام هذا طبعه فلا يلام عليه، إلا إذا أصرّ على التمادى فيه.

ومنها أن الإنسان إذا أخطأ فى حق أخيه وجب عليه أن يعتذر إليه، ويرد إليه ما اقْتَطَعَهُ منه بالمعروف إن اسيطاع إلى ذلك سبيلاً، أو يطلب منه السَّمَاح فيه بحكمة وتَلَطُّفٍ وأدب.

وهناك أمر آخر هو الدافع إلى التمسك بهذه المبادئ الثلاثة، وهو الخوف من الله عز وجل؛ فإن الخوف منه إذا مَلَكَ على الإنسان مشاعره حال بينه وبين المعاصى صغيرها وكبيرها، وجمع قلبه على حبه وطاعته عز وجل.

---

(١) رواه البخارى، كتاب الرقاق باب (٤٨) القصاص يوم القيامة.

ونحن إذا نظرنا فى هذا الحديث وجدناه واضحاً فى معانيه ومراميه، ولكن لا غنى لنا عن الدندنة حوله؛ طلباً للمزيد من الفهم والفقه.

وقد قلنا فى وصايا سابقة: إدراك المعانى فَهْمٌ، وإدراك المرامى فقه، ووراء المعانى والمرامى أسرار وآثار.

«ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» كما قال الرسول - ﷺ (١).

* * *

فى هذه الوصية كلمات لابد أن نعرف مدلولها فى اللغة العربية، ليسهل علينا فقهه.

١ - المَظْلِمَة - بكسر اللام وفتح الميم - اسم لما يطلبه المظلوم من الظالم. ويقال لها ظُلاَمَة - بضم الظاء -.

والمظلَمَة - بفتح اللام - مصدر ظَلَمَ يَظْلِمُ.

والظُّلْمُ فى اللغة: وضع الشيء فى غير موضعه، وهو بمعنى المنع أو النقص.

يقال: فلان ظلمنى حقى أى: منعنى حقى كله أو بعضه.

ومنه قوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً﴾(٢) أى: لم تنقص شيئاً منه.

وسمى الظُّلْمُ ظُلْماً لأنه يُشْبِهُ الظلمة؛ لما فيه من ستر الحقائق وضياع للحقوق.

ولهذا قيل: الظلم ظلمات يوم القيامة.

ولا يصدر الظلم إلا عن ظلمة القلب.

وظلمة القلب قسوة وكآبة.

والمظلِمَة - بكسر اللام - نوعان.

---

(١) الحديث رواه البخارى.

(٢) الكهف: ٣٣.

مظلمَة مادية تتمثل فى الأموال النقدية والأمتعة ونحوها مما يُتَمَلَّكُ.

وهذا النوع هو المراد هنا فى هذا الحديث بدليل قوله: «فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم».

ومظلمة معنوية تتعلق بالأعراض والحرمات والآداب العامة والأعراف المتبعة فى إعطاء كل ذى حق حقه من الاحترام والحرية، ونحو ذلك مما يجب أن يؤدى ولا يُمْلَك.

وهو مراد فى الحديث أيضاً لكن بالتبعية ؛ لأن النَّصَّ. لا يأباه فإن النص إذا احتمل معنيين فأكثر ولم يكن بين المعانى تضاد - جاز حمله عليها جميعا -.

٢ - التَّحَلُّلُ منها معناه: التَّخَلُّص منها بَرَدِّها والتكفير عنها بالتوبة والعمل الصالح وبطلب التجاوز عنها والسماح فيها بطيب نفس من صاحبها، فهذان طريقان للتحلل من المظلمَة المادية إجمالا.

فمن أخذ من أخيه مالاً ظلماً فعليه أن يَرُدَّهُ إليه متى تَمَكَّن من ذلك من غير إبطاء ولا إحراج، فتأدية الحق لصاحبه شرط فى صحة التوبة، فإن لم يؤده إليه بقيت المظلمة عليه يأخذها المظلوم من حسناته يوم القيامة.

هذا فوق ما يلاقيه الظالم من العذاب فى الدنيا، فإنه قد غلب صاحب الحق على حقه، فلابد أن يسلط الله عليه من يغلبه ويسىء إليه.

قال تعالى: ﴿وكذلك نُوَلِّى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾(١).

ومن المعلوم أنه كما تدين تدان، ومن سَلَّ سيف البغى قُتِل به، ومن صارع الحق صُرِع.

وما أحسن قول الشاعر:

مَنْ يَزْرَعِ الشَّر يحصد فى عواقبه ... نَدَامَةً ولحصد الزرعِ إبَّانُ (٢)

وقول الآخر:

الخيرُ يبقى وَإنْ طَالَ الزَّمَانُ به ... والشَّرُّ أخبَثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد

---

(١) الأنعام: ١٢٩.

(٢) الإبان: هو الوقت والأوان.

فإن كان الذى عليه المظلمة لا يعرف صاحبها، أو غاب عنه فلم يجده فليتصدق بما أخذه منه على ذمته.

وإن كان صاحب المظلمة قد مات فَلْيُعْطِ الحق لورثته؛ فقد صار ملكاً لهم.

وإن كان لا يستطيع دفعه فى الحال طلب من صاحبه أن يمهله.

وإن كان فقيراً لا يرجو الغنى عن قُرْب، وخاف أن يموت قبل أن يقضى الحق لصاحبه - فَلْيُوصِ بذلك أولاده إن كان له أولاد، أو يطلب منه السماح كما أشرنا.

فإن لم يعف عنه فليطلب العفو من الله عز وجل، فهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وسوف يُرْضِى الله عنه خصومه يوم القيامة بفضله ورحمته.

* * *

وأما التحلل من المظالم المعنوية فإنه يختلف باختلاف الأحوال.

فإن كان الحق يتعلق بالحرمات والأعراض فليعترف له به ، وليعتذر له عما بَدَرَ منه ما لم يؤد الاعتراف إلى ذنب آخر وضرر أكبر، كالزنا وما يقاربه، فإنه لا ينبغى أن يعترف له به لو حدث منه ولا بمقدماته، ولكن عليه أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويكثر من الأعمال الصالحة، ويتودد إلى من ظلمه، ويعمل جاهداً على خدمته والتعاون معه على البر والتقوى، والإحسان إليه حتى يحبه ويرضى عنه يوم القيامة، حين تظهر فضائح النفوس، وحين يُحَصَّلُ ما فى الصدور.

والإنسان عبد الإحسان، فإذا نَفَرَ بسيئة مال بحسنة.

أحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ   فلطالما اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

فليس من المعقول أن يقول واحد من الناس لأخيه أنا فعلت بأهلك أو بابنتك أو بأختك كذا أو كذا فاعف عنى فيعفو عنه.

إنه لو أخبره بذلك ربما قتله وشرب من دمه؛ غيرة على عرضه وحرمته.

فعليه إذاً أن يطلب العفو من خالقه ومولاه، ويلجأ إليه وحده ليخلصه من مثل هذه المظالم، التى لا يُقْدم عليها إلا من طاش عقله وسفه نفسه.

ومثل الزنا القذف، فإنه ليس من الخير أن يقول الرجل لأخيه: إنى قلت فيك أو فى امرأتك قولاً أستحق أن أُجْلَد به ثمانين جلدة. فاعف عنى.

ولكن من الخير أن يتوب ويستغفر ويكثر من الحسنات.

فقد قال الله – عز وجل –: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (١).

وقال رسول الله – ﷺ –: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» (٢).

وكذلك سائر الحدود؛ فإن الشأن فيها الستر والإخفاء.

فقد جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – قال: كنا عند رسول الله – ﷺ – فى مجلس فقال: «تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم – ثم قرأ الآية التى أخذت على النساء: ﴿إذا جاءك المؤمنات﴾ – فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه».

نسأل الله العفو والعافية وحسن الخاتمة.

* * *

(١) رواه الترمذى فى البر ٥٥، والدارمى رقاق ٧٤، وأحمد فى مسنده ج ٥/١٥٣، ١٥٨

(٢) رواه الترمذى.

(١٤٥) لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ ، قال: «لا تُكْثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ الله ؛ فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذِكْرِ الله تعالى قَسْوَةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعَدَ الناسِ من الله القلبُ القاسى» (١) .

* * *

كلام المرء محسوب عليه ومجازى به إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقد جاء فى الحديث الصحيح: «رحم الله امرأ تكلم فغنم، أو سكت فسلم» (٢) .

وقد جاء فى الحِكَم: من كثر لغطه كثر غلطه.

ولكيلا يكون الرجل عرضة للغلط ينبغى إلا يكثر الكلام إلا فيما ينفع ، وليكن كلامه مصحوباً بذكر الله، حتى يظل القلب محتفظاً بنوره وانشراحه.

فالرسول - ﷺ - يوصينا فى هذا الحديث ألا نتكلم بكلام يخلو من ذكر الله، وإذا تكلمنا فى شىء فلا نكثر من الكلام ، ولكن نكتفى بما يبين المراد ، فخير الكلام ما قل ودل ، والإيجاز ضرب من الإعجاز، وميزان العقل قلة الكلام.

وقد علل النبى - ﷺ - النهى عن الكلام بغير ذكر الله بأنه قسوة للقلب بمعنى : أن اللغو منه يؤدى إلى غلَظٍ فى الطبع، وسوء فى الخُلق ، وظلمة فى القلب، وإذا أظلم القلب قسا، وإذا قسا فقد صوابه واتِّزانه، وفسد حاله، وعندئذ يكون صاحبه أبعد الناس عن الله، وليس هناك شر أكثر من هذا.

قال تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين﴾ (٣) .

---

(١) رواه الترمذى رقم (٢٤١٣) بإسناد حسن.

(٢) رواه البيهقى فى الشعب، عن أنس بسند حسن.

(٣) الزمر: ٢٢.

واعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على دفع شوارده، فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالإمساك عنه أو الإقلال منه.

ومن قَلَّ كلامه حُمِدت عاقبته، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.

قال ابن عربى – رحمه الله –: أمراض النفس قولية وفعلية، وتفاريع القولية كثيرة لكن عللها وأدويتها محصورة فى أمرين:

الأول: أن لا تتكلم إذا اشتهيت أن تتكلم.

الثانى: أن لا تتكلم إلا فيما إن سكت عنه عصيت وإلا فلا.

وإياك والكلام عند استحسان كلامك، فإنه حالتئذ من أكبر الأمراض وماله دواء إلا الصمت، إلا أن تُجْبَرَ على رفع الستر، وهذا هو الضابط.

واعلم أنه من تكلم فيما لا يعينه وقع فيما لا يرضيه، فخير الناس أقلهم كلاماً، وأكثرهم ذكراً لله عز وجل.

وكلام الصالحين ذكر؛ لأنه يخلو عن اللغو الذى يضر ولا ينفع، بل هم أبعد الناس عن اللغو؛ لأنهم شغلوا أنفسهم بالحق.

والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ولقد أثنى الله على المؤمنين بقوله: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾ (١).

وقوله: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون﴾ (٢).

* * *

---

(١) القصص: ٥٥.
(٢) المؤمنون: ١ – ٣.

وقوله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله» يحتمل معنيين:

الأول: النهى عن كثرة الكلام مطلقاً إلا أن يكون ذكراً لله.

والنهى عن الإكثار منه يقتضى جواز الإقلال منه وعدم جواز الصمت على الدوام.

والثانى: النهى عن كثرة الكلام من غير ذكر لله، وهو يقتضى الأمر بالإكثار من ذكر الله بحيث يكون الكلام أقل والذكر فيه أكثر.

وقد جلست عند الكعبة مع رجل أعجبنى منطقه وسلامة حديثه من الغلط وسوء الأدب، فقد كان يُقرن كل كلمة بقوله: سبحان الله، أو الحمد لله، أو ما شاء الله، ونحو ذلك من الذكر والشكر، فحاولت أن أحاكيه فى ذلك ولكنى لم أستطع أن أكون مثله.

فأعظم الناس حديثاً من جعل مع كل كلمة من كلام الدنيا كلمة تُذَكِّرُ بالآخرة، وتحمل السامع على أن يقول مثل ما يقول من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والصلاة على النبى - ﷺ - ونحو ذلك مما يزكى النفس ويشرح الصدر ويُلَيِّنُ القلب ويُذهب قسوته.

وقوله - ﷺ -: «فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب» فيه مبالغة فى حدة القسوة وشدتها؛ إذ جعل كثرة الكلام هى القسوة نفسها للدلالة على أن من قسا قلبه كثر كلامه، ومن كثر كلامه قسا قلبه، وكأنه قال: «كثرة الكلام قسوة قلب».

فَرِقَّة القلب تمنع صاحبه من كثرة الكلام بغير ذكر الله، وقسوته تصرف صاحبه عن ذكر الله، فتأمل ذلك ولا تكن من الغافلين.

وقوله - ﷺ: «وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى» فيه مبالغة فى التحذير من كثرة الكلام بغير ذكر الله، وفيه بيان بأن كثرة الكلام بغير ذكر الله كبيرة من الكبائر؛ إذ الصغائر لا تبعد العبد عن ربه عز وجل؛ لأنها تقع فى حيز

العفو والمغفرة بنص قوله تعالى : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ (٢) .

فهذه العبارة تقشعر منها قلوب الذين يخشون ربهم ويخافون سوء العذاب .

فبعد العبد عن ربه طرفة عين سيندم عليها يوم القيامة ، فما باله لو بعدت به المعاصي عمراً طويلاً ، وعمر الإنسان هو رأس ماله مع الفارق بين العمر والمال ، فالمال يذهب ويجيء ، والعمر يذهب ولا يعود ، فكل يوم يمضي يقول لك : يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإني لا أعود عليك ليوم الوعيد .

فاللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل منها يا رب العالمين .

اللهم لا تنسنا ذكرك ولا تُؤَمِّنَّا مكرك ولا تجعلنا من الغافلين .

* * *

---

(١) النساء : ٣١ .

(٢) النجم : ٣٢ .

(١٤٦) اجتنبوا السبع الموبقات

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «اجتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقات، قالوا يا رسولُ الله وما هنَّ قال: الشركُ بالله والسحرُ وقَتلُ النفسِ التى حرم اللهُ إلا بالحق وأكل الرِّبا وأكل مال اليتيم والتَّولِّى يومَ الزحفِ وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات» (١) .

* * *

كان النبى – ﷺ – يجمع فى كلامه عدة من خصال الخير فيأمر بها، وعدة من خصال الشر فيحذِّر منها، فيقول مثلاً: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ...».

ويقول: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ...».

ويقول هنا: «اجتنبوا السبع الموبقات».

وليست الموبقات سبعاً فحسب، ولكنه – ﷺ – يذكر العدد ليحفظ، فلا يقال هنا: ذكر العدد يفيد الحصر، فهذا جهل باللغة والشرح.

والرسول – ﷺ ـ معلم، ومن شأن المعلم أن يذكر من العدد ما يريد التنبيه عليه فى الدرس الأول، ثم ذكر فى الدرس الثانى عدداً آخر وهكذا، فهو فن من فنون التعليم ينبغى أن يتعلمه كل من يتصدى لتعليم الصغار والكبار.

وهذه الوصية تكاد تكون جامعة لكل ما ينبغى الكف عنه وعدم الاقتراب منه.

فالشرك أعظمها جرماً، وأجمعها لخصال الشر، بل هو شر ما بعده شر.

ويليه فى الشر ما ذكر بعده.

ويبدو لى من أول نظرة فى هذه الوصية أن ما بعد الشرك لا يراعى فيه

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الوصايا باب ٢٣ الموبقات المهلكات.

الترتيب الذكرى عند الترتيب فى الجُرْم. فإذا نظرت إلى كل كبيرة بعد الشرك قلت: إنها أكبر من التى بعدها ، فإذا نظرت إلى ما بعدها قلت: بل هذه أشد جرما مما قبلها. وهكذا.

والحق أن كل خصلة من هذه الخصال تكون أكبر من أختها فى وجه دون وجه، بحيث إذا نظرت إليها مجتمعة رأيت أنها فى الشر سواء بعد الإشراك بالله.

ومعنى (اجتنبوا) : احذروا كل الحذر، وخذوا لأنفسكم جانباً بعيداً عن هذه الموبقات – أى المهلكات – لمن فيه واحدة منهن فى الدنيا والآخرة.

ففى الدنيا عذاب – كما نعلم – وفى الآخرة عذاب، ولعذاب الآخرة أكبر.

وسنتكلم عن كل موبقة من هذه الموبقات السبع بإيجاز فنبين خطرها على البشرية جمعاء ، ونصفُ العلاج الناجع لهذه الأدواء المنكرة، ونرسم الطريقة المثلى فى الوقاية منها بقدر الطاقة. والله المستعان.

* * *

أما الشرك بالله فإنه الطامة الكبرى والجريمة العظمى التى لا تغفر أبداً.

﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (١) .

ولن يقبل الله عمل عامل من ذكر أو أنثى وهو مشرك؛ إذ الشرط الذى لا بد منه فى صحة الأعمال وقبولها هو الإيمان الخالص من الشرك.

قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (٢) .

وقال عز شأنه : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (٣) .

---

(١) النساء: ٤٨.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) النحل: ٩٧.

إن المشرك بالله لا تقله أرض ولا تظله سماء وإن بدا لنا أنه يعيش بيننا فى سلام ورخاء.

يقول الله عز وجل: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتَخْطَفُهُ الطير أو تهوى به الريحُ فى مكان سحيق﴾ (١) .

واعلم أن الشرك نوعان: جلى وخفى.

أما الشرك الجلى فهو أن يجعل المرء لله نداً. أى شبيهاً يعبده ويتقرب إليه ويعظمه فى نفسه.

وكل ما يخالف عقيدة التوحيد الخالص فهو شرك جلى. أى ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

وأما الخفى فهو الرياء فى الأقوال والأفعال بأن يعمل العبد العمل ليحمده الناس عليه، أو ليجد منهم استحساناً عظيماً.

والرياء يفسد العمل ويمحق بركته ويجعله غير صالح للقبول أبداً.

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال: يقول الله تعالى: «من عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فهو له كُلُّهُ ، وأنا منه برئ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك» (٢) .

وقال رسول الله – ﷺ – كما فى البخارى ومسلم: «إن الله طيب لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم».

وروى أبو داود والنسائى، عن أبى أمامة – رضى الله عنه – قال: جاء رجل إلى رسول الله – ﷺ – فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ أى (أخبرنى عن الرجل قاتل فى غزوة يلتمس من الله الأجر ومن الناس المدح والثناء. هل له عند الله من أجر؟).

فقال رسول الله – ﷺ –: «لا شىء له»، فأعادها ثلاث مرات، ويقول

---

(١) سورة الحج: ٣١.

(٢) رواه ابن ماجه وغيره.

رسول الله - ﷺ - لا شيء له، ثم قال: إن الله - عز وجل - لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغى له وجهه».

وروى مسلم والترمذى وغيرهما من أصحاب السنن عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه - رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: هو جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل تَعَلَّمَ العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار».

وروى ابن ماجه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟» فقلنا: بلى، يا رسول الله، فقال: «الشرك الخَفِى. أن يقوم الرجل فيصلى فيُزَيِّنُ صلاته لما يرى من نظر رجل».

فأنت ترى من هذا الحديث أن الصلاة التى يرائى فيها العبد تصبح صورة ميتة لا خير فيها؛ لأنها فقدت روح الإخلاص وسلامة القصد، بل إنها تكون وصمة عار فى جبينه يوم القيامة يعذب بها؛ لأن الشأن فيها أن تكون لله فأشرك معه فيها غيره.

قال تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾ (١) .

وكذلك الزكاة إنها إن صدرت عن قلب يسخو لله تعالى قُبِلَت من صاحبها وضوعف له الأجر عليها، وإلا فهى عمل باطل غير مقبول.

قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس لا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ (٢) .

إن الإخلاص لله فى العمل شرط فى صحته وقبوله كما ذكرنا.

وإذا قبل الله العمل ضاعفه أضعافاً كثيرة، والله واسع الفضل، عليم بمن أخلص له فى القول والعمل.

والإخلاص هو: تَفَرُّغُ القلب إلى الله تبارك وتعالى، وتوجهه إليه؛ حباً لذاته وخضوعاً لعظمته، وتواضعاً لجلاله وطلباً لمرضاته، وتفانياً فى طاعته، وهرباً إليه من نزعات الشرك والهوى، وفراراً إليه منه؛ إذ لا منجاة منه إلا إليه.

قال تعالى: ﴿إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾ (٣) .

والدين معناه فى الآية: الخضوع التام والانقياد الكامل لله وحده.

---

(١) الماعون: ٤ – ٧.
(٢) البقرة: ٢٦١ – ٢٦٤.
(٣) الزمر: ٢ – ٣.

قال تعالى: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيِّمة﴾ (١) .

أى: ما أمروا إلا بتوحيد الله – عز وجل – وإفراده بالعبادة والخضوع والانقطاع إليه والاعتماد عليه فى جميع الأمور ، وذلك هو دين القيمة أى: دين الفطرة السليمة والجبلة المستقيمة.

قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرَتَ الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ (٢) .

والمعنى: وَجِّه وجهك أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين لهذا الدين الذى فطركم الله عليه، متحنفين لله. أى: مائلين إليه عن سواه، فهو الدين الذى رضيه لكم وفطركم عليه، وأنعم به عليكم وجعله وافياً بمطالبكم، ومنهجاً متكاملاً لحياتكم، وصراطاً مستقيماً ملائماً لفطرتكم. فمن بدل منكم دينه فقد غير فطرة الله (لا تبديل لخلق الله): جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى، أى: لا تبدلوا خلق الله كما تقول لأخيك ناصحا: لا تفريط فى حقك، أى: لا تفريط فى حقك واسع للحصول عليه.

وهذا الدين قيم فى ذاته لا عوج فيه ولا تناقض فى أحكامه وتشريعاته، ولا اختلاف فى نصوصه وآياته، قَيِّمٌ على غيره من الأديان السماوية، ومهيمن عليها وجامع لأصولها وفضائلها، ومصحح لما حرف منها؛ لهذا وجب على كل مكلف أن يدين لله به، فبذلك ينجو من عذابه، ويدخل فى رحمته.

﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قِيَماً ملةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ (٣) .

---

(١) البينة: ٥ .

(٢) الروم: ٣٠ – ٣١.

(٣) الأنعام: ١٦١ – ١٦٣.

هذا هو الإخلاص فى أسمى صوره وأرقى معانيه. فمن شابه بشائبة من الشرك الجلى أو الخفى فقد أفسد دينه ودنياه.

إن أصحاب النبى - ﷺ - والتابعين من بعدهم كانوا يخشون على أنفسهم من الشرك بنوعيه حتى كان أحدهم يَتَّهِمُ نفسه فى كل عمل يعمله أمام الناس، فيقول بلسان حاله: ربما أكون قد رآيت الناس بعملى، وربما أردت أن يقال: إنى رجل صالح، وإنى رجل مخلص، ويراقب نفسه مراقبة تامة، ويحاسبها على كل صغيرة وكبيرة، ويحملها على التواضع لله - عز وجل - والبعد عن مواطن الرياء بعداً تاماً، ولنا فيهم أسوة حسنة.

رأى عمر بن الخطاب رجلاً يطأطئ رقبته فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك؛ ليس الخشوع فى الرقاب، إنما الخشوع فى القلوب.

ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا فى بيتك.

أى : أنت كما أنت من الإخلاص والخضوع لله لو كان يحصل منك ذلك وأنت فى بيتك.

وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: اقتص منى، فقال: لا، بل أدعها لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئاً،إما أن تدعها لى فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن.

وللمرائى علامات يُعرف بها، لا يستطيع إخفاءها؛ لأنه كذاب، والكذب ليس له قرار.

ومن حاول إخفاء شيء ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسان وحركات يديه ورجليه.

قال على - رضى الله عنه - للمرائى ثلاث علامات: يَكْسَلُ إذا كان وحده، وينشط إذا كان فى الناس، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص إذا ذم.

ومن العجيب أن كثيراً من الناس يَدَّعُون أنهم يعملون الصالحات ويسارعون

فى الطاعات وهم عن ذلك بمعزل، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ولن يحمدوا أبداً ؛ لأن الله يبغض أمثال هؤلاء، فلا يوفق أحداً من خلقه لحبهم، حتى يتوبوا عن شركهم، ومن تاب تاب الله عليه.

وما أحسن قول الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.

وقال الحسن البصرى - رحمه الله - المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى ، وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الإ ء، فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه.

وقال إبراهيم ابن أدهم: ما صَدَق اللهَ من أراد أن يشتهر. أى: ما أخلص لله فى عقيدة ولا فى عمل.

إن الشهرة وبال على صاحبها، وحمل ثقيل فوق ظهره، لا تترك له عملاً صالحاً إلا فسدته عليه.

ومن أراد الشهرة فلابد أن ينافق ، والمنافق لا مكانة له عند الله ولا عند الناس؛ فالشر منه يخرج وإليه يعود.

فكن - يا أخى - واحداً من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، كن ممن يتصدق بصدقة فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

كن مع الله ودعك من الناس ؛ فالناس أصفار لا ينفعونك بشىء ولا يضرونك بشىء إلا بإذن الله.

ووجه وجهك لله حنيفاً متبرئاً من الشرك وأهله، متخلقاً بأخلاق المتقين، الذين لا يسألون إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله، ولا يعملون عملاً صالحاً إلا ابتغاء وجه الله، فهؤلاء هم أهل الله وخاصته. جعلنا الله منهم، ووقانا شر الرياء والمرائين، وأعاذنا من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن عمل لا يُقبل ومن دعوة لا يستجاب لها.

* * *

والموبقة الثانية التى أمرنا النبى - ﷺ - باجتنابها هى السحر، وهو أخو الكفر إن لم يكن الكفر نفسه.

يقول الله - عز وجل - فى شأن اليهود الذين اتبعوا السحرة من شياطين الإنس والجن وصنعوا صنيعهم: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾(1).

أى: واتبع هؤلاء اليهود ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان، يعنى: فى زمن ملكه. ﴿وما كفر سليمان﴾ أى: ما سحر ولا تعلم السحر. ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ لأنهم تعلموا السحر وعلموه الناس.

وكان شياطين الجن يُعَلِّمُونَ شياطين الإنس، وكان هاروت وماروت رجلين يتظاهران بالصلاح والتقى، حتى لقبهما الناس بالملكين، وكانا من أبرع الناس فى السحر، فإذا جاءهما من يطلب منهما أن يعلماه السحر أبيا عليه فى أول الأمر، وقالا له: ﴿إنما نحن فتنة﴾ أى: محنة وبلاء، ﴿فلا تكفر﴾ بتعلمك السحر واتق الله وابتعد عن هذا الطريق. فلا يزداد إلا عزماً على تعلمه، فيعلمانه ما يُفَرِّق به بين المرء وزوجه.

ولكن الله - عز وجل - يقول: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

فهولاء السحرة ليس لهم فى الآخرة نصيب من رحمة الله، بل لهم عذاب فوق العذاب بما كانوا يفسدون.

وقد كان قوم فرعون يجيدون نوعاً من السحر غير الذى يعرفه البَابِلِيُّونَ، فرد الله عليهم كيدهم فى نحورهم بالمعجزة التى أيد بها نبيه موسى - عليه السلام.

وهى العصا التى تَلَقَّفَتْ كل ما صنعوا، وفى هذا يقول الله - عز وجل -:

---

(1) البقرة: 102.

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ (١) .

وقال فى آية أخرى: ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ (٢) .

وقال عز من قائل: ﴿ إنَّمَا صنعوا كيدُ ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٣) .

والساحر يقتل إذا لقى الناس منه شراً بعد أن يستتاب، فإن تاب ورجع عن غَيِّه تركناه وشأنه حتى يحكم الله فى أمره وهو خير الحاكمين.

وعلى كل مسلم أن يعتزل السحرة أجمعين، ولا يتعامل معهم أينما كانوا، ولا يقترب منهم حيثما وجدوا، ولا يأتى كاهناً يَدَّعِى أنه يتصل بالجن فيطلعونه على بعض الأمور المُغَيَّبَة، ويخدمونه فى إخراج الأعمال وتلبية الرغبات وإحضار الغائب وما إلى ذلك من الدعاوى الباطلة.

وكذلك العَرَّاف الذى يفتح الكتب المزيفة وينظر فى النجوم وهو أجهل من الدواب، ويقص الأثر ويضرب الرمل ويفتح المندل وما إلى ذلك مما لا يصدقه عقل ولا يقره دين.

روى البزار عن عمران بن حُصَين – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهِّنَ له، أو سحر أو سُحِرَ له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد – ﷺ ».

وروى مسلم فى صحيحه عن صفية بنت أبى عبيد، عن بعض أزواج النبى – ﷺ – أن النبى – ﷺ – قال: «من أتى عَرَّافاً فسأله عن شيء فَصَدَّقَهُ، لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعين يَوْماً».

ولا يخفى علينا ما يقوم به السحرة من إفساد للعقيدة وإضرار بالمجتمع ونشر للخرافات القديمة والخزعبلات المتوارثة.

---

(١) الأعراف: ١١٧ – ١١٩.

(٢) يونس: ٨١.

(٣) طه: ٦٩.

ولا يغيب عن أذهاننا ما نسمع به وما نراه وما نقرأه فى الصحف وغيرها عن أحوال هؤلاء السحرة وما يفعلونه بالنساء على الخصوص وما يفعلونه فى الرجال السُّذج، وما يتعاطونه من هؤلاء وهؤلاء من أموال طائلة.

وإذا ساد الجهل عَمَّ الفساد فى الأرض، وإذا حَلَّت الخرافات مَحَلَّ التعاليم الدينية والنظريات العلمية - أَطَلَّ هؤلاء السحرة برءوسهم التى يجب قطعها وبَثُّوا سمومهم فى المجتمع، الذى جعل نفسه بإرادته نهباً لهم وفريسة تأتيهم إلى أماكنهم.

وأهل العلم لا يعجزون عن ملاحقة هؤلاء السحرة والضرب على أيدهم بمطارق من حديد، ولكن ينبغى أن تفتح لهم أجهزة الإعلام أبوابها؛ليقولوا كلمة الحق ويقوموا بواجبهم فى توعية المجتمع وتبصيره بأخطار هؤلاء، ويكشفون لهم بالحجة والبرهان أكاذيبهم وألاعيبهم. والله المستعان.

وقد تقول: إن كلامك هذا يوحى بأنه ليس هناك سحر؟

أقول نعم: ليس هناك سحر فى هذا العصر، ولو وجد فإنه يكون نادراً جداً، والنادر لا حكم له.

واعلم أن السحر لو وجد لا يصيب إلا ضعفاء الناس من النساء وأهل البدو والبسطاء من الرجال.

ولو أصيب أحد بسحر فإنه سرعان ما يزول بذكر الله وتلاوة القرآن، وتقوية الإرادة بالعلم والحكمة، والجلوس مع أولى العزم والحزم، والسماع لأهل الرأى والمشورة، وطرد كل الوساوس التى توحى بأنه مسحور.

وقد تقول: إن النبى - ﷺ - سحر!

فأقول: نعم، ولكن السحر لم يؤثر فيه، ومع ذلك أنزل الله عليه سورة الفلق وسورة الناس، وهما سورتان يتعوذ بهما المسلم من السحر والحسد وشياطين الإنس والجن.

وقضية سحر النبى - ﷺ - قد تكلم فيها العلماء كثيراً، وناقشتها أنا بحمد الله تعالى فى بعض كتبى منها: كتاب الطبرى ومنهجه فى التفسير فى

الفصل الرابع، بعنوان: تتمة فى قضايا مهمة، وكتابى: القاسمى ومنهجه فى التفسير فى الفصل الرابع.

وقد تكلمت أيضاً عن السحر وتأثيره وعلاجه بإيجاز شديد فى كتابى: بين السائل والفقيه.

وقد تكلمت عنه بتوسع فى كتاب لم يطبع بعد، وذكرت فيه: حقيقة السحر، وأنواعه، وكيفية الوقاية منه، وكيفية العلاج من أدوائه إذا وقع، إلى آخر ما هنالك من المسائل الملحة التى يحتاج الناس إلى جواب شاف عليها.

* * *

والموبقة الثالثة قتل النفس ظلماً وعدواناً، وهو من أفظع الجرائم التى يرتكبها الإنسان فى حق أخيه الإنسان، فأى أرض تقله وأى سماء تظله إذا أقدم على هذه الجريمة النكراء بسفاهة وجهل دون رادع من دين أو وازع من ضمير!!

وقد قال الله عز وجل فى وعيد القاتل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ (١).

وقال جل شأنه فى وصف عباده المقربين: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حَرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يُضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخْلُد فيه مهاناً﴾ (٢).

وقد عظم الله جزيمة القتل تعظيما شديداً فى قصة قابيل وهابيل فقال فى نهايتها ﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (٣).

فقد جعل قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس؛ مبالغة فى تعظيم أمر القتل بغير حق، وتهويلاً من شأنه. أى كما أن قتل جميع الناس أمر عظيم القبح

---

(١) النساء: ٩٣.

(٢) الفرقان: ٦٨ – ٦٩.

(٣) المائدة: ٣٢.

عن كل أحد، فكذلك قتل الواحد يجب أن يكون كذلك، فالمراد مشاركتهما فى أصل الاستعظام لا فى قدره؛ إذ تشبيه أحد النظيرين بالآخر لا يقتضى مساواتهما من كل الوجوه.

قال سليمان بن على للحسن البصرى: يا أبا سعيد، أهذه لنا كما كانت لبنى إسرائيل؟

قال: والذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرمَ على الله من دمائنا.

وأعظم أنواع القتل جرماً من قتل ولده خشية الفقر أو قتل ابنته مخافة العار كما كان يفعل بعض العرب فى الجاهلية.

قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطئاً كبيراً﴾ (١).

وأشد من ذلك جرماً من قتل نفسه تبرماً من قدر الله وقنوطاً من رحمته.

قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (٢).

وفى قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ثلاثة وجوه من التفسير:

الأول: لا يقتل بعضكم بعضاً، وإنما قال أنفسكم للدلالة على أن المؤمنين كنفس واحدة.

والثانى: لا يفعل أحدكم ما يؤدى إلى قتله، كأن يزنى وهو محصن، أو يقتل نفساً أو يرتد عن الإسلام.

والثالث: لا يقتل أحدكم نفسه منتحراً. وهذا هو الراجح عندى.

يؤيده ما ذكره ابن حجر الهيثمى فى الزواجر أن عمرو ابن العاص – رضى الله عنه – احتلم فى غزوة ذات السلاسل فخاف الهلاك من البرد إن اغتسل فتيمم وصلى بأصحابه الصبح ثم ذكر ذلك للنبى – ﷺ – فقال له: «صليت بأصحابك

---

(١) الإسراء: ٣١.

(٢) النساء: ٢٩.

وأنت جنب؟» فأخبره بعذره وقال إنى سمعت الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ فضحك رسول الله - ﷺ - ولم يقل شيئاً.

فدل هذا الحديث على أن عمراً تأول فى هذه الآية قتل نفسه لا نفس غيره، ولم ينكره - ﷺ.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من تَرَدَّ من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبدا، ومن تَحَسَّ سماً فقتل نفسه فسمه فى يده فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ [1] بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

وروى الشيخان أنه ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله - ﷺ - إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة [2] إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقالوا ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله - ﷺ - أما إنه من أهل النار».

وفى رواية: «فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً. قال: فخرج معه، كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك فقلت أنا لكم به فخرجت فى طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله - ﷺ -: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة».

---

(١) يتوجأ: أى يضرب بها نفسه.

(٢) أى ما من فار هنا وهناك إلا أتبعه يضربه بسيفه.

ويدخل فى حكم القاتل من أعانه على القتل أو كان سبباً فيه.

أخرج ابن ماجه والأصبهانى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقى الله وهو مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله».

وروى الطبرانى والبيهقى بإسناد حسن: «لا يقفن أحدكم موقفا يُقتل فيه رجل ظلماً؛ فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه».

وبعد أن عرفنا عظم هذا الجرم يبقى سؤال نختم به الكلام عن هذه الموبقة.

هذا السؤال: هل للقاتل توبة؟

نعم، للقاتِل توبة عند جمهور الفقهاء والمحدثين والمفسرين وشرط صحتها أن يقدم نفسه للقصاص، أو يطلب العفو من أولياء المقتول ويدفع لهم الدية، وله أيضاً أن يطلب منهم العفو عن الدية. فإن عفوا عن الدية وجب عليه أن يصوم شهرين متتابعين توبة من الله تعالى إن استطاع أن يصوم، فإن لم يستطع سقط عنه الصوم فإن لم يقدم نفسه للقصاص ولم يطلب العفو من أولياء المقتول عن القصاص وعن الدية فعسى الله أن يتوب عليه ويُرَضِّى عنه خصومه يوم القيامة. وعليه أن يكثر من الحسنات حتى يجد ما يسد به دينه للمقتول يوم القيامة والدليل على أن للقاتل توبة آيات وأحاديث كثيرة.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (١).

وقال تعالى بعد أن ذكر أوصاف عباده المقربين ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ (٣).

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) الزمر: ٥٣.

وجاء فى الصحيحين أن النبى - ﷺ - قال: «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق .. ثم قال: فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه».

قال الشوكانى فى فتح القدير (١) : «والحقّ أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول فى باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصى التى من جملتها القتل عمداً؟ والله أحكم الحاكمين، هو الذى يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون».

* * *

الموبقة الرابعة: أكل الربا وهو من أكبر الذنوب المهلكة لصاحبها فى الدنيا والآخرة.

وإنه ليبدو لى أنه أكبر جرماً من الزنا والسرقة والغضب وكثير من الذنوب التى لعن صاحبها فى الكتاب والسنة، بدليل أن الله عز وجل لم يُعلن الحرب على مرتكب كبيرة صراحة إلا على آكل الربا حيث قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ (٢) .

وقد وصف الله حال المرابين يوم القيامة وصفاً تنخلع منه القلوب فقال: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾ (٣) .

فهم يقومون من قبورهم كالمجانين من شدة الفزع والهلع بطونهم أمامهم كأنها جبل أحد كما جاء فى بعض الأخبار.

وقد صور النبى - ﷺ - سوء عاقبة المرابين وبشاعة ما هم عليه فى قبورهم

(١) جـ ١ ص ٤٩٩.
(٢) البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٣) البقرة: ٢٧٥.

فقص على أصحابه رؤيا طويلة رآها في منامه ورؤيا الأنبياء حق فقال من حديث طويل رواه البخارى عن معمرة بن جندب: «رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة، فانطلقا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فيه بحجر، فيرجع كما كان فقلت: ما هذا الذى رأيته فى النهر؟ قالا: آكل الربا».

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «لعن رسول الله - ﷺ - آكل الربا وموكِلَه وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء».

والمرابى إنسان لا عقل له ؛ إذ تصور أن الربا فيه ربح كثير من حيث إنه يقرض غيره مبلغاً من المال بزيادة يدفعها المقترض فى نظير الأجل مع أن هذا هو الخسران المبين فلا يلبث المرابى أن يفتقر ويذهب ماله بطريقة أو بأخرى، وإن ظل محتفظاً بالمال فإنه لا ينتفع به أبداً، ولا ينتفع به ورثته من بعده.

ولو كان عاقلاً لعرف أن الخير كل الخير فى القرض الحسن، فهو صدقة من أعظم الصدقات التى تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى، وهو ينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة بخلاف الربا فإنه نقيضه تماماً.

يقول الله عز وجل: ﴿ يمحق الله الربا ويُربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ (١).

والمعنى يهلك الله الربا وما يأتى منه، فيستأصل الأصل والزائد عليه، ويهلك المرابين فى الدنيا والآخرة، ويمحق البركة من أرزاقهم وأعمارهم.

أما الصدقات فإن الله ينميها لصاحبها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة.

وقد عرّض الله بالمرابين فى قوله: ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾، إذ المرابى شديد الكفر بالنعمة؛ لأنه بخل بحق الله فيها واستعملها فى غير وجهها، وقسا على من يستحقون الرحمة والعطف، وأشتد طلبه للدنيا حتى نسى الآخرة تماماً، فأحل نفسه بحماقته وكفره دار البوار.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٦.

ولو كان يعقل ما طلب الربح مما فيه خسران.

(وقد حرم الله الربا، وشدد النكير على آكله وموكله وكل من تسبب فيه؛ لما فيه من استغلال فاحش لذوى الحاجات الذين يجب على أصحاب القلوب الرحيمة إعانتهم، وتنفيث كرباتهم، وقضاء حوائجهم، من غير منٍّ ولا أذى، ولما فيه – أيضاً – من قطع لما أمر الله أن يوصل، فأولوا الأرحام لهم حقوق أدناها قضاء حوائجهم بقدر الطاقة والوسع، وللفقراء والمساكين حقوق أدناها سد عوزهم، وستر عوراتهم وإشباع بطونهم، وللمسلم بوجه عام على أخيه المسلم حقوق أدناها أن يكون رحيماً به عطوفاً عليه، محسناً إليه، ولو بالقليل من ماله وجهده.

ولاشك أن التعامل بالربا يعتبر فوق ما ذكرنا تعطيلاً للمال الذى ينبغى أن يستغل فى رفع الإنتاج، وتشغيل العاملين وهو ربح بلا مقابل، وبلا مبرر يقتضيه.

من هنا كان المرابى من أسوأ الناس حالاً، وأتعسهم حظاً، وأخبثهم طبعاً ووضعاً فى الدنيا، وأسوأهم مآلاً فى الآخرة، فهو يعيش فى الدنيا ذليلاً كئيباً يبغضه من يعرفه ومن لا يعرفه من الناس، ويلعنه أهل السماء وأهل الأرض، ويعيش فقيرا مهما كثر ماله، ويموت على سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، وتعلوه قترة يعرف بها.

وإنك لو كنت من أهل الفراسة لعرفت حاله من وجهه، ومن نظراته وحركاته، فهو يتصرف كالمجنون، وينظر إلى الناس نظر المغش عليه من الموت، ويشعر دائماً بالغربة، وهو فى بلده، ويجد فى نفسه حرجاً شديداً من ملاقاة الناس، ويشعر بأن نظرات الناس إليه سهام مسلطة عليه تنفذ إلى قلبه، فتضيق مسالكه مما يجعل أنفاسه تحتبس حتى ليكاد يختنق من الجو الذى وضع نفسه فيه، وما كان أغناه عن ذلك لو كف عن هذا الإجرام البالغ غاية الخطورة، وأطاع الله فيما أمره، فأكل حلالاً طيباً، وعمل عملاً صالحاً يقربه من الله تعالى، ويبعده عن سخط الناس ومقتهم، ويجنبه ما يصيب أمثاله من المرابين الذين لم يعلنوا توبتهم إلى ربهم بعد، ولم يصححوا سيرهم فى هذه الحياة الدنيا طمعاً فى الآخرة، وهى خير وأبقى لأهل التوبة والتقى.

وقانا الله وإياكم مغبة هذا العمل الأثيم إنه جواد كريم) [1] .

« وهذا ولم يكن الربا محرماً فى الشريعة الإسلامية وحدها بل كان محرماً فى الشرائع السابقة كما دلت على ذلك نصوص كثيرة فى التوراة والإنجيل لا أرى حاجة لذكرها هنا، ويكفى أن نشير إلى حرمته فى الشرائع السابقة بما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فبظلمٍ من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلّت لهم وبصدِّهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلِهم أموالَ الناسِ بالباطلِ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ [2] .

وقد رأى كثير من الفقهاء أن الربا لم يحرم صراحة إلا بعد أن نفَّر الله منه عباده، ونعى على آخذيه وآكليه، لما حرمه صراحة حرم كثيره أولاً، ثم حرمه كله قليله وكثيره، فقال جل وعلا أولاً : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربُوا عند الله ﴾ [3] .

ثم قال : ﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه ﴾ .

ثم قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ [4] .

ثم قال عز من قائل : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذين يتخبطه الشيطان من المس ﴾ إلى قوله جل وعلا : ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ﴾ [5] .

وفى هذا التدرج حكمة لا تخفى على أولى الألباب، فإن العرب فى الجاهلية كانوا يتعاملون بالربا، وكان عندهم بمنزلة البيع، وكانت أكثر أموالهم

---

(١) انظر كتابى الفقه الواضح جـ ٢ ص ٥١٨ وما بعدها .
(٢) سورة النساء آية : ١٦٠ – ١٦١ .
(٣) سورة الروم آية : ٣٩ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٣٠ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٧٥ – ٢٧٩ .

منه، فلو حرمه عليهم دفعة واحدة، لشق الأمر عليهم، ونفروا من ذلك، أو وجدوا فى الامتناع عنه مشقة بالغة وحرجاً شديداً، فكان من رحمة الله تعالى أن نَفَّرَهُم منه أولاً، وهيأ نفوسهم لرفض التعامل به بعد ذلك» (١) .

وكانت أحكام الربا آخر ما نزل من القرآن الكريم وهو من أواخر التحذيرات النبوية، فقد حذر منه النبى - ﷺ - تحذيراً شديداً فى حجة الوداع، وكانت فى السنة العاشرة من الهجرة - مات بعدها النبى - ﷺ - بنحو ثمانين يوماً.

وقد بين الفقهاء أحكامه فى كتبهم فراجعها هناك وبالله توفيقك.

* * *

الموبقة الخامسة: أكل مال اليتيم وهو لا يقل جرماً عن أكل الربا، بل هو أشد منه وأفظع؛ لأن الله - عز وجل - شدد الوعيد فيه فقال عز شأنه: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ (٢) .

نعم والله، إن مال اليتيم هو «نار» تحرق كل من يَمُدّ إليه يداً خائنة، أو يَدُسُّه فى بطن شَرِهَة، فمن أكل منه احترق به فى الدنيا، وصَلِىَ به عذاب جهنم فى الآخرة.

وحتى لا يقدم أحدٌ على ارتكاب هذا الظلم الأثيم، مهد لهذا الوعيد بوعيد آخر فقال جل شأنه قبل هذه الآية المتقدمة: ﴿وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ (٣) .

فهو وعيد من نوع آخر كما أشرنا؛ لأنه يحذر أولياء اليتامى من مَغَبَّةِ المال الذى جمعوه من دمائهم ودماء الضعفاء وممن هم على شاكلتهم، وأخذوه بغير حق من هنا وهناك، ويذكرهم بمصير أبنائهم من بعدهم، فقد يصيبهم ما أصاب اليتامى، وينالهم من الظلم والقسوة والإهمال ما نالهم.

---

(١) انظر كتابى الفقه الواضح جـ ٢ ص ٥١٧ وما بعدها.
(٢) النساء: ١٠.
(٣) النساء: ٩.

إنهم سيموتون كما مات هذا الميت الذى تقاسموا تركته، أو تقاسمها ورثته وهم يشهدون.

وإنهم سيتركون من بعدهم أطفالهم، الذين سينضمون إلى موكب الأيتام، كما ترك هذا الميت أطفاله وانضموا إلى جماعة الأيتام ممن مات آباؤهم قبله.

فليرعَوْا حق الله إذن، وليخشوْه فى هؤلاء اليتامى الذين فى أيديهم، وليصونوهم ويصونوا أموالهم ، وليعاملوهم كما يرجون أن يعامَل أبناؤهم من بعدهم.

وإنه ليس هناك من صورة مثل هذه الصورة، التى يعرضها القرآن هنا فى إثارة العواطف، وفى استجلاء العبرة والعظة، حيث يتمثل منها للحى خاتمة مطافه فى هذه الحياة، ومصير هذا المال الذى جمعه، والذى يكاد يذهب بدينه ومروءته جميعاً.

وفى قوله تعالى: ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ نداء سماوى كريم، يلتقى مع تلك المشاعر التى حركتها الصورة التى يتمثلها من يقرأ الآية الكريمة وينظر فيما يَطْلعُ عليه منها عن مشاهد الموت وما بعد الموت.

والقول السديد الذى تدعو إليه الآية: هو القول الذى يحمل النصح والتوجيه والتسديد لليتامى ، وإعدادهم إعداداً صالحاً للحياة ... تماماً كما فعل الأب مع أبنائه، وإلا فهو قول غير سديد وخيانة للأمانة التى اؤتمن الأوصياء عليها...

وأشد الناس خشية لله تعالى وخوفاً من أكل أموال اليتامى أصحاب النبى - ﷺ - ولا سيما بعد أن نزل ما نزل فى التحذير من أكل شىء من أموالهم عدواناً وظلماً.

روى أبو داود والنَّسائىّ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾ [1] و ﴿إن الذين يأكلون

---

(١) الأنعام : ١٥٢.

أموال اليتامى ظلماً . . . ﴾ (١) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابَه من شرابه، فجعل يُفضِل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعْنَتَكم إن الله عزيز حكيم ﴾ (٢) ، فخلطوا طعامَهم بطعامه وشرابَهم بشرابه .

فقد دلت هذه الآية على جواز التصرف فى مال اليتيم بما فيه مصلحته العاجلة أو الآجلة من بيع وشراء وغير ذلك، فيجوز لولى اليتيم أن يتجر له فى ماله فيجعل لنفسه من الربح بقدر عمله لو اتجر فى مال شخص آخر .

ويباح له أن يبنى له داره أو يهدمها إن كان فى هدمها مصلحة تعود على اليتيم .

وخير ما يؤدى لليتيم من إحسان إليه وبرٍ به، هو أن يربى تربية طيبة، تبلغ به مبلغ الكمال والرشد، حتى يستقل بشئون نفسه، ويتولى رعاية أموره، وتلك هى الأمانة التى جعلها الله فى عنق من يقومون على اليتامى من أولياء وأوصياء، فإذا قصروا فيها كان حسابهم عليها بين يدى الله على قدر ما قصروا .

قوله تعالى : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أى : وإن تضموهم إليكم وتتولوا عنهم رعاية أمورهم فهم إخوانكم، لهم مكان الأخوة بينكم، وما لهذه الأخوة من حقوق .

وفى التعبير عن الإشراف على اليتامى بالمخالطة، إشارة إلى أن هذا الإشراف ينبغى أن يقوم على صِلات روحية ونفسية ، تمتزج فيها مشاعر الأوصياء على اليتامى بمشاعر هؤلاء اليتامى، كيان واحد، وذلك هو الذى يعطى اليتيم مكاناً متمكنا من قلب الوصى وفى أهله الذين يعيش معهم ، مختلطاً وممتزجاً لا منفصلاً ومعتزلاً .

---

(١) النساء : ١٠ .

(٢) البقرة : ٢٢٠ .

وفى التعبير عن اليتامى بقوله تعالى: ﴿ فإخوانكم ﴾ بدلاً من « فأولادكم » كما يقتضيه ظاهر الأمر، إذ اليتيم لا يكون يتيماً إلا فى حال صغره، الأمر الذى يجعله من الوصى بصفة الابن لا الأخ - فى هذا التعبير تنويه بما ينبغى أن تكون عليه نظرة الوصى على اليتيم إلى اليتيم، وهو أن ينظر إليه على أنه مثله وفى درجته، وإن كان فى مدارج الصِّبا.

فهذه النظرة جدير بها أن تقيم الوصى دائماً على شعور يقظ بأنه يتعامل مع إنسان رشيد، يرقب أعماله، ويرصد تصرفاته فى شئونه.

وهذا الشعور يجعل الوصىّ حذراً فى تصرفاته؛ حريصاً على أن يظهر بمظهر الأمين الحريص على مصلحة اليتيم.

ثم إنه من جهة أخرى سيعمل هذا الشعور عمله عند الوصى فى الوصول باليتيم إلى مرحلة الرشد فى أقصر زمن ممكن، بحكم هذه الأخوة الملازمة له والمستقرة فى شعوره، وهذا شعور معاكس تماماً لما يشعر به الأوصياء نحو اليتامى من أنهم لن يكبروا أبداً، حتى يظلوا أكبر زمن ممكن تحت أيديهم!!

فانظر كم أعطت هاتان الكلمتان المباركتان: ﴿ إن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ من ثمرات طيبة، وكم تعطيان هكذا أبداً من ثمر طيب مبارك لكل طالب ومريد؟.

وفى قوله تعالى: ﴿ والله يعلم المفسدَ من المصلح ﴾ حماية لهذا الشعور الذى أثاره قوله سبحانه: ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ وتغذية دائمة له من أن يضعف؛ إذ يجد الوصى على اليتيم عينَ الله ترقبه، وعلمُه يحيط بكل ما يعمل لليتيم الذى فى يده من خير وشر، ومن إصلاح لأمره، ليرشد ويستقل بشئونه، أو ليفسد ويظل هكذا تحت يده!

وفى قوله سبحانه: ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ إشارة إلى أن ما قضت به حكمة الله من تكاليف فى شريعة الإسلام هو ما لا إعنات فيه ولا إرهاق، بل هو ما تحتمله النفوس فى متوسط مستوياتها.

فأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها ملتزمة هذا الموقف الوسيط، الذى جمع أطراف الناس جميعاً، من أقوياء وضعفاء.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكلف بما هو فوق احتمال الناس، أو بما يصيبها بالجهد والإعياء لما كان لأحد أن يعترض، ولكان ذلك شريعة ملزمة، يحلّ العقاب بمن خرج عليها، كما فعل الله سبحانه وتعالى ذلك باليهود، وذلك من باب الابتلاء والفتنة، التى عافى الله سبحانه وتعالى منها هذه الأمة الإسلامية، ورحمها من هذا البلاء.

وبقى لنا فى قضية أكل مال اليتيم حكم شرعى لابد من ذكره هنا، وهو بيان ما يجوز أكله من مال اليتيم فنقول:

اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز لولى اليتيم إن كان غنيا أن يأخذ من مال يتيمه شيئاً.

لقوله تعالى: ﴿ومن كان غنيّاً فليستعفف﴾ والاستعفاف عن الشىء تركه، والعفة هى الامتناع عما لا يحل فعله.

واختلفوا فى الفقير على سبعة أقوال أو أكثر، وخلافهم يرجع إلى مفهوم قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾.

١ – فقال جماعة منهم: يباح للفقير أن يأكل من مال اليتيم بقدر حاجته الضرورية، وحملوا الآية على ظاهرها. مستدلين بما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً أتى النبى – ﷺ – فقال: إنى فقير ليس لى شىء ولى يتيم.

فقال رسول الله – ﷺ –: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثل».

أى: ولا جامع مال لك ولا لأولادك من ماله، أو لا تأكل من ماله وتوفر مالك لتدخره لأولادك، يقال: مال مأثول أى مجموع له أصل.

واستدلوا أيضاً بما فى صحيح مسلم: أن عائشة رضى الله عنها قالت فى

تفسير الآية: نزلت فى ولى اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه، إذا كان محتاجاً جاز له أن يأكل منه، وهذا هو قول أكثر أهل العلم.

٢ - وقال بعضهم: لا يجوز لولى اليتيم أن يأكل من مال يتيمه شيئاً حتى ولو كان فقيراً.

وقالوا فى تفسير الآية: المراد: التوسعة على اليتيم إذا كان ذا مال كثير، والإنفاق عليه بقدر الضرورة إن كان ذا مال قليل.

وهذا القول غير صحيح؛ لأن المخاطب فى الآية هم الأولياء وليس اليتامى؛ لأنهم ليسوا من أهل الخطاب لصغرهم.

٣، ٤ - وانقسم الذين أباحوا للفقير الأكل من مال اليتيم بقدر الحاجة إلى قسمين:

(أ) فريق يرى أن ما يأكله الولى من مال اليتيم فى حال فقره يكون قرضاً فى ذمته متى أيسر رده إليه، وإذا حضرته الوفاة أوصى ورثته بسداده. وبهذا قال ابن عباس وعمر بن الخطاب، وعبيدة وابن جبير، والشعبى ومجاهد وأبو العالية وغيرهم.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة الولى من مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت».

(ب) والفريق الآخر يرى أن ما أكله الولى من مال اليتيم فى حالة فقره لا يجب عليه قضاؤه إذا أيسر مادام قد أخذ منه بقدر الضرورة الملحة، فهو طعمة من الله له فى نظير حفظه لليتيم وخدمته له، وهو قول الحسن البصرى وعطاء النخعى وغيرهما.

قال القرطبى: «والدليل على صحة هذا القول إجماع الأمة على أن الإمام للمسلمين لا يجب عليه غرمُ ما أكل بالمعروف؛ لأن الله تعالى قد فرض سهمه فى مال الله فلا حجة لهم فى قول عمر: فإذا أيسرت قضيت - لو صح». أ. هـ [١] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص ٤٢ .

٥ – وقال جماعة من الفقهاء: يجوز للفقير أن يأكل من نتاج مال اليتيم لا من أصله، فينتفع بركوب دابته مثلاً، والشرب من لبنها وبما يتبقى من طعامه بحيث لو بقى له وجبة أخرى لتلف.

ونحو ذلك من الأشياء التى لا تضر بأصل المال ولا تنقص من قدره وقيمته.

٦ – وقال بعض الفقهاء فى تفسير الآية: المراد أن يأكل الوصى بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، فيستعفف الغنى بغناه، والفقير يقتر على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم.

قال النحاس: وهذا من أحسن ما روى فى تفسير الآية؛ لأن أموال الناس محظورة لا يطلق شىء منها إلا بحجة قاطعة.

٧ – وذهب جماعة إلى أنه إذا كان لليتيم مال كثير يشغل وليه عن كسب قوته بسبب القيام بصيانته والاتجار فيه ونحو ذلك – جاز له أن يأخذ من ماله أجرة عمله بالمعروف مادام محتاجاً إليها، ويستحب أن يكل تقديرها لأهل الحل والعقد من الصالحين المحيطين به، وهذا القول جدير بالاعتبار.

وأحسن منه وأصح: القول بأن ما أخذه الفقير من مال اليتيم دين فى ذمته متى أيسر رده، فهو القول الذى تطمئن إليه النفس بحق. والله أعلم.

ويجب على ولى اليتيم أن يختبر اليتيم الذى يكفله إذا قارب البلوغ فيعطيه شيئاً من ماله ليتجر فيه، أو ليعمل به من الأعمال ما يناسبه ويربحه.

فإن رآه يحسن التصرف فى البيع والشراء والأخذ والعطاء دفع إليه ماله كاملاً، وأشهد على ذلك حتى تبرأ ذمته وتنزه ساحته، وحتى لا يكون لليتيم حجة فى إتهامه بأخذ شىء من ماله بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ [١] .

---

(١) النساء: ٦.

فإن بلغ اليتيم ولم يظهر منه الرشد - وهو حسن التصرف - لا يسلم إليه الولى ماله، ولو بلغ أربعين سنة، خلافاً لأبى حنيفة فإنه يرى أن الولى يجب عليه أن يسلم إليه ماله إذا بلغ خمساً وعشرين سنة، سواء ظهر منه الرشد أم لم يظهر.

هذا ما وسعنا ذكره فى شأن اليتيم وبيان ما يجب له والتحذير من إهانته وأكل ماله، وبقيت هناك أحكام كثيرة تتعلق به تركنا ذكرها مخافة التطويل، واكتفينا بما رأيناه ضرورياً فى هذه الوصية.

* * *

الموبقة السادسة: التولى يوم الزحف، وهو كبيرة من الكبائر إلا إذا كان القصد منه التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعينوا بهم على الكر للقتال، أو كان الفرار خدعة لجلب العدو إلى مكان يتمكن فيه من دحره وهزيمته.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولُّوهم الأدبار ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرِّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (١).

فالثبات فى ميدان القتال من أعظم الواجبات وهو شرف المؤمن وبرهان صدقه مع الله تبارك وتعالى.

والفرار جبن وخور، وإيذاء للمسلمين وخيانة لهم، فإنه يحدث فى الصفوف الفرقة، ويفت فى العزائم ويضعف الهمم، ويشجع العدو على الإغارة على من ثبت من المسلمين، بل كثيراً ما يكون الفرار وبالاً على الفارين، فقد يكون سبباً فى قتلهم شر قتلة، فيموتون كما يموت الجبناء ليس لهم فى الدنيا ذكر، وليس لهم فى الآخرة من نصيب إلا اللعنة وعذاب النار.

والفلاح كل الفلاح فى الثبات وحسن الثقة بالله والاعتصام به فى مثل هذه المواطن، وطلب العون منه، فهو خير ناصر وخير معين.

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله

---

(١) سورة الأنفال آية: ١٥ - ١٦.

كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾(١) .

فقد أمر الله فى هاتين الآيتين بما يحقق لهم النصر ويعظم لهم الأجر ويضاعف من إيمانهم وثقتهم بأنفسهم واعتزازهم بدينهم فى جو من الإخاء والتعاون البناء.

الأمر الأول: الثبات أمام العدو ، وهو الصدق عند اللقاء ، بمعنى أنهم يكرون ولا يفرون، يقدمون ولا يحجمون، يتناصرون ولا يتخاذلون ، وقد أثنى الله على هؤلاء الذين كانوا لا يهابون العدو فى أشرس مواطن القتال طلباً للنصر والشهادة وإرضاءً له جل شأنه فقال: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾(٢) .

وقال عز من قائل: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٣) .

والأمر الثانى: هو الإكثار من ذكر الله ولا سيما لقاء العدو؛ فإن الذكر يعينهم على القتال ويدفعهم إلى طلب الشهادة فى سبيل الله، ويزجرهم عن الفرار من وجه العدو فى الوقت الذى يكون الثبات فيه من أوجب الواجبات.

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ يكثرون من الذكر وتلاوة القرآن من بداية سيرهم إلى أرض المعارك حتى ينتهى القتال ويتخذون منه زاداً يبلغهم مقاعد الأبرار فى الوقت الذى تزيغ فيه الأبصار وتبلغ فيه القلوب الحناجر.

والأمر الثالث: طاعة الله عز وجل ، فإنها سبب من أعظم أسباب النصر.

---

(١) الأنفال آية: ٤٥ – ٤٦ .

(٢) الأحزاب : ٢٣ – ٢٤ .

(٣) سورة التوبة آية : ١١١ .

والذنوب سبب من أعظم أسباب الهزيمة . والتقوى خير الزاد ، وهى العدة لمن صدق الله فى مثل هذه المواطن.

فإذا كان للعدو قوة ومنعة وعدة وعتاد ونحن أقل منهم شوكة وعدداً ومدداً فلن نغلبهم إلا بالتقوى، فإن تخلينا عنها غلبونا قطعاً لعدم التكافؤ بين الجيشين.

فنحن وإن كنا قلة فى العتاد والعدد فمعنا ربنا الذى لا يأتى النصر إلا منه.

وهو القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(١) .

أى إن تنصروا دين الله بطاعته والجهاد فى سبيله فإنه لا يتخلى عنكم، ولا يَسْلِمكم لعدوكم أبداً ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٢) .

والأمر الرابع : الاتحاد وعدم التنازع؛ فإن الاتحاد قوة والتفرق ضعف وخذلان، وهو سبب من أهم أسباب الفشل وذهاب الريح وهى القوة.

الأمر الخامس: الصبر عند المكاره ومواجهة الصعاب بصدر رحب وقلب مطمئن، والحرص على إحراز النصر بالروح والدم.

ولاشك أن الصبر فى مواطن القتال يعين على الثبات والاستمرار فى المعارك حتى نهايتها من غير تبرم أو جزع.

ولقد كان أصحاب النبى - ﷺ - من أعظم الناس صبراً وجلداً فى مواطن الجهاد، وكان الاستشهاد عندهم هو الأمل المنشود والعز المنتظر ، لما علموا من فضله وعظيم ثوابه.

وقد كان شعارهم (احرص على الموت توهب لك الحياة) .

إنهم كانوا يوقنون بالقدر ويستسلمون له ويرضون به غاية الرضا، وهذا اليقين هو الذى يثبت أقدامهم ويربط على قلوبهم ويجعلهم أكثر إقداماً على اقتحام صفوف العدو، وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

---

(١) محمد : ٧.

(٢) الأنفال : ١٠ .

كان على – رضى الله عنه – يقول وهو يصول ويجول فى ميادين المعارك :

من أىِّ يومىَّ من الموت أفرْ ... يوم لا قــدِّر أو يوم قُــدِرْ
يوم لا قُــدِّر لا أرهبــــه ... ويومَ قــدِّر لا يغنى المفــرْ

* * *

الموبقة السابقة : قذف المحصنات .

وهو كبيرة من أعظم الكبائر جرماً ، وأشدها خطراً ، وأعظمها ضرراً على المجتمع المسلم الذى يتميز عن سائر المجتمعات بالطهر والنبل، والخلق الفاضل، والسلوك الحميد .

ومعناه فى اللغة : الرمى بالحجارة وغيرها .

ومعناه فى الشرع : الرمى بالزنا .

قال تعالى : ﴿ إن الذين يرمونَ المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يومَ تشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفِّيهم الله دينهم الحقَّ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(١) .

والمراد بالمحصنات هنا العفيفات، ورميهن معناه اتهامهن بالزنا وهن غافلات عن ذلك بعيدات عنه كل البعد .

كما قال القائل:

هن الحرائر ما هممن بريبةٍ ... كظباء مكة صيدهن حرامُ

ومعنى لعنوا: طردوا من رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ .

معناه : يوفيهم حسابهم ويجزيهم على قذفهم المحصنات الغافلات المؤمنات الجزاء الذى يستحقونه كاملاً غير منقوص .

---

(١) النور : ٢٣ – ٢٥ .

وفى ذلك أبلغ ردع لأولئك الذين يخوضون فى أعراض الناس بألسنتهم ويحبون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع المسلم.

والمتتبع للآيات التى نزلت فى حديث الإفك يتبين له كيف عمل الإسلام على قطع ألسنة السوء وسد الباب على الذين يلتمسون للبرآء العيب، ومنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس ويلغوا فى أعراضهم.

وحذرهم أشد تحذير من أن يقول أحدهم فى أخيه قولاً فاحشاً، أو يحب أن يقال على أحد من المسلمين قولاً فاحشاً.

والآيات التى تحدثت عن الإفك تبدأ من قوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عُصبةٌ منكم﴾ وتنتهى بقوله تعالى: ﴿أولئك مبرّأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾ (١).

وقد نزلت هذه الآيات فى شأن عائشة حين رماها بعض الظلمة بالفاحشة مع صفوان بن المعطّل - رضى الله عنهما - فكان درساً قاسياً لأولئك الأفاكين وأمثالهم ممن يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وتطهيراً لقلوب المؤمنين والمؤمنات، وتطييباً لنفس عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وتطييباً لنفس صفوان بن المعطل - رضى الله عنه - وتنزيهاً لهما عن الدنايا صغيرها وكبيرها وتبشيرهما بأعظم بشرى يتمناها كل مسلم، وهى المغفرة والرزق الكريم.

وقذف المحصنين كقذف المحصنات إجماعاً وإنما جاء النص فى الحديث على المحصنات دون المحصنين لأن قذف النساء أكثر من قذف الرجال وأكثر ضرراً، وأشد خطراً وأسوأ عاقبة.

فالمرأة يضيرها كثيراً ما يقال فيها ويضير زوجها وأولادها وأسرتها وقبيلتها بخلاف الرجل؛ فإن تضرره بالقذف أقل. وهذا أمر لا يحتاج إلى بيان.

والقذف يقارب الزنا فى الإثم؛ ولهذا كان حده الجلد.

يقول الله عز وجل: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً أولئك هم الفاسقون﴾ (٢).

* * *

(١) النور: ١١ - ٢٦.

(٢) النور: ٤.

وبعد ، فإن هذه الوصية الجامعة قد وضعتنا على طريق الخير والهدى وجنبتنا مواطن الشر والردى، وسمت بنا عن الرذائل كلها على الجملة؛ فإن هذه الموبقات السبع هى أمهات الكبائر وينبوع الرذائل، من اجتنبها فقد سلم من الآفات التى تفتك بالقلوب وتذهب نورها، وتقضى على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وتحبط الأعمال الصالحة بالغة ما بلغت.

ومن الواجب على الدعاة المرشدين أن يعلموا الناس فحوى هذا الحديث ويأمروهم بحفظه حتى يكون لهم مصباحاً يهتدون به إلى وقاية أنفسهم من الوقوع فى مهالك لا يمكنهم التخلص منها.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٤٧) إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا

عن عياضِ بن حمار - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : «إن اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أن تواضعوا حتى لا يبغىَ أحدٌ على أحدٍ ولا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ» (١) .

* * *

هذه وصية جامعة لخصال الخير كلها ، أوحى الله بها إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام، وعمق جذورها فى قلبه، وأجراها على لسانه فى كثير من خطبه ومواعظه، وجعلها مفتاح شخصيته وديدنه فى عباداته ومعاملاته، وفى شأنه كله مع الله، ومع نفسه، ومع الناس، فكانت - بحمد الله - من أفضل الوصايا التى تَحَلَّى بها المقربون من عباده، فسلكوا بها سبيل الوصول إلى أعلى درجات القرب والحب والرضا.

ولهذا جعلها الله أول وصف وآخر وصف من أوصافهم فى الذكر، فقال فى سورة الفرقان : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ إلى أن قال جل وعلا : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ (٢) .

فهم أولاً يمشون على الأرض هينين لينين ، لا يتعالون على أحد ، ولا يفخرون بحسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه ولا سلطان.

وإذا خاطبهم جاهل غضوب لا خلق له ولا دين - لم يسلبهم أحلامهم، ولم يُقلل من تواضعهم، ولم يجعلهم يقابلون الإساءة بمثلها، ولكن تراهم يعفون ويصفحون ويغفرون ، ويقولون قولاً فيه سلام لأنفسهم ولغيرهم.

وهم يضرعون إلى الله - عز وجل - أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم من

---

(١) رواه أبو داود، فى كتاب الأدب ، باب فى التواضع، حديث رقم: ٤٨٩٥ . ورواه مسلم من حديث طويل فى كتاب الجنة فى باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة .... حديث رقم: ٢٨٦٥ .

(٢) آية : ٦٣ - ٧٤ .

تَقَرُّ بهم أعينهم من الصالحين الأبرار، ويسألون الله من أعماق قلوبهم أن يجعلهم أئمة للمتقين الذين يظهرون الافتقار إليه في جميع أمورهم؛ تواضعاً لجلاله، وخضوعاً لعظمته، وامتثالاً لأمره.

وكل صفة بعده تبع له؛ لأن التواضع ترجمة صادقة للعبودية الخالصة لله - عز وجل -، فهو دليل قاطع على معرفة الإنسان بنفسه ومعرفة منزلته من خالقه.

وقد قالوا - ونعم ما قالوا -: من عرف نفسه عرف ربه.

أقول: ومن عرف ربه فقد شهد له بالجلال والجمال والكمال، وشهد على نفسه بالعبودية الخالصة مع تمام الافتقار إليه وإسلام القلب له؛ تحقيقاً لقوله جل وعلا: ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ (١) .

فهاتان الآيتان يتجلى فيهما الكمالان: كمال الرب فى أحديته، وكمال العبد فى عبوديته.

وروح العبودية فى تواضع العبد لخالقه ومولاه، بحيث لا يرى لنفسه فضلاً فى طاعة ولا حقاً فى ثواب، ولسان حاله يقول: يا رب، إن تثبنى فبمحض فضلك، وإن تعذبنى فبمحض عدلك.

والتواضع مع النفس: ألا يرى لها فضلاً على غيرها من الأنفس.

فإن حدثته أن له فضلاً على فلان فى كذا وكذا - فليقل لها: إن فلاناً يفضلنى بما ليس عندى.

وقد قَسَّمَ الله النعم الدنيوية على عباده بنسبة مئوية، مبنية على العدل المطلق، بحيث يتساوى كل الناس فيها على الجملة.

وليقرأ على نفسه الأمارة بالسوء قول الله تبارك وتعالى: ﴿نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا ورحمتُ ربك خير مما يجمعون﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣. (٢) الزخرف: ٣٢.

والقسمة تقتضى العدل والمساواة كما هو معروف من اللغة والشرع ، فما من مرفوع فى جهة إلا وهو مخفوض فى جهة، ورحمة الله – عز وجل – هى مطمع الأبرار ، فهى خير لهم مما جمع الجامعون.

ما استكمل المرءُ من حَاجَاتِه طَرَفَاً   إلا وأدركه النقصان من طَرَفِ

والواقع يؤيد ذلك.

وحين تسمو النفوس إلى سُلَّم الكمال فى العبودية تتجرد من حظوظ الدنيا، فلا تعبأ بما أقبل عليها من النعم وما أدبر عنها، ويكون مبلغ هَمِّها فى رضا الله عز وجل.

والتواضع مع النفس أن يعرف المرء لها مكانتها وقدرها فى طاعة ربها على ضوء قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) .

والمتواضع لا يقول: أنا تقى؛ لأنه لا يدرى هل قبل الله منه العمل أم ضرب به وجهه.

ولو شعر فى ساعة أنه على هدىً وتقىً فليحمد الله عز وجل أولاً ، ثم يقول لنفسه: وأين أنتِ من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وماتوا على الإسلام الخالص، وتركوا وراءهم آثاراً تشهد لهم برسوخ العلم وصلاح العمل.

ومن نظر فى عيوبه استعظم زلة نفسه.

والتواضع مع الناس هو المقصود فى هذه الوصية ؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: « حتى لا يبغى أحدٌ على أحد ولا يفخر أحدٌ على أحد » .

فالحرف « حتى » هنا للتعليل، أى : لئلا يؤدى عدم التواضع إلى البغى على الناس بغير حق ، والفخر بما لا ينبغى التفاخر به.

وهذا الحرف يصلح أن يكون للغاية أى: تواضعوا ثم تواضعوا ثم تواضعوا إلى الحد الذى يشعر فيه أحدكم أنه لا يفكر فى البغى فضلاً عن كونه يواقعه ،

---

(١) الحجرات : ١٣.

ولا يطيع نفسه إن دعته إلى المفاخرة ، ولكن يَرُدُّهَا إلى أصلها ، ويذكرها بمصيرها، ويقرأ عليها من الآيات ما يدفعها عن حب المفاخرة ، ويبعدها عن البغى تماماً، فعندئذ يكون متواضعاً حقاً.

وحرف أن فى قوله : «أن تواضعوا» تفسيرية، وتواضعوا: فعل أمر يقتضى الوجوب حتماً؛ فالتواضع خلق فاضل ، وقد اجتمعت فيه شعب الإيمان كلها.

وشعب الإيمان «بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق» - كما جاء فى الحديث (١) .

ولن يكون العبد موحداً إلا إذا كان متواضعاً لله عز وجل؛ إذ كيف يشهد له بالوحدانية ثم يشاركه فى أخص خصائصه، وهو الكبرياء.

إن العبد لو شعر بذرة من التكبر ما استحق دخول الجنة ، كما سيأتى بيانه قريباً.

وإماطة الأذى عن الطريق ، التى هى أدنى الشعب فى الحقيقة ، هى أدناها فى الذكر، وأعلاها بعد كلمة التوحيد والصدق والحياء والإخلاص؛ لأن الذى يميط الأذى عن طريق الناس هو شخص متواضع، بل هو غاية فى التواضع.

إنه إنسان يحمل معانى الإنسانية ، وهى المشاركة الإيجابية، والتعاون البَنَّاء، والحب المتبادل، فالإنسان أحو الإنسان: لا يحقره ولا يخذله، ولا يحزنه، ولا يقصر فى حقه، ولا يتخلى عنه مادام قادراً على عونه وقضاء حوائجه.

فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وهذا لا يتم إلا إذا تواضع الناس بعضهم لبعض، وتلاشت بينهم الفروق العرقية، وأحس كل واحد بهذه الأخوة الإيمانية تنبع من ضميره الحى ، وقلبه اليقظ، وإيمانه الكامل بأن الفضل كل الفضل للتقوى والعمل الصالح، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه من بَطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه.

* * *

---

(١) الحديث أخرجه البخارى ومسلم.

هذه هى النظرة الأولى فى هذه الوصية الجامعة لشعب الإيمان كلها.

وبنظرة أخرى فيها شىء من العمق الفكرى نجد أنفسنا أمام التواضع المطلوب الذى لا يعتريه شىء من دواعى الكبر على كل حال، فكيف يكون المرء متواضعاً حَقّاً لله أولاً ثم للناس ثانياً؟ ومتى يكون قادراً على كبح جماح نفسه فى الوقت الذى تكون فيه أسباب الكبر والغرور والعجب والرياء متوفرة فيه؟.

إلى آخر ما هنالك من أسئلة تفرض نفسها على كل من أراد أن ينجو بنفسه من هذه الآفات، التى تُذهب الإيمان كله أو بعضه.

سننظر فى هذا كله ولا نطيل.

أما التواضع المطلوب فهو التواضع الذى لا يؤدى إلى منقصة ولا مذلة، ولا يقدح فى شرف الإنسان ولو بطريق غير مباشر، ولا يحمله على التَّكَلُّفِ البغيض.

يقول النبى - ﷺ -: «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذَلَّ فى نفسه من غير مسألة، وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحِكمة.

طوبى لمن طاب كسبه، وصَلَحَتْ سريرته، وكَرُمَتْ علانِيَتُهُ، وعَزَلَ عن الناس شرَّه.

طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»(١).

فالعالم - مثلاً - يُخْدَم ولا يخدِم، ولكنه ينبغى أن يكون للناس معيناً فى حدود منزلته بينهم، بحيث إذا قام بعمل نافع لواحد من الناس لا تهون منزلته عندهم؛ فإن منزلته إذا هانت عند الناس لا يسمعون له ولا يصغون إليه، ولا ينتفعون بعلمه.

والرجل إذا كان من وجهاء الناس لم يكن من التواضع أن يجلس على

---

(١) رواه الطبرانى، ورواته ثقات.

الأرض فى عَرْض الطريق تواضعاً ، بل يجلس فى مكان لا يلام على الجلوس فيه ، وعلى ذلك فقس، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، فأنزلها منزلتها اللائقة بها، من غير أدنى تَكَبُّرٍ ولا غرور.

فالتواضع : ألا يرى الإنسان لنفسه فضلاً على غيره ، كما أشرنا من قبل، ولكن مع ذلك ينبغى عليه أن يأخذ وضعه، وأن يلزم منزلته التى وضعه الله فيها، وأن يؤدى وظيفته فى حدود ما أمر الله به، وإن تَطَلَّبَ منه ذلك أن يكون عظيماً فى مظهره ، وأنيقاً فى زينته، رقيقاً فى مشاعره ، يتكلم بما يناسب الوجهاء من الناس مع الاحتفاظ بتواضعه ما أمكن.

روى أن عمر بن الخطاب زار معاوية بن أبى سفيان فى الشام، وكان والياً عليها، فاستقبله معاوية بالخيل المسومة، ذات السّروج المطعمة بالزينة، ومعه الحرس عن يمينه وشماله، وأمامه وخلفه، فى موكب لا يكون إلا للملوك، فأبى عمر أن يكلمه، فقال له عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين، أتعبتَ الرجلَ يكلمك ولا تكلمه، قال : يا معاوية، ما هذا الذى أرى، فقال : يا أمير المؤمنين، إننى فى بلاد لا يسمع أهلها ولا يطيعون الوالى إلا إذا كان بهذه الأبهة، فسكت عمر ثم قال : حيلة لبيب، أو خدعة أريب، فأنت وذاك، لا آمرك ولا أنهاك.

فقد عذره فى هذا ووكله لنيَّته.

وكان معاوية من أحكم الناس وأشدهم تواضعاً، ولا ندرى هل كان يفعل ذلك سياسة، أم كان هذا جبِلَّةً فيه.

* * *

لكن كيف يتواضع العبد لله أولاً ، وما الطرق المثلى لذلك ؟ وكيف يكبح جماح نفسه عن الكبر وتوابعه؟

والجواب عن هذه الأسئلة يتخلص فى أربعة أمور :

الأمر الأول : النظر فى مبدأ خلقه من أين خلق؛ فإن النظر إلى مبدأ الخلق يصل العبد بخالقه ويشعره بنعمة وجوده ، ويريه فى نفسه آيات قدرة خالقه ومولاه.

والقرآن الكريم يشير إلى مبدأ خلقه فى آيات كثيرة ينبغى عليه أن يقرأها كلما ابتعدت به الخواطر بعيداً فى متاهات الهوى ، ووسوست له شياطين الإنس والجن بما يحمله على البطر والطغيان ويدعوه إلى الفخر والغرور والخيلاء.

يقول الله عز وجل: ﴿ فلينظر الإنسان مِمَّ خُلق خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصُّلب والترائب ﴾ (١) .

ويقول الله جل وعلا: ﴿ الذى أحسن كل شىء خَلَقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (٢) .

فإذا فكر وتدبر فى هذه الآيات عرف أنه صفر لا يساوى شيئاً ، العالم كله أصفار مثله، لكنها بالواحد عز وجل تكون شيئاً مذكوراً ورقما مقروءاً، وعندئذ تزول من النفوس كل أثارة من كبر ، وكل شرارة من غرور.

الأمر الثانى: النظر إلى مصيره ومستقره وماذا قَدَّمَ لنفسه من عمل صالح؟

فهو من التراب وإلى التراب يعود ؛ والموت أقرب إليه من شراك نعله وبعده تتساوى الرءوس ويوضع الرئيس بجانب المرءوس، ويتخلى عنه أهله ويرجعون إلى ما قد ملكت يداه، فيقسمونه بينهم بحسب ما تقضى به الشريعة الغراء، وهو مسئول عنه يوم القيامة من أين اكتسبه وماذا عمل فيه.

قال مالك بن دينار:

أتيت المقابر ناديتها ... أين المعظَّمُ والْمُفْتَخَرْ
أين المُدلُّ بسُلْطَانه ... أينَ المُزكَّى إذَا ما حَضَرْ
أين المُلَبَّى إذَا ما دعا ... أينَ العزيزُ إذا ما أَمَرْ

قال ابن دينار: قلت هذا فسمعت من يقول، ولم أر شيئاً:

تَفَانَوا جميعاً فلا مُخْبِرٌ ... وماتوا جميعاً وهذا الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى(٣) ... فتمحوا محاسنَ تلك الصور

---

(١) الطارق: ٥ - ٧.
(٢) السجدة: ٧ - ٨.
(٣) الدود.

وقـد قُلِّـدَ القـومُ أعمـالهم فإمـا نعيـمٌ وإمـا سَـقَرْ
وساروا جميعاً إلى ملك قادر عـزيز مطـاع إذا مـا أَمَـرْ
فيا سائلى عن أُنَاسٍ مَضَـوا أَمَـا لَكَ فيمـن مضى مُعْتَبَرْ

إذا عرف الإنسان ذلك المصير المحتوم تهون عليه الدنيا بما فيها، فلا يسعده شيء من حطامها ، ولا يعتز إلا بافتقاره إلى الله ، وحسن توكله عليه فى السر والعلانية ، والتواضع لعظمته فى كل حال.

الأمر الثالث :النظر فيما أعده الله للمتواضعين وما أعده للمتكبرين؛ فإنه لو أنعم النظر فى الأجر العظيم الذى يحصل عليه المتواضع فى دنياه وآخرته، ما سره فى حياته كلها إلا أن ينسى أنه شيء يستحق الذكر.

وبهذا يعظم شأنه عند الله عز وجل؛ فمن تواضع لله رفعه.

ولو نظر إلى الوعيد الشديد الذى توعد الله به المتكبرين لضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، وأخذ منه الخوف كل مأخذ، وما وسعه إلا عفو الله. وسيأتى ما وعد الله به المتواضعين لعظمته، وما وعد به المتكبرين بعد حين.

الأمر الرابع: الإكثار من ذكر الله عز وجل؛ فإن الإكثار من ذكر الله يطرد عن الذاكر شبح الغفلة، ويزيل من صدره ظلمة الوحشة ، ويجعل قلبه مؤهلاً لقبول الإيمان بمعناه الصحيح؛ فإن من ذهبت عنه غفلته وظلمته وقسوته – عرف الله بأوصافه الكمالية، فتواضع لعظمته كل التواضع مهما أوتى من عظائم النعم وطيبات الحياة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرةً وأصيلاً هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يَلْقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ (١) .

أى: إذا ذكرتم الله ذكراً كثيراً وسبحتموه فى الصباح والمساء وسائر

---

(١) الأحزاب: ٤١ – ٤٤.

الأوقات - تَغَمَّدكُم برحمته ووسعكم فضله، وأخرجكم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وحينئذ تخضع قلوبكم وجوارحكم لعظمة خالقكم، فيكون لكم عز الدارين، ويؤتيكم الله أجوركم مرتين: مرة على العمل الصالح، ومرة على تواضعكم وخضوعكم إلى من بيده أمركم كله.

هذه هي الأمور الأربعة التي بها يصل العبد إلى هذا المقام، فيكون من جملة عباد الرحمن حقا. وعلى الله قصد السبيل.

* * *

أما التواضع للناس فهو في الحقيقة تواضع لله ؛ لأن العبد حين يتواضع للناس لا يقصد منهم أن يحمدوه على هذا التواضع؛ إذ لو قصد ذلك لكان مرائياً، والرياء مفسد للعمل، وهو يؤدى إلى الغرور حتما، والغرور نوع من الكبر، وفي الكبر هلاك للمتكبرين في الدنيا والآخرة. لكن كيف يستطيع أن يتواضع للناس من غير مذلة ولا منقصة ولا إخلال بمنزلته بينهم؟

أقول: يستطيع العبد بمشيئة الله تعالى أن يعود نفسه على مسايرة الناس والتواضع لهم من غير ذلة ولا منقصة إذا التزم مع الأمور الأربعة السابقة أربعة أمور أخرى.

الأول منها: أن يتجرد من أثرته وأنانيته وحبه لذاته، وذلك بأن يعلم أن الحياة أخذ وعطاء، وأن الدهر يومان يوم له ويوم عليه، وأن الناس للناس بعضهم لبعض خدم، وإن تباعدت بينهم الأقطار وتناءت الديار، وأن القوى لا يستغنى بحال عن الضعيف، والغنى لا يستغنى عن الفقير، وأن الناس مهما تفاوتت أنسابهم فكلهم لآدم وآدم من تراب ، وأن الدنيا ظل زائل وعارية مستردة ومتاعها قليل؛ فمهما طال العمر فيها فإنه قصير، وأن الخير كل الخير في التعاون على البر والتقوى، وأن الإنسان مدنى بالطبع ، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن أبناء جنسه.

إذا عرف هذه الحقائق كلها لم يسعه إلا أن يخفض جناحه لأخيه،

فلا يتعالى عليه؛ إذ لا محل للتعالى وهم فى الفقر سواء، بعضهم لبعض فقير، والجميع فقراء إلى الله.

ولن يؤلف الله بين القلوب إلا إذا تواضع الناس فيما بينهم ، وعرف كل امرئ منهم حق أخيه عليه فى السراء والضراء، والشدة والرخاء ، وتركوا البغى والتكبر والتفاخر بالأنساب والأحساب، وجمعوا قلوبهم عليه، وتواضعوا جميعاً لعظمته.

فعندئذ يرحمهم ربهم ويؤلف بين قلوبهم، وينصرهم على أنفسهم وعلى عدوهم من شياطين الإنس والجن.

والأمر الثانى : أن يجعل نصب عينيه ما كان عليه النبى ﷺ من خُلق فاضل وكمال وافر ، وتواضع جم مع سمو منزلته فى العالمين ، فيقتدى به فى عاداته وعباداته وسلوكه كله ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يجالس الفقراء والمساكين ويرعى شئونهم، ويخدمهم بنفسه، ويواسيهم بماله وطيب حديثه ونظرته الحانية، ويشاركهم آمالهم وآلامهم ، ويشعرهم بأنه واحد منهم.

وكان - ﷺ - يشارك أهله فى مهنتهم، فَيَقُمُّ البيت ، ويخيط ثوبه ونعله بيده الشريفة، ويداعبهم ويمزح معهم.

وكان إذا مَرَّ على الصبيان سَلَّمَ عليهم وقَبَّلَ صغارهم وباسطهم فى الحديث.

وكان - ﷺ - يحمل متاعه بنفسه، ولا يحب أن يحمل أحد شيئاً منه غالباً، ويقول : « صاحب الشيء أولى بحمله ».

وكان لا يحب أن يُقبل يده أحد، ويقول : « إنما تفعل ذلك الأعاجم بملوكهم ».

وكان يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، وقولوا : هو عبد الله ورسوله »، إلى آخر ما نص عليه المحدثون وأصحاب السير فى كتبهم.

وكان أصحابه يقتدون به فى ذلك كله، ويسلكون مسلكه ـ بقدر طاقتهم ـ فى شأنه كله إلا فيما خصه الله به وفرضه عليه من دونهم.

والأخبار فى ذلك كثيرة مشهورة.

الأمر الثالث: أن يتعلم المرء أصول الأخلاق من القرآن والسنة؛ ليبنى عليها كل ما جَدَّ ويَجدُّ من شئون الحياة، ويتعرف على الطباع البشرية والأعراف المرعية وسلوكيات أهل العصر بوجه عام، وسلوك الذين يتعامل معهم بوجه خاص؛ حتى يكون تواضعه بالقدر الكافى والمناسب، والذى لا تكون فيه مذلة ولا منقصة من أى وجه من الوجوه.

الأمر الرابع: أن يكون بعيداً كل البعد عن المؤثرات الخارجية والتقليد الأعمى. بمعنى أنه إذا أراد أن يتواضع لا يتكلف فى تواضعه ليحاكى الآخرين من غير وعى ولا إدراك، كما يفعل بعض الصوفية الذين لا علم لهم بقواعد الدين.

هذه هى الأمور التى لو راعاها المسلم حق رعايتها لكان فى الذروة العليا من الكمال الخلقى؛ لأن التواضع – كما أشرنا – يجمع شعب الإيمان كلها، حتى ليبدو للناس أن التواضع ملَك يمشى بينهم على الأرض، وهو كذلك فعلاً، على أن المَلَكَ مطيع بطبعه، لم يجد فى الطاعة كلفة ولا مشقة، بخلاف هذا الإنسان الذى يجالد نفسه وشيطانه، ويجاهد دنياه وهواه.

إن التواضع يضيف إلى صاحبه شرفاً فوق شرف، ويسمو به إلى مرتبة لا يدانيه فيها إلا من كان مثله فى التواضع.

إنه بحق منتهى المقامات فى العبودية، وإن صاحبه يكون كالنجم فى السماء يُرَى لمعانه فى الماء.

تَواضَعْ تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

فمن تواضع لله عَزَّ، ومن تواضع للناس مَلَكَ قلوبهم، ومن تكبر على الله

سَحَقَهُ ومسخه وانتقم منه شر انتقام ، ومن تكبر على الناس ذل، فكان بينهم كالجمل الأجرب.

قال كبار العلماء: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه.

وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع.

وقال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه -: وجدنا الكرم فى التقوى ، والغنى فى اليقين، والشرف فى التواضع.

واعلم أيها الأخ الكريم أن التواضع إنما يصدق إذا كان عن قدرَة.

أما إن كان التواضع عن رهبة أو ذلة فلا يكون هذا من التواضع فى شيء ، بل هو هوان فوق هوان.

واعلم أن التواضع الحق ما نفى عنك شبح الكبر وطيش العجب ونزوة الغرور، ودفع عنك آفة الفخر والخيلاء وحب الظهور، وأجارك من عذاب الغضب والحقد والحسد، وسما بك إلى سماء المجد والعز والسؤدد ، ونأى بك عن مجالس الفجار، وألقى بك فى مجالس الأبرار، وهداك إلى سعى الآخرة، وبَغَّضَ إليك الدنيا وَزَهَّدَكَ فيها، وأدخل عليك السرور وهَوَّن عليك عظائم الأمور، وجمع بينك وبين الناس فى خير ووفاق، وألهمك رشدك وتقواك، وجعل التوفيق حليفك فى كل شيء تحبه وترضاه.

* * *

وإذا أردت أن تعرف عظمة التواضع ومنزلة المتواضعين عند الله وعند الناس - فانظر فيما أعد الله لهم من النعيم المقيم وما أعده للجَبَّارين المتكبرين فى نار الجحيم.

ويكفى أن تعلم أن الله - عز وجل - قد أضافهم إليه تشريفاً لهم وتكريماً لساحتهم فقال: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾.

ثم قال بعد ذكر أوصافهم: ﴿أولئك يُجزَون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسُنت مستقراً ومُقاماً﴾ (١).

وحسبك أن تعلم أن المتكبرين شرار الخلق فى الدنيا والآخرة ، فقد أبغضهم وبَغَّضَ فيهم خلقه، ولعنهم لعناً كبيراً، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحرم عليهم دخول الجنة، وجعلهم يوم القيامة كالذر يطؤهم الناس بأقدامهم.

يقول الله عز وجل: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (٢).

وقال جل وعلا: ﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزَون إلا ما كانوا يعملون﴾(٣).

وهذه الآيات وما يماثلها تشمل بعمومها كل من طغى وتكبر من الكفار والمسلمين، الذين انتسبوا إلى الإسلام ثم خرجوا منه بسوء أعمالهم ، كما تخرج الشعرة من العجين ، ومَرَقُوا منه كما يمرق السهم من الرمية (٤).

وقد روى ابن ماجه وغيره ، عن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: « من تواضع لله درجةً يَرْفَعُهُ الله درجة حتى يجعَلَهُ اللهُ فى أعلى عِلِّيينَ، ومَن تكبر على الله درجة يضعُهُ الله درجة حتى يجعله فى أسفلِ سافلين ».

وروى الطبرانى فى الأوسط ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: « من تواضع لأخيه المسلمِ رفعه الله ، ومنِ ارتفعَ عليه وضعه الله ».

وروى الترمذى ، وأحمد ، والطبرانى ، وابن حبان ، عن جابر – رضى الله

---

(١) الفرقان: ٥٣ – ٧٥.
(٢) الزمر: ٦٠.
(٣) الأعراف: ١٤٦ – ١٤٧.
(٤) ما يُصاد كالغزالة ونحوها.

عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يومَ القيامة – أحاسنَكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إِلَيَّ، وأبعَدكم منى مجلساً يومَ القيامة الثرثارون (١) والمُتَشَدِّقُونَ (٢) والمُتَفَيْهِقُونَ».

قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا الثَّرْثَارِينَ والمُتَشَدِّقِينَ فما المُتَفَيْهِقُونَ؟

قال: «المُتَكَبِّرُون».

وروى مسلم عن أبي هريرة – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «العزُّ إزارُهُ، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعنى عَذَّبْتُهُ». أى: عذبته في دنياه وآخرته.

فالعذاب عذابان: دنيوى وأخروى، كما قال جل وعلا فى سورة القلم: ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٣).

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما، عن حَارِثَةَ بن وَهْب – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل النار؟: كُلُّ عُتُلٍّ (٤) جَوَّاظٍ (٥) مُسْتَكْبِرٍ».

وفى رواية عنه عند أبى داود، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخُلُ الجنة الجَوَّاظُ ولا الجَعْظَرِيُّ» (٦).

وروى أحمد فى مسنده، عن حذيفة – رضى الله عنه – قال: كُنَّا مع النبى ﷺ فى جَنَازَةٍ قال: «ألا أخبركم بِشَرِّ عباد الله؟: الفظ المستكبر، ألا أخبركم بخير عباد الله؟: الضعيف المستضعف ذو الطِّمْرَين (٧)، لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ».

---

(١) الثرثار: هو كثير الكلام تكلفاً.

(٢) المتشدق: هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً وتعاظماً، واستعلاء على غيره، وهو معنى التفيهق أيضاً.

(٣) آية: ٣٣.

(٤) العتل: هو الغليظ الجافى، كثير اللحم.

(٥) الجواظ: هو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال فى مشيته، وقيل: القصير البطن، وقيل: الفاجر المختال الغرور المعجب بنفسه والمحقر من هو دونه.

(٦) الجعظرى: هو الفظ الغليظ المتكبر، وقيل: هو الذي ينتفع بما ليس عنده وفيه قصر.

(٧) ذو الطمرين: من له جلباب مقطوع نصفين.

وروى مسلم والنسائى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومَلِكٌ كذاب، وعَائِلٌ مُسْتَكبرٌ» .

وروى النسائى وابن حبان ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « أربعةٌ يبغضهم الله: البَيَّاعُ الحَلاَّفُ، والفقيرُ المختال ، والشيخُ الزَّانى، والإمام الجَائرُ» .

وروى مسلم وغيره ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر» ، فقال رجل: إن الرَّجُلَ يُحبُّ أن يكون ثوبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حسنةً؟ . قال: « إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بطر الحقِّ [1] ، وغمط الناس [2] » .

نعوذ بالله من الكبر وتوابعه ، وعقباته وعواقبه، ونستجير به من شر المتكبرين وأشرهم ، ونسأله جل شأنه أن يلهمنا رشدنا ، وأن يجعلنا من خيار المتواضعين لعظمته ، وأن يحشرنا مع المحسنين والصديقين والشهداء والصالحين في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

آمـــين.

*　　*　　*

---

(١) بطر الحق : هو دفعه وردّه.

(٢) غمط الناس : هو احتقارهم وازدراؤهم.

(١٤٨) كن فى الدنيا كأنك غريب

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال: أَخَذَ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك(١).

* * *

الدنيا مزرعة للآخرة ومعبر إليها، فإن جعلها المسلم كذلك فدنياه مباركة طيبة، وعمره فيها عمر عطائى، طال أم قصر.

وكلما طال كان خيراً له؛ فقد جاء فى الحديث: «خيركم من طال أجله وحسن عمله، وشركم من طال أجله وساء عمله» (٢).

وخير الناس من جعل الآخرة مبلغ همه ومنتهى علمه وأمله، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، وعاش فيها عيشة من ليس له فيها رغبة، وجعلها بُلغة تقربه من الجنة وتبعده عن النار، وكان المال فى نظره ظلاً زائلاً وعارية مستردة، وشجرة يستظل بها إلى حين، واعتبر نفسه فى سفر دائم وارتحال لا ينقطع، فهو إلى الموت سائر إن اليوم وإن غداً – وإن غداً لناظره قريب. والموت أقرب إليه من شراك نعله.

والعاقل من لا ينسى الموت فى زحمة الحياة؛ فنسيان الموت يضله عن الطريق إلى الله، ويعوقه عن بلوغ مراده من دنياه وآخرته.

وخير الناس من دان نفسه دائماً واتهمها بالتقصير والتفريط فى جنب الله عز وجل، وحاسبها على ذنوبها أولاً بأول، وراقبها فى جميع تصرفاتها،

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الرقاق باب رقم (٣).

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء: رواه أحمد والحاكم وصححه، والترمذى بهذا اللفظ، وزاد عقبه: «وشر الناس من طال عمره وساء فعله» جـ ١ ص ٤٦١ – ٤٦٢.

ولم يعطها حظها من الدنيا كما تريد ، وكان فى دنياه كأنه غريب أو عابر سبيل كما أوصى النبى ﷺ عبد الله بن عمر ومن هو على شاكلته من خيار المؤمنين.

فما معنى هذه الوصية وما المقصد منها على وجه الدقة والاعتبار؟

* * *

الغربة فى الدنيا تعنى أمرين:

الأمر الأول : ألا يغيب عن ذهنه أنه راجع إلى ربه كما يرجع الغريب إلى بلده، مع الفارق بين رجوع ورجوع، فيسأل نفسه بماذا يرجع إلى ربه، أبعمل صالح يقربه منه ويدنيه من حضرة قدسه ويجعله محشوراً مع عباده المكرمين فى يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه، أم يرجع إليه بغير ذلك فيكون مصيره مصير من هو على شاكلته من الفجار الأشقياء؟

فإن كان عمله صالحاً ونفسه مطمئنة بذكر الله عز وجل - ناداه ربه ونادته ملائكته بأعظم نداء.

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

وإن كان من الأشقياء ندم ندماً شديداً ، ولا يزداد به إلا عذاباً فوق عذاب ، ويكون ممن قال الله فيهم : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموت قال ربِّ ارجعونِ لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (٢) .

الأمر الثانى : الزهد فيها، وهو مبنى على قصر الأمل فى بقائها، والتعفف عن شهواتها وملذاتها، والقناعة منها بما يسد الرمق ويستر العورة، والشكر على وافر النعم، وإنفاق المال فى وجوه الخير ، وإنفاق العمر فيما ينفع فى الدارين معاً؛ وذلك لأن الدين يأمرنا أن نأخذ حظنا من الدنيا بالطرق المشروعة وبقدر الكفاية من غير إفراط فى الطلب ولا تفريط.

---

(١) آخر سورة الفجر.

(٢) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠ .

يقول الله عز وجل فى سياق قصة قارون : ﴿ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾[1].

أى خذ حظك منها بالقدر الذى قدر لك ، وارض به ولا تطمع فيما ليس لك.

ولكن ليس معنى هذا: أنك لا تعيش عصرك، فكل عصر له زهد يناسبه؛ فإنك مهما حاولت أن تزهد فى الدنيا لتكون مثل أصحاب النبى ﷺ فلن تستطيع أن تسلك مسالكهم، أو تصبر على البأساء والضراء مثل ما صبروا، فهم طراز فريد عاشوا فى عصر بسيط ليس فيه من المطالب مثل ما فى عصرنا.

والإسلام قد وضع للزهد حداً يناسب كل الناس فى مختلف العصور، فقد دعاهم إلى الوسطية فى الأكل والشرب واللباس والزينة، وجعل للقناعة مقياساً تنتهى إليه وتقف عنده، وجعل للطمع حدوداً لا ينبغى تجاوزها.

فقال جل وعلا: ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[2].

ففى هذه الآيات يأمر الله بنى آدم أن يأخذوا زينتهم الشرعية عند كل صلاة، فيلبسوا من الثياب ما يتاح لهم ويستر عوراتهم.

وأباح لهم الطيبات وحرم عليهم الإسراف فى تعاطيها رحمة بهم؛ لأن الإسراف فى النعمة سبب فى إزالتها والحرمان من التمتع بها، فلا تلبث حينئذ أن تتحول إلى شىء تزهد فيه النفس وتعافه.

والشأن فى عابر السبيل أن يكون راضياً بكل ما يجده من عناء وتعب وجوع ونصب، وهو يمنى نفسه بقرب العودة إلى من يجد عندهم الراحة والنعيم.

---

(١) القصص: ٧٧. (٢) الأعراف: ٣١ - ٣٣.

وهذا ما فهمه ابن عمر رضى الله عنهما فقد قال: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

وهناك أحاديث أخرى تشبه هذا الحديث في معناه فتحمل على ما يوافق الطبع والطبيعة وروح العصر ومدى الحاجة؛ فإن الطباع تختلف، والطبائع لا تأتلف، والعصور تتفاوت، والحاجات تتجدد، والضرورة تقدر كما يقول علماء الأصول.

فما يكون غير ضرورى فى عصر كعصر الصحابة مثلاً، يكون ضرورياً جداً فى عصرنا.

والقرآن هو الحكم الذى نرجع إليه عند تقدير الضرورات، وهو الميزان الذى نزن به الأحاديث التى تبدو متعارضة، فنجمع بينها إن أمكن أو نرجح بعضها على بعض إن لم يمكن الجمع بينها.

وبهذا نستطيع أن نحمل ما ورد منها فى تزهيد الناس فى الدنيا على محمل يناسب أهل كل عصر على حسب ظروفهم المعيشية وأحوالهم الاجتماعية وحاجاتهم الضرورية.

* * *

ويعجبنى فى هذه المناسبة ما قاله الداعية الإسلامى الكبير الشيخ: محمد الغزالى فى كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث».

قال رحمه الله: (قرأت خمسين حديثاً ترغب في الفقر وقلة ذات اليد وما جاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم، كما قرأت سبعة وسبعين حديثاً ترغب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل وترهب من حبها والتكاثر فيها والتنافس، وقرأت سبعة وسبعين حديثاً أخرى في عيشة السلف وكيف كانت كفافاً.

ذكر ذلك كله المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب، وهو من أمهات كتب السنة، ورحم الله المؤلف الحافظ وغفر لنا وله، فهو حسن النية ناصح للأمة، بيد أن الفقه الصحيح يقتضى منهجاً آخر، ومسلكاً أرشد.

وأعرف ويعرف غيرى أن عبادة الدنيا أهلكت الأولين والآخرين، وأنها من وراء جرائم مذهلة يقترفها الخاصة قبل العامة، والرؤساء قبل الأتباع، والأذكياء قبل الأغبياء، ولكن العلاج الصحيح للداء العضال يكون بالتمكن من الدنيا والاستكبار على دناياها.

املك أكثر مما ملك قارون من المال، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطان، واجعل ذلك في يدك؛ لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم، وتتركه لله في ساعة فداء حين تحين المنية!! أما أن تعيش صعلوكاً، حاسباً أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتون.

إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين فى الأرض، فإن انصرافك عن التمكن من الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا.

وناقش الشيخ بعض الأحاديث الواردة فى الزهد مناقشة علمية بين فيها أن المشكلة ليست فى امتلاك المال الواسع، بل المشكلة كيف تمتلكه؟ وكيف تنفقه؟ وقال فيما قال:

وقد رأينا فى الدنيا أغنياء بنوا الجامعات حصوناً للعلم والبحث، وأغنياء حاربوا المرض والشظف ببأس شديد، وأغنياء قدموا لدولهم ما تطلب من ضرائب كى تضع موازناتها إقامة للمصالح العامة، ورأينا عثمان بن عفان يعين إعانة رائعة فى الإعداد لغزوة العسرة، حتى جعل الرسول يقول: اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه) أ. هـ.

وقد قرأت فى كتب السير أن عمر بن الخطاب لما زار الشام استقبله معاوية – وكان والياً عليها – بخيل مطعمة وجند من ورائه وعن يمينه وشماله فمشى عمر ولم يكلمه ، ثم سأله : ما هذا يا معاوية؟

قال معاوية: إن أهل هذه البلاد لا يسمعون ولايطيعون الوالى إلا إذا كان على هذا النحو الذى رأيته. فسكت عمر وقبل عذره وقال: أنت وذاك لا آمرك ولا أنهاك.

* * *

ونعود إلى هذه الوصية لنقرر أن المسلم يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره من طلب الدنيا وزخرفها، فإن كان يطلبها لله فهى لله ، وإن كان يطلبها لذاتها فقد خاب سعيه، وسفه نفسه، وخسر دنياه وآخرته معاً.

يقول الله عز وجل: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ (١).

والمؤمن الحق من يعيش فى هذه الدنيا بين الخوف والرجاء، ويأخذ منها قدر كفايته من حله، ويعد نفسه ليوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولا يأمن للدنيا إن ضحكت له؛ فإنها سرعان ما تبكيه وتشقيه.

هى الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشى وفتكى
ولا يغرركموا منى ابتسام ... فقولى مضحك والفعل مبكى

وما أحسن قول الآخر:

فمالك ليس ينفع فيك وعظ ... ولا زجر كأنك من جماد
ستندم إن رحلت بغير زاد ... وتشقى إذ يناديك المنادى
تأهب للذى لابد منه ... فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

وما أحسن قول الآخر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائعا
أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما
هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذلك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فىء ... أظلك ثم آذن بالرحيل

نسأل الله الهداية والتوفيق.

* * *

---

(١) الاسراء: ١٨- ١٩

(١٤٩) أنزلوا الناس منازلهم

عن ميمون بن أبى شبيب أن عائشة - رضى الله عنها - مر بها سائل، فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، فقيل لها فى ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: « أنزلوا الناس منازلهم » (١) .

* * *

المسلم بطبعه كيس فطن، يضع الأمور فى موضعها، ويعطي القوس باريها، ويعرف لكل ذى حق حقه، ويتصرف بنور بصيرته تصرفاً يتميز دائماً بالظرف واللطافة والذوق السليم، فتراه سمحاً فى معاملاته كلها، ودود فى معاشرته للناس متواضع لهم فى غير منقصة، يُوَقِّر كبيرهم ويرحم صغيرهم، ويعرف أقدار الرجال فيتأدب مع ذوى المروءات والهيئات، ولا يحقر أحداً من الناس لفقره أو لقبح منظره أو لدنوه فى النسب.

وإذا رأيته قد فرق بين الناس في المعاملة فاعلم أن هذا التفريق مبنى على حكمة علمه الله إياها فى كتابه العزيز، أو على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

إن المؤمن خير كله، يألف الناس ويألفونه،ويجد منهم ما يحب،ويجدون منه ما يحبون.

وإذا وجد من أحدهم ما يسوؤه عفا وصفح، وأسند ما ساءه إلى الشيطان، وأحسن الظن بأخيه وأحسن إليه؛ لأنه يعلم أن العبد إذا أحسن لمن أساء إليه كان أعبد الناس.

وهذه الوصية المقتضبة قاعدة جليلة فى معرفة أقدار الرجال وإعطاء كل ذى حق حقه بالتى هى أحسن.

وهى واسعة الدلالة فى مضمونها لا تقتصر على ما فعلته عائشة رضى الله

---

(١) رواه أبو داود، فى كتاب الأدب، باب فى تنزيل الناس منازلهم.

عنها مع الرجلين، ولكنها تتجاوزه إلى ما يجب فعله مع الرئيس والمرءوس، والغنى والفقير، والشريف والوضيع، والقوى والضعيف، والكبير والصغير، والصالح والمفسد، والرجل والمرأة، إلى آخر ما هنالك من وجوه التفاوت بين الناس؛ فالوصية عامة، تشمل بعمومها كل ما ذكر، ويقاس عليها ما لم يذكر؛ حيث إن وجوه الائتلاف والاختلاف لا تنحصر.

والتفريق فى المعاملة يتم على أربعة أسس:

الأساس الأول: الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فالجميع يجب أن يأخذوا حظهم من الاحترام الآدمى، فهم من حيث الخلقة سواسية فى الحقوق العامة، فالمسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يحقره، كما جاء فى الحديث الذى سبق شرحه فى هذا الكتاب.

ولقد كان النبى - ﷺ - لا يميز بين الأحرار والعبيد فى حسن المعاشرة، ولا بين الفقراء والأغنياء، ولا بين الأقوياء والضعفاء، بل كان يسوى بينهم فى مجلسه وفى حديثه، وكان يخفض جناحه لصغيرهم وكبيرهم ممن اتبعه من المؤمنين، حتى يبدو لهم كأنه واحد منهم، وقد قالها يوماً لأصحابه حين جاءوا بشاة فقال أحدهم: أنا علىَّ ذبحها، وقال الآخر: وأنا علىَّ سلخها، وقال آخر: وأنا علىَّ طبخها، وقال الرسول الأكرم: «وأنا علىَّ جمع الحطب»، فقالوا: نكفيك العمل يا رسول الله، فقال: «لا أحب أن أتميز عليكم وأنا واحد منكم».

لكنه - ﷺ - كان يعطى ذوى الأقدار حقوقهم من التبجيل والتوقير، فلا ينكر عليه أحد ممن هو دونهم؛ لمعرفتهم أن هذا هو الأدب المساير للفطرة، والمناسب لأحوال الناس فى القديم والحديث، والعرف لا يأباه بل يأبى ما تناقض معه.

وكان عليه الصلاة والسلام يلقب العظماء من القواد والسادة بألقاب تناسبهم، فلقب أبا بكر بالصديق، ولقب عمر بالفاروق، ولقب عثمان بذى النورين، وعليًّا بالكرار، وأبا عبيدة بأمين الأمة، وخالد بن الوليد بسيف الله.

وكان يثنى على كل رجل بما هو أهله، فأحبه العظماء من جميع الطبقات ومختلف الأعمار، فهو عظيم العظماء جميعاً بلا منازع، شهد له الله جل جلاله بذلك في محكم آياته فقال: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) .

وقال: ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (٢) .

وأما الأساس الثانى: فهو العدل فى أسمى صوره وأرقى معانيه.

فإذا كان على القوى حق للضعيف أخذه منه له بسلطان الحق. والحق أحق أن يتبع.

وإذا اعتدى شريف على وضيع أوقفهما معاً وسوى بينهما فى الخطاب، وجعل لصاحب الحق مقالاً، ومكنه من الإدلاء بحجته، وأعانه على أخذ حقه بالمعروف ، وأقام الحد على من زنى أو سرق أو شرب الخمر أو قذف محصنة أو محصناً، ولا تأخذه بهم رأفة في دين الله.

وكان ﷺ يقول: «إن لصاحب الحق مقالاً».

وقال فى المرأة الشريفة التى سرقت – وحاول أسامة بن زيد – رضى الله عنهما – أن يشفع لها: « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ».

وميزان العدل عنده ﷺ كما علمه ربه : أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات .

الأساس الثالث: أن لا يكون التقدير لذوى الشرف والمنزلة على حساب الآخرين، بأن يوقر هذا ويحتقر ذاك ولو بقلبه؛ فإن ذلك عين الظلم.

والله عز وجل يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (٣) .

---

(١) القلم: ٤ . (٢) آل عمران: ١٥٩ .

(٣) الحجرات: ١١ .

فمن نظر للغنى نظرة إكبار لغناه، ونظر إلى الفقير نظرة احتقار لفقره – فقد خان الأمانة وخالف السنة، وخرج عن العدل الذى قامت به السماوات والأرض، ونافق فى دينه، وأتى بما يحاسب عليه حساباً عسيراً من الله عز وجل ما لم يتب.

يقول الله عز وجل: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق ﴾ (١).

لقد طلب أشراف قريش من رسول الله – ﷺ – أن يجعل لهم يوماً يجلس إليهم فيه، ويجعل للعبيد والفقراء يوماً يجلس إليهم فيه، فنهاه الله عن ذلك، وهو يعلم أنه لا يفعل ما طلبوه منه؛ توكيداً لمداومته على ذلك، وتعريضاً بأشراف قريش وإهانة لهم، فقال جل شأنه: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً ﴾ (٢).

أى دم على حبس نفسك على هؤلاء الأخيار، ودم على عدم طاعتك لهؤلاء الأشرار؛ فإن الرجل من أصحابك مهما كان حاله خير من ملء الأرض من أمثال هؤلاء.

وانظر كيف رفع الله من شأن الأعمى: عبد الله بن أم مكتوم وعاتب فيه نبيه عليه الصلاة والسلام عتاب تعليم وتشريع، لا عتاب تعنيف وتقريع، ظهرت من خلاله مكانته عند ربه وسوء مكانة العظماء من قريش عند الله وعند الناس.

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزَّكَّى أو يذَّكَّر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تَصَدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تَلَهّى ﴾ (٣).

الأساس الرابع: ألا يؤدى تكريمنا لرجل من السادة والأشراف إلى تكبرهم علينا وعلى الناس، واغترارهم بما أوتوا من الجاه والرفعة، واعتزازهم بما هم فيه من الثراء والنعمة؛ فإن توقيرهم وتبجيلهم حينئذ يكون منافياً للحكمة التى شرعت لتنزيل الناس منازلهم.

---

(١) غافر: ١٩ – ٢٠. (٢) الكهف: ٢٨. (٣) عبس: ١ – ١٠.

فنحــن أمرنا بذلك لحثهم على المزيـد مما يقومــون به من أعمــال الخــير وما يؤدونه لله من واجبات؛ فإن المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الإيمان في قلب ، كما جاء في الحديث الصحيح.

وإذا رأى الناس يحبونه ويحترمونه بادلهم حباً بحب واحتراماً باحترام.

فإذا عرف ذلك كان لزاماً على كل مسلم أن يعرف متى ينزل الناس منازلهم، ومتى ينكر عليهم سوء صنيعهم، ومتى يمنعهم هذا الحق حتى يعودوا إلى رشدهم، ويكفكف من كبريائهم وغرورهم.

وهذه الأسس الأربعة تخصص عموم الحديث، وتجعله مقصوراً على من يستحق التبجيل والتعظيم.

والفهم الضيق لهذا الحديث يأتي من قصر النظر على ما فعلته عائشة رضي الله عنها؛ إذ أعطت السائل كسرة خبز فاكتفى بها وانصرف راضي النفس، وأجلست صاحب الهيئة وكرمته، فدل هذا في نظر غير المتأمل على أنه يُكرم الرجل لمجرد هيئته الحسنة وثيابه الفضفاضة وكفى، دون النظر إلى سماحة الوجه وطلاقته، وصلاح العمل وحسن الخلق، وما إلى ذلك من الاعتبارات التي لها شأن عند الناس.

والفهم الواسع هو ما قدمناه وبيناه على هذه الأصول الأربعة؛ جمعاً بين النصوص الشرعية التي وردت في إنزال الناس منازلهم، والنصوص التي لا تجعل للشريف منزلة إذا جاوز حده فأساء وظلم، وطغى وتكبر وخرج عن حد اللياقة والأدب.

فكيف يعظم الناس من سخر منهم واستهزأ بهم، وتعالى عليهم ، وأساء معاملتهم، واغتر بنفسه وماله ، وظن أنه خير منهم شرفاً ومنزلة؟

إن هذا قد أساء وظلم فلا عجب إذا احتقره الناس وأخذوا منه موقفاً سلبياً، أو اجتنبوه؛ وقاية من شره وأشره، أو أساءوا إليه في المعاملة، فإن ظلموه فقد ظلمهم، والبادي أظلم.

* * *

وبعد ، فإنه من الواجب علينا أن نتمسك بهذا الحديث نصاً وروحاً، فنرفع في نظرنا من رفعه الله، كالعلماء العاملين والأولياء الصالحين، فندنيهم في مجالسنا، ونوقرهم أثناء التحدث إليهم والنظر إلى وجوههم، ونحسن إليهم في تصرفاتنا كلها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ونحفظ لهم الود ما أمكن، وندافع عنهم في غيبتهم، وندعوا لهم بخير متى ذكرناهم، ونصل من يصلونه، ونحب من يحبونه بقدر طاقتنا؛ حسبة لله تعالى، ونقتدى بالنبى – ﷺ – في معاملته للأخيار والأشرار، فنتواضع في غير منقصة لمن يستحق أن يتواضع له، ونتعالى على من يتعالى علينا ويسيء إلينا ولا يدين بديننا، أو يدين بديننا ولكنه لا يلزم طاعة الله عز وجل ولا يتبع سبيل المؤمنين المخلصين في عاداتهم وعباداتهم كما ينبغي أن يكون الاتباع.

روى أبو داود في سننه عن أبي موسى الأشعرى – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال: « إن من إجلال الله إكرامَ ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط ».

أى أن من تبجيل الله وتعظيمه إكرام من شاب في الإسلام شيبة حسنة؛ لحرمته عند الله عز وجل، وإكرام حافظ القرآن والعامل به والمعلم غيره قراءته وفق قواعد التجويد، فالحامل للقرآن مكلف بحفظه وتلاوته وتعليمه وتدبر معانيه والعمل بما فيه، لهذا قيل له: حامل القرآن.

وأما إكرام ذى السلطان المقسط فهو أوجب من إكرام غيره؛ لأنه نادر الوجود، فليس من السهل أن تجد حاكماً عادلاً يحكم بما أنزل الله ويعدل بين الرعية ، ويقسم بين الناس بالسوية، فإذا وجد كان حقاً على الناس أن يحملوه فوق الأعناق، وأن يعظموه في أنفسهم تعظيماً بليغاً.

وإذا كان ذو السلطان المقسط حاملاً للقرآن فأنعم به وأكرم.

وإذا شاب في الإسلام شيبة فهو خير من يمشى على الأرض بعد النبيين.

نسأل الله لى ولكم صلاح الدين والدنيا.

* * *

(١٥٠) العَائدُ في صَدَقَته كالكلب يعود في قَيْئه

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : حَمَلْتُ على فَرَسٍ عَتيقٍ في سبيل الله ، فأضاعه صاحبه ، فظننتُ أنه بائعُهُ برُخْصٍ ، فسألت رسولَ الله - ﷺ - عن ذلك ؟

فقال : « لا تَبْتَعْهُ ولا تعُدْ في صدقتك ، فإن العائد في صدقته ، كالكلب يعُودُ في قَيْئه » (١) .

* * *

الهبة من الله تبارك وتعالى تفضل وامتنان، ومن العبد تبرع وإحسان، ولولا توفيق الرب ما تبرع الإنسان، وهو الشحيح بطبعه، فتكون الهبة من الله على الحقيقة، ومن الإنسان على المجاز.

ومن راقب الله عرف ذلك، فلا يعد نفسه واهباً، بل يعتبر نفسه مناولاً.

ومن حاسب نفسه منعها من الشح واستلّه من طبعها، ولن يفلح إلا بذلك.

﴿ ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

والكرم في الإنسان أرْيَحيَّة،قد تكون هبة وقد تكون اكتساباً.

والكريم بطبعه عزيز.

والكريم بالاكتساب كثير والحمد لله.

وأكرم الناس الأنبياء، وأكرم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

وأكرم هذه الأمة أصحاب النبي، وأكرم أصحاب النبي، أبو بكر ثم عثمان ثم علي ثم عمر - رضى الله عنهم جميعا .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الهبات ، باب كراهة شراء الإنسان ما تصدق به ممن تصدق عليه، حديث رقم: ١٦٢٠ .

(٢) التغابن : ١٦ .

وعند النظر فى سيرهم لا يتبين لنا على وجه التحديد من الأكرم فيهم، فلا يسعنا إلا أن نقول: هم على الجملة فى الكرم سواء.

تشابهت أخلاقهم وتسامت مكارمهم وعلت أقدارهم - فكانوا نجوم الهدى لا تدرك العين أى نجم أكبر، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

هذه مقدمة جادت بها القريحة على عجل، تهدينا إلى معرفة ما تحلى به التشريع الإسلامى من سماحة تدعو إلى الإعجاب.

فها هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يحمل رجلاً على فرس ليجاهد عليه فى سبيل الله، وقد وهبه له، فأضاعه الرجل، فظن أنه يبيعه برخص الثمن لأمارات بدت عليه، فاستشار النبى ﷺ فى استرداده بالثمن أو بغير ثمن، فيشير عليه النبى ﷺ ألا يفعل هذا ولا ذاك، وأعلمه أن مثل الراجع فى هبته أو صدقته كمثل الكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه، مبالغة فى تنفيره عن العود فى ما أخرجه من ماله هبة أو صدقة.

* * *

وقول عمر: «حملت على فرس عتيق فى سبيل الله» كلام موجز بليغ حذف منه ما يعلم بداهة.

ومعناه: تصدقت أو وهبت فرساً عتيقاً، أى: جواداً سريعاً مشهوراً بالكر والفر - لرجل يقاتل عليه فى سبيل الله.

وهذا جهاد بالمال يضاف إلى الجهاد بالنفس؛ تجارة رابحة مع الله تبارك وتعالى.

وقوله: «حملت» أولى من قوله: وهبت أو تصدقت؛ فإن تعبيره بالحمل لا تظهر فيه المنة، فالمنة لله وحده، بخلاف ما لو قال: وهبت أو تصدقت؛ لأن الشأن فى الهبة والصدقة ألا يتبعها مَنٌّ ولا أذى على أى وجه من الوجوه.

وقوله: «فأضاعه صاحبه» معناه: قصر فى القيام بعلفه ومؤنته.

فالإضاعة هنا كناية عن إضعافه والتهاون فى شأنه.

ولا ندرى هل كان ذلك عن عمد أو عن فقر، وليس هذا هو المهم، المهم هو أن يبقى الفرس محتفظاً بقوته وسرعته، فلابد أن يعنى به صاحبه أو ينزل عنه لمن يعنى به.

ففكر عمر فى أمر هذا الفرس، وظن ظناً قوياً أن الرجل قد يبيع الفرس لشدة فقره أو لعدم معرفته بتدبير علفه واختيار الأنسب له من الأطعمة.

وهذا الظن فى محله؛ لأن القرائن تشهد بذلك، ولكن ماذا يفعل، إنه لابد أن يرد الأمر إلى من أجرى الله الحق على قلبه ولسانه.

فقال له النبى ﷺ: «لا تبتعه» أى: لا تطلب شراءه منه؛ فذلك يشبه الرجوع فى الهبة أو الصدقة، وربما يبيعه له بأرخص الأثمان، حياء منه، وربما يتنازل عنه من غير ثمن؛ تعففاً. وأصحاب النبى ﷺ هم خيرة المتعففين.

ونهاه أن يعود فى صدقته، لا بالشراء ولا بأى حيلة من الحيل، فقد سد عليه أبواب الرجوع كلها، ونفره منه بالمثل الذى ضربه، وهو مثل مقزز منتزع من أبشع حالات الكلب.

والمثل من أهم وسائل التوضيح والبيان.

وما سمى المثل مثلاً إلا لأنه يحفر له فى الذهن مكاناً، فيظل ماثلاً فيه، يستذكره صاحبه عند الحاجة إليه، وتستدعيه المعانى كلما غمض الأمر أو حدث فيه إشكال أو إجمال.

* * *

وبقى لنا أن نعرف حكم الرجوع فى الهبة عند الفقهاء بإيجاز:

قلت فى كتابى الفقه الواضح من الكتاب والسنة: ذهب جمهور العلماء إلى حرمة الرجوع فى الهبة إذا كانت بلا عوض، إلا ما كان من الوالد لولده، فإنه يجوز له أن يستردها منه ما لم يكن قد تصرف فيها، أو زادت عنده زيادة كبيرة، أو استدان بسببها أو تزوج؛ فإن الناس لم يزوجوه أو لم يسلفوه إلا لما حصل عنده من الهبة السخية، ولا شك أن في استردادها منه حينئذ ضرر عليه وعلى من أسلفه أو زوجه، وضرر على من تزوجته.

والأصل فى الهبة أن لا يرجع فيها الواهب على من وهبها له، ولكن لما كان للوالد فى مال ولده شبهة حق جوز له المالكية ومن وافقهم رجوعه فيها بالشروط المتقدمة.

والأم مثل الأب فى ذلك عند أكثر العلماء. ولا فرق بين أن يكون الولد صغيراً أو كبيراً.

روى مسلم والنسائى وأبو داود والترمذى وغيرهم عن ابن عمر وابن عباس أن النبى ﷺ قال: «لا يحل للرجل أن يعطى العطية فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده، ومثل الرجل يعطى العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب أكل حتى إذا شبع قاء ثم رجع فى قيئه».

أما إذا كان الواهب قد وهب أخاه هبة ليثيبه عليها، أى ليعطيه بدلها، فلم يعطه شيئاً يرضاه، فإنه يجوز له حينئذ أن يرجع فى هبته عند أكثر أهل العلم؛ لما أخرجه مالك عن عمر أنه قال: « من وهب هبة يرجو ثوابها فهى رد على صاحبها ما لم يثب عليها».

وأخرج ابن حزم عن أبى هريرة مرفوعاً إلى النبى ﷺ قال: «الواهب أحق بهبته ما لم يثب عليها».

فإذا أعطى رجل لرجل شيئاً على سبيل الهبة وهو متوجه إلى البيت الحرام مثلاً فى نظير شىء يقوم مقام هبته يأتيه به من الأرض المقدسة، ولم يفعل – جاز له أن يسترد منه هبته، وإن لم يشترط عليه ذلك، إذا كان هناك عرف يدل عليه، فالمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، والعرف يقوم مقام الشرط عند أكثر أهل العلم، ويسمى هذا النوع من الهبات هبة الثواب، أو هبة العوض. والأولى أن تسمى هدية.

أما الصدقة فلا خلاف بين العلماء فى حرمة استردادها تحت أى ظرف من الظروف؛ فقد خرجت عن ملك المتصدق لوجه الله تعالى.

والله هو الهادى إلى سواء السبيل

* * *

(١٥١) لا تُسَبِّخي عنه

عن عطاء رضى الله عنه عن عائشة رضى الله عنها قالت : سُرق لها شيء فجعلت تدعو عليه ، فقال لها رسول الله ﷺ : «لا تُسَبِّخي عنه» (١) .

* * *

المسلم لا يكون لعّاناً ولا فحّاشاً في القول ولا يرد السوء بمثله ، ولايغضب لأمر من أمور الدنيا إلا إذا كان له مساساً بالدين أو بالعرض ، أو أدى إلى ضرر شديد في النفس أو في النسل أو في المال . وإذا غضب فسرعان ما يعفو ويصفح ويغفر، وإذا خاطبه الجاهل قال له قولاً ليناً فيه سلم ومسالمة .

وذلك لقوة إيمانه بالله، وعظيم ثقته به ، وحسن توكله عليه، وعلمه أن الله يملى للظالم حتى يرجع عن ظلمه ويتوب من ذنبه ويرد الحقوق إلى أصحابها . فإن لم يفعل أخذه أخذ عزيز مقتدر .

ومتى عرف المؤمن أن الله عزيز ذو انتقام ترك الأمر إليه فلم يدع على ظالم؛ لأن ظلمه سيهلكه حتماً ولو بعد حين .

فليس من الحكمة أن يتخير العبد للظالم نوعاً من الانتقام، فيقول : اللهم افعل به كذا وكذا؛ فإن ذلك إساءة أدب مع الله عز وجل .

وإن كان ولابد من أن ينفس المؤمن عن كربه ويتخفف من غيظه، فليقل : حسبى الله ونعم الوكيل . فإنها تذهب غيظه وتفرج همه، وتكشف كربه، وتعجل بالانتقام ممن ظلمه .

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها النبى حَسْبُكَ الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾(٢) .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فإن تولوا فقل حسبيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٣) .

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب فيمن دعا على من ظلم ج ٤٩٠٩ .

(٢) الأنفال : ٦٤ . (٣) التوبة : ١٢٩ .

وقد أثنى الله على المؤمنين عقب غزوة أحد حين جاء إليهم من يخيفهم بأهل مكة ويلقى الرعب فى قلوبهم، بقوله: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (١) .

* * *

وقد كانت عائشة رضى الله عنها صغيرة السن تغضب ممن حمل ظلماً وأتى ذنباً يعاقب عليه ، أو أساء الأدب مع واحد من المسلمين، فلا عجب أن تدعو على من سرق منها متاعها . وهى زوج رسول الله ﷺ ومتاعها متاعه، والاعتداء على مالها اعتداء على مال رسول الله، أكرم الأكرمين صلوات الله وسلامه عليه .

والسرقة كبيرة من الكبائر يستحق عليها قطع يده فى الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر) .

والرسول ﷺ لم يعب عليها صنيعها، ولكنه واساها بقوله: « لا تُسبخى عليه » أى لا تخففى عنه العذاب، فإن الله سينتقم لك منه فاطمئنى واهدئى، ودعى الأمر لله فإنك لو دعوت عليه لأخذت بعض حقك منه فخففت عليه من العذاب الدنيوى والأخروى، وهو ﷺ لا يكره أن يخفف الله على السارق ولكنه يعلم عائشة رضى الله عنها أن تكون صبورة على المصيبة عند نزولها، مسالمة لمن أساء إليها، ودودة لكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، محسنة على من أساء إليها ولو كان كافراً ما لم تكن إساءته للدين والحرمات .

إن الرسول ﷺ هو المعلم الأكبر الذى يزكى النفوس، ويقوم الأخلاق ويربى الرجال والنساء تربية فريدة ينال بها المسلم درجة عظيمة من القرب والحب الإلهى .

وهو الطبيب الذى يعرف كيف يشخص الداء ويصف الدواء، ويقدم للمرضى ما يحتاجون إليه من المواساة والتسلية والتخفيف والرحمة بأسلوب حكيم بليغ مشرق ، ترتضيه النفوس من غير كبوة ولا ملل.

---

(١) آل عمران : ١٧٣ – ١٧٤ .

ومن نظر إلى عائشة رضى الله عنها فى حداثة سنها عذرها فى كثير مما فعلته بنفسها ثم ندمت عليه، كالمكيدة التى دبرتها لحرمان النبى ﷺ من العسل الذى سقته منه زوجته زينب بنت جحش رضى الله عنها، وهى قصة نزل فيها قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبى لمَ تحرِّم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ (١) .

وكانت الغيرة تدفعها إلى مثل هذا فيعذرها النبى ﷺ بها، ويعلمها الأناة والصبر وقوة الاحتمال، ومواجهة الأمور الصعبة بصدر رحب وقلب مطمئن، وسرعان ما تعلمت من الرسول ﷺ مكارم الأخلاق على النحو الذى لم تسبق إليه، ووعت كل درس تلقته منه، وحفظت ما سمعته وما رأته منه حتى أصبحت مضرب الأمثال فى العلم والعمل ، والخلق الفاضل والسلوك النبيل.

* * *

وقوله ﷺ :« لا تُسبخى عنه »، أى: لا تخففى عنه العذاب – كما أشرنا – مأخوذ من السبخة وهى الأرض السهلة اللينة التى يكثر خيرها إذا ما زرعت.

ومن هذا الحديث تعلم أصحاب النبى ﷺ العفو والصفح الجميل عمن أساء وظلم، فأثنى الله عليهم بقوله : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (٢) .

روى أن رجلاً من أهل الفسق والفجور كان يسب أبا الدرداء إذا خرج من بيته حتى يدخل المسجد، ويسبه إذا خرج من المسجد حتى يدخل بيته، فقال له يوماً: يا هذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا، إن كان فىَّ ما تقول اسأل الله أن يغفر لى ، وإن لم يكن فىّ ما تقول اسأل الله أن يغفر لك.

واقتدى التابعون بأصحاب النبى ﷺ فى هذه المحامد كلها، وكانوا معهم بقلوبهم على طريق الهدى والخير.

فهذه رابعة العدوية يسرق متاعها لص وهى تصلى، فتتعجل فى صلاتها وتخرج إليه مسرعة ، فلما اقتربت منه قالت : يا هذا وهبت لك فقل قبلت. أى وهبت لك ما أخذته منى فاقبله هبة خالصة لك.

---

(١) التحريم : ١ – ٥.
(٢) الشورى: ٣٧

فرجع الرجل إليها وقال لها: ما الذى حملك على أن وهبت لى ما أخذته منك؟

قالت: يا ولدى خفت عليك من عذاب الله.

قال اللص: سبحان الله تخافين عليّ من عذاب الله وأنا لا أخاف على نفسى، اللهم إنى تائب إليك، فاقبل توبتى. وأعاد إليها ما سرقه منها.

فما أعظم كظم الغيظ والعفو عن الناس! إنه الإحسان فى أعظم درجاته وأرقى معانيه.

والدعاء للظالمين بالهداية أولى من الدعاء عليهم بالثبور وعظائم الأمور، إلا إذا كان الظالم قد أفسد فى الأرض وأهلك الحرث والنسل وهتك العرض، وقطع الطريق، فإن الدعاء عليه حينئذ سلاح من أسلحة النصر عليه، وطريق من طرق الوقاية من شره.

فقد كان النبى ﷺ يدعو على الظالمين فى صلاته إذا اشتد شرهم واستفحل خطرهم، واستيأس الناس من هدايتهم وتوبتهم.

مع أنه كان يدعو لقومه بالهداية فيقول: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون. فتعلمنا منه ﷺ متى ندعو لهم ومتى ندعو عليهم.

هذا، ولا يلام المسلم إذا دعا على أخيه المسلم فى حالة الغضب، فإن الغضب إذا سيطر على العقل سلبه رشده.

وما عليه إلا أن يتوب ويستغفر، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإنها تعيد إليه توازنه وطمأنينته ورشده.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾

* * *

(١٥٢) استووا ولا تختلفوا

عن أبى مسعود – رضى الله عنه – قال: كان رسول الله – ﷺ – يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فى الصلاة ويقولُ: «اسْتَوُوا ولا تَخْتَلفُوا، فَتَخْتَلف قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِى منكَم أُولُو الأحلامِ والنُّهى، ثم الذين يَلُونَهُمْ، ثم الذين يَلُونَهُمْ»

قال أبو مسعود: فأنتم اليومَ أَشَدُّ اختلافاً(١).

* * *

كان النبى – ﷺ – يعنى عناية فائقة بتسوية الصفوف فى الصلاة لأن الصلاة فى جماعة دليل على ائتلاف القلوب وتآخيها على الإيمان، فكلما كانت الصفوف متساوية كالبنيان المرصوص كانت القلوب أشد اتفاقاً وائتلافاً على المودة والرحمة والإخلاص.

فالصلاة عماد الدين وركنه الركين، وهى برهان صحة الإيمان وسلامة اليقين، فكان الاجتماع عليها خير اجتماع عرفه المسلمون؛ لأنه يشبه اجتماع الملائكة الذين يصفون أنفسهم للصلاة فى السماء.

وكلما اعتدلنا فى القيام إليها وحاذينا المناكب والأكتاف، ولم نختلف بعد التسوية إلى تمام الصلاة – كنا أقرب إلى الملائكة وأشد شبهاً بهم.

وفى ذلك – أيضاً – دليل على أن القلوب غير مشغولة بشىء آخر أثناء الصلاة؛ لأن الشيطان يشغل قلب المسلم حين يدخل فى الصلاة بما يصرفه عنها كُلاً أو بعضاً فيضطرب حاله فى الصلاة فيتقدم حيناً ويتأخر حيناً.

وربما جاءه الشيطان من الطريق الذى يحبه ويرضاه فيشير إليه أن يقدم فلاناً لأنه تأخر، ويؤخر فلاناً لأنه تقدم، ويلصق قدمه بقدم الذى عن يمينه تارة،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة؛ باب تسوية الصفوف وإقامتها... حديث رقم: ٤٣٢.
حديث رقم: ٤٣٢.

والذى عن شماله تارة حتى لا يفتح فرجة للشيطان – فى نظره – فإذا بالشيطان قد عشش فى قلبه فأنساه ذكر ربه فأتى من الحركات ما يبطل صلاته وهو لا يشعر، أو يمنع قبولها لفوات الخشوع فيها، والخشوع روح الصلاة – كما تعلم – والفلاح منوط به كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾(١).

وهذا الذى يقدم إنساناً ويؤخر آخر، ويلصق قدمه بقدم هذا وذاك – يكون سبباً فى مضايقتهم وإحراجهم وذهاب الخشوع من قلوبهم.

إنهم ليسوا فى حاجة إلى من يقدمهم أو يؤخرهم بعد أن دخلوا فى الصلاة،فإن كانوا خاشعين فهم يثبتون فى مواضعهم ولا يخرجون عن الصف الذى أقيموا فيه خطوة واحدة.

وإن فقدوا الخشوع فلن يستطيع أحدٌ أن يردهم إلى ما كانوا عليه عند دخولهم فى الصلاة؛ لأن قلوبهم قد اختلفت وذهبت مع الشيطان كل مذهب.

ومن هذا يتبين لنا لماذا كان النبى – ﷺ – يعنى بتسوية الصفوف فيمسح الأكتاف ويجعلها متساوية تماماً. ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة فى مرضاة الله تعالى ، والتنبيه على وجوب التعاون على البر والتقوى الذى لا يتحقق إلا بوحدة الصفوف وائتلاف القلوب .

وكم فى أفعال النبى– ﷺ – من إشارات لطيفة لم يفهمها الكثير من الناس، فيوفق الله الراسخين فى العلم إلى استنباطها من أعماق الألفاظ والمعانى التى يرويها المحدثون لنا بدقة وأمانة.

* * *

ولننظر بعد هذا إلى ما فى الحديث من الأحكام والعظات والعبر،حتى نجمع قلوبنا على العمل بما فيه من الإرشاد والتوجيه.

فقوله: «اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا» قول مدعم بالفعل،فقد كان يقول هذا وهو

---

(١) المؤمنون: ١ – ٢.

يمسح مناكبهم، مع أن مسح المناكب كان كافياً في الأمر بالتساوى. فجاء القول مؤكداً للفعل ومدعماً له.

والاستواء هو التراص في نسق واحد. بحيث تكون الأقدام متوازية، والأكتاف متلاصقة.

والاختلاف ضد الاستواء، وهو يؤدى إلى اختلاف القلوب، أى تشتتها في أمور أخرى غير الصلاة.

فالتساوى في الصفوف يمنع من تفرقها؛ وذلك لأن تلاصق الأجسام لا ينسى المصلى أنه يصلى، ولكن إذا تقدم أو تأخر اختلف قلبه عن سائر قلوب المصلين فضاعت منه معالم الطريق إلى الله، وشرد ذهنه في أمور الدنيا فيبدو له أنه معهم وليس معهم، ويراه الناس يصلى وهو في الحقيقة لا يصلى.

إن تساوى الصفوف في الصلاة معناه: تساوى القلوب في طلب العفو والمغفرة والرحمة.

فمن نَدَّ عن الصف فقد فوت على نفسه هذه الروح الإيمانية المنبعثة من تلاصق الأجسام، واتباعهم للإمام في القيام والقعود والركوع والسجود.

وقد قال - ﷺ - : «سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»(١).

أى لا تتم صلاة الجماعة على النحو الأمثل إلا بذلك، ولا يحصل ثواب الجماعة إلاَّ لمن انتظم في الصف من أول الصلاة إلى آخرها.

ونحن نعلم من خلال الأحاديث الصحيحة المشهورة أن صلاة الجماعة تعدل صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة.

وقد هَدَّدَ النبى - ﷺ - من يخالف الصف في أول الصلاة أو في أثنائها ولا يعود إليه إذا أحس بذلك فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لتسوُّنَ صُفُوفَكم أَو لَيُخَالِفَنَّ الله بين وُجُوهِكُم »(٢).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم. وفى رواية لأبى داود « أو ليخالفن الله بين قلوبكم ».

والمراد بمخالفة الوجه: الخصومة والقطيعة؛ فإن الأخيار تتلاقى وجوهكم على الحب والإخاء، بخلاف الأشرار فإن وجوههم لا تتلاقى إلا على العداوة والبغضاء.

وهكذا يكون حال المؤمنون فى الجنة وحال المجرمين فى النار، ويبعث كل امرئ على ما مات عليه.

وتسوية الصفوف ليس معناه التراص فقط، بل معناه إتمامها بحيث لا يبنى صف إلا بعد أن يتم الآخر.

فقد روى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبى - ﷺ - قال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقالوا: يا رسول الله: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف».

ولكن ماذا يفعل من يجد الصفوف تامة؟ هل يقف وحده؟ أم ينوى ثم يأخذ واحداً من الصف؟

أقول: يكره له أن يصلى خلف الصف إذا كان هناك صف ناقص ولا تبطل صلاته، فإذا لم يكن هناك صف صلى منفرداً خلف الإمام.

لما روى البخارى أن أبا بكرة - رضى الله عنه - دخل المسجد ونبى الله ﷺ راكع، فركع دون الصف، فقال النبى ﷺ: «زادك الله حرصاً ولا تعد».

ومعنى قوله ﷺ لأبى بكرة: «لا تعد» - بفتح التاء وضم العين - لا تعد إلى السعى الشديد والركوع دون الصف ثم المشى إليه وأنت راكع.

ويؤيده حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إذا أحدكم أتى الصلاة، فلا يركع دون الصف، حتى يأخذ مكانه من الصف» (١).

وروى الحديث بلفظ «لا تعد» - بضم التاء وكسر العين - من الإعادة، أى: لا إعادة عليك.

وقد قال بعض الفقهاء: لا يقف فى الصف وحده ولكن يأخذ رجلاً من الصف يقف معه.

---

(١) أخرجه الطحاوى بسند حسن.

والأصـح أنه لا يفعل ذلك وهـو مذهب مالك ؛ لأننا أمرنا بسـد الفرج لا بفتحها.

وقد جاء في المدونة أن مالكاً – رحمه الله – قال: من صلى خلف الصفوف وحده فصلاته تامة مجزئة ولا يجذب إليه أحداً، ومن جذب أحداً ليقيمه معه، فلا يتبعه. أ هـ(١).

* * *

وقوله ﷺ في هذه الوصية العظيمة: «ليلني منكم أُولُو الأحلام والنُّهى» معناه: ليكن ﷺ مقربة مني في الصف الأول من كان ذا حِلم – بكسر الحاء – وهو التثبت والأناة، وذا نُهية، أي: ذا عقل تنتهي إليه المعاني فيفقهها بدقة وتثبت، فالنُّهَى جمع نُهية، وقيل هو مفرد فيقال للعقل نهي؛ لأنه ينتهي بصاحبه إلى الأمر الذي أريد منه.

ولكن لماذا أمر النبي ﷺ بذلك؟

أقول – والله أعلم – : أمر بذلك لكي يعقلوا عنه ما يرونه وما يسمعونه منه، ولكي يستخلف واحداً منهم في الصلاة إذا خرج منها لعذر، ولكي يفتحوا عليه إذا طلب الفتح، بمعنى أنه لو توقف في القراءة قرأ عليه واحد منهم الآية التي أُنسيها فيواصل القراءة إلى آخرها.

هذا ولا يخفى ما في الصف الأول من الفضل، والفضل إنما يكون لأهل الفضل، فأولو الأحلام والنُهى أولى به من غيرهم.

وقد قالت عائشة – رضي الله عنها – : «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» وقد تقدم شرح هذا الحديث.

وليس معنى ذلك أن في الصلاة محاباة. كلا، لكن الأمر كما ذكرت لك أيها القارئ الكريم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصف الأول منها ما رواه مسلم في

---

(١) ص ١٠٢ جـ١.

صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا».

وربما وجد النبى ﷺ أكثر الناس يستبقون إلى الصف الأول ويحرمون منه أولى الأحلام والنهى، وهم أولو الفضل والعلم، فلم يرد النبى ﷺ أن يحرج هؤلاء المستبقين بنهيهم عن الاستباق، ولم يرد فى الوقت نفسه أن يحرم أولى الأحلام والنهى عن حقهم فى التقدم على من سواهم. ولا يعرف الفضل إلا أهله.

وقد قال النبى ﷺ: «ثم الذين يلُونهم ثم الذين يلونهم» مرتين؛ ليتأكد لدينا عظمة الإسلام فى تقديم من حقه التقديم من غير تكلف ولا اعتساف.

وليعلم كل امرئ من هو أفضل فيقدمه على نفسه من غير إحراج ولا إبطاء.

فأبو بكر مثلاً وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فى الصف الأول.

وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب وبلال بن رباح وعمار بن ياسر فى الصف الثانى وهكذا.

ولكن ليس من الضرورى أن يراعى هذا على وجه التحديد، ولكن يكفى ألا يتقدم الصغير على الكبير ولا الأُمّى على العالم. يفعل ذلك من نفسه من غير أن يأمره أحد بذلك.

ولعل النبى ﷺ قال: «ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» مرتين؛ لعلمه أن أصحابه جميعاً سوف يتيح بعضهم لبعض أن يتقدم فى الصف الأول توقيراً له وتواضعاً لله عز وجل، فهم أهل الأدب والكمال والحب والوصال والإيثار.

ونحن نرجو أن نقتدى بهم فى تواضعهم وتآخيهم وإيثار بعضهم بعضاً فى مواطن الخير، ونسلك مسالكهم فى الأدب وحسن الخلق.

* * *

قال أبو مسعود راوى الحديث بعد سياقه مخاطباً من كان معه: فأنتم اليوم أشد اختلافاً؛ لكى يحفزهم على تسوية الصفوف وسد الفرج، حتى لا يصيبهم ما يصيب المخالفين من اختلاف القلوب وافتراق الوجوه بسبب الخصومات والتعلق بأمور الدنيا.

والصلاة - كما نعلم - إذا أديت على الوجه الأكمل نهت صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها أكبر الذكر، فمن داوم عليها لم يكن من الغافلين، وبالتالى لم يكن للشيطان عليه سبيل.

يقول الله عز وجل: ﴿ اتل ما أُوحىَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (١) .

أى: ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهو مع الذاكرين ما ذكروه.

ويقول الله عز وجل: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) .

وقد رأيت الكثير من الناس يقومون إلى الصلاة قبل أن يقول المؤذن: «قد قامت الصلاة»، ويستبقون إلى الصف الأول من غير أدب ولا توقير لمن هم أولى منهم بالصف الأول.

ومنهم من يسارع إلى الوقوف خلف الإمام مباشرة وهو لا يحسن قراءة الفاتحة؛ ليحصل - فى زعمه -على فضل الصف الأول، وقد فاته ما يحقق له فضل الصف الأول وغيره من الفضائل، وهو الأدب الذى دعا إليه النبى ﷺ فى هذا الحديث.

والحق أنه لا يحصل أحد على فضل الصف الأول إلا إذا كان قد بَكَّرَ إليها وجلس فى الصف الأول أو الذى يليه.

وأولو الأحلام والنهى هم الذين يأتون إلى الصلاة مبكرين عليهم السكينة والوقار، فيجلسون فى الصفوف الأول؛ بحسب ترتيب مجيئهم؛ لأن عقولهم الرشيدة تدفعهم لذلك وتحملهم على النظام فى كل شىء ولا سيما فى الصلاة؛ لفرط حبهم لها وشدة حرصهم عليها.

---

(١) العنكبوت: ٤٥ . (٢) الرعد : ٢٨ .

وقد كان أصحاب النبى ﷺ يجلسون حيث انتهى بهم المجلس ولا يتخطون الرقاب، وإذا جلسوا جلسوا صفوفاً، فإذا أقيمت الصلاة قاموا إليها كل فى مكانه، إلا أنهم كانوا يفسحون الطريق إلى الصف الأول لمن هم أولى بالتقديم؛ تأدباً معهم وتوقيراً لهم؛ وتواضعاً لله عز وجل – كما أشرنا من قبل.

وقد حذر النبى ﷺ عَوَامَّ الناس من الفوضى والهياج عند القيام إلى الصلاة والاستباق إلى الصفوف الأولى مع شدة الزحام، فقال: «ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم «ثلاثا» وإياكم وهيشات الأسواق» (١).

وهيشات الأسواق: هى الهياج والصخب وارتفاع الأصوات، والمنافسات بالحق أو بالباطل وما إلى ذلك مما هو معروف مشاهد.

والمساجد بيوت الله، وهى أسواق للتجارة مع الله لا مع الناس، وتنزيهها عن هيشات الأسواق واجب، وتعظيمها برهان على سلامة القلوب وصفائها.

يقول الله – عز وجل – : ﴿ومن يُعَظِّمْ شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾(٢).

وشعائر الله: أوامره ونواهيه – وتعظيمها يكون بالإخلاص له – جل شأنه – فى الطاعة والامتثال، ورعاية حرماته كلها بقدر الطاقة البشرية.

وللمساجد آداب كثيرة ينبغى مراعاتها، قد مَرّ شىء منها وسيأتى بيانها مُفَصَّلَةً فى حديث آخر إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) الحج: ٣٢.

(١٥٣) أوصاني خليلي بثلاث

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد»[١] .

* * *

هذه الوصية لم تكن لأبي هريرة – رضي الله عنه – بوجه خاص كما هو ظاهر، ولكنها نفذت من خلاله إلى سائر المؤمنين والمؤمنات .

وهي من الوصايا التي يتعلم منها المسلم الحزم والعزم وأخذ نفسه بالقوة في التجارة مع الله عز وجل، وتدريبها على فعل ما تكره؛ تهذيباً لها، وتقويماً لسلوكها، وزجراً لها عن الميل إلى الشهوات والركون إلى الخمول والكسل، والغفلة عن الذكر في أوقات العمل .

* * *

أما صيام ثلاثة أيام من كل شهر فسنة متبعة، لم يتركها أحد من الصالحين إلا لعذر، وهي أقل ما يستحب فعله في جميع الشهور سوى شهر شعبان؛ فإن كثرة الصيام فيه أشد استحباباً منها في غيره .

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر تعدل صيام الدهركله، كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد، وابن حبان عن أبي ذر - رضي الله عنه –أن النبي ﷺ قال : « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله » .

وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها، وكل يوم من الأيام الثلاثة يمثل ثلث الشهر، فإن واظب على صيامها في كل شهر كان كمن صام الدهر كله .

ولكن هذا التشبيه لا يعني المساواة من جميع الوجوه، فتشبيه شيء

---

(١) رواه مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى . . . حديث رقم ٧٢١ بهذا اللفظ، ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي بألفاظ متقاربة .

لا يعنى أنه مشارك له فى جميع الأوصاف، بل يكفى أن يكون مشابهاً له فى وصف أو وصفين.

ومن المعلوم بداهة أن من صام الدهر لله تعالى كان أعظم أجراً من الذى صام ثلثيه، فكيف بمن صام ثلاثة أيام منه.

والتشبيه هنا لتحصيل الكفاية والاقتصار على ما يمكن فعله بلا مشقة.

واعلم أن الثواب يكون على حسب الإخلاص فى العمل، فرب عمل يسير يحصل العامل من ورائه على أجر كبير، والعكس صحيح.

﴿ وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (١).

ولا يشترط أن يكون الصوم من أول الشهر أو من وسطه، بل له أن يصوم متى شاء، ولا يشترط أن تكون متتابعة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، قالت معاذة رضى الله عنها: من أيِّه كان يصوم؟، فقالت: لم يكن يبالى من أيّه كان يصوم» (٢).

وقيل: يستحب أن تكون هذه الأيام الثلاثة فى الليالى المقمرة، وهى المبينة فى حديث قتادة بن ملحان قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نصوم البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة وخمس عشرة، وقال: هى كصوم الدهر» (٣).

* * *

وأما ركعتا الضحى ففضلها كبير وأجرها عظيم؛ لأنها صلاة يغفل عنها كثير من الناس؛ لاشتغالهم بأمور الدنيا، فهى تشبه فى الفضل الصلاة فى جوف الليل؛ لأنها تقام والناس نيام، فعنصر الإخلاص في هذه وتلك متوفر فى الغالب، والأجر إنما يكون بقدر الإخلاص فى العمل كما أشرنا.

---

(١) الرعد: ٨- ٩.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى.

وقد وردت فى فضل صلاة الضحى أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «يصبح على كل سُلاَمَى[1] من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكُلُّ تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صَدَقَة، ويجزئُ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[2] .

ويبدأ وقتها من بدء حل النافلة، وهو مقدار ارتفاع الشمس رمحاً أو رمحين وينتهى وقتها قبل وقت الظهر.

والرمح يقدر بستة أمتار فى رؤية العين، وقَدَّرَ الفلكيون الوقت الذى تحل فيه النافلة بنحو نصف ساعة من طلوع الشمس، وينتهى وقتها قبل الظهر بأربع دقائق فلكية؛ لأن هذا الوقت تكره الصلاة فيه، ويسمى وقت الاستواء، بعده تميل الشمس إلى الغرب، فإذا مالت درجة فقد وجب الظهر، والدرجة الشمسية تقدر بأربع دقائق.

وأقل ما يجزئ فى صلاة الضحى ركعتان، فمن شاء اكتفى بها، ومن شاء صلى أكثر إلى اثنتى عشرة ركعة.

فقد ثبت أن النبى ﷺ صلاها أربعاً، وصلاها ثمانياً، وصلاها أكثر من ذلك.

فعن أم هانئ – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ «صلي سجدة الضحى ثمانى ركعات، يُسَلِّمُ من كل ركعتين»[3] .

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان النبى ﷺ يصلى الضحى أربع ركعات، ويزيد ما شاء الله»[4] .

واعلم أن صلاة الضحى تعين التائبين على تجديد التوبة وتصحيح النية والإخلاص فى العمل والتحرر من الغفلة وكسر جماح الشهوة.

---

(١) السلامى – بضم السين وتخفيف اللام وفتح الميم – عظام الجسد ومفاصله.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد ومسلم.

ولهـذا سـمـاها النبى ﷺ صـلاة الأوابين، وهـم الذين تـابوا ورجـعـوا إلى الله وأنابوا إليه واطمأنت نفوسهم بذكره، فلم يكن للشيطان عليهم سلطان.

روى مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده، عن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قال: خرج رسول الله ﷺ على أهلِ قُبَاءٍ وهم يُصَلُّونَ فقال: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفِصَالُ».

أى إذا طلعت الشمس وانتشر ضوؤها واشتد حرها على الفصال، ،هى أولاد الناقة، جمع فصيل.

وقد ذكر الفصال بالذات لأنها لا تقوى على حر الشمس الخفيف لصغرها.

* * *

وأما صلاة الوتر فإنها سنة مؤكدة، لا ينبغى على المسلم تركها، ولشدة توكيدها قاربت الواجب ، فكانت حقاً على المسلم أن يؤديها قبل أن ينام ، حتى لا يضيعها.

قال على رضى الله عنه: الوتر ليس بحتم كالصلاة ، ولكنه سنة سنها رسول الله ﷺ (١).

وقد أوصى النبى ﷺ أبا هريرة بأن يوتر قبل أن ينام لعلمه بحاله.

وأوصى أبا الدرداء أيضاً بذلك؛ لعلمه بحاله.

فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: «أوصانى حبيبى ﷺ بثلاث، لن أَدَعَهُنَّ ما عِشْتُ: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام حتى أوتر».

والوصية تتعلق بصلاة الوتر فى ذاتها بغض النظر عن كونها قبل النوم أو بعده. وكل امرئ يرى ما يصلح له فيفعله.

فإن كان من أهل الحزم أوتر قبل أن ينام.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائى.

وإن كان من أهل العزم أخره حتى يستيقظ من نومه فى السحر.

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من خاف ألا يقوم آخر الليل فليوتر أوله ثم ليرقد، ومن طمع أن يقوم آخر الليل فليوتر آخره؛ فإن صلاة آخر الليل مشهودة محضورة، وذلك أفضل» (١).

ويبدأ وقت الوتر من صلاة العشاء ويمتد إلى طلوع الفجر الصادق، ويصليه المسلم بعد صلاة العشاء.

فإن صلاه قبل أن يصلى العشاء، لا يصح عند أكثر العلماء؛ لقوله ﷺ: «اجعلوا آخر صلاتكم وتراً» (٢).

ومن أوتر في أول الليل ثم بدا له أن يصلى فليصل ما شاء، ولا يوتر مرة أخرى عند أكثر أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «لا وتران فى ليلة» (٣).
نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم.
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) رواه أبو داود.

(١٥٤) النهى عن نشد الضالة فى المسجد

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله : «من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد، فليقل: لا ردّها الله عليك. فإن المساجد لم تُبنَ لهذا».

*　*　*

بنيت المساجد لإقامة الشعائر من صلاة، وذكر، وتلاوة القرآن، وتدريس العلوم الشرعية واللغوية وغيرها من العلوم التى تفيد الناس فى دينهم ودنياهم.

وتعظيم المساجد من باب تعظيم الشعائر، وهو أمارة من أمارات التقوى، وبرهان من براهين سلامة القلوب مما يعكر صفو الإيمان، ويكدر جلوة اليقين.

يقول الله عز وجل: ﴿ومن يُعظمْ شعائرَ الله فإنها من تقوى القلوب﴾(١).

أى فإن تعظيمها ناشئ من سلامة القلوب وإخلاصها وخلوها من الشبهات.

وأشد الناس حباً لله أشدهم تعلقاً بالمساجد، وهم من أولئك الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وقد شاء الله أن ترفع هذه البيوت المطهرة عن كل ما يدنسها ويتنافى مع حرمتها ويتناقض مع وظيفتها.

قال الله تعالى: ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكرَ فيها اسمُه يسبِّحُ له فيها بالغدُوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(٢).

وعلى ضوء هذه الآيات يعرف المسلمون قواعد الأدب مع الله عز وجل، ومناهج السلوك فى دخولها والمكث فيها، والقيام بما يجب لله من العبادة والذكر

---

(١) الحج: ٣٢

(٢) النور: ٣٦ – ٣٨

والتفكر والاعتكاف ، والتعلم والتزام السكينة والوقار، والرغبة فى فضل الله الواسع وثوابه العظيم فى جنات النعيم.

ومن هذه الآداب التى ينبغى على المسلم مراعاتها فى المسجد عدم نشدان الضالة، فإن المساجد لم تبن لهذا، كما جاء فى الحديث.

ونشدان الضالة: طلبها والسؤال عن مكانها. يقال : نشد ضالته طلبها، ويقال: أنشدها يعنى عرّفها بأوصافها.

والضالة : هى الناقة والبعير وما يقاربهما من البهائم، كالبقرة والحمار، ولا يدخل فيها النعجة والكبش، ولا ذكر الماعز ولا أنثاه.

وقال الجوهرى: هى ما ضل من البهائم، فأدخل فيها جميع أنواعها فى التعريف.

وتطلق الضالة مجازاً على ما ضل وغاب من الماديات والمعنويات، فيقال: فلان وجد ضالته من المال أو العلم.

ولهذا يقال: الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها.

والمراد بالضالة فى هذا الحديث: الناقة والجمل ونحوهما من البهائم.

فمن سأل فى المسجد عن ناقته أو جمله أو بقرته أو حماره كره ذلك كراهة تحريم، وقيل له: لا ردَّها الله عليك؛ لأن المسجد لا تأوى إليه البهائم، وليست هى موضعاً لنشدان الضالة على كل حال.

والضالة إنما تضل طريقها فى الصحارى والمزارع والطرقات العامة ، فكان موضع السؤال عنها هو المكان الذى يغلب على الظن أنها ضلت فيه.

ولكن هل يقاس على البهائم كل شىء ضاع من صاحبه؟

الجواب: لا، وإلا فماذا يفعل من ضاعت حافظته، أو فقد حذاءه، أو ساعته أو كتابه أو حقيبته.

إنه حينئذ لا يكره أن يسأل عنها فى الموضع الذى فقدها فيه، لكن بصوت معتدل، وفى وقت لا يكون الناس فيه مشغولين بصلاتهم أو بتلاوة القرآن، أو بتلقى دروس العلم.

أما إن سأل عن ضالته التى فقدها فى المسجد فى هذه الأوقات فإنه يكون قد أخل بالأدب، وعندئذ يقال له: لا ردَّها الله عليك تأديباً له.

والدليل على أن الذى يقال له: لا ردَّها الله عليك هو من سأل عن بهيمته الضالة في المسجد ما رواه مسلم فى صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً نشد في المسجد فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ، فقال النبى ﷺ : «لا وجدتَ إنما بنيت المساجد لما بنيت له».

وقد سألنى رجل عمن يستعمل مكبر الصوت الخاص بالمسجد في النداء على طفل ضال، هل يجوز ذلك ، علماً بأن المسجد فى قرية، وليس هناك مكبر صوت غير مكبر الصوت الخاص بالمسجد؟

فقلت: نعم يجوز ذلك للضرورة، ولكن يستحب أن ينادى عليه بمكبر الصوت على باب المسجد إن أمكن ذلك ، فإن لم يتمكن فلا بأس إن شاء الله.

ويقاس على نشدان الضالة البيع والشراء وإنشاد الشعر، والجدل الذى يؤدى إلى خصومة،والضحك والكلام بصوت مرتفع ، والكلام الكثير الذي يخلو من الفائدة ، والنوم لغير المضطر، وما إلى ذلك من الأمور التى تخل بحرمة المسجد وتتنافى مع سموه وجلاله.

ولكل فعل من هذه الأفعال المخلة بالأدب أحكام تتعلق بها، وهى تتفاوت فى الكراهة .

فيكون بعضها أشد من بعض ، منها ما يصل إلى حد الحرمة، وعليك بالرجوع إلى كتب الفقه الموسعة إن أردت المزيد من العلم.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٥٥) لا يطرقْ الغائبُ أهلَه لَيْلاً

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا أَطَالَ أحدُكُمُ الغَيْبَةَ فلا يطْرُقْ أَهْلَهُ لَيْلاً».

وفي رواية عنه - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قَدِمَ أحدُكُمْ ليلاً فلا يأتينَّ أَهْلَهُ طُرُوقاً، حتَّى تَسْتَحِدَّ المُغيبةُ وتَمْتَشِطَ الشَّعثةُ».

وفي رواية عنه - أيضاً - قال: «نهى رسول الله ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرجلُ أهلَهُ ليلاً؛ يَتَخوَّنُهُمْ أو يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ»(١).

* * *

التشريع الإسلامي منهج متكامل للحياة الفاضلة، لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج الناس إليه إلا شملها حكمه ووسعها بيانه.

فقد دخل هذا التشريع الحكيم في أخص خصوصيات المسلم، فَوَجَّهَهُ إلى ما فيه الخير له ولأسرته وللمجتمع كله، ونظَّم له السلوك العملي والمعنوي في شأنه كله.

ولقد كان أهل الكتاب والمشركون يعجبون كل العجب من سعة هذا التشريع ودقته، ومسايرته لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، حتى قال قائلهم لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة !!

نعم... لقد علمهم كل شيء بالقول والعمل، وهداهم إلى الصراط السوي في كل ما جَدَّ ويَجِدُّ من شئون الحياة بأسلوب واضح مشرق لا غموض فيه ولا تكلف، بحيث لا يستطيع منصف أن يقول في أي عصر: إن لديَّ مشكلة لم أجد لها حلاً في الإسلام،أو لم أجد فيه جواباً عن سؤال ملح أو حكم في قضية عاجلة،أو توجيه رشيد يرفع عنا الإصر ويدفع عنا الحرج. كلا، إنه بشيء من التدبر في القرآن والسنة يجد الحل والجواب والتوجيه ماثلا في ذهنه.

* * *

---

(١) الرواية الأولى: للبخاري في كتاب النكاح، باب ١٢٠: لا يطرق أهله ليلاً...، والثانية والثالثة: لمسلم في كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلاً، لمن ورد من سفر.

وهذه الوصية على بساطتها ووجازتها عالجت أمراً قد لا يأبه الناس به ولا يلتفتون إليه ولا يُعيرُون إليه أهمية، مع أنها في غاية الأهمية.

فهل يحب أحدنا أن يرى زوجته على صورة لا يرضاها، وهل هى تحب ذلك، فإذا كان الجواب بالنفى كان من الخير له ولها أن يتهيأ كل منهما للقاء الآخر على الوجه الذى يحبه ويرضاه.

وهل من اللائق بأهل الفضل والمروءة أن يطرق الرجل منهم باب بيته ليلاً والناس نيام، دون أن يُقَدِّمَ بين يدى ذلك رسولاً يخبرهم بقدومه قبل أن يجن الليل ويختلط، أو مكالمة تليفونية تدخل السرور على أهل بيته، وتجعلهم مُهيَّئِين لانتظاره حساً وروحاً.

وهل من الإسلام أن يَتَعَمَّدَ الرجل إتيان أهله ليلاً من غير سابق إنذار يبتغى بذلك مُبَاَغَتَتَهم تَخَوُّناً لهم، من غير أن تكون هناك دلائل تدل على انحرافهم عن السلوك السوى.

إن ذلك ليس من خُلق المسلم، ولا هو من طبع الكريم وسلوك الحليم؛ لأن الشأن فى الحياة الزوجية أن تبنى على الثقة والصدق والأمانة والإخلاص.

هذه مقدمة تكشف عن معانى هذه الوصية ومراميها، ولكن بالنظر الدقيق والتأمل العميق – نستطيع أن نتعرف على الكثير من الفضائل التى اشتملتها، والأحكام التى تضمنتها، والأبعاد التي تهدف إليها في صيانة المجتمع المسلم من الشبهات والوساوس والهواجس والخطرات المزعجة، فتعالوا بنا نلقى نظرة على هذه الوصية؛ لنأخذ من ألفاظها منطلقاً إلى فهم مراميها؛ فإدراك المعانى ليس كافياً فى فقه الكتاب والسنة، بل لابد من البحث فيما وراء المعانى من مقاصد لا تظهر إلا للمتأمل الفطن.

وقد قالوا: «إدراك المعانى فهم، وإدراك المرامى فقه».

والفقه: هو الإدراك الدقيق لما وراء معانى الألفاظ. فمن اعتمد على معانى الألفاظ وحدها فقد سفه نفسه وفَقَدَ حسه.

١ – قوله ﷺ: «إذا أطال أحدكم الغَيْبَةَ» يدل على أن هذه الوصية خاصة به دون من يتوقع حضوره فى أى لحظة وينتظر قدومه بالليل أو بالنهار، وتعرف

الزوجة الوقت الذى يأتى فيه غالباً ولو على وجه التقريب، فتكون مهيأة بطبعها إلى انتظاره، متحاشية ما يسوؤه منظره، ولكن على من كان هذا حاله أن يخبر أهله بقدومه ولو عندما يكون عند باب البيت بالوسيلة التى يراها مناسبة، حتى يتمكن أهل البيت من لقائه على الوجه الذى يحب.

أما من طالت غيبته فإنه ينبغى عليه ألا يفجأهم بقرع الباب، ولا سيما إذا كان الوقت ليلاً؛ فإن ذلك يزعجهم ويقلل من نسبة سرورهم بقدومه، ويعوقهم عن حسن لقائه، ويحرجهم إذا رأى فى البيت ما لا يحب أن يراه، أو يجد من زوجته ما لم يتعود أن يجده منها وهو حاضر معها.

ولسان الحال يقول: لماذا لم تخبرنا بقدومك، حتى نتهيأ للقائك، ونفعل ما تحب، ونتلاشى ما تكره.

وطول الغيبة ربما يجعل الزوجة فى حلٍّ من أخذ زينتها وتمشيط شعرها ونتف عانتها وإبطيها، فإذا علمت بقدوم زوجها قبل حضوره إلى بيتها بوقت كاف لإصلاح نفسها وإزالة شعثها - تضاعف سرورها به وسروره بها، وأطفأ كل منهما جذوة الفراق قبل العناق، ولا يكون هناك من الظواهر والمناظر مايطفئ نور الحب بينهما.

٢ - وقد علل النبى ﷺ هذه الوصية بتعليل يفهمه الناس جميعاً على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفهم فقال: «حتى تستحد المُغِيبَة وتمتشط الشَّعِثَةُ».

والاستحداد: هو حلق العانة بالحديدة، أى بالموسى ونحوها،وإزالتها بأى وسيلة.

والعانة: هى الشعر الذي فوق الفرج وحواليه.

وإزالة شعر الإبطين داخل في الاستحداد تبعاً.

والمُغيبَةُ - بضم الميم -: هى التى غاب عنها زوجها، ولا يقال لها ذلك إلا إذا طالت غَيبته، والطول أمر نسبى، يخضع لتقدير الناس فى العرف.

والشَّعِثَةُ - بكسرالعين - هى التى اغبرَّ وتَلَبَّدَ واتَّسَخَ شعر رأسها.

وليس هذا هو كل ما تفعله المرأة عند قدوم زوجها، بل هو الذى تبدأ به

قبل غيره، وكل لقاء له ما يناسبه، والحال في الحضر غير الحال فى البادية، والحال فى المدينة غير الحال فى القرية، وحال الزوج يختلف أيضاً من زوج إلى زوج ومن زوجة إلى زوجة، والحال أيضاً - يختلف من أسرة إلى أسرة، ومن عصر إلى عصر، فكان التعليل في الحديث مجرد مثال يُوَضِّحُ معنى الوصية، حتى لا يكون هناك لأحد تساؤل عن المراد منها.

وأسلوب النبى ﷺ فى الكلام حكيم، وتعليله للأحكام يرفع الإجمال ويدفع الإشكال.

ولا يقولَنَّ قائل: إن زوجتى تعتنى بنظافتها، وتهتم بترتيب بيتها وتحسين منظره، فلا داعى من التمسك بهذه الوصية؛ وقد قال علماء الأصول الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

نعم لا ينبغي أن يقول ذلك؛ لأن العلة ليست مقصورة على الاستحداد وتمشيط الشعر ونحو ذلك من تنظيف البيت وترتيبه وتجميله، ولكنه مجرد مثال كما ذكرنا، فمن تهاون في هذه الوصية فقد استخف بأدب من أعظم الآداب الأسرية.

٣ - وهناك أمر فى الرواية الثالثة يجب أن يوضع موضع الاعتبار،وهو قول جابر - رضى الله عنه -: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجلُ أهلَهُ ليلاً؛ يتخونهم أو يلتمس عثراتهم».

وذلك لا يليق بالمسلم - كما أشرنا فى المقدمة - إلا إذا بدت له من الأمارات ما يقوى هذا الظن، فإنه عندئذ يجب عليه أن يَتَتَبَّعَ أحوال زوجته؛ ليقطع الشك باليقين، ولكن دون أن يلتمس لها العثرات لإحراجها أو الإضرار بها على أى نحو من المضايقات.

ومن الأسباب التي نهى الرسول ﷺ الرجال عن طروق أهليهم ليلاً من غير إعلامهم أن الزوجة إذا رأت زوجها قد بغتها بالقدوم عليها فى وقت متأخر من الليل - ربما تظن أنه يَتَخَوَّنُهَا ويشك فى أمانتها وسلامة عرضها ، فينعكس هذا الشك على سلوكها معه وحديثها إليه، فيبادلها شكاً بشك، وتهمة بتهمة، وللشيطان حيل وخطوات في إفساد العشرة بين الزوجين والتفريق بينهما، وهو من

أعظم الأهداف لديه، وله سابقة السوابق في ذلك، فقد أخرج بوسوسته آدم وحواء من الجنة، وفَرَّقَ بينهما زمناً لا ندري أطال أم قصر.

٤ – وقد يقول قائل: لماذا انصب النهي على الطروق ليلاً مع أن الطروق بالنهار قد تكون له ما للطروق بالليل من سلبيات وإيجابيّات؟

أقول: إن التقييد بالزمن جرى مجرى الغالب فى أحوال الناس وأعرافهم، إذا قدم الرجل منهم ليلاً أن يخبرهم بقدومه قبل أن يطرق الباب؛ منعاً من الإزعاج الذي قد يؤدى إلى تلف فى الأعصاب وإحراج لمن في البيت، وهو عرف كان سائداً بين أصحاب المروءات، فاقره الإسلام ودعا إليه.

وكثيراً ما يكون التقييد للمطلق غير معتبر في تقرير الحكم، وإنما يأتى لتقرير الحال أو بيان الواقع أو بيان الغالب ونحو ذلك من الاعتبارات.

ومن ذلك نعلم أن الإخبار بالقدوم مستحب بالنهار أيضاً.

والمعول في ذلك العرف المتَّبع في البلد؛ منعاً للإحراج ودفعاً للشبهات وَتَوَقِّياً من مآخذ الناس ومعايبهم.

٥ – هذا.. ولا مانع لمن طالت غيبته أن يطرق بيته ليلاً من غير كراهة ما دامت هناك حاجة.

فعن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة، فَلَمَّا قَدِمْنَا المدينة ذَهَبْنا لنَدْخُلَ، فقال: «أَمْهِلُوا حتى نَدْخُلَ ليلاً – أى عشاءً – كى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ» (١).

مع أنه قد ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – «أن رسول الله ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غُدْوَةً أو عَشِيَّةً».

فالحديث الأول يدل: على جواز إتيان الأهل ليلاً من غير كراهة.

والثانى: يدل على الاستحباب إن أمكن ذلك بلا مشقة ولا مضرة.

والله أعلم

* * *

---

(١) رواه مسلم، فى كتاب الإمارة.

(١٥٦) إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليحدثْ بها. وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذْ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» (١) .

* * *

الرؤى والأحلام المنامية تصدر عن العقل الباطن إذا نام الإنسان نوماً عميقاً فتكون من المبشرات أو المحذرات، أو تكون تعبيراً عما يدور في خواطر الإنسان أثناء اليقظة أو تكون انعكاسات لما يفعله الإنسان فى ليله أو نهاره أثناء اليقظة، أو تكون مجرد تخيلات وإرهاصات نابعة من نفس مريضة تعانى من عقدة نفسية كالاكتئاب أو الوسواس القهرى أو الانفصام فى الشخصية ونحو ذلك.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما: « الرؤيا من الله، والحُلم من الشيطان ».

والفرق بين الرؤيا والحُلم أن الرؤيا يراها الإنسان السوى فلا ينسى منها شيئاً إذا استيقظ ، ولا تكون تعبيراً عن أحداث حدثت له فى اليقظة أو أمور يعانى منها ويفكر فيها.

والحُلم هو ما يراه النائم ولا يذكر أحداثه كلها إذا استيقظ.

وإذا كانت هذه الأحداث التى رآها غير متتابعة وليس بينها رابط يربط بعضها ببعض فإنها تكون من باب أضغاث الأحلام.

والرؤيا من الله عز وجل تبشر الرائى أو تحذره أو تفسر له أمراً غامضاً أو ترشده إلى ما ينبغى فعله أو تركه.

---

(١) أخرجه البخارى ، كتاب التعبير ، باب الرؤيا من الله ، ٣ .

فمن رأى رؤيا أعجبته وأحبها وتمنى أن تقع فعليه أن يحمد الله عليها حمداً كثيراً ويثنى عليه بما هو أهله فإنها نبوءة أنعم الله بها عليه تبشره بخير قادم .

ويستحب أن يحدث بها من يحبه ويثق فيه ويعرضها على من يحسن التعبير.

وقد دلت الأحاديث المروية على أن الرائى إذا رأى فى منامه رؤيا طابت بها نفسه فليكثر بعد حمد الله تعالى من الصلاة والسلام على النبى ﷺ، ولا يتعجل وقوع رؤياه فإن لكل أجل كتاب، وليكثر من التوبة والاستغفار ؛ فإن الذنوب منأّعة للخير موجبة للهلاك .

وعليه أن يأخذ بالأسباب في تحقيق رؤياه على النحو الذى فسّرت به، فعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب .

وليكثرمن الصدقات؛ فإن الصدقات تفرج الكرب وتدفع الشر وتطفئ غضب الرب تعالى .

* * *

« وإذا رأى غير ذلك » أى رأى ما لا يحبه ولا يستبشر به فليعلم أنها من الشيطان ، وتسمى هذه الرؤيا حُلماً .

والشيطان يُرِى الإنسان فى منامه ما يحزِنه ، فلا يعبأ بهذه الرؤيا المشوشة للعقل والقلب وليستعذ بالله من شرها بقلبه ولسانه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ [1] .

ولا يذكر رؤياه هذه لأحد فإنها لا تقع إن شاء الله، لأنه استعاذ بالله عز وجل ومن استعاذ به أعاذه ومن اعتصم به عصمه مما يكره .

* * *

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ .

هذا هو شرح الحديث إجمالاً .

وهناك آداب أخرى يستحب أن يراعيها من رأى رؤيا ساءته بينتها الأحاديث الآتية :-

روى مالك بسنده عن أبى قتاده بن ربعى يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الرؤيا الصالحة من الله، والحُلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم الشيء يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ، وليتعوّذ بالله من شرها فإنها لن تضره إن شاء الله » .

قال أبو سلمة : إن كنت لأرى الرؤيا هى أثقل علىّ من الجبل، فلما سمعت هذا الحديث فما كنت أباليها » .

وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة الطويل أن النبى ﷺ قال : « والرؤيا ثلاث، فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس » .

وروى مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وليتحول عن جنبه الذى كان عليه » .

ويفهم من هذه الأحاديث : أنه من رأى رؤيا مزعجة يفعل خمسة أمور :

الأول : أن ينفث عن يساره ثلاث مرات، أو يتفل أو يبصق، والنفث هو نفخ لطيف بلا ريق، والتفل : نفخٌ مع ريق يسير، والبصق : إخراج ريق كثير، فأى واحد من هذه الثلاثة يجزؤه، وفى هذا النفث أو التفل أو البصق تحقير وتوبيخ للشيطان .

الثانى : التعوُّذ من الشيطان ثلاثاً، ولا تكفى المرة الواحدة؛ لأن المرة الواحدة لا يحضر بها القلب غالباً، ونحن إنما نستعيذ بالله بقلوبنا وألسنتنا معاً .

قال الشيخ « محمد زكريا » فى كتابه النفيس أوجز المسالك إلى موطأ

مـالك» : قـد ورد فى صـفـة الـتـعوذ من شـر الرؤيا أثر صـحـيح أخـرجه سـعـيـد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد الرزاق بأسانيد صحيحة عن إبراهيم النخعى قال : «إذا رأى أحدكم فى منامه ما يكره، فليقل إذا استيقظ : أعوذ بما عاذت به ملائكة الله ورسله من شر رؤياى هذه أن يصيبنى فيها ما أكره في دينى ودنياى» .

الثالث : أن يتحول على جنبه تفاؤلاً بأن يحوّل الله حاله إلى أحسن حال .

الربع : ألا يحدِّث بها أحداً حتى يظلَّ طامعاً فى أن تكون أضغاث أحلام إذ لو حدّث بها ففسرت له ربما يصاب بغم .

الخامس : أن يقوم فيصلى ما شاء الله أن يصلى حتى يذهب عنه ما يجده .

هذا وبالله التوفيق

* * *

(١٥٧) بَلِّغُوا عَنِّى ولو آية

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «بَلِّغُوا عني ولو آيةً، وحَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومن كذب عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبوأْ مقعده من النَّار» (١) .

* * *

بعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام مُعَلِّماً لأصول الدين، الذى ارتضاه لعباده وفطرهم عليه، ومُتَمِّماً لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ومزكياً للنفوس الأمارة بالسوء، ورادّاً لها عن غَيِّها إلى الصراط السوى، صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض، ومُطَهِّراً للقلوب من كل ما يعكر صفوها ويؤثر على سلامتها.

قال تعالى: ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٢) .

والأميون هم العرب ، سُمُّوا بذلك إما لأن أكثرهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون، أو لأنهم ليسوا أهل كتاب، أو لأنهم منسبون إلى إبراهيم عليه السلام، وقد قال الله فيه: ﴿ إن إبراهيم كان أُمَّةً ﴾ (٣) أو لأنهم أصول الناس وأشرافهم؛ فأم الشيء: أصله.

والمراد بالآيات فى الآية : القرآن.

والمراد بالتزكية: التطهير والتنقية من الرذائل والتحلى بالفضائل.

والمراد بالكتاب: ما قدره الله على الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿ وعنده علم الكتاب ﴾؛ لأننا لو فسرنا الكتاب هنا بالقرآن لأدى ذلك إلى التكرار.

والمراد بالحكمة: القول السديد ووضع الشيء فى موضعه، وهذا أولى من

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل.
(٢) الجمعة: ٢. (٣) النحل: ١٢٠.

تفسير الحكمة بالسنة؛ لأن السنة بيان للكتاب، فهو ﷺ يتلو عليهم آياته مع بيان معانيها ومقاصدها ومراميها.

هذا المعلم العظيم لابد أن يكون حوله من يتلقى عنه العلم ويتفقه في الدين.

وهؤلاء عليهم أن يحفظوا ما سمعوا ويعوه جيداً، ويفقهوه على النحو الذى يحبه الله ورسوله، ويعملوا به بقدر طاقتهم البشرية، ثم يقومون بتبليغه لمن لم يسمعه منه ولمن جاء بعدهم على سبيل الوجوب بمقتضى هذا الحديث.

ومن لم يفعل استحق من الله العذاب.

قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّنَّاه للناس فى الكتب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (١).

وهذا الوعيد وإن كان قد نزل فى أهل الكتاب فإنه يشمل بعمومه كل من كتم ما أنزل الله من البينات والهدى.

وهذه الوصية الجامعة لكثير من خصال الخير واضحة المعالم، بَيِّنة المعانى والمقاصد، ولكن النظر فيها بشيء من العمق فى التأمل يزيدنا فهماً على فهم وفقهاً على فقه، فتعالوا بنا ننظر فيها نظرة نستشف من خلالها ما وسعنا أن نستشفه ونستخلصه بعقولنا القاصرة ونظرنا المحدود.

* * *

قوله ﷺ: «بَلِّغُوا عنى ولو آية» أى: أخبروا بما سمعتموه منى، أو رأيتمونى أفعله - مَن وراءكم ممن لم ير ولم يسمع منى ما رأيتموه وسمعتموه؛ فإن ذلك واجب من أعظم الواجبات التى ينبغى عليكم وعلى كل من سمع منكم أن يقوم بها.

---

(١) البقرة: ١٥٩ - ١٦٠.

والمراد بالآية: الآية القرآنية كما هو ظاهر؛ لأن القرآن هو الكتاب الذى بَيَّنَ الله فيه لعباده كل شيء يحتاجون إلى بيانه، فكان تبليغه فرضاً مقدساً على كل من حفظ منه شيئاً ولو آية.

والسنة داخلة فى هذا الأمر بوصفها بياناً للقرآن، ولا يجوز فصل المُبَيِّن عن المُبَيَّنِ، بل إن الكتاب والسنة أصل واحد كما يرى كثير من الفقهاء؛ نظراً لتلازمهما.

فقوله: «بلغوا عنى ولو آية» يشمل بعمومه القرآن والسنة معاً.

وفى قوله: «ولو آية» قطع لعذر من حفظ شيئاً ولم يبلغه، فلا يقولن قائل: ليس عندى من القرآن شيء يذكر، ولا شيء من الحديث يستحق أن يروى؛ فإن من كان معه آية واحدة وجب عليه أن يقرأها على الناس، ومن كان معه حديث واحد – وجب عليه أن يحدث به.

ومن هنا وجد أصحاب النبى ﷺ أنفسهم أمام هذا الواجب وجهاً لوجه، فقاموا به خير قيام، ونهضوا بهذه التَّبِعة الثقيلة بقدرة فائقة، صارت موضع الإعجاب فى كل عصر.

فمن تتبع سيرتهم، عرف أنهم لم يكتموا شيئاً سمعوه من الرسول ﷺ، ولا شيئاً رأوه يفعله أو عرفوه من خلال حركاته وسكناته وإشاراته وإيماءاته، فقد رووا ذلك كله بأمانة لم يعرف لها مثيل؛ فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وقد كان الرجل منهم وهو على فراش الموت يُفَتِّشُ فى قلبه عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ؛ ليبلغه لمن حوله لكى يتحلل من هذه التبعة، ويتوقى شر الوعيد المترتب على كتمان ما علمه من الدين كتاباً وسنة.

قال أبو هريرة رضى الله عنه كما روى البخارى: لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى..﴾ الآية.

وأبو هريرة وغيره من أصحاب النبى ﷺ يعرفون أن هذه الآية عامة فى أهل الكتاب والمسلمين جميعاً، ومعهم على هذا العموم دليل، فقد ورد فى الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبى هريرة رضى الله عنه وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «من سُئِل عن علم فكتمه ألجِمَ يوم القيامة بلجام من نار».

وقد دعا النبى ﷺ لمن سمع منه فوعى ما سمع وبلَّغَهُ كما سمع، فقال: «نَضَّرَ الله امرأً سَمِعَ مَقَالَتِى فَوَعَاهَا وحَفظَهَا وبَلَّغَهَا؛ فَرُبَّ حَامِلِ فقْه إلى من هو أَفْقَهُ منه، ثَلاَثٌ لا يُغَلُّ عليهن قَلْبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العَمَلِ للَّه، ومناصَحَةُ أئمةِ المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنَّ الدعوة تُحِيطُ من ورائهم» (١).

ومعنى نَضَّرَ - بتخفيف الضاد وتشديدها - أى بَيَّضَ وجهه وأظهر عليه آثار نعمته، كما قال تعالى: ﴿تعرف فى وجوههم نضرةَ النعيم﴾ (٢)، وقال جل شأنه: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (٣).

والمقالة: ما يتلفظ به المرء من قول.

ومقالة الرسول ﷺ وحى من الله إليه، يجريه على لسانه، فيبلغه كما هو بمعناه وإن كانت ألفاظه من عنده.

ومعنى قوله: «فوعاها وحفظها» أى: فهمها فهماً صحيحاً، وحفظ ألفاظها، فاجتمع لديه فهم وحفظ، ومن خلال الفهم والحفظ يتأتى الفقه، وهو أعم من الفهم، فكل فقه فهم، وليس كل فهم فقه.

وقد قلت فى أصول التفسير: إدراك المعانى فهم وإدراك المرامى فقه.

ولذا قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى أخرجه البخارى فى صحيحه: «من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين». يعنى: يعطيه فهماً دقيقاً فى معانيه ومقاصده وأسراره.

وقوله ﷺ: «وَبَلَّغَهَا» شرط فى هذه الدعوة المباركة، فلن ينضر الله وجه

---

(١) رواه الترمذى فى سننه، كتاب العلم، باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع، عن عبد الله بن مسعود.

(٢) المطففين: ٢٤. (٣) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

امرئ يكتم العلم، والعلماء ورثة الأنبياء - كما نعلم -، وهم امتداد لهم فى الدعـوة إلى الله عز وجل ، فلابد أن يُبَلِّغُوا ما سمعوه ، وأن يذكروا ما فهموه مما سمعوه.

وقوله ﷺ : «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» يدل على أن الناس متفاوتون فى الفقه، فقد يحمل الفقه غير فقيه، فيبلغه إلى من هو أشد منه فهماً لما بلغه، فيعطيه من فقهه فى مقابل ما بَلَّغَهُ، فينتفع كل منهما بالآخر، فهذا نقل وذاك فقه، فتعلم الفقيه من الأدلة ما يعينه على استنباط الأحكام العقدية والفقهية واستلهام القواعد الأخلاقية فأفاض على المُبَلِّغ من فقهه ما يزداد به وعياً فى أمور دينه ودنياه.

وهكذا يكون التعاون في طلب العلم. والعلم هو الأصل الأصيل فى تحصيل الإيمان وزيادته شيئاً فشيئاً حتى يكتمل؛ فلا إيمان بلا علم.

قال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (١) .

يروى أن رجلاً استفتى الإمام مالكاً فى مسألة فقال: حلفت بالطلاق ثلاثاً أن البلبل لا يكف عن التغريد، فأفتاه بأن امرأته قد بانت منه؛ لأن البلبل يغرد حيناً ويسكت حيناً، فولى الرجل حزيناً فلقيه الشافعى - رضى الله عنه - فسأله عن سبب حزنه فأخبره، فأفتاه أن امرأته لا تزال فى عصمته، فذهب الرجل إلى مالك وأخبره بأن تلميذاً من تلاميذه أفتاه بعدم وقوع الطلاق، فقال مالك: لعله المُطَّلبِىّ - يعنى الشافعى ؛ لأنه منسوب إلى بنى عبد المطلب من قريش - فقال الرجل: نعم، هو المطلبى.

فلما حضر الشافعى درس الإمام مالك قال: يا محمد، بم أفتيت الرجل فى مسألة الطلاق؟ - أى بأى دليل قلت له ما قلت؟ - .

قال: بحديث أنت رويته لنا، وهو حديث فاطمة بنت قيس، فقد جاءت تستشيره ﷺ فى رجلين خطباها: معاوية وأبو جهم ، فقال لها الرسول ﷺ : «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه».

---

(١) محمد: ١٩.

والرجل يضع العصا حيناً على عاتقه ويضعها حيناً عن عاتقه، فأخبر النبى ﷺ بغالب أحواله ، وهكذا الرجل أخبر بغالب أحوال البلبل ، فهو فى الغالب لا يكف عن التغريد، فقست حال هذا الحالف بحال صاحب العصا، فأعجب مالك رضى الله عنه بقول الشافعى ووافقه عليه ودعا له بالخير.

فكان الشافعى فى حديث فاطمة بنت قيس أفقه من راويه.

وقوله ﷺ : «ثلاث لا يُغَلُّ عليهن قلب مسلم» معناه : لا يغلق عليهن ولا يقيد عن الإفصاح بهن وبذلهن لعامة المسلمين وخاصتهم.

فهذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الشر.

والإخلاص لله: التوجه إليه وحده بالعبادة وسائر الأعمال الصالحة.

ومناصحة الأئمة: إسداء النصح لهم وقبول النصح منهم.

والأئمة: هم الحكام ومن فى حكمهم من الحواشى والأتباع.

ولزوم الجماعة معناه: العمل الصالح النافع للجماعة والتعاون معهم على البر والتقوى.

فإن ذلك يحيط بمن وراءهم، بمعنى : أنه ينفعهم وينفع من يجىء بعدهم؛ فالسلف قدوة للخلف.

هذا ما وسعنى أن أكتبه فى الجزء الأول من هذه الوصية وهو قوله: «بلغوا عنى ولو آية».

* * *

وأما قوله ﷺ : «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» يعنى: قصوا على الناس ما وقع لبنى إسرائيل من الأمور العجيبة والأحداث الغريبة؛ للعظة والعبرة وأخذ الحيطة مما وقعوا فيه من المعاصى التى كانت سبباً فى إهلاك الكثير منهم ومسخ بعضهم قردة وخنازير.

وقيل: حدثوا عما كان منهم من المحاسن الخلقية والمكارم الإنسانية.

ولا مانع أن يكون المراد هذا وذاك معاً؛ فإن لبنى إسرائيل محاسن ومساوى، فكان منهم الصالح ومنهم دون ذلك.

وقيل : المعنى حدثوا عن بنى إسرائيل بما صح عنهم لا بما ثبت كذبه.

وقيل : المعنى حدثوا عنهم بما يوافق كتاب الله تعالى.

ومعنى قوله ﷺ : «ولا حرج» لا تضييق عليكم فى ذلك؛ فهم أهل كتاب وأصحاب رسالات سماوية ، وفى كتبهم خير كثير ، وعند علمائهم أخبار توارثوها من آبائهم وأجدادهم، وفيهم حكماء ينطقون بالحكمة والقول السديد، فلا يضرنا أن نتحدث عنهم ونأخذ منهم ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

أما غير أهل الكتاب كالمجوس والهندوس والزنادقة فلا يجوز لنا أن نحدث عنهم إلا بالقدر الذى ينفعنا ولا يخالف ديننا.

وقيل: «لا حرج» أى لا ينبغى أن تضيق صدوركم بما تحدثون به أو تسمعون عنهم من الجرائم والمساوى والأعاجيب التى خرجوا بها عن دائرة الأديان السماوية.

وقيل: لا حرج فى ألا تحدثوا عنهم؛ فإن فى كتاب ربكم وسنة نبيكم غنىً عن أخبارهم، ولولا العظة والعبرة ما ذكر الله شيئاً منها.

والأمر بالتحديث للإباحة. فمن شاء حدث عنهم، ومن شاء لم يفعل.

وصفوة القول فى هذا: أن الحديث عن بنى إسرائيل ينبغى أن يقتصر فيه على ما تدعو الحاجة إليه من غير إفراط؛ لأن الإفراط فى الحديث عنهم يشغل المسلمين عن كتاب ربهم – عز وجل – وعن سنة نبيهم ﷺ.

والإسرائيليات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما علمنا صحته مما بأيدينا من القرآن والسنة.

والقرآن هو المهيمن على جميع الكتب السماوية، وشاهد على صدقها.

ودليل قاطع على ما وقع فيها من تحريف؛ فإنه قد صحح هذا التحريف وأعاد لهذه الكتب السماوية جلالها ومصداقيتها.

وتعاونت السنة مع القرآن فى بيان ما غمض على الناس فهمه مما ورد من أخبار عن بنى إسرائيل ومن كان قبلهم.

قال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أُمَةً واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستَبِقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (١).

وهذا القسم الموافق للكتاب والسنة صحيح على الجملة مقبول لا يستحب رده، وفيما لدينا غنىً عنه بحمد الله تعالى، ولكن يجوز لنا ذكره للاستشهاد به ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم ومما جرى على ألسنة أحبارهم ورهبانهم.

وذلك مثل ما ورد فى كتبهم من أوصاف النبى ﷺ والتبشير بقدومه والإخبار بما سيُوَاجَهُ به من أهل الكفر والضلال، وغير ذلك من الأمور التى أخبروا بها فكانت حجة عليهم.

وفى هذا القسم ورد هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه وإيضاح معناه.

القسم الثانى: ما علمنا كذبه مما عندنا من الكتاب والسنة.

وذلك كأن تكون الأخبار الواردة عنهم تؤدى إلى الطعن فى الأنبياء، أو تشكك فى العقيدة بما فيها من شبهات وخرافات وأساطير.

وهذا القسم لا تجوز روايته؛ لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك بقوله: «يا معشر المسلمين: كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذى أنزل على نبيه - ﷺ - أحدث، تقرأونه لم يُشَب (٢) وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب

---

(١) المائدة: ٤٨ - ٤٩.

(٢) لم يختلط بغيره.

الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم» (١) .

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا، ولا من ذاك، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، لاحتمال أن يكون حقاً فنكذبه، أو باطلاً فنصدقه، ويجوز حكايته لما تقدم من الإذن فى الرواية عنهم.

ولعل هذا القسم هو المراد بما رواه أبو هريرة، قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله - ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم» (٢) .

ومع هذا فالأولى عدم ذكره، وأن لا نضيع الوقت فى الاشتغال به.

وفى هذا المعنى ورد حديث أخرجه الإمام أحمد، وابن أبى شيبة، والبزار من حديث جابر: أن عمر أتى النبى - ﷺ - بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل، فتصدقوا به، والذى نفسى بيده، لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى».

قال ابن بطال عن المهلب: «هذا النهى فى سؤالهم عما لا نص فيه؛ لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، ولا يدخل فى النفى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة» (٣) .

* * *

(١) صحيح البخارى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) باب قول النبى - ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء».

(٢) صحيح البخارى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)، باب: «قولوا آمنا بالله».

(٣) فتح البارى ج ١٣ ص ٢٨٤، ٢٨٥.

وقوله - ﷺ -: «ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» بعد قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» يعطينا معنى يغيب عن الكثير من أهل العلم، وهو أن أكثر الأحاديث الواردة عن الصحابة والتابعين عن أخبار أهل الكتاب ومن سبقهم من الأمم فيها كذب أو خلط أو مبالغات تنكرها العقول أو تنكر بعضها.

فقال: «ومن كذب على ... إلى آخره» لتحذير من يروى عنه من الخلط بين ما يقوله هو وما يقوله أهل الكتاب، فإن هذا الخلط يعرض الرواة إلى عذاب شديد فى نار جهنم وبئس المصير.

ولذلك وجدنا أصحاب النبى - ﷺ - يحتاطون لأنفسهم فلا يحدثون الناس إلا بما تأكدوا أنهم سمعوه من الرسول - ﷺ - مشافهة، أو سمعوه ممن سمعه منه وكان عندهم ثقة عدلاً.

وهكذا كان التابعون المشهورون بالصلاح والتقى والثقة والضبط والعدالة والخبرة بنقد الرجال، والمعرفة بشروط صحة الحديث سنداً ومتناً.

والمعنى المتبادر إلى الذهن من أول وهلة هو: أنه من ذكر للناس حديثاً زعم أنه روى عن الرسول - ﷺ - فليتخذ له فى النار مقراً يستقر فيه ومأوى يأوى إليه.

وكل من المعنيين صحيح. فالكذب هو الكذب.

ثم إن الكذب أنواع: أكبرها الكذب على الله - عز وجل -، والكذب على رسول الله - ﷺ -، ثم الكذب فى الرؤيا، ثم الكذب فى البيع والشراء ... إلى آخر ما هنالك من الأنواع التى ذكرتها فى كتابى عدة الخطيب والواعظ.

وبعد فإن هذه الوصية من الوصايا التى ينبغى على الفقهاء والمحدثين والمفسرين أن يأخذوها مأخذ الجد والاعتبار فيأتمروا بما أمرهم الرسول - ﷺ - به على سبيل الوجوب، وهو: تبليغ ما سمعوه منه مباشرة، أو بطريق السند المتصل،

وما أمروا به على سبيل الإباحة ، وهو : التحديث عن بنى إسرائيل على النحو الذى بيناه، ويكفوا عن رواية الأحاديث الموضوعة؛ فإن من روى المكذوب كان كاذباً وأدخل النار مع من افتراه، ويكفوا كذلك عن ذكر أخبار بنى إسرائيل إذا كانت مخالفة للكتاب والسنة وفيها شبهات تزعزع العقيدة أو تؤدى إلى الطعن فى الأنبياء.

وبذلك نكون قد أدينا واجبنا وقمنا بما فرض علينا ، وكنا على ثقة مما نسمع ومما نقول.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٥٨) عليكم بالسَّكِينة

عن أبى قتادة – رضى الله عنه – قال : «بينما نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ سمع جلبة الرجال فلما صلى قال : ما شأنُكم؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة، قال : فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسَّكِينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتموا» (١) .

* * *

كان أصحاب النبى ﷺ – ولا سيما المقربون منهم – من أشد الناس حرصاً على حضور الصلاة فى المسجد وتأديتها بخشوع وخضوع خلف الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإذا أقيمت الصلاة هُرعوا إليها متسابقين ، فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك؛ لأن الصلاة إنما تقوم على الخشوع، والخشوع يتطلب استعداداً مسبقاً يتمثل فى السكينة التى ينبغى أن يتحلى بها المسلم فى عباداته كلها ولا سيما الصلاة.

وكان بعض الناس يخشون أن تفوتهم مع النبى ﷺ ركعة فيأتون إلى المسجد مهرولين يقولون : فاتتنا الصلاة، أو نخشى أن تفوتنا الصلاة، أو يقول بعضهم لبعض: أسرع بنا لندرك الصلاة من أولها مع رسول الله ﷺ، فيحدثون الضوضاء فى المسجد بأصواتهم وحركات أقدامهم، ويشغلون المصلين عن صلاتهم، ويفوتون عليهم الخشوع والطمأنينة، فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والقول السديد، وردّهم إلى التعقل فى الأمور والتزام التوازن عند الإتيان إلى الصلاة.

فللصلاة حرمة، وللمسجد الذى تقام فيه الصلاة حرمة، ولرسول الله ﷺ حرمة، وكذلك الإمام الذى يؤم الناس فى الصلاة له حرمة، والناس الذين يصلون ينبغى ألا يشغلهم عن صلاتهم شاغل، فاقتضى ذلك كله أن يأتى المسبوق إلى

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الأذان : باب قول الرجل فاتتنا الصلاة، ٢٠ .

الصلاة يمشى مشياً معتاداً لا مسرعاً ولا مبطئاً؛ لقوله ﷺ فى حديث آخر: «لا تأتوا الصلاة وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار».

والسعى هو المشى بشىء من الإسراع، وهو منهى عنه نهى كراهة لا نهى تحريم إلا إذا كان المؤذن قد أذن للجمعة فإنه ينبغى السعى حينئذ بهمة ونشاط؛ ليدرك الخطبة من أولها.

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودىَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (١).

ونحن إذ نتلقى هذه الوصية الغالية من رواتها الأخيار ينبغى أن نضعها موضع الاعتبار، حتى نحتفظ لأنفسنا بالسكينة والوقار، ونشعر بأننا قد سمعنا وأطعنا شأننا فى ذلك شأن كل مسلم يلتزم الأدب مع الله ومع رسوله عليه الصلاة والسلام، ويعظم فى نفسه شعائر الله؛ فإن تعظيمها برهان على تقوى القلوب.

* * *

وتعالوا بنا نطل على هذه الوصية إطلالة أخرى لنتعلم منها ما لم نكن نعلم فنقول:

راوى هذا الحديث أبو قتادة، واسمه الحارث بن ربعى الأنصارى فارس رسول الله ﷺ، ومن خيرة رجاله، شهد مع الرسول عليه الصلاة والسلام غزوة أحد وما بعدها من الغزوات، وقيل شهد بدراً - أيضاً - وكان النبى ﷺ يحبه ويدعو له (٢).

يروى هذا الصحابى الجليل أنه كان يصلى خلف النبى ﷺ فسمع النبى جلبة رجال، أى: سمع جمعاً منهم يرفعون أصواتهم، فلما فرغ قال: «ما شأنكم؟» أى ما الحال الذى دعاكم إلى القيام بهذا الصخب؟. وهو سؤال يترتب عليه ما بعده، قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. أى: تعجلنا إليها خوفاً من

---

(١) سورة الجمعة: آية ٩.

(١) انظر ترجمته فى الإصابة جـ ٧ ص ١٥٥.

فوات شيء منها بناء على أن السين والتاء للمبالغة، ويحتمل أن يكون السين والتاء للطلب، أي: طلب كل من أخيــه أن يتعجل إلى الصــلاة؛ وذلك من باب التواصى بالحق فى ظنهم.

فقال لهم الرسول ﷺ ناصحاً ومعلماً: «فلا تفعلوا» أى: قد علمت ما أردتم فلا تعودوا لمثلها؛ فالفاء داخلة على جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام.

وأوصاهم بقوله: «إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

والصلاة لفظ يطلق ويراد به أحياناً المسجد، سمى بها لأنه مكانها.

والمتبادر أنها الصلاة التى تؤدى فى جماعة، والمعنيان مرادان فى هذه الوصية.

أى: إذا جئتم المسجد من أجل الصلاة فعليكم بالسكينة، أى: الزموها لزوماً تاماً كما يشعر به هذا الأسلوب؛ فهو أسلوب إغراء.

وقد ورد «فعليكم السكينةَ» - بفتح التاء - من غير حرف جر، والنصب فيه على الإغراء.

وورد: «عليكم السكينةُ» - بضم التاء - على أنها جملة من مبتدأ وخبر المعنى على هذه الرواية: إذا أتيتم الصلاة فأتوها والسكينة كائنة عليكم.

والسكينة - كما أشرنا - هى سكون النفس وطمأنينة القلب، والمشى فى تؤدة واتزان مع الثقة بقضاء الله وقدره، فما قدر الله لا بد من نفاذه، فإذا قدر لإنسان أن يدرك الصلاة كلها أو يدرك بعضها فلا بد من إدراكه على النحو الذى أراده الله وقدره فلماذا الإسراع والصخب.

وعلى العبد أن يسارع إلى الصلاة قبل النداء إليها إن كان يريد أن يكون من السابقين إلى الخيرات.

فإن لم يسرع إليها قبل الأذان فليبادر إليها قبل الإقامة بوقت كاف.

ولا ينبغي أن يراوغ ويشغل نفسه عنها بفعل كذا وكذا حتى إذا أقيمت أسرع إليها كالمجنون.

إن هذا لا يليق أبداً بالمسلم الذى يحب الصلاة.

لقد كان النبى ﷺ يقول لبلال: «أرحنا بها يا بلال»؛ وذلك لأنها هى الروح والريحان.

وكان يقول: «حُبب إلىّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(١). أى لم يشغلنى أمر النساء ولا أمر الطيب والزينة ولكن الذى يشغلنى حقاً هو الصلاة، فهى متعة القلب وقرة العين، هى أنسى وسلواى، هى دنياى وآخرتى، هى مبلغ همى ومنتهى بغيتى.

والمسلم الذى يتعلق قلبه بالمساجد هو الذى يأتى إلى الصلاة مبكراً؛ ليسعد بانتظارها، ويدرك الصف الأول؛ فأنه خيرالصفوف وأفضلها. ولو علم الناس ما فى الصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا. كما قال رسول الله ﷺ (٢).

وأفضل الناس رجل قلبه معلق بالمساجد، فهو من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

يقول الله عز وجل: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم﴾ (٣).

ومن طريف ما يحكى عن أولئك الأخيار أن أخوين قد ماتا فى يوم واحد، فحفر الحفار لهما قبرين ودفن كل واحد منهما فى قبره. فلما نام الحفار رأى فى منامه هذين الرجلين على هيئة غاية فى الحسن.

رأى الأول قد جاءه الحور والولدان فأركبوه مركبة خضراء وزفوه إلى الجنة.

ورأى الثانى قد جاءه الحور والولدان فزفوه ماشياً.

فلما أصبح ذهب إلى أمهما فقال بعد أن عزاها فيهما: جئت أسألك عن

---

(١) رواه النسائى فى كتاب عشرة النساء ١، وأحمد بن حنبل فى مسنده ح رقم ١٢٩٩١، ١٢٢٣٤، ١٢٢٣٣.

(٢) رواه البخارى وغيره. (٣) الواقعة: ١٠ – ١٢.

ولديك هذين ماذا كان حالهما؟، فبادرته المرأة بقولها: أجئت تسألني عن الراكب أم عن الماشي؟

فتعجب الحفار من قولها وقال: ذرية بعضها من بعض، ثم قال: جئت أسألك عن الراكب والماشي.

قالت: أما الراكب فكان يأتي إلى المسجد قبل الأذان.

وأما الماشي فكان يأتي إلى المسجد بعد الأذان.

فانظر يا أخي - هداك الله - في هذه القصة وخذ منها العظة والعبرة، وأقبل على بيوت الله بقلبك وقالبك، واعتكف فيها ما استطعت، وواظب على حضور الجماعات، وانتظر الصلاة قبل وقتها حتى تكتب من المرابطين في سبيل الله.

وقد وردت في فضل الإتيان إلى المساجد والمكث فيها لانتظار الصلاة أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم في صحيحه والترمذي في جامعه وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟

قالوا: بلى يا رسول الله!

قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط».

وقد جاء في صحيح البخاري وغيره في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «... رجل قلبه معلق بالمساجد» فهو يرتادها كثيراً، ويعظمها في نفسه، ويحب المكث فيها أوقات فراغه، ذاكراً لله وتالياً للقرآن، ومصلياً من النوافل ما شاء الله أن يصلي.

وقد أثنى الله في كتابه العزيز على هؤلاء بقوله: ﴿في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (١).

---

(١) النور: ٣٦ - ٣٨.

فالصلاة جهاد للنفس والشيطان، فمن جاهد نفسه وشيطانه فقد فاز فوزاً عظيماً بثواب الدنيا وثواب الآخرة ، والله عنده حسن الثواب.

وقوله ﷺ في هذه الوصية: «فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا» معناه ظاهر، أي صلوا ما أدركتموه من الركعات واقضوا ما فاتكم من الصلاة، ولا تحزنوا على ما فات فهذا قدر الله.

والقاعدة الإيمانية تقضى بتسليم الأمر إلى الله فى كل شىء وعدم الندم على شىء لم يدركه الإنسان؛ فإن الندم يثبط الهمم ويضعف العزائم ويتنافى مع التوكل على الله عز وجل.

وقد جاء الحديث الصحيح: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجِزْ، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

وقد سبق شرح هذا الحديث وبيان قواعده الإيمانية فراجعه فى الجزء الأول[2].

والله هو الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

---

(١) رواه مسلم فى كتاب القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم: ٢٦٦٤.
(٢) وصية رقم ٢.

(١٥٩) كلوا واشربوا

قال النبى ﷺ : «كلوا واشربوا، والبسوا، وتصدقوا، فى غير إسراف، ولا مخيلة» (١) .

* * *

أحل الله لعباده الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، ووضع عنهم ما يثقل عليهم فعله. فقال: ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين ﴾ (٢) .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل: ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٤) .

وهذه الوصية ترجمة وبيان لمعانى هذه الآيات وما يماثلها، فقد أباح النبى ﷺ ما أباحه الله لعباده فقال: « كلوا واشربوا والبسوا » وأمرهم بالصدقة على سبيل الوجوب؛ لإن الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع عن الإنسان غائلة البخل، وتقيه عذاب النار، كما سيأتى بيانه.

وهذه الوصية تفصح عن سماحة الإسلام ويسره ، ورفع الحرج عن معتنقيه، ودفع السوء عنهم بما تجود به أنفسهم.

ولنا فيها نظرات نكشف بها عن بعض ما يتعلق بها من أحكام شرعية، ولطائف بيانية، نحن فى حاجة إليها.

* * *

---

(١) أخرجه البخارى تعليقاً، أى من غير ذكر السند ، فى أول كتاب اللباس. قال العينى فى عمدة القارى: هذا التعليق فى رواية المستملى والسرخسى فقط ولم يذكر فى رواية الباقين، ووصل هذا التعليق ابن أبى شيبة عن يزيد بن هارون عن همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) البقرة: ١٦٨ . (٣) البقرة: ١٧٢ . (٤) الأعراف : ٣١ – ٣٢ .

قوله ﷺ : «كلوا واشربوا والبسوا» أى كلوا ما شئتم من الحلال الطيب. فهو أمر عام، مخصوص بما أحله الله كما هو مفهوم من القرآن والسنة.

وهذا الأمر يقتضى ثلاثة أمور متلازمة:

الأول :أن يكون المأكول، والمشروب، والملبوس من الحلال الطيب، كما ذكرنا ، بشرط أن يكون نافعاً، ولائقاً، ومناسباً.

فالمريض مثلاً لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ما يضره.

الأمر الثانى : لا يخرج المسلم فى مطعمه ومشربه وملبسه عن الحد اللائق به، والمناسب له، فالإمام الذى يصلى بالناس، والرجل المواظب على الجماعة فى المسجد، لا ينبغى أن يأكل ما له رائحة كريهة كالثوم والبصل؛ لأن ذلك يؤذى الناس.

وقد نهى النبى ﷺ من أكل ثوماً أو بصلاً عن دخول المسجد فقال: «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزل مسجدنا وليقعدن فى بيته» (١).

وهذا الأمر للكراهة، وقيل للتحريم على ما سيأتى بيانه فى موضعه.

وفيه تنفير المسلم من أكلهما فى الأوقات المقاربة لأوقات الصلاة.

والرجل مثلاً: لا يلبس من الثياب ما اعتادت النساء أن تلبسه، ولا من الحلى ما اعتادت النساء أن تتحلى به.

وكذلك المرأة، لما فيه من التشبه المنهى عنه.

فمن البلاء والعار أن يتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، فى الملبس وغيره مما يخرج كل منهما عن طبعه وطبيعته، ويجعله يشبه الآخر فى وضعه، ومظهره، وأقواله، وأفعاله.

روى البخارى فى صحيحه، والترمذى فى جامعه، وأبو داود فى سننه، وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لعن النبى ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء».

---

(١) رواه البخارى ، أذان ١٦٠ ، أطعمة ٤٩ ، اعتصام ٢٤ وأبو داود، أطعمة ٤٠ وغيرهما.

وروى أبو داود والنسائى وأحمد والحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل».

وقد لا يقصد الرجل بلبس ما تلبسه المرأة غالباً التشبه بها، ومع ذلك يناله من هذا الإثم شيء، فليتق الله ولا يلبس ما تلبسه النساء، ولو كان فى بيته، اتقاءً للشبهات، وحذراً من الوقوع تحت هذا الوعيد الوارد فى المتشبهين والمتشبهات.

الأمر الثالث: أن يكون التمتع بهذه الطيبات مما يقره العرف السائد فى البلد، بحيث لا يتعرض المسلم للغمز واللمز والقيل والقال، فإن خير الناس من يتقى أذى الناس.

ومخالفة الناس فى ملابسهم وعاداتهم فى المآكل والمشرب ليست من المروءة؛ إذا كانوا لا يخالفون الشرع فيما يفعلون.

فالرجل مثلاً إذا كان يعيش فى قوم يلبسون العمامة، ولا يتخلون عنها كأهل صعيد مصر، فلا يستحب له أن يخالفهم، ويمشى برأسه عارية.

وإذا كان أهل بلده يلبسون الطواقى فوق رءوسهم فلا يستحب له أن يلبس ما يلبسه الفرنجة من القبعات ونحوها.

هذا ما ينبغى مراعاته فى الأكل والشرب والملبس، وغير ذلك مما هو فى معناه.

وقوله ﷺ: «وتصدقوا» معناه: أخرجوا صدقة طيبة بها نفوسكم مما تأكلون وتشربون وتلبسون.

فالصدقة التى لا يتبعها منٌّ ولا أذى فيها مرضاة لله تبارك وتعالى، ومنجاة للمسلم من بلاء الدنيا، وعذاب الآخرة، وفيها تحصين للمال، وشفاء من الأمراض، ودفع للعين والحسد، وإذهاب للهم والحزن.

وهى برهان لصحة الإيمان، وسلامة اليقين، ودليل على حسن الثقة بالله، وعظيم التوكل عليه.

وهي نوعان: صدقة واجبة، وصدقة مستحبة.

والصدقة الواجبة: تسمى زكاة، وأجرها أكبر من صدقة التطوع.

وصدقة التطوع: أفضل من قيام الليل وصيام النهار.

والأدلة على ذلك كثيرة، قد ذكرنا بعضها في وصايا سابقة، ونذكر هنا طرفاً آخر منها، فنبدأ بما جاء في كتاب الله عز وجل:

يقول الله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ (١).

فالصدقة طهرة للقلب من الآفات التي تحزنه وتمرضه وتعكر صفو إيمانه وتنغص عليه حياته، وهي تزكي النفس من آفات البخل والحرص والطمع والشح وحب الذات وحب المال وحب الدنيا بوجه عام، وتزيل غفلته عن الآخرة؛ لأنه إذا تَصدَّق ذكر أن صدقته هذه سوف يدخرها الله له في الآخرة، وينميها له حتى تصير التمرة التي تصدق بها مثل جبل أحد، فيفرح بذلك، وينتظر الموت، وهو راضي النفس؛ لعلمه أنه سيلقى جزاءه على ما قدمه لنفسه من خير، وبذلك فليفرح المؤمنون.

وقال جل وعلا: ﴿آمِنوا بالله ورسوله وأَنْفِقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفَقوا لهم أجر كبير﴾ (٢).

وقال عز من قائل: ﴿إن المصَّدِّقين والمصَّدِّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعفُ لهم ولهم أجر كريم﴾ (٣).

وقال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة ربه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل

---

(١) التوبة: ١٠٣.
(٢) الحديد: ٧.
(٣) الحديد: ١٨.

تصدق صدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

والشاهد في قوله: «تصدق صدقة فأخفاها» لأن صدقة السِّر تطفئ غضب الله تعالى.

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم: تزيد فى العمر»[1] يعنى تبارك فيه.

ويتفاوت أجر الصدقة بحسب من صرفت له، فإذا صرفت لمن اشتد فقره كان أجرها أكبر، وكذلك إذا صرفت للرجل الصالح؛ فإنه قد يدعو له بدعوة يكون فيها الخير كله.

ومن أطعم أحباب الله أدخله الله في زمرتهم، وحشره معهم.

والصدقة على القريب أعظم أجراً من الصدقة على البعيد؛ لأن القريب أولى من غيره بالبر والصلة.

عن سلمان بن عامر عن النبى - ﷺ - قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة»[2].

والصلة هى البر والعطف والمودة والائتلاف.

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الصدقة على ذى القرابة يُضَعَّف أجرها مرتين»[3].

والصدقة على القريب القاطع لرحمه المضمر للعداوة فى باطنه أعظم أجراً؛ لأنه قد أحسن لمن أساء إليه.

وقد قال على رضى الله عنه: أحسن لمن أساء إليك تكن أعبد الناس.

---

(1) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن.
(2) رواه النسائى والترمذى.
(3) رواه الطبرانى فى الكبير.

وروى الطبراني في الكبير عن حكيم بن حزام - رضى الله عنه - أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ -: عن الصدقات أيها أفضل. قال: «على ذى الرحم الكاشح».

والكاشح: هو الذى يضمر العداوة، ويعرض بوجهه عن ذوى رحمه.

ومن كان له قريب فى أمس الحاجة إلى صدقته وصرفها عنه إلى غيره لم يقبل الله منه هذه الصدقة؛ لأن قريبه أولى بمعروفه وله حق عليه.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ (١).

وروى الطبراني في الكبير بسند رواته ثقات - كما قال المنذرى فى الترغيب - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم يتيم، ولان له فى الكلام، ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره، بفضل ما آتاه الله.

وقال: يا أمة محمد، والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل، وله قرابة محتاجون إلى صلته. ويصرفها إلى غيرهم، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

* * *

وقد نهى النبى - ﷺ - عن الإسراف والمخيلة بإسلوب حكيم، إذ جعلها شرطاً فى حل الطعام والشراب والكساء، فقال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة».

فهذا الشرط قيد فى تقرير الحكم، بمعنى أن الإسراف والمخيلة - وهى الكبر والرياء والغرور - لا يباحان فى شيء، وهما فى المآكل والمشرب والملبس والتصدق أشد جرماً، فهما كبيرتان من الكبائر كما دل على ذلك ما جاء فى الكتاب والسنة.

---

(١) الإسراء: ٢٦.

ويشتد الذنب كلما زاد الإسراف وتمادى المرء فى كبره وغروره وإعجابه بنفسه.

وقد مرت بنا هذه الأدلة فى وصايا سابقة، ويكفى أن الله قد قال فى كتابه العزيز: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ (١) أى لا ينظر إليهم ولا يرحمهم ولا يوفقهم للعمل الصالح ، ولا يهديهم سبيلاً ولا يدخلهم الجنة؛ لأنه يبغضهم ولايحبهم؛ والويل كل الويل لمن أبغضه الله.

ويكفيه ذماً قوله تعالى: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ (٢) .

والإسراف أخو الكفر؛ لأنه تجاوز لحدود الله واعتداء عليها ﴿ومن يَتَعَدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ (٣) .

والخيلاء: مفسدة للدين، مذهبة للإيمان، لا يزداد العبد بها من الله إلا بعداً، ولا يزداد بها من الناس إلا بغضاً.

وقد جاء فى الحديث الشريف: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» (٤) .

* * *

فمن أراد أن يقى نفسه شر الإسراف والخيلاء، فليلزم الوسطية فى أكله وشربه وشأنه كله.

وليأخذ من الطعام والشراب بقدر ما تدعو إليه الحاجة. فقد قال النبى - ﷺ - فى الحديث الصحيح: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، وإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» وقد تقدم شرح هذا الحديث.

وإذا أراد أن يتصدق فليخف صدقته، حذراً من الرياء والغرور وحب

---

(١) الأنعام: ١٤١ . والأعراف: ٣١ .
(٢) الإسراء: ٢٧ .
(٣) الطلاق: ١ .
(٤) رواه مسلم.

الظهور، وإذا كان لبس الجميل من الثياب يثير الإعجاب فى نفسه فليقتصر منها على ما تدعو الضرورة إليه.

وإن كان لابد يريد أن يتجمل بالثياب، فلا بأس من ذلك، بشرط أن يكون قادراً على كبح جماح نفسه من الخيلاء، فالله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

وعليه أن يعود نفسه على التواضع حتى يألفه، ويصير ديدنه فى جميع أحواله.

فقد روى الترمذى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من ترك اللباس تواضعاً لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها».

فوازن أيها الأخ المسلم بين رغبات نفسك، ورغبات دينك، فنفسك تدعوك إلى التظاهر والترفع، ودينك يدعوك إلى الحياء والتواضع، وهو لا ينهاك عن التجمل بما تشاء من الثياب والزينة، إلا ما استثناه من ذلك - كالذهب والحرير للرجال -، فكن متيقظاً إلى ما يوسوس به الشيطان فى التجمل وعدمه، بحيث لا يكون التجمل دافعاً لك على الرياء والخيلاء، ولا يكون تركه دافعاً لك على ترك ما أباحه الله لك من غير داع يقتضيه، بحجة الزهد والورع، فإن الزهد والورع فى ترك ما حرم الله، لا فى ترك ما أباحه لعباده، كما عرفت فى قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ (1).

* * *

ونذكر هنا تتمة للفائدة حكم من يطيل إزاره إلى أسفل الكعبين. هل يكون بهذا عاصياً؟ أم الأمر لا يخرج عن كونه مكروهاً؟ وهل الكراهة فى ذلك للتحريم أم للتنزيه؟.

فأقول: يستحب عند أكثر أهل العلم تقصير الثياب إلى منتصف الساقين، أو إلى الكعبين، بل عدَّ بعضهم ذلك من السنن، مستدلين بما رواه الترمذى فى

---

(1) الأعراف: ٣٢.

الشمائل عن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمتي تحدث عن عمها قال: بينما أنا أمشى إذا إنسان خلفى يقول: «ارفع إزارك فإنه أتقى وأبقى». فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنما هى بردة ملحاء، قال: «أما لك فىّ أسوة؟»، فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه.

وفى رواية لأحمد وابن سعد، والبيهقى قال: «ارفع إزارك فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك. أما لك فىّ أسوة؟».

والبردة الملحاء: هى كساء مخطط فيه بياض وسواد، ومراده أنها بردة مبتذلة ليست للزينة، وجرها لا يؤدى إلى الخيلاء، ولكن رسول الله – ﷺ – أمره أن يقتدى به فى تقصير الثياب، وإن لم يؤد إسبالها إلى الخيلاء، سداً للذريعة.

واستدلوا أيضاً بما رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الإزار إلى نصف الساق أو إلى الكعبين لا خير فى أسفل من ذلك».

وبما رواه أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «من جَرَّ ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة». فقالت أم سلمة: كيف تصنع النساء بذيولهن؟، قال: «ترخين شبراً»، قالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: «فيرخين ذراعاً ولا يزدن عليه».

وروى أصحاب السنن إلا البخارى عن أبى ذر – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»، قلت: من هم يا رسول الله، قد خابوا وخسروا؟، فأعادها النبى ﷺ ثلاثاً، فقلت: من هم يا رسول الله، خابوا وخسروا؟ فقال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب أو الفاجر».

والمسبل: هو الذى يطيل ثيابه خيلاء.

والمنان: هو الذى يمن بالعطية على من أعطاه.

والمنفق سلعته: المروج لها بالحلف.

ففى هذه الأحاديث دعوة للرجال بتقصير الثياب إلى منتصف الساقين، أو إلى الكعبين، ودعوة النساء بتطويل الثياب إلى ما تحت الكعبين بشبر أو بشبرين.

والمراد بالذراع المرخص فيه للنساء الوارد فى حديث ابن عمر، ذراع اليد وهو شبران؛ لحديث ابن عمر – رضى الله عنه – كما فى سنن أبى داود – قال: «رخص رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين فى الذيل شبراً، ثم استزدنه فزادهن شبراً، فكن يرسلن إلينا فنذرع لهن ذراعاً».

وفى بعض هذه الأحاديث المتقدمة تحذير صريح للرجال من إسبال الثياب للخيلاء.

قال القسطلانى فى المواهب اللدنية: (وحاصل ما ذكر فى الأحاديث: أن للرجل حالين – حال استحباب وهو أن يقتصر بالإزار على نصف الساق.

وحال جواز وهو أن ينزل به إلى الكعبين.

وكذا للنساء حالات: حال استحباب وهو أن تزيد على ما هو جائز للرجال بقدر الستر.

وحال جواز وهو أن تزيد على ما هو جائز للرجال بقدر الذراع.

وأن الإسبال يكون فى القميص والعمامة والإزار، وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، وإن كان لغيرها فهو مكروه للتنزيه). أ هـ.

وهذا كلام نفيس حاسم للنزاع القائم بين العلماء فى هذه المسألة.

والذى يقطع بأن الإسبال لا يحرم إلا إذا قُصد به الخيلاء، ما رواه أصحاب السنن إلا الترمذى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن النبى – ﷺ – قال: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء، فقال أبو بكر: يا رسول الله إزارى يسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال: إنك لست ممن يفعله خيلاء».

وبعد، فإن هذه الوصية تحذرنا من خطرين كبيرين، وجرمين عظيمين، وهما: الإسراف، والمخيلة، وتدعونا إلى القصد والاعتدال، فى المآكل والمشرب والملبس، وإلى التواضع لله فى جميع أحوالنا.

فإن الخير كل الخير فى الوسطية والخضوع لله – عز وجل –، وهما: صفتان عظيمتان من صفات عباد الرحمن، كما بيناه فى وصية سابقة.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٦٠) إنَّ لصَاحب الحَقِّ مَقَالاً

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رَجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يتقاضاه فأغلظ له ، فَهَمَّ به أصحابه فقال رسول الله ﷺ : «دَعُوهُ؛ فإنَّ لصاحب الحَقِّ مقالاً، ثم قال: أَعْطُوهُ سِنّاً مثْلَ سنِّه، قالوا: يا رسول الله، لا نَجدُ إلاَّ أَمْثَلَ من سِنِّه ، فقال : أعْطُوهُ؛ فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُم قَضَاءً» (١) .

* * *

تواصلت أخلاق النبى ﷺ وتشابك بعضها فى بعض وتكونت من خلالها عبقريته الشخصية، فكان كل خلق من أخلاقه مفتاحاً لشخصيته؛ لأنها استوت جميعاً فى السمو والرفعة، وبلغت جميعاً حَدَّ الكمال البشرى، فلا يقال: مفتاح شخصيته الحلم، أو الرحمة، أو العدل، أو الشجاعة، ولكن يقال: مفتاح شخصيته الخلق العظيم، كما وصفه ربه عز وجل بقوله: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٢) .

فقد خصه الله دون سواه بهذا الوصف؛ كما يُشْعِر به الضمير المفرد فى قوله: ﴿ وإنك ﴾، وأكد هذا الوصف بكل أدوات التوكيد، وقال: ﴿ على خلق ﴾ ولم يقل: « ذو خلق » للدلالة على أنه قد استعلى بخلقه على كل ذى خلق، وتَمَكَّنَ من الفضائل كلها وتمكنت منه الفضائل وتجسدت فيه، فكان صورة لها، يُعَبِّرُ عنها تعبيراً صادقاً فى عاداته وعباداته ومعاملاته.

ونحن نعلم أن « على » حرف استعلاء وتَمَكُّن واستيلاء، ولا يأتى التعبير بها عوضاً عن غيرها إلا للدلالة على بلوغ الغاية فى الوصف.

وهذا كقوله تعالى فى وصف المتقين: ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أى: أولئك الذين تمكنوا من الهدى وتمكن الهدى منهم، فكانوا على الهدى لمن استهدى أدلاء.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الوكالة باب ٦ : الوكالة فى قضاء الديون، وفى الاستقراض باب ٢ : استقراض الإبل، ومسلم فى كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه ...

(٢) سورة القلم: ٤ .

وإن أردت أن تصف أخلاق النبى ﷺ فقل: إن العدل شريعته، والرحمة مهجته، والحلم رائده، والكرم ديدنه.

وأفضل من هذا وصف عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلقه، فماذا قالت!

قالت: «كان خلقه القرآن».

نعم. كان خلقه القرآن؛ فقد عمل به نصاً وروحاً حتى تقرأن. فبدا للناس قرآناً يمشى بينهم، تراه أعينهم كما تسمعه آذانهم.

• وهذه الوصية مرآة نرى فيها مفتاح شخصيته وأصول عبقريته تتألق فى حلمه وعفوه وعدله وكرمه، وبُعْد نظره فى السياسة وتدبير الحكم ودعوة الناس إلى الحق والمثل العليا بالحكمة والموعظة الحسنة من غير تَكَلُّفٍ ولا اعتساف.

* * *

يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبى ﷺ يتقاضاه، يعنى: يطلب منه قضاء الدين الذى له عنده، ولكن هذا الرجل لم يطلب حقه بأسلوب حسن، بل أغلظ له فى القول ولم يراعِ الأدب معه وهو خير خلق الله؛ وذلك لأنه أعرابى جلف، كما جاء فى بعض الروايات التى ذكرها ابن حجر وغيره.

وقيل: إنه كان يهودياً. والأصح الأول.

فَهَمَّ أصحاب النبى ﷺ بضربه لكنهم لم يفعلوا؛ توقيراً لرسول الله ﷺ وانتظاراً لما يأمرهم به، وقد تعلموا منه الأدب وحسن الخلق والصبر على المكاره والتأنى فى اتخاذ القرار، والتثبت فى الأمور، والإحجام عن فعل قد يندمون عليه.

وكان لهذا الرجل على النبى ﷺ بعير، قد أخذه منه لحاجة المسلمين.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «دعوه» أى: اتركوه وشأنه معى ولا تؤذوه بأيديكم ولا بألسنتكم، والتمسوا له العذر فى ذلك، فهو أعرابى غليظ الطبع؛ وهذا شأنه عند الطلب، ولم يجلس إلى معلم، وله حق يطلبه، وقد يكون فى أمس الحاجة إليه، وللضرورة حكمها.

وعلل هذا الأمر بقوله: «فإنَّ لصاحب الحق مقالاً» أى صولة فى الطلب وقوة فى الحجة.

ثم قال ﷺ: «أعطوه سِناً مثل سِنِّه» أى: بعيراً مِثل بعيره.

وسمى البعير سِنّاً لأن له سناً يعرف به.

قال العينى فى عمدة القارى شرح صحيح البخارى: وأسنانها معروفة فى كتب اللغة إلى عشر سنين: ففى الفصل الأول حوار، ثم الفصيل إذا فصل، فإذا دخل فى السنة الثانية فهو ابن مخاض أو ابنة مخاض، فإذا دخل فى الثالثة فهو ابن لبون أو بنت لبون، فإذا دخل فى الرابعة فهو حُق أو حُقة، فإذا دخل فى الخامسة فهو جذع أو جذعة، فإذا دخل فى السادسة فهو ثنىّ أو ثنية، فإذا دخل فى السابعة فهو رباعى أو رباعية، فإذا دخل فى الثامنة فهو سديس أو سدس، فإذا دخل فى التاسعة فهو بازل، فإذا دخل فى العاشرة فهو مخلف، ثم ليس له اسم بعد ذلك، إلى آخر ما قال.

قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلاَّ أمثل من سنه، أى: إلا أفضل من بعيره.

قال عليه الصلاة والسلام: «أعطوه؛ فإن خيركم أَحْسَنُكُمْ قضاءً»، أى: أعطوه ما وجدتموه ولا تبخلوا عليه به؛ فإن خيركم أحسنكم قضاء للدين وإكراماً لصاحبه.

فأعطوه سِنّاً خيراً من سِنّه، فرضى الرجل وفرح بما أوتى وأثنى على النبى ﷺ بما هو أهله.

فقد جاء فى رواية البخارى عن أبى هريرة - أيضاً - قال: كان لرجلٍ على النبى ﷺ جَمَلٌ سنٌّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه، فقال: أعطُوهُ، فطلبوا سنَّهُ فلم يجدوا له إلاَّ سنّاً فوقها، فقال: أعطوه، فقال: أوفيتنى أوفى الله بك، قالَ النبى ﷺ: «إنَّ خيارَكم أحسنكم قضاءً».

* * *

ومن هذا الحديث نتعلم كثيراً من الأخلاقيات والمثل العليا.

١ - نتعلم أولاً كيف يكون تواضع العظماء لمن هو أقل منهم شأناً فى العلم والجاه والنسب وغير ذلك من الأمور التى يتفاخر الناس بها فيما بينهم.

والتواضع من غير منقصة خير كله ورفعة ما بعدها رفعة، ولاسيما إذا كان المتواضع عظيماً في خَلْقِه وخُلُقه، وجاهه ومنصبه، وحسبه ونسبه.

والتواضع للناس هو في الحقيقة تواضع لله؛ فإن المتواضع قد عرف نفسه على حقيقتها، وعرف ربه من خلال معرفته بنفسه فأيقن أن الناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأنه لا محل للتفاخر بالأنساب وهي لا تُقَدِّمُ الإنسان على غيره يوم القيامة.

﴿ فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (١).

« ومن بَطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه » كما قال عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان النبي ﷺ هو المثل الأعلى في التواضع ولين الجانب؛ فقد كان لا يفرق في مجلسه بين حر وعبد، ولا بين شريف ووضيع، ولا بين غني وفقير؛ فالكل عباد الله، وخيرهم أتقاهم وأنفعهم لنفسه وللناس.

طلب منه أشراف قريش أن يجعل للفقراء والضعفاء والعبيد يوماً يجلس فيه إليهم، ويجعل لهم يوماً يجلس إليهم فيه.

وقبل أن يراود نفسه في ذلك كفاه الوحي مؤنة التفكير في ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (٢).

فقام النبي ﷺ يعانق بلال بن رباح وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وغيرهم من الفقراء والمساكين.

وفي السيرة النبوية كثير من صور التواضع ذكرنا بعضها في هذا الكتاب، ونذكر منها إن شاء الله طرفاً آخر في وصايا أخرى.

٢ – ومن هذه الوصية نتعلم كيف يكون كظم الغيظ في مواطن الغضب، وكيف يكون الحلم على من أساء وظلم، وكيف يكون العفو عند المقدرة.

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) الكهف: ٢٨.

والمرء لا يتعلم محاسن الأخلاق إلا بالقدوة.

والقدوة إنما تكون من عظيم بمن هو أعظم منه؛ فكل عظيم له مثله الأعلى الذى يحاكيه ويأتسى به.

والرسول ﷺ هو أعظم العظماء بلا منازع، وهو أسوة الخلق جميعاً فى الخلق الفاضل والسلوك النبيل، ولكن لا يأتسى به إلا المؤمنون الذاكرون.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (١).

٣ - ونتعلم من هذه الوصية كيف نكون أوفياء لأصحاب الحقوق علينا، فلا نخلف لهم وعداً، ولا نخون لهم عهداً، ولا نلتمس لهم العثرات فنحيف عليهم ونقصّر فى تأدية الواجب لهم، بل نقابل الفضل بالفضل والإحسان بالإحسان.

٤ - ونتعلم من هذه الوصية أن نكون أكرم ممن بدأنا بالإكرام؛ عملاً بعموم قوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رُدُّوها إن الله كان على كل شىء حسيباً﴾ (٢).

فمن أسدى إلينا معروفاً شكرناه عليه باللسان، وترجمنا هذا الشكر بمعروف أعظم منه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، فإن لم نستطع رددنا إليه المعروف بمثله؛ فالعدل واجب والفضل يُدَعِّمُهُ ، فمن لم يستطع أن يكون من أهل الفضل - فليكن من أهل العدل.

فإن الأعرابى حين أغلظ للنبى ﷺ فى الطلب - لم يكن له إلا ما يطالب به، وهذا هو العدل؛ لذا قال: «أعطوه سِنًّا مثل سِنِّه».

فلما لم يجدوا سِنًّا إلا أحسن من سِنِّه - قال: «أعطوه» فكانت هذه العطية عدلاً وفضلاً معاً.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) النساء: ٨٦.

والرجل لم يكن يستحق إلا سناً مثل سِنّه، ولكن الوفاء فرض على النبى ﷺ أن يتنازل بطيب نفس عن هذه الزيادة.

ومن هنا رأى الإمام مالك رضى الله عنه ومن نحا نحوه أن الرجل إذا كان عليه دين فحان أجله جاز أن يعطى صاحب الدين أكثر من دَيْنه تفضلاً منه ما لم يكن هناك شرط فى الزيادة أو كان هناك عرف فى البلد يقضى بالزيادة.

فالرسول ﷺ قد أعطى الرجل سناً أحسن من سنه؛ تَكَرُّماً وتفضلاً ولم ير فى ذلك بأساً، فدل على أن الزيادة بهذين الشرطين جائزة، بل تكون من المستحبات التى يؤجر عليها صاحبها.

٥ - ومن هذا الحديث نتعلم أن العاقل هو من يعرف كيف يعامل كل امرئ على حسب حاله، فإن كان جاهلاً عذره بجهله، وإن كان سفيهاً لم يحاسبه على سفهه، وإن كان غضوباً التمس له العذر إذا غضب عليه، وإذا كان له عليه دلال بسبب صحبة أو قرابة - لم يعاتبه على ما صدر منه.

وهكذا يعطى كل امرئ ما يناسبه من المعروف بحيث يحتفظ لنفسه بما جبلت عليه من مكارم الأخلاق، فيخاطب الناس على قدر عقولهم، وينزلهم منازلهم، ويعرف لكل ذى فضل فضله، ويتصرف فى كل حال بما يناسبها مع توخى العدل والفضل والإحسان فى القول والعمل. والحلم سيد الأخلاق.

٦ - وخلاصة القول فى هذه الوصية أنها قاعدة من قواعد السلوك الحسن مع من أساء وظلم فى حدود ما شرع الله عز وجل، بمعنى: أن إكرام الكريم واجب، والحلم على غير أهل الحلم مستحب؛ إذا لم يكن باعثاً لهم على التمادى فى الشر والبطر.

فإن رأينا أن الحلم مع غير أهل الحلم يؤدى إلى تَمَرُّدِهِم علينا استبدلناه بشىء من القسوة؛ زجراً له وردعاً لأمثاله.

قال الشاعر:

قسا ليزدجروا ومن يك حازماً　　فليقسُ أحياناً على من يرحم

وقال آخر:

إن أنت أكرمت الكريم ملكته　　وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

(١٦١) لا تكونوا إمَّعة

عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَكُونُوا إمَّعَةً تقولون: إنْ أَحْسَنَ الناسُ أَحْسَنَّا، وإنْ ظلموا ظَلَمْنَا، ولكن وَطِّنُوا أَنفُسَكُمْ: إن أَحْسَنَ الناسُ أن تُحْسِنُوا، وإن أَسَاءُوا فلا تظلموا» (١).

* * *

الإنسان كائن متحرك بالإرادة، كما عرفه الكثير من رجال الفلسفة وفرسانها.

ومعنى هذا التعريف : أن الإرادة هي التى تميزه عن غيره من الحيوان، فإذا سُلِبَتْ منه الإرادة كان إنساناً بلا إنسانية وشخصاً بلا هوية.

وحينئذ يتحرك كما يتحرك الحيوان كيفما اتفق، لا يدرى ماذا يفعل؟ ولماذا فعل؟ ولم فعل؟ وكيف فعل؟

إنه ينقاد بهواه لا بعقله، وينساق وراء شهواته وملذاته بلا وعى ولا إدراك ولا رابط يمنعه عن غَيِّه ولا ضابط يحجزه عن سفهه.

وعندئذ يكون أضل من الحيوان سبيلاً، وأحط منه شأناً.

وقد عرف المناطقة الإنسان بأنه حيوان ناطق، يعني: حَيٌّ مفكر ؛ فالنطق معناه عندهم: الفكر السليم المرتب المهذب المبنى على مقدمات مسلمة، ينشأ عنها نتائج صحيحة.

فكيف يفكر من لا إرادة له!

وَهَبْهُ يفكر فكيف يكون تفكيره سليماً ونتاج فكره مستقيماً !

وما كلف الله الإنسان إلا بعد أن جعل له إرادة كاملة، فهو جل شأنه لم يكلفه إلا إذا بلغ الحلم وكان عاقلاً مختاراً غير مكره.

---

(١) رواه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء فى الإحسان والعفو، حديث رقم: ٢٠٠٧.

فإذا أصيب بالجنون ارتفع عنه التكليف.

قال رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يُفيق، والصبى حتى يحتلم»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(٢).

ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن الإرادة هى مناط التكليف، ولا إرادة إلا بعقل، فإذا فقد الإنسان عقله فَقَدَ إرادته تبعاً.

وإذا أكره الإنسان على فعل شىء لم يكن له إرادة وإن كان له عقل، فالإرادة إذاً أعم من العقل فى التكليف؛ فلا يعاقب الله عبداً على ذنب إلا إذا اقترفه بإرادته من غير قهر ولا إكراه.

ولما كان الإنسان قد يتخلى عن إرادته بإرادته ويتبع أهواء قوم قد ضلوا سواء السبيل، أو أهواء قوم لم يضلوا كثيراً، فكانوا بين الإحسان والإساءة – نهى النبى ﷺ المؤمنين عن مسايرة الناس فى الإحسان والإساءة من غير فكر ولا رَوِيَّةٍ ولا مبرر يقتضيه، فقال: «لا تكونوا إمَّعة».

وقد فسر الإمعة بقوله: «تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا».

وهو تفسير سهل ميسور يخلو من التَّكلُّفِ والاعتساف.

وأصحاب النبى ﷺ يعرفون الإمعة من هو، لكن على وجه الإجمال، فجاء هذا التعريف رفعاً للإجمال ودفعاً للإشكال، كما سنبين ذلك قريباً.

* * *

ولابد لنا من نظرة فى معاجم اللغة؛ لنعرف هذا الوصف على حقيقته؛ ليتضح لنا معنى هذه الوصية على النحو الذى أراده الرسول ﷺ فنقول:

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة انظر كشف الخفا جـ ١ ص ٥٢٣

(٢) رواه البيهقى عن ابن عمر. كشف الخفا جـ ٢ ص ٤٧٣.

جاء في لسان العرب لابن منظور: الإِمَّعَةُ والإِمَّعُ - بكسر الهمزة وتشديد الميم -: الذى لا رأى له ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه ولا يَثْبُتُ على شىء، والهاءُ فيه للمبالغة.

وفى الحديث: «اغدُ عالماً أو مُتَعَلِّماً ولا تكن إِمَّعَةً».

ولا نظير له إلا رجلٌ إِمَّرٌ، وهو الأحمق.

قال الأزهرى: وكذلك الإِمَّرَةُ وهو الذى يوافق كُلَّ إنسان على ما يريده.

قال الشاعر:

لَقيْتُ شَيْخاً إِمَّعَهْ

سَأَلْتُهُ عَمَّا مَعَهْ

فقال: ذَوْدٌ أَرْبَعَهْ

وقال الآخر:

فلا دَرَّ دَرُّكَ من صاحبٍ فَأَنْتَ الوُزاوِزة الإِمَّعَهْ

وروى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كُنَّا فى الجاهلية نَعُدُّ الإِمَّعة الذى يَتْبَعُ الناس إلى الطعام من غير أن يُدْعَى، وإنَّ الإمعة فيكم اليومَ المُحْقِبُ الناس دينَهُ.

قال أبو عبيد: والمعنى الأول يرجعُ إلى هذا.

قال الليث: رجل إِمَّعَةٌ يقول لكل أحد: أنا معك، ورجل إِمَّعٌ وإِمَّعَةٌ للذى يكون لِضَعْفِ رأيِهِ مع كُلِّ أحدٍ.

ومنه قول ابن مسعود أيضاً: لا يكونَنَّ أحدُكُمْ إِمَّعَةً، قيل: وما الإمعة؟ قال: الذى يقول أنا مع الناس.

قال ابن برِّىّ: أراد ابن مسعود بالإمعة الذى يَتْبَعُ كل أحد على دينهِ[1]..

---

(١) أى على مذهبه وعادته.

وقول من قال: امرأة إِمَّعَةٌ غلط لا يقال للنساء ذلك.

وقد حُكِيَ عن أبي عبيد: قد تَأَمَّعَ واستأمع.

والإِمَّعَةُ: المُتَرَدِّدُ في غير ما صَنْعَةٍ، والذي لا يَثْبُتُ إِخَاؤُهُ. ورجال إِمَّعُونَ، ولا يُجْمَعُ بالألف والتاء (١).

* * *

ومن قال: إن أحسن الناس أحسنت، وإن ظلموا ظلمت - فهو سفيه العقل، ضحل الفكر، ضعيف العزم، فاقد الحلم، سريع الغضب، لا يحتكم إلى شرع الله تعالى، ولا يحب لنفسه الخير ولا لغيره.

وحاشا أن يكون المؤمن كذلك، بل هو كَيِّسٌ فطن، يملك عواطفه ويحكمها، ويكبح جماح نفسه كلما شعر أنها أخطأت طريق الخير وانحرفت عن سواء السبيل.

إن المؤمن الحق من كان هواه تبعاً لدينه، وكان هدفه من دنياه أن تكون مزرعة للآخرة، وأن يكون رائده في شأنه كله القرآن والسنة، وأن يكون مبلغ همه رضا الله عز وجل، وأن يكون تعامله معه لا مع الناس، فهو يحسن إلى الناس سواء أحسنوا إليه أم لم يحسنوا؛ بل هو يحسن لمن أساء إليه أكثر مما يحسن لمن أحسن إليه، تحدثاً بنعمة الله وتعبداً له.

وقد قال علي رضي الله عنه: أحسن لمن أساء إليك تكن أعبد الناس.

وقوله ﷺ: «ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا» معناه: دربوا أنفسكم تدريباً يحملها على مواطنة الإحسان، أي ملازمته ملازمة المواطن لوطنه، بحيث تحبه حباً جماً، فلا تتخلى عنه أبداً في أي موطن من المواطن.

والمؤمن إذا عمل بهذه الوصية نزع من نفسه ما يعوقه عن فعل الخيرات

---

(١) أي لا يقال: إِمَّعَاتٌ.

والمسارعة إليها بحب وتقدير ، وقطع علاقته بكل من يثبط همته عن الإحسان لمن أحسن ولمن أساء على السواء بغض النظر عن أى اعتبار من خوف أو طمع.

إنه يتعامل مع الله وكفى، ويخلص له إخلاص العبد الصالح لسيده ، واضعاً نصب عينيه أن يكون راضياً عنه ، قاصراً طمعه على عظيم فضله وواسع رحمته.

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ (١) .

* * *

من هذه الوصية نتعلم كيف نصحح النية مع الله تعالى فى أعمالنا كلها، فنهبها له جميعاً، حتى تلك الأعمال التى تصدر عنا بغير إرادتنا، إن خلت من المعاصى.

إنها وصية تهدينا إلى العمل بقوله تعالى: ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾ (٢) .

فإن انتهى بنا تصحيح النية إلى هذا الحد فقد بلغنا الحد المطلوب، واتصلنا بخالقنا ومولانا اتصالاً يغنينا عن سواه.

ونتعلم منها كيف نعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به، فنعذر جاهلهم بجهله، ونعفوا عن المسيء لعله يتوب، ونحسن لمن أساء إلينا لعله يتعلم منا كيف ومتى يكون الإحسان، ونعطيه المثل من أنفسنا فى الصبر والصفح الجميل.

والمؤمن قدوة للناس بأقواله وأفعاله، وأسوة لهم فى الخلق الفاضل والسلوك النبيل، يسودهم بعلمه ويملكهم بحلمه.

ومن هذه الوصية نتعلم كيف نكبح جماح أنفسنا ونردعها عن ارتكاب الشر، وندفعها دفعاً إلى مواطن الخير ومسالك البر حتى يصير الإحسان ديدنها فى جميع الأحوال.

---

(١) يونس: ٥٨.

(٢) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع[1]

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولّى يُصْمِ أو يَصِم

وراعها وهى فى الأعمال سائمة ... وإن هى استَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِم[2]

إن النفس عدو لصاحبها، والشيطان رائدها، والهوى يصحبها حيث كانت، والدنيا تغلبها فتميل إليها وتغفل عن ذكر ربها، فلا تفعل الخير إلا لِمَاماً، ولو فعلته لا تفعله إلا لهدف وقد تندم عليه إذا لم يتحقق الهدف منه.

إنها حقاً أمارة بالسوء إلا النفس التى رحمها الله تبارك وتعالى فأنقذها من غوائلها، فسلمت من البوائق والعوائق، وسلمت لصاحبها قيادها فملكها وَرَدَّها عن غيِّها إلى فطرتها السليمة، فكانت نفساً مطمئنة بذكر الله راضية بقضاء الله مرضية بثواب الله عز وجل، هذه هى النفس التى يناديها ربها عند موتها وعند بعثها ونشورها بقوله جل شأنه: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾[3].

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

---

(١) من نهج البردة لأحمد شوقى.

(٢) من البردة للإمام البوصيرى.

(٣) آخر سورة الفجر.

(١٦٢) فُكُّوا العانى

عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُكُّوا العانى - يعنى الأسير - وأطعموا الجائعَ، وعُودُوا المريضَ»(١).

* * *

الإسلام دين المحبة والإخاء والتعاون على البر والتقوى، لا يضام إنسان فى ظله، ولا يشقى أحد بعدله.

دين يدافع عن المبادئ الإنسانية التى تدعو الإنسان إلى احترام أخيه الإنسان وتقدير مشاعره ومواهبه وقدراته، ومراعاة ظروفه العامة والخاصة، وهى التى يشير إليها رب العزة فى قوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾(٢).

وقوله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

دين يدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويحض على إطعام المساكين وتنفيس الكرب عن المكروبين، ومواساة المرضى ومن فى حكمهم من البائسين والمحرومين.

وهذه الوصية من مئات الوصايا التى تعبر عن سماحة هذا الدين حتى مع أعدائه؛ لأنه دين لا يعادى من يعاديه، ولكن يكتفى برد عدوانه عن معتنقيه، ويتشوف إلى السلام متى وجد سبيلاً إليه، ويَجُبُّ كل ذنب اقترفه الكافر إذا أسلم، ويبارك خطاه إذا أظهر للمسلمين حسن النية، ولم يصدر منه ما يظهر خبث طويته وفساد قصده.

فها هو رسول الله ﷺ يأمر المسلمين جميعاً بفك العانى من أسره، وإطعام

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الجهاد باب فكاك الأسير.

(٢) الحجرات: ١٣.

الجائع بما يسد جوعته، وعيادة المريض فى الوقت الذى يسمح فيه بعيادته؛ تطييباً لنفسه، ومواساة لقلبه، وتخفيفاً لآلامه، وتجديداً لآماله فى الشفاء، وترغيباً له فى الصبر من أجل الحصول على الثواب.

وتعالوا بنا الآن ننظر فى هذه الوصية نظرات نزداد بها تعمقاً فى فهم معانيها وفقه مراميها.

* * *

العانى هو الأسير – سمى بذلك لما يعانيه من الحبس والأغلال ، والغربة وفقد الحرية ، والوقوع فى الفتنة وغير ذلك مما يجده من كرب وشدة ، مأخوذ من عنا يعنو فهو عانٍ، والجمع عناة، والمرأة عانية والجمع عوان.

قال ابن الأثير: العانى: الأسير، وكل من ذل واستكان وخضع فقد عنا(١).

والأسير قد يكون من الكفار وقد يكون من المسلمين.

فإذا كان من المسلمين فتخليصه من الأسر فرض على الكفاية.

وفرض الكفاية هو الذى إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وعلى هذا جمهور الفقهاء.

وقد جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكاك أسرى المسلمين من بيت المال لكثرة ما كان فيه من الأموال.

فإذا لم يكن هناك بيت مال للمسلمين وجب على الأغنياء أن يقوموا بهذا الواجب، فإن لم يقم به بعضهم أثموا جميعاً إثماً عظيماً، وفرطوا فى دينهم تفريطاً لا يغفر لهم إلا إذا تابوا توبة نصوحاً وأخلصوا لله دينهم وبذلوا من أموالهم الكثير والكثير؛ ابتغاء وجه الله تعالى وطلباً لمغفرته، فهذا هو الطريق إلى النجاة من عذاب الله فى الدنيا والآخرة.

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم

---

(١) أفاده العينى فى عمدة القارى جـ ١٢ ص ١١٧ .

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفرْ لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (١) .

وقال الحسن بن على: فكاك الأسير فرض على أهل الأرض التى يقاتل عليها، وهذا رأى حسن من الحسن رضى الله عنه، ولكن إذا فرط أهل الأرض التى يقاتَلُ عليها فإن أهل الأرض الذين يلونهم يجب عليهم أن يقوموا بفكاكه إذا علموا أنهم قصروا فى ذلك، فالمسلمون بعضهم لبعض ظهير (٢) .

ولا بأس أن يكون هناك تبادل بين الأسرى فنعطيهم من أسراهم ونأخذ من أسرانا بحسب ما تقض به الظروف والأعراف المتبعة ، وبالقدر الذى يتفق عليه فيما بيننا وبينهم، وليكن رأس مسلم برأس كافر أو برأسين إن دعت الضرورة إلى ذلك بعد المشورة وأخذ الرأى، ولكل حال ما يناسبها.

«قال عمر بن عبد العزيز: إذا خرج الذمى بالأسير من المسلمين - فلا يحل للمسلمين أن يردوه إلى الكفر فليفادوه بما استطاعوا» (٣) .

وأما أسرى الكفار فإننا نحسن معاملتهم لنظهر لهم سماحة الإسلام، ونسمعهم كتاب الله تعالى لعلهم يستجيبون لنداء الفطرة فيتخلون عن جحودهم وكبريائهم ويؤمنون بالله ربهم.

وقد كان المسلمون فى عهد النبى ﷺ يربطون بعض الأسرى ممن يطمع فى إسلامهم فى المسجد؛ ليسمعوا كلام الله ، فكان يدخل فى الإسلام كثير منهم.

وقد أثنى الله عز وجل على من يحسن إلى الأسرى من الكفار فقال: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ (٤) .

---

(١) الصف: ١٠ - ١٣.

(٢) نصير.

(٣) انظر عمدة القارى جـ ٢ ص ١١٧.

(٤) الإنسان: ٥ - ٨.

وقد عرفنا من سيرة أصحاب النبى ﷺ حسن معاملة الأسرى بأسلوب يدعو إلى الفخر والاعتزاز بهذا الدين القويم، والذى يعفو عن قدرة ، ويصفح الصفح الجميل عمن أساء إليه متى وجد منه ميلاً إليه .

* * *

وقوله ﷺ : « أطعموا الجائع » هو أمر عام فى كل جائع من الإنسان والحيوان، وهو أحياناً يكون فرضاً وأحياناً يكون ندباً .

يكون فرضاً على من رأى رجلاً يكاد يموت من الجوع ومعه ما يطعمه به وليس هناك أحد غيره فى الموطن، فإن كان معه أحد فى الموطن كان إطعام هذا الجائع فرض كفاية على كل منهما، فإذا أطعمه واحد ارتفع التكليف عن الآخر وإلا أثما جميعاً، وإذا ارتفعت حالة الضرورة كان الإطعام مندوباً لا واجباً .

ولكن ينبغى أن نعلم أن المندوب قد يرتقى إلى الواجب أحياناً كما يذكر علماء الأصول .

وقد رغب الله عز وجل فى إطعام الفقراء والمساكين وذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى فى شأن الهدايا والأضاحى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافٌ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾(٢) .

والقانع : هو الفقير الذى يقنع بما يُعطى، أو هو الغنى الذى يقنع بما عنده .

والمعتر : هو الفقير الذى يعير بفقره أو يخجل منه، أو هو الغنى الذى يعتر إذا أعطى شيئاً قليلاً ويشعر بالإهانة، فهذان اللفظان من الأضداد : كل منهما يحمل المعنى وضده .

---

(١) الحج : ٢٨ .
(٢) الحج : ٣٦ .

والبدن : هى الإبل والبقر والجاموس، جمع بَدَنَة.

ومعنى ﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ : أى جعلناها من مناسك الحج وموجباته.

ومعنى ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ : أى قولوا عند نحرها: بسم الله والله أكبر، وهى قائمة مصطفة.

ومعنى قوله ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ : استوت على الأرض وسكنت وأعدت للأكل، فكلوا منها أول الناس أو آخرهم بمقدار الثلث أو أكثر أو أقل، وأطعموا منها من شئتم من الناس مسلمين وغير مسلمين.

وقد وردت فى إطعام الطعام أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : « أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام » [1] .

* * *

وقوله ﷺ : « عودوا المريض » أى زوروه مرة بعد مرة كلما سمحت الظروف بذلك، فالعود يقتضى التكرار.

ولزيارة المريض آداب كثيرة منها:

أن يكون المريض ممن يسمح الأطباء بزيارته ، ولديه مكان لاستقبال الزوار من غير إحراج.

وأن يكون الزائر خفيف الظل ينصرف بعد أن يدعو له بالشفاء ويعظه بما يزيده إيماناً ويحمله على الصبر والرضا.

وأن يكون أميناً لا يفشى سره ولا يحدث الناس بما يكره المريض أن يحدثهم به.

ويستحب أن تكون الزيارة فى الأوقات التى يغلب على الظن أن أصحاب البيت يكونون مهيئين لاستقبال الزوار.

---

(١) رواه الحاكم وابن ماجه والترمذى عن عبد الله بن سلام.

ولزيارة المريض فضل عظيم وأجر كبير ، ولاسيما إذا كان المريض رجلاً صالحاً أو امرأة صالحة، وكان فى حاجة إلى هذه الزيارة، وكان الزائر أيضاً رجلاً صالحاً أو امرأة صالحة يبتغى بزيارته وجه الله تعالى والتخفيف على المريض وإدخال السرور عليه.

ومن فضائل زيارة المريض أن الزائر لو دعا الله عنده بخير لاستجاب له بما شاء وكيف شاء وفى أى وقت شاء.

فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : «يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تُطعمنى! قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقنى! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى؟»

وقد سبق أن تكلمنا عن آداب زيارة المريض وفضلها فى حديث آخر بشىء من التفصيل.

والله هو الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٦٣) لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا يشيرُ أحدُكم على أخيه بالســـلاح فإنه لا يدرى لعل الشـــيطانَ ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار»[١] .

* * *

كان النبى ﷺ يعلم أصحابه الحيطة والحذر مما فيه خطر متوقع على الدين أو على النفس أو على النسل أو على العقل أو على المال، فهذه هى الضروريات الخمسة التى يجب على المسلمين حفظها بالوسائل المشروعة.

وكان عليه الصلاة والسلام يؤدبهم بالآداب التى جاء بها القرآن الكريم كتوقير الأخ لأخيه والاستحياء منه في الأمور التى يعلم أنه يستنكف منها أو يخشاها على نفسه، أو يرى فيها شيئاً من الإهانة أو الاستخفاف بعدم المبالاة به أو عدم رعاية مشاعره.

ومن هذه الآداب التى أدبهم بها ما جاء فى هذه الوصية، وهو أدب ينبغى أن يضعه المسلم موضع الاعتبار، ويدرك أبعاده على ضوء ما جاء فيه من تعليل، فإن الأمر أو النهى إذا كان مصحوباً بعلته كان أدعى للتحرى والامتثال.

* * *

فقوله ﷺ: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح» جملة خبرية فى اللفظ طلبية فى المعنى، أى لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح بأن يرفعه عليه يخيفه به ولو على سبيل المزاح؛ فإن مجرد رفعه عليه يعد نوعاً من الهوس والحماقة، وهو أمر ينبغى أن يتنزه عنه المسلم العاقل لما يؤدى إليه من نتائج غير محمودة، فربما يصيب أخاه بهذا السلاح رغم أنفه، وربما يظن صاحبه أنه يريد الفتك به فيعاجله بضربة قد تودى بحياته، وربما يؤدى رفع السلاح إلى إثارة العداوة والبغضاء

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الفتن، باب ٧.

بينهما، وربما يستاء لذلك واحد من أهله فيندفع إلى صاحب السلاح بسلاحه فيقتتلان فيكون ذلك بمثابة الشرارة التى تضرم النار فى الوقود فلا يدرك مداها إلا الله.

ومعظم النار من مستصغر الشرر.

وقد علل النبى ﷺ هذا النهى بقوله : «فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار».

ومعنى «ينزع فى يده»: يوقع فيها الشر ويدفعها إلى الضرب من غير شعور منه فيندم على ذلك حيث لا ينفعه الندم، ويعتذر لأخيه ولأهله حيث لا يفيده الاعتذار، ويطالب بالقصاص، والقصاص حق يجب الوفاء به – وهو نوع من العقاب الدنيوى. أما فى الآخرة فالعقاب أشد والعذاب أكبر.

وما أغناه عن ذلك لو كف عن الهذر والتزم الجد فى معاملته لأخيه ولم يلعب بالنار ويرتكب هذه الأحموقة التى ليس من شأن المؤمن أن يقدم عليها وهو يعلم أن الشيطان وراءها، وأن الشر يتبعها.

ولا شك أن رفع السلاح على من ليس له بعدوّ سفه وجهالة واستخفاف لا مبرر له. فلا يقولن قائل: أنا أداعبه وأمزح معه وأختبر شجاعته ونحو ذلك من الأقوال التى لا تسلّم له فى مثل هذه الأمور.

وحرف لعل فى الحديث ليس للترجى كما هو شأنه فى الغالب، ولكنه هنا للإشفاق ، كقولك: سأزور أخى فلاناً لعله يكون مريضاً، أى أخشى أن يكون كذلك وأشفق عليه من المرض.

وروى: «لعل الشيطان ينزغ» بالغين المعجمة – أى المنقوطة – فيكون المعني يلقي فى يده الإغراء فترتفع وتقترب من أخيه فيصيبه فى مقتل أو يجرحه جرحاً بالغاً فتقع الفتنة بين أسرتيهما ولا يحسمها إلا القصاص.

وهذا النهى للتحريم فلا ينبغى على المسلم أن يرفع على أخيه السلاح مهما كان الأمر، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره كما جاء فى الحديث الذى سبق بيانه فى هذا الكتاب.

* * *

ويقاس على الإشارة بالسلاح كل ما يخيف المؤمن أو يصيبه بالضرر؛ فإن الإسلام مبنى على العدل المطلق وعدم المضارة فى النفس أو فى المال.

وقد روى البخارى فى هذا حديثاً عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إذا مر أحدكم فى مسجدنا أو فى سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها - أو قال : فليقبض - بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها شىء».

فأين الإسلام الآن من أولئك الذين يسدون الطريق على المارة بأمتعتهم وسياراتهم الراكضة على الأرصفة ، وما يلقونه من مخلفات قذرة فى الشوارع العامة والحارات والأزقّة، ويلقون بالقمامة من أعلى على جيرانهم ويؤذونهم بشتى أنواع الأذى المادى والمعنوى ولا يراعون حرمة الجوار، ولا يبالون بالآداب العامة التى ينبغى على كل مسلم أن يتحلى بها ولا يتخلى عنها تحت أى ظرف من الظروف ما لم يكن مضطراً فى بعض الأحوال.

ومن نظر فى تعاليم الإسلام وجدها تقوم على العدل والفضل والاحترام المتبادل بين الناس.

يقول الله عز وجل : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظُكم لعلكم تَذَكَّرون﴾ (١) .

وسيأتى لهذا مزيد بيان عند شرح قوله ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار».

والله هو الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١) النحل آية: ٩٠.

(١٦٤) من استعاذ بالله فأعيذوه

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه» (١).

* * *

هذه الوصية الغالية تدعونا إلى التأدب مع الله عز وجل، والتأدب مع الناس.

والتأدب مع الله من أعظم المقامات التى يرتقى إليها الراسخون فى العلم، ومن خلاله يكون الأدب مع الناس؛ لأن العبد إذا عرف الله بأوصافه الكمالية على قدر طاقته البشرية - عرف ما يحبه الله ، فأتى به على أكمل وجه ، وعرف ما يبغضه فاجتنبه؛ حياءً منه وطاعة له، وابتغاءً لمرضاته وطمعاً فى عظيم فضله وواسع رحمته.

وإذا أردنا أن نُعَرِّفَ الأدب مع الله قلنا : إنه المراقبة التامة لله فى جميع الأقوال والأفعال والأحوال بقدر الطاقة البشرية، بحيث لا يراك الله حيث نهاك ولا يفتقدك حيث أمرك.

وأما التأدب مع الناس النابع من الأدب مع الله فهو أن تطيع الله فيهم إن عصوه فيك، فهذا هو منتهى الأدب مع الناس بإيجاز. وربما يأتى له مزيد بيان فى وصية أخرى يكون بها أليق.

ومن نظر فى هذه الوصية بعقله وقلبه - أبصر فيها سماحة الإسلام فى أسمى درجاتها وأرقى معانيها.

والسماحة شىء يعرف ولا يوصف، يصدر من أعماق القلوب المؤمنة وفق الفطرة التى فطر الله الناس عليها؛ فالإسلام دين قَيِّم فى ذاته، قائم على العدل

---

(١) رواه أحمد فى مسنده: جـ ٥ حديث رقم:٦١٠٦

ومراعاة الفضل فى جميع المعاملات بلا استثناء، هو دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويدعو إلى الخير والبر ، والعفو والصفح الجميل.

فتعالوا بنا ننظر فى هذه الوصية لنأخذ منها بقدر طاقتنا ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا وعلى الله قصد السبيل.

* * *

قوله ﷺ : «من استعاذ بالله فأعيذوه» دعوة إلى السلم والعفو والتَّرَيُّث فى اتخاذ القرار وإصدار الحكم.

والمعنى : من لاذ بالله واعتصم به منكم – فأجيروه؛ تأدباً مع الله عز وجل، ورحمة به وعطفاً عليه بأهله، وقدوة لغيركم فى هذا؛ فهو نوع من التجمل المحمود فى أغلب الأحوال، وفيه ما فيه من إظهار سماحة الإسلام بالفعل لا بالقول فحسب؛ فإن المسلم ينبغى أن يعطى المثل من نفسه فى الصبر والجلد وقوة التحمل ، والعفو عند المقدرة.

وغالباً ما يكون هذا المستعيذ ممن يستحق الرحمة؛ لعجزه عن المقاومة، أو ضعفه عن تحمل ما أصابه.

وربما يكون اعتصامه بالله ناشئاً عن ميله إلى السلم وبغضه للشقاق، وحبه للوفاق وشعوره بالندم وعزمه على التوبة النصوح.

ومن هنا يجب النظر فى عموم هذا الأمر؛ لتخصيصه بالقرينة؛ لأن الذى يستعيذ بالله واحد من ثلاثة:

١ – فهو إما أن يكون محتالاً، يريد التخلص مما سيقع فيه حتماً من العقوبة التى يستحقها، ريثما يتمكن ممن أعاذه فيفعل به مثل ما فعل وأكثر، فهذا معتد ظالم غاشم أفاك أثيم، لا يستحق منا أن نقدم له الأمان من أنفسنا أو نعطيه الدَّنِيَّةَ فى ديننا؛ فالمؤمن كَيِّسٌ فطن ، يُقَلِّبُ الأمر على وجوهه المحتملة ، وينظر فى كل وجه ببصيرته المستنيرة، ويُقَدِّرُ لكل وجه قدره، ويدرك من وراء هذا التقدير أبعاد الأمور، فيحكم بما يأمره به دينه وما يمليه عليه ضميره.

فإن رأى فى هذا المستعيذ نفاقاً ولؤماً فلا يُعذه ولكن يأخذ حق الله منه.

يقول الله عز وجل ﴿ وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (١).

أى: فى أى وقت تتوقع من قوم خيانة فاطرح العهد الذى بينك وبينهم وأعلمهم بذلك، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، فإما أن يخافوا ويرجعوا عن غَيِّهم، وإما أن ينتظروا منك حرب لا هوادة فيها؛ دفاعاً عن الدين وصيانة للحرمات.

قال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٢).

٢ - وإما أن يكون هذا المستعيذ بالله عاجزاً عن المقاومة ولا يتوقع منه الشر - إن نحن أجرناه وتأدبنا مع الله فى شأنه - فلْنُجِرْه، لعله يتوب إلى ربه ويصلح من نفسه، ولكن ينبغى أن نكون منه على حذر.

٣ - وأما الثالث: فهو الكريم الذى أعيته الحيل عن تحصين نفسه، وانقطعت به السبل عن إحراز ماله، ولم يجد ملجأ يأوى إليه، وكان فى حاجة ماسة إلى العون والحماية - فهذا وأمثاله يجب علينا أن نجيره من عدوه، وأن نعينه فى أمر معاشه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. والطاعة على قدر الطاقة.

وهذا الوجوب على الكفاية لا على التعيين.

والواجب على الكفاية هو الذى إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

ولا شك أن الكريم يملكه حسن المعاملة، ويترك فى نفسه أثراً طيباً للغاية، ويدفعه إلى أن يقابل الإحسان بمثله أو بأعظم منه، ويشعره بأن الناس لا يزالون بخير، وتتوالى عليه المشاعر الجياشة بالحب، حتى يكون مثلاً لغيره فى النبل والمعروف، النجدة والشهامة، والمروءة والكرم.

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُو فَلَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

---

(١) الأنفال: ٥٨.

(٢) البقرة: ١٩٣.

والناس أصناف لا تكاد تنحصر، وكل صنف من الناس له معاملة خاصة تليق به، وقد رسم لنا الدين الخطى فى معرفة المؤمن من الكافر، والبار من الفاجر، والعاقل من الأحمق، ووضع لنا القواعد التى نتعامل معه على أساسها، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما نحتاج إليه إلا شملها تشريعه ووسعها بيانه.

ومن هنا كان من الواجب علينا ألا نأخذ بعموم النص إذا وجدنا قرينة تصرفه عن العموم، فليس كل من استعاذ بالله أعذناه، وليس من أعذناه مرة فوجدناه لئيماً يتمادى فى الشر - يجب علينا أن نعيذه مرة أخرى؛ فإن ذلك يدعوه إلى التمرد أكثر وأكثر، ونكون بذلك قد جنينا عليه وأسأنا إلى أنفسنا.

فمن الواجب علينا أن نعامل اللئيم معاملة تردعه عن الشر، وتدفعه إلى التوبة والإقلاع عن الذنب.

إن أنت أكرمتَ الكريمَ ملكته ... وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمردا
وَوَضْعُ النَّدَى فى مَوْضِعِ السيف بالعلى ... مضرٌ كوضعِ السيفِ فى موضع الندى
ومن يجعل الضرغامَ للصيد بازَه ... تَصَيَّدَهُ الضرغامُ فيما تَصَيَّدا (١)

وقد كان النبى ﷺ يعيذ من استعاذ بالله؛ تأدباً مع الله عز وجل، ورحمة بالمستعيذ، حتى ولو أدى ذلك إلى ضياع حق من حقوقه.

* * *

وقوله ﷺ: «ومن سألكم بالله فأعطوه» قاعدة أخرى من قواعد الأخلاق السامية، تعلمنا الأدبَ مع الله عز وجل والرحمةَ بذوى الحاجات.

وهذه القاعدة ترجمة لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (٢). أى واتقوا الله الذى يسأل به بعضكم بعضاً، واتقوا قطيعة الأرحام.

---

(١) من قصيدة للمتنبى يمدح فيها سيف الدولة.

(٢) النساء: ١.

وهذه الآية يأمرنا الله فيها بما يحفظ علينا التآلف والتراحم، والتآخي والتعاون على البر والتقوى، وتناسى ما قد يكون بيننا من الخصومات والمشاحنات؛ حتى نتعايش على الحب المتبادل فى أمن وسلام.

وهذه القاعدة عامة لها مستثنيات، فيخرج منها من سألنا بالله أن نعطيه شيئاً ليس من حقه، أو لو أعطيناه له لفسد أو ظلم غيره.

وكذلك يخرج منه ما لا نستطيع أن نعطيه إيَّاه.

فالأمر فى الحديث إذاً محمول على أمرين:

الأول: أن يكون فى الإعطاء مصلحة للسائل لا تضر بالآخرين؛ إذ لا ضرر ولا ضرار (١) كما قال الرسول ﷺ.

الثانى: أن يكون ما طلبه منا فى حدود قدرتنا وطاقتنا، ولم نكن فى حاجة إليه.

قال تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (٢).

والعفو في الآية معناه: الزائد عن الحاجة، الذى يسهل على النفس بذله.

وقال جل وعلا: ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ (٣).

وليس الأمر بالإعطاء فى الحديث قاصراً على الأمور المادية، بل هو عام فى الماديات والمعنويات، كإعطاء الأمان، وإعطاء العهود، وإعطاء العلم والنصح، وإعطاء الفرصة للتريث فى الأمر وغير ذلك. وهذا هو السر فى حذف المفعول؛ إذ لم يقل: من سألكم كذا وكذا .. فأعطوه كذا وكذا..

وهناك من يتخذ السؤال حرفة يتكسب منه وهو قادر على العمل، فهذا لو سألنا بالله ألف مرة لا نعطيه؛ فالصدقة لا تجوز عليه، وفى إعطائه تشجيع له على التمادى فى هذا العمل المخزى له ولبلده.

---

(١) حديث «لا ضرر ولا ضرار» رواه مالك فى الموطأ.

(٢) البقرة من الآية: ٢١٩.

(٣) الطلاق: من الآية: ٧.

وعلينا أن نحضهم على العمل وننهاهم بشدة عن التسول، ونمنعهم بالقوة لو أبوا أن يقبلوا النصح.

وهناك قوم يجرى السؤال بالله على ألسنتهم من غير قصد، فيقول لك الرجل منهم: والله لو سمحت أعطنى كذا وكذا، ويكرر ذلك عليك، فهذا لا تعبأ به كثيراً ولكن تصرف معه بما يمليه عليك ضميرك ويأمرك به دينك.

واستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك وأفتوك [1] كما قال الرسول ﷺ.

* * *

وقوله ﷺ: «ومن دعاكم فأجيبوه» قاعدة أخرى من قواعد الخلق الفاضل والسلوك النبيل.

فإجابة الداعى من الأمور التى تعتريها الأحكام الخمسة، وهى: الوجوب، والندب، والكراهة، والحرمة، والإباحة.

ويختلف الحكم باختلاف الداعى والمدعو وما يدعى إليه، ويختلف - أيضاً - باختلاف الظروف والأحوال.

ويستطيع المؤمن بنور بصيرته مع شىء من العلم بأحكام الدين أن يفتى نفسه بأن إجابة هذه الدعوة فرض أو مستحب أو مكروه أو حرام أو هى من الأمور المباحة التى إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها.

فمن دعا مثلاً رجلاً إلى أمر من الأمور الدينية وكانت صحة هذا الأمر وقبوله متوقفة على حضوره كانت الإجابة واجبة.

كدعوة العوام قارئاً يؤمهم فى الصلاة؛ فإنه يجب عليه أن يجيبهم إلى هذه الدعوة ويتقدم للصلاة بهم، ويتعين ذلك عليه إذا لم يكن فيهم من يحسن الصلاة.

---

(١) هو جزء من حديث رواه أحمد فى مسنده وغيره.

وكذلك إذا دعا الناس رجلاً لإنقاذ غريق ولم يكن فيهم من يستطيع إنقاذه غيره.

أما إن كان فيهم من يستطيع إنقاذه فقام بذلك - فقد سقط عنه الواجب، فإن لم يقم به غيره - تَعَيَّنَ عليه، ويرتكب إثماً كبيراً إذا قَصَّرَ فى ذلك، ويكون كأنه قتله.

ومن دعا رجلاً إلى وليمة استحب له أن يجيب الداعى ما لم يكن فيها ما يكره.

وإذا عزم على عدم الحضور فليعتذر إليه سلفاً؛ حتى لا يعمل له حساباً ويدعو غيره يحل محله إن أراد ذلك.

أما أن يقبل الدعوة فى الظاهر ويعزم على عدم الحضور، ويقول فى نفسه: أمتنع عن الحضور وأعتذر له بعد ذلك - فإنه يكون مخلفاً للوعد، وخُلْفُ الوعد علامة من علامات النفاق.

ومن دُعِىَ إلى أمرٍ من الأمور التى لا يستطيع أن يؤديها إلا بمشقة - كره له أن يجيب الدعوة؛ دفعاً للمشقة ورفعاً للحرج.

فإن لم يكن هناك مشقة استحب له أن يجيب الداعى، إذا كان يعلم أن الداعى يعتب عليه إذا لم يحضر؛ فالمحافظة على الألفة وحسن الصلة من الأمور التى رَغَّبَ فيها الشرع ترغيباً واسع المدى.

ومن دعى إلى أمر فيه معصية الله عز وجل - حرمت عليه الإجابة.

والأمر فيما ذكرته لك لا يحتاج إلى مزيد بيان؛ فأنت بعقلك ونور قلبك تستطيع أن ترى رأيك فى الدعوة التى ينبغى أن تجاب والتى لا ينبغى أن تجاب.

* * *

وقوله ﷺ: «ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه» قاعدة من القواعد التى يبنى عليها التكافل الاجتماعى بوجه عام.

فصانع المعروف ينبغى أن يكافأ على معروفه بأكثر مما أتى به أو بمثله؛ عملاً بعموم قوله تعالى: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾ (١).

ومن عجز عن المكافأة تماماً دعا له بخير؛ فإنه يرضى منه بالدعاء؛ لعلمه بأنه عاجز عن مكافأته، بل ربما يكون هو فى حاجة إلى دعائه أكثر من مكافأته، وعسى أن يكون الدعاء مقبولاً، فيتولى الله مكافأته على النحو الذى يرضاه وهو أكرم الأكرمين.

وأحياناً يسدى المؤمن لأخيه معروفاً من أجل أن يدعو له لا من أجل أن يكافئه عليه بشىء مادى.

والتجارة مع الله أنواع كثيرة لا تنحصر، والعاقل من يعرف كيف يتاجر مع الله عز وجل بما أتيح له من أعمال البر، وهى بعيدة الأغوار واسعة المدى.

يقول الله عز وجل: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (٢).

ويقول عز جاهه وعظم شأنه: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٣).

* * *

(١) النساء: ٨٦.
(٢) آخر العنكبوت
(٣) التغابن: ١٦.

(١٦٥) لا هجرةَ بعد الفتح

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال النبى ﷺ : «لا هِجْرَةَ بعد الفتح، ولكن جِهادٌ ونِيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانفروا» (٤).

*   *   *

الهجرة فى سبيل الله مَحَطُّ أنظار المسلمين ومنتهى بغيتهم فى كل زمان ومكان، لا يغفلون عنها بجمع حطام الدنيا والتفانى فى طلبها، كما يفعل الكثير ممن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، فهم مهاجرون فى سبيل الله دائماً إما بأموالهم وأنفسهم أو بنياتهم.

فالهجرة هجرتان: هجرة بالجسد، وهجرة بالروح. وإن شئت قلت: هجرة بالعمل، وهجرة بالنية.

والهجرة بالجسد هجرتان: هجرة طلب، وهجرة هرب.

والهجرة بالروح هجرتان أيضاً: هجرة من المعاصى إلى الطاعات، وهجرة من الله إليه، إذ لا منجاة منه إلا إليه.

والهجرة بالعمل هجرة بالجسد والروح معاً.

والهجرة بالنية هى المُعَوَّلُ عليها فى صحة الأعمال وقبولها.

وقد تكلمنا عن الهجرة فى سبيل الله بشىء من التفصيل فى حديث: «سافروا تربحوا» (٢) .

وهذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه والنظر فى مقاصده الشرعية ولطائفه البيانية، يتضمن ثلاثة أصول رئيسة:

الأصل الأول: فى قوله ﷺ : «لاهجرة بعد الفتح».

---

(٤) رواه البخارى ٧ / ١٧٨، ومسلم حديث رقم: ١٨٦٤، وأبو داود رقم: ٢٤٨٠ من حديث ابن عباس.

(٢) الوصية رقم: ١٠٤.

والأصل الثاني: في قوله: «ولكن جهاد ونية».

والأصل الثالث: في قوله: «وإذا استنفرتم فانفروا».

وإليك بيان هذه الأصول الثلاثة وما يتعلق بها من أحكام وحكم.

*　　*　　*

قوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» جملة خبرية في اللفظ طلبية في المعنى، أي: لا تهاجروا من مكة بعد أن فتحها الله عليكم ودانت لكم رقاب المشركين وأمنتم على أنفسم وأموالكم من مكايدهم.

وجاء الأمر بأسلوب الخبر لأمرين متلازمين:

الأول: لحكاية الحال، كأن الأمر بعدم الهجرة واقع فعلاً لا يحتاج إلى تنبيه ولا إلى إرشاد؛ لعدم وجود ما يدعو إليها، ولأن من كان في مكة فإنه يحصل على أصول النعم الدنيوية والأخروية معاً.

وقد ذكرنا في وصية سابقة أن النعم الدنيوية كلها مجموعة في أصلين: هما الأمن والرخاء، وهما متحققان في مكة.

قال جل شأنه: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ (٢).

وقال عز من قائل: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (٣).

والرخاء يتبع الأمن ويمشي في ركابه، والأمن مشتق من الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة.

والمؤمنون في مكة يجدون الخير قادماً عليهم من كل فج عميق؛ تحقيقاً لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (٤).

---

(١) قريش: ٣ - ٤.　　(٢) البقرة: ١٢٥.

(٣) القصص: ٥٧.　　(٤) إبراهيم: ٣٧.

وصلاتهم فى البيت بمائة ألف صلاة، فهم بالطبع لا يفضلون الخروج منها إلى غيرها، فكان قوله ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح » حكاية حال وإخباراً بما هو واقع. هذا هو الأمر الأول.

وأما الأمر الثانى فهو المقصود بالذات، وكان الأمر الأول توكيداً وتقريراً له على النحو الذى كثر وروده فى القرآن.

كقوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾[1].

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾[2].

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[3].

﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾[4].

﴿لا تبديل لخلق الله﴾[5].

والمعنى: فليتربصن، وليرضعن، وازرعوا، ولا تبدلوا خلق الله، أى فطرته التى فطركم عليها.

وهو أسلوب بليغ ينبغى أن يفطن إليه طلاب العلم ويسبروا أغواره.

وهناك تأويل آخر حكاه أهل العلم فى معنى هذه الفقرة من الحديث فقالوا: ليس المراد بقوله: « لا هجرة بعد الفتح » النهى عن الهجرة، ولكن المراد – والله أعلم – أنه لا هجرة تعدل الهجرة قبل الفتح.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾[6].

---

(١) البقرة: ٢٢٨. (٢) البقرة: ٢٣٣. (٣) البقرة: ٢٣٤.
(٤) يوسف: ٤٧. (٥) الروم: ٣٠. (٦) الحديد: ١٠.

والتأويلان فى نظرى صحيحان متلازمان، لا يأباهما النص.

فيكون المعنى: لا هجرة أعظم من الهجرة قبل الفتح، ولا تهاجروا من مكة بعد أن فتحت لكم إلا لضرورة؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات.

أما الهجرة قبل الفتح أفضل من الهجرة بعدها فلا نزاع فيه؛ لأنها كانت طلباً لنشر الإسلام وتحقيقاً للموقع الذى ينطلقون منه إلى محاربة الشرك وأهله، وهرباً من الفتنة وهى الكفر والضلال، ولأن المسلمين الذين هاجروا مع النبى ﷺ كانوا هم الصفوة من أصحابه والخيرة من رجاله.

ولذلك كان نفى الاستواء فى الآية بين المهاجرين قَبْلُ والمهاجرين بَعْدُ مُنْصَبًّا على الأشخاص لا على أعمالهم، فالكل قد قاتل وأنفق.

ومعنى الآية كما قال الرازى: لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح، ومن أنفق بعد الفتح، كما قال تعالى: ﴿لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ إلا أنه حذف لوضوح الحال.

والمراد بهذا الفتح فتح مكة؛ لأن إطلاق لفظ الفتح فى المتعارف ينصرف إليه.

وقد جعل علماء التوحيد هذه الآية دليلاً على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ قبل الفتح؛ وذلك لأنهم نصروا رسول الله ﷺ وهم قلة وأعداؤهم كثرة، وتحملوا عبء الدعوة فى وقت عصيب.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أصحابى، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (٢) اهـ.

* * *

(١) التوبة: ١٠٠.
(٢) رواه البخارى.

وقوله ﷺ: « ولكن جهادٌ ونية »معناه: ولكن الذى آمركم به وأرضاه لكم هو الجهاد في سبيل الله، والتوجه إلى الله ، وحده بالأعمال الخالصة من شوائب الشرك والرياء.

والجهاد معناه فى اللغة: بذل الجهد فى الطلب.

ومعناه فى الشرع: بذل الجهد في قتال العدو؛ لإعلاء كلمة الله تعالى.

وقسم العلماء الجهاد إلى قسمين: جهاد النفس، وجهاد العدو.

والحديث عام يشمل القسمين معاً، وهما متلازمان، فلن يستطيع المسلم أن يجاهد عدوه ويحرز النصر من الله عليه إلا إذا جاهد نفسه أولاً، فهذا هو الجهاد مع الله حقاً، ويأتى جهاد العدو تبعاً، ولذلك سماه العلماء: الجهاد الأكبر.

يقول الله عز وجل: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (١) .

أى: جاهدوا أنفسهم وشياطينهم وأهوائهم، وجاهدوا الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة؛ فكل ذلك جهاد فى سبيل الله.

وأما النية فمعناها: الإخلاص لله تبارك وتعالى، وهى التى تدور عليها الأعمال صحة وقبولاً، وهى بهذا الاعتبار أصل أصول الدين.

قال تعالى: ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ (٢) .

وقال جل وعلا: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (٤) .

والنية تسبق العمل فى الحصول على الأجر، فإذا نوى العبد عمل شيء

---

(١) آخر العنكبوت. (٢) البينة: ٥. (٣) الكهف: ١١٠.

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وغيرهم.

لوجه الله تعالى ولم يوفق إليه ، أو سبقه به غيره - فإنه يؤجر على نيته كما لو كان قام به .

فقد روى الشهاب في مسنده أن النبي ﷺ قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وعند النسائي من حديث أبي ذر : « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نواه » .

وفي حديث جابر بن عتيك أن النبي ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده في سكرات الموت، فقالت ابنته : والله إن كنتُ لأرجو أن تكون شهيداً، قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته » (١) .

* * *

وقوله ﷺ : « وإذا استنفرتم فانفروا » أي : إذا دعيتم للنُّفْرة، وهي الخروج للقتال فاخرجوا؛ فإن الجهاد باقٍ إلى يوم القيامة، وهو فريضة محكمة تتعين على كل مسلم بالغ عاقل ، قادر على القتال أو على تمويل المقاتلين، أو على القيام بمصالحهم ومصالح أولادهم في غيبتهم .

وهو من أفضل الأعمال وأَجَلِّهَا قدراً وأعظمها أجراً .

يقول الله عز وجل : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) . أي : اخرجوا للقتال على كل حال في المنشط والمَكْرَه، والغنى والفقر، والقوة والضعف .

ويقول جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من

---

(١) الحديث بطوله رواه مالك في الموطأ في الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت، ورواه أيضاً أبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٢) التوبة : ٤١ .

تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (١) .

وقال جل وعلا: ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فَضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

وقد أكد الله هذا الوعد الكريم بقوله جل وعلا: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حَقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أى العمل أفضل؟. قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا؟. قال :« الجهاد فى سبيل الله » .

وروى الترمذى عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال فى حديث طويل: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد » .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: دلنى على عمل يعدل الجهاد، قال: « لا أجده، ثم قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ » قال: ومن يستطيع ذلك!.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مثل المجاهد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله - كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة » .

---

(١) الصف: ١٠ - ١٣ . (٢) النساء: ٩٥ - ٩٦ .
(٣) التوبة: ١١١ .

وروى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

وروى البخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى عبس الحارثى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ومن اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار».

وروى أحمد والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من قاتل فى سبيل الله فواق (١) ناقة وجبت له الجنة».

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذه الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة، اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

وروى أحمد والترمذى والنسائى عن عثمان بن عفان قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل».

والأحاديث فى فضل الجهاد كثيرة جداً قد سبق الحديث عن بعضها، وسيأتيك طرف آخر منها، فى مواضع متفرقة.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

---

(١) فواق الناقة: هو ما بين الحلبتين، أو هو الوقت ما بين نحرها وتفريق لحمها على الناس.

(١٦٦) الرجل يجد الشيء في الصلاة

عن عباد بن تميم عن عمه : عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصارى أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل الذى يُخيل إليه أنه يجد الشيء فى الصلاة، فقال : «لا ينفتل، أو لا ينصرف، حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»(١) .

* * *

هذا الحديث أصل من أصول الإسلام استنبط منه الفقهاء قواعد فقهية يشد بعضها بعضاً، فقالوا : اليقين لا يزول بالشك، وقالوا : اليقين لا يرتفع إلا بيقين، وقالوا : يجب استصحاب الأصل وطرح الشك وبقاء ما كان على ما كان، وقالوا : الأشياء يحكم ببقائها على أصولها حتى يتيقن خلاف ذلك، ولا يضر الشك الطارئ عليها . وكلها ألفاظ متقاربة فى المعنى .

وهم متفقون على هذه القاعدة ولكنهم مختلفون فى كيفية استعمالها، على ما سيأتى بيانه فى نهاية شرح هذا الحديث .

وهذا الحديث من أمهات الأحاديث التى تعالج مرضاً عقلياً ونفسياً قد استفحل خطره واستشرى ضرره على الكثير من الناس، ولاسيما الذين أخذوا طريقهم إلى الله تبارك وتعالى، واستعانوا به على طاعته وابتغاء مرضاته، فإن هؤلاء يعمل الشيطان جهده فى صدهم عن الصراط السوى وإفساد عبادتهم بإلقاء الوساوس والشبهات فى قلوبهم وتشكيكهم فى كل شيء يتعلق بأمور دينهم .

لهذا كان النبى ﷺ يحذر أصحابه من الأخذ بالشك فى الأمور التى تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات، والتمادى فى الوساوس التى يمليها الشيطان عليهم ليلبس عليهم دينهم ويوقعهم فى حرج شديد يعوقهم عن تأدية وظائفهم الدينية والدنيوية، ويثبط هممهم عن طلب المعالى والسعى إلى ما فيه خيرهم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب لا يتوضأ من الشك، ورواه مسلم بلفظ آخر سيأتى ذكره فى الشرح . ح ٣٦٢ .

وسعادتهم فى دارى الدنيا والآخرة ، فيقول : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة» (١) .

أى : دع ما تشك فيه، واعتمد على اليقين فى شأنك كله؛ فإن اليقين صدق والصدق طمأنينة للقلب وسكينة للنفس ، والكذب على الضد من ذلك .

وقد تقدم شرح هذا الحديث (٢) .

والوسوسة خبل فى العقل أو نقص فى الدين، فإن لم يكن الموسوس مخبولاً فى عقله فهو ناقص فى دينه ضعيف فى إيمانه؛ بسبب جهله بتعاليمه، أو بسبب انخراطه فى المعاصى، أو بسببهما معاً .

وهو آفة من الآفات الخطيرة التى يصعب على المرء تلافيها إذا ما استحكمت فى العقل، وتمكنت منه؛ فهو أقوى سلاح يحارب الشيطان به بنى آدم ، ولهذا أمرنا الله أن نستعيذ به من شره وشر وساوسه كلما شعرنا بورودها على قلوبنا .

فقال جل شأنه : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾(٣) .

وقد كان النبى ﷺ يكثر من قراءة المعوذتين فى صباحه ومسائه طرداً للشيطان ودفعاً لوساوسه ، وهو المعصوم، فكيف بنا نحن!

* * *

وتعالوا بنا ننظر فى هذا الحديث أولاً ثم نعود إلى حديثنا عن الوساوس مرة أخرى حيث نتبين موقف المغالين والمعتدلين فيه .

شكا عبد الله بن زيد الأنصارى وغيره مما يجده المصلى فى صلاته من شعوره بشىء مما ينقض الوضوء قد خرج منه، وهو غير متيقن من خروجه هل ينصرف من صلاته ويتوضأ ثم يعود إليها أم ماذا يفعل؟

---

(١) رواه الترمذى. (٢) رقم ١٠ جـ١.
(٣) الأعراف : ٢٠٠ – ٢٠١ .

وهى شكوى وسؤال.

أما كونها شكوى؛ فلأنهم قد وجدوا فى ذلك حرجاً شديداً؛ فإن الرجل منهم يحسن الوضوء ويقبل على صلاته خاشعاً، حتى إذا اندمج فيها وأحس بالروح والريحان وملكت عليه صلاته مشاعره جاء الشيطان فألقى فى قلبه ما ألقى من الوساوس التى تعكر عليه صفوها، ويخيل إليه أنه قد خرج منه ريح أو نزلت منه قطرة من بول، فيذهب عنه الخشوع ويتردد فى الخروج منها والبقاء فيها فيعوقه هذا التردد عن إتمامها على الوجه الذى يرضى الله عز وجل.

وأما كونه سؤالاً فلأنهم لم يجدوا فى أنفسهم قدرة على تحمل هذا الحرج، ولم يعرفوا كيف الخروج منه فلجأوا إلى من يوحَى إليه ليجدوا عنده علاجاً لهذا الداء الخطير ، فأجابهم النبى ﷺ بجواب رفع به الحرج ودفع به المشقة، فقال: «لا ينفتل، أو لا ينصرف - شك من الراوى - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

أى حتى يتيقن من خروج الشىء الناقض للوضوء ، ولا يقطع صلاته لمجرد الشك؛ فإن ذلك يمكن الشيطان منه ويقويه على إفساد صلاته ، وهى الركن الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا أفسدها عليه فقد أفسد عليه دينه كله.

ومن جهة أخرى يغرس النبى ﷺ الطمأنينة فى قلوب المؤمنين فلا يأتيهم من قبل الشيطان شىء من وساوسه وهواجسه ، فيوصيهم أن يأخذوا باليقين ويطرحوا الشك فى الصلاة وفى سائر أمورهم الدينية والدنيوية.

فتكون هذه الوصية هى الأصل الذى يرجع إليه الفقهاء فى تقعيد القواعد التى يندرج تحتها ما جد وما يجد من شئون الدين والدنيا.

والشيطان الرجيم إذا سمع المؤذن يؤذن خرج من المسجد، فإذا انتهى المؤذن من أذانه عاد إليه فإذا أقيمت الصلاة خرج، فإذا دخل الناس فى الصلاة دخل فى قلب هذا وذاك فوسوس له بما يفسد عليه صلاته، ويسمى هذا الشيطان خنذب، كما جاء فى بعض السنن.

وعلى المسلم أن يقنع نفسه بأنه لم يخرج منه شىء مادام لم يسمع صوتاً أو يجد ريحاً، وليقل فى نفسه: هذه وساوس شيطانية.

فقد جاء فى صحيح ابن خزيمة وابن حبان ومستدرك الحاكم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الشيطان فقال: إنك أحدثت. فليقل: كذبت، إلا من وجد ريحاً بأنفه أو سمع صوتاً بأذنه».

وروى ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى سعيد أيضاً أن النبى ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الشيطان فقال: إنك أحدثت. فليقل: كذبت».

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثاً بمعنى هذا الحديث الذى نحن بصدده مع زيادة يجب التنبيه عليها هنا تتمة للفائدة.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم فى بطنه شيئاً فأشكل عليه، أخرج منه شىء أم لا، فلا يخرجنَّ من المسجد - أى من الصلاة - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

فبعض الناس يشعر بحركة غير عادية فى بطنه، ويسمع صوت ريح فيشك هل خرج هذا الريح من دبره فعلاً، أم سمع صوته من الداخل دون أن ينطلق إلى الخارج، فيتحير فى أمره، ويتردد بين الخروج من الصلاة والبقاء فيها، فيفتقد بهذا التردد الخشوع فيها وهو روحها، فيأتيه الجواب الحاسم من الصادق المصدوق ﷺ، بأن الشك لا يرفع اليقين.

وأن المعول عليه فى مثل هذه الأمور التعبدية هو البقاء على اليقين الأصلى حتى يتيقن تماماً من زواله؛ فاليقين لا يرتفع إلا بيقين كما عرفنا آنفاً.

* * *

ونعود إلى الحديث عن خطر الوسوسة فى الصلاة وغيرها من أمور الدين والدنيا. فنقول: إن كثيراً من الناس أخذوا بمبدأ الشك فى العقائد وبالغوا فى طلب اليقين وغلوا فى ذلك، حتى زاغت بصائرهم عن الحق وانحرفت بهم الأهواء عن الصراط السوى، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

وهناك قوم أدى بهم الوسواس إلى خبل فى عقولهم، واضطراب فى سلوكهم، وانحراف فى أمزجتهم، وأصيبوا من جراء ذلك بعقد نفسية خطيرة،

ليس لها علاج ميسور، كالوسواس القهرى ، والانفصام فى الشخصية ، وفقدان الذاكرة وغير ذلك مما هو معروف عند علماء النفس.

(وهناك أقوام من أهل العلم شددوا على أنفسهم وعلى الناس، فأفتوهم بما يشق عليهم قبوله وتطبيقه، وقالوا: نحن نتشدد أحياناً فى الفتوى، ونأخذ أنفسنا بالحزم فى بعض الأمور؛ سداً للذريعة، وغلقاً لأبواب التهاون والاستخفاف بالأحكام التكليفية وتمسكاً بالاحتياط، والاحتياط فى الدين أولى من التهاون فيه قطعاً،ولنا على ذلك شواهد كثيرة من السنة والأثر الصحيح عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

من ذلك قوله ﷺ: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أى دع ما تشك فيه إلى ما تطمئن إليه.

وقوله ﷺ: « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ».

وقوله ﷺ: « البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى الصدر ».

وقد وجد النبى ﷺ تمرة فقال: « لولا أنى أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها ».

قالوا: وقد أفتى مالك رضى الله عنه فيمن طلق امرأته وشك هل هى واحدة أم ثلاث: بأنها ثلاث، احتياطاً للفروج، وأفتى من حلف بالطلاق أن فى هذه اللوزة حبتين، وهو لا يعلم ذلك فبان الأمر كما حلف عليه: أنه حانث؛ لأنه حلف على ما لا يعلم. وقال فيمن طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها: يطلق عليه جميع نسائه احتياطاً وقطعاً للشك.

وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها : إنه يلزمه جميع ما يحلف به عادة، فيلزمه الطلاق، والعتاق، والصدقة بثلث المال، وكفارة اليمين بالله تعالى، والحج ماشياً، ويقع الطلاق فى جميع نسائه، ويعتق عليه جميع عبيده وإمائه، وهذا أحد القولين عندهم.

وقال كثير من الفقهاء: من خفى عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله.

وقالوا: إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجس منها ثياب، وشك فيها، صلى فى ثوب بعد ثوب، بعدد النجس، وزاد صلاة لتيقن براءة ذمته.

وقالوا : إذا اشتبهت الأوانى الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم، وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة، فلا يدرى فى أى جهة، فإنه يصلى أربع صلوات عند بعض الأئمة؛ لتبرأ ذمته بيقين.

وقالوا : من ترك صلاة يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلى خمس صلوات.

وقد أمر النبى ﷺ من شك فى صلاته أن يبنى على اليقين.

وحرم أكل الصيد إذا شك صاحبه هل مات بسهمه أو بغيره، كما إذا وقع فى الماء.

وحرم أكله إذا خالط كلبه كلباً آخر، للشك فى تسمية صاحبه عليه.

وهذا باب يطول تتبعه، فالاحتياط والأخذ باليقين غير مستنكر فى الشرع، وإن سماه بعض الفقهاء وسواساً أو غلواً.

فنحن إذا احتطنا لأنفسنا وأخذنا باليقين وتركنا ما يريب إلى ما لا يريب، وتركنا المشكوك فيه للمتيقن المعلوم، وتجنبنا محل الاشتباه لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين، ولا فى البدعة والجين) (١).

وقال أهل الاعتدال والاتباع : الاحتياط فى الدين واجب ، بشرط ألا يتعارض مع النصوص القرآنية والسنة النبوية وما عليه السلف الصالح من أصحاب النبى ﷺ، وهم أعلم الناس بالكتاب والسنة.

وقد علمنا أن الإسلام دين مبنى على اليسر والسماحة، ورفع الحرج ودفع

---

(١) انتهى بتصرف وحذف من «إغاثة اللهفان» لابن القيم جـ ١ ص ١٤٨ - ١٤٩. ط. مصطفى الحلبى.

المشقة، وقلة التكاليف والمرونة والحيوية التى جعلته صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان، فأى تشدد فى الدين يسلبه هذه الخصائص أو يسلب بعضها يكون أخطر من التهاون فيه، والفضيلة وسط بين رذيلتين فى الغالب.

وسد الذرائع أمر لابد منه ، والأخذ بالاحتياط شيء لا معدل عنه ؛ بشرط ألا يتجاوز الحد الذى ينبغى أن تعرف معالمه من الكتاب والسنة لا من أقوال الفقهاء من غير تمحيص ولا نظر.

والحق أن معرفة الوسطية بين الغلو فى الدين والاحتياط من الأمور التى تحتاج منا إلى جهد جهيد وميزان دقيق، ونظر صائب فى الأدلة من جهة، وفى تطبيقها على كل ما جدّ ويجد من شئون الدين والدنيا من جهة أخرى.

كما أن النظر فى الأدلة ينبغى أن يكون مجرداً عن الهوى الجامح والتيار المنحرف والتقليد الأعمى.

يقول الله عز وجل : ﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ (٢) .

ويقول الله جل شأنه : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (٣) .

ويقول عز من قائل : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ (٤) .

فهذه الآيات وما فى معناها دعوة صريحة إلى التمسك بالنصوص الشرعية، والوقوف عندها من غير زيادة ولا نقص.

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

فمن زاد فى الدين فقد ابتدع، ومن نقص فيه أساء وظلم، وما نشأت البدع إلا من وساوس الشيطان؛ فالشيطان اللعين يأتى ابن آدم عن طريقين: طريق الشبهات وطريق الشهوات، والأول أخطر من الثانى؛ لما فيه من التلبيس والتزييف والإغراء بهدم الدين باسم الدين.

يقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه أحمد والنسائى : «إياكم والغلو فى الدين، فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو فى الدين» .

وقال رسول الله ﷺ : «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات . رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إن هذا الدين يسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» (٢) .

فالفقه كل الفقه فى الاعتدال فى الدين، والاعتصام بالسنة، التى رسمها الله لعباده فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام.

هذا . وأكثر ما يقع الوسواس فى الطهارة والصلاة، لهذا أكثر الفقهاء فى كتبهم ودروسهم من التنبيه على ذلك والتحذير مما يعترى الصالحين منهم فى النية والوضوء والغسل، وأفعال الصلاة كلها.

* * *

ومن هذا الحديث نستنبط بعض الأحكام التى لا غنى لنا عن معرفتها.

أولها: أنه لا وضوء على من شك فى الحدث مع تيقنه من أنه توضأ ، وهذا قول الشافعية وكثير من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

وقيل : من شك فى الحدث استحب له تجديد الوضوء دفعاً للشك المنافى

---

(١) سبق شرحه رقم : ٦٤ جـ ٢.

(٢) سبق شرحه رقم : ٤١ جـ ١.

للخشوع، وهذا ما قاله جمهور المالكية ، بل أوجبه بعضهم؛ محافظة على روح الصلاة وهو الخشوع.

وثانيها : وجوب سؤال العلماء عما يحدث من الوقائع ، ووجوب الجواب على من سُئِلَ.

ويؤخذ من هذا الحديث كراهة الاستحياء فى طلب العلم؛ فلا حياء فى فهم الدين. والدين يضيع بين الحياء والكبر.

وبعد ، فهذا ما وسعنى ذكره فى شرح هذا الحديث وبيان مقاصده وقواعده وأحكامه.

نسأل الله عز وجل أن يفقهنا فى الدين ويعلمنا التأويل.

* * *

(١٦٧) إذا نَعَس أحدُكم وهو يصلى فليرقُدْ

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا نَعَس أحَدُكُمْ وهــو يُصَلِّى فَلْيَرْقُدْ حتى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّومُ؛ فإن أحَدَكُم إذا صلى وهو ناعِس لا يدرى لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»(١) .

* * *

الصلاة روحها الخشوع، والخشوع إنما يتحقق بكمال الانتباه واليقظة، وينقص إذا التفت المصلى فى صلاته، أو شُغل عنها بأى شاغل من شواغل الدنيا، أو أدركه النعاس لأى سبب من الأسباب، فعندئذ ماذا يفعل؟، هل يتمادى فى الصلاة أم يقطعها فينام حتى يستريح ويذهب عنه النوم ثم يعود إليها.

والجواب فى هذه الوصية مصحوب بعلته.

والنظر فى هذه الوصية يكشف عن سماحة الإسلام ويسره، ورفعه للحرج، ودفعه للمشقة، ورحمته لمعتنقيه

* * *

قوله ﷺ : «إذا نعس أحدكم وهو يصلى» أى كاد ينعس؛ لأنه إذا نعس فعلاً وهو يصلى لا يسمى مصلياً بل يسمى ناعساً. والنعاس لا يجعله يتم صلاته على النحو المطلوب؛ فالأولى أن يقدر فعل (كاد) هنا ليتأتى المعنى على وجهه.

والنعاس هو النوم الخفيف الذى يدرى صاحبه بما يدور حوله ويسمع كلام من هو قريب منه.

والنعاس نوعان : نوع ضعيف، وهو الذى يدرى صاحبه بما يدور حوله ونوع متوسط بين الخفيف والنوم.

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب الوضوء باب ٥٣، ورواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ١ / ٧٨٦. وغيرهما من أصحاب السنن.

وهذا النوع هو الذى لا يدرى صاحبه ما يدور حوله ، ولا يسمع من يتكلم وهو قريب منه ، لكنه لم يستغرق في النوم ويسميه الفقهاء بالنوم الخفيف .

والمالكية يقسمون النوم إلى أربعة أقسام:

نوم ثقيل طويل، ونوم ثقيل قصير. وهذان النوعان ينقضان الوضوء.

ونوم خفيف طويل وهذا يستحب منه تجديد الوضوء ، ونوم خفيف قصير وهذا لا ينقض الوضوء ولا يستحب تجديده منه .

وإذا شعر المصلى بالنعاس الخفيف أتم ما نوى أن يصليه ثم نام .

فإذا كان قد نوى أن يصلى ركعتين وغلبه النعاس بعد أن ركع الركعة الأولى فقد انعقد العمل فلا ينبغى أن يبطله، ولكن يتمه؛ لقوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .

وبعد أن يسلم من هاتين الركعتين ينبغى أن ينام قليلاً ليأخذ قسطه من الراحة ثم يعود إلى صلاته إن شاء .

فقوله ﷺ « فليرقد حتى يذهب عنه النوم » معناه : فلينم حتى يذهب عنه أثر النوم ، وهو ما بدا عليه أثناء الصلاة بسبب تعب أصابه أو طول سهر، أو امتلاء بطن ونحو ذلك .

ثم علل هذا الأمر بقوله : « فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس » أى حالة كونه ناعسا « لا يَدرى » فى هذه الحالة « لعله يستغفر فيسب نفسه » أى لعله يرجو أن يستغفر فيدعو على نفسه أو يتلعثم فى الدعاء أو يقول عن نفسه ما لا ينبغى أن يقال .

فالسب معناه الإعابة مطلقاً، واللعن والبذاءة فى الألفاظ .

والناعس فى حالة لا يكون عقله حاضراً فيها ولا سيما إذا اشتد نعاسه . فلا يليق به حينئذ أن يقف بين يدى الله عز وجل وهو فاقد العقل أو فاقد الوعى .

وحرف لعل للترجى وهو فى جانب المصلى، أى لعل المصلى يرجو شيئاً لم يتحقق له بسبب الغفلة التى صحبت النعاس أو يقع منه خلاف ما يرجو .

ويصح أن تكون «لعل» للإشفاق من قبل النبي - ﷺ - أي أشفق عليه من أن يريد أن يستغفر فيحمله النعاس على ما لا يرجوه في صلاته، ويخلط عليه فيها.

ومثال «لعل» الدالة على الإشفاق قول الرجل: سأزور أخي لعله مريض. أي أخشى أن يكون مريضاً وأشفق عليه من ذلك.

وهناك فرق بين الصلاة المفروضة التي ضاق وقتها وصلاة التطوع.

أما الصلاة المفروضة التي ضاق وقتها فإنه يؤديها ما استطاع ويغالب النوم حرصاً على نها في وقتها.

وهذ التخصيص مفهوم من أدلة أخرى ورد فيها التحذير من تأخير الصلاة عن وقتها.

وإذا أراد أن يصلي صلاة مفروضة ووقتها متسع جاز أن ينام قليلاً ليأخذ قسطاً من الراحة ثم يقوم فيصلي.

وأما النافلة فإنه لا يتمادى فيها إذا شعر بالنعاس ولكن يتم الركعتين ثم ينام - كما أشرنا -.

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث - فوق ما ذكرنا - وجوب الأخذ بالاحتياط في الصلاة؛ لأن النبي ﷺ قد علل الأمر بأمر محتمل الوقوع غالباً؛ فإن الذي يصيبه النعاس لا يدري على وجه التحديد ما يتفوه به في صلاته.

ويؤخذ منه أيضاً الحث على الخشوع وحضور القلب في الصلاة حتى تقع الصلاة على النحو الأكمل بقدر الطاقة البشرية.

ويؤخذ منه كذلك أن المسلم ينبغي أن يؤدي ما عليه من الواجبات وهو بكامل قواه العقلية والنفسية - ولا سيما - في الصلاة بوصفها صلة وثيقة بين العبد وربه، وبوصفها عماد الدين وركنه الركين، وحضور القلب فيها من الضروريات التي تجعلها مقبولة عند الله عز وجل؛ فالصلاة ذكر والنعاس غفلة،

فكيف يجتمع المتناقضان فى عبادة الشأن فيها أن يكون مؤديها على وعى تام بما يفعل وبما يقول؟ !

ويستفاد منه أن المسلم ينبغى عليه أن يهيئ نفسه للصلاة قبل الدخول فيها فينام ليستريح، ثم يصلى إن كان فى الوقت متسع، ويأكل إن كان جائعاً، ولا سيما إذا حضر الطعام ؛ حتى لا تنازعه نفسه فى أمره فيشتغل به قلبه، ويعد المكان المريح الذى لا يجلب عليه النوم ولا الضوضاء ليتمكن من تأديتها بخشوع وخضوع، ويطرد من نفسه قبل الدخول فيها شواغل الدنيا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ولكى لا ينام فى الصلاة عليه ألاَّ يأكل كثيراً؛ فمن أكل كثيراً، نام كثيراً ومن نام كثيراً فاته خير كثير.

ويستحب للمسلم إذا أراد أن يكثر من الصلاة – ولا سيما فى الليل – أن ينشط نفسه إذا أحس بالكسل، وأن يصلى فى مكان مستنير؛ لأن الظلام يجلب النوم والكسل – فى الغالب – .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

*   *   *

(١٦٨) بادروا بالأعمال ستًّا

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشمسِ من مغربِهَا، أو الدُّخَانَ، أوَ الدَّجَّالَ، أو الدَّابَّةَ، أوَ خَاصَّةَ أحدكم، أو أَمْرَ العَامَّةِ»(١).

* * *

كان النبى – ﷺ – يُذَكِّرُ أصحابه بأيام الله، وسننه فى خلقه، ويحدثهم عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، والمباشرة وغير المباشرة، ويحذرهم من الفتن: صغيرها وكبيرها، وظاهرها وباطنها، فجمعوا من ذلك قسطاً كبيراً من العلم بأشراطها، ونالوا حظاً وافراً من العظات والعبر؛ فعاشوا بين الخوف والرجاء، ففازوا بخيرى الدنيا والآخرة؛ لأنهم تعلموا كيف تكون الخشية من الله، وكيف يكون الطمع فى رحمة الله.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ (٢).

فهم العلماء حقاً، بل هم الراسخون فى العلم. ونحن قد تلقينا منهم شيئاً مما عملوه وأمروا بتبليغه، وكتموا عنا ما فُضِّلُوا به علينا وخصوا به دوننا؛ إذ لا طاقة لنا بفهمه وتحصيله.

ونحن أمام ما حصلنا عليه من علمهم عاجزون عن حفظه كله وعن فهم أكثره، ولا سيما فيما يتعلق بأشراط الساعة؛ فإنهم قد سمعوا فيها الكثير والكثير من الرسول ﷺ، حتى ليبدو لنا أنهم استوعبوها حفظاً ودرساً، فكانوا من أشد الناس حذراً منها، حتى كان يُخَيَّل لأحدهم أن هذه الأشراط قريبة من ساحته تُصَبِّحُهُ أو تُمَسِّيه.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فى بقية من أحاديث الدجال، حديث رقم: ٢٩٤٧.

ورواه ابن ماجه بألفاظ متقاربة، فى كتاب الفتن حديث: ٤٠٥٦.

(٢) فاطر: ٢٨.

فقد قال النَّوَّاسُ بن سَمْعَان – رضى الله عنه –: ذكر النبى ﷺ الدجال الغداة (أى بعد صلاة الصبح) فخفض فيه ورفع (أى بالغ فى تقريب أوصافه لهم بأسلوبه الحكيم) حتى ظننا أنه فى طائفة النخل (أى حتى وقع فى قلوبنا أنه فى هذا النخل الذى نراه حول بيوتنا).

قال: فلما رحنا إلى رسول الله – ﷺ – عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ثم رفعت، حتى ظننا أنه فى طائفة النخل، قال: «غيرُ الدجال أخوفنى عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامْرُؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم ... وساق باقى الحديث» [1].

إن النفوس المؤمنة لا تأمن لمكر الله أبداً، ولكنها تخشاه وتتقيه دائماً وفى جميع المواطن.

﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [2].

﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ [3].

إن أصحاب النبى ﷺ كانوا هم خلاصة الخلاصة، إذا سمعوا الموعظة خُيِّلِ إليهم أن الساعة قد قامت، والنار قد أعدت للغاوين، والجنة قد أعدت للمتقين، وعاشوا فى هذه الموعظة معايشة من يسمع ويرى حتى أتاهم اليقين، فرضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

وهذه الوصية من عشرات الوصايا التى رواها التابعون عنهم بأمانة ووعى وفقه؛ لكى نكون على بصيرة من أمرنا قبل أن يأتى أمر الله فينا.

وروح هذه الوصية وريحانها وسرها وأثرها فى *قوله عليه الصلاة والسلام:* «بادروا بالأعمال ستاً»، فإنها قد جمعت فى طَيَّاتها عدة أمور يجب أن تؤخذ فى الاعتبار.

---

(١) رواه ابن ماجه بطوله فى كتاب الفتن حديث رقم: ٤٠٧٥.

(٢) الأعراف: ٩٩. (٣) النور: ٥٢.

أولها: رحمة النبي ﷺ - بهذه الأمة، وحرصه على إيمانها، وإشفاقه عليها من عذاب الدنيا والآخرة، وهو الأمر الذى يجعلنا نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا، ولِمَ لا وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز: ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (١).

وقال جل شانه: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (٢).

وثانيها: أن على المسلم أن يُعِدَّ للأمر عدته، ولو بدا له أنه بعيد، لا يحدث فى عصره.

فقد كان أصحاب النبى - ﷺ - يعلمون أن بينهم وبين طلوع الشمس من مغربها زمناً لا يدركونه ولا يدركه أبناؤهم ولا أبناءُ أبنائهم، وذلك من خلال ما أخبرهم النبى ﷺ به من الحوادث الكثيرة التى تتقدم هذه العلامة، ولكنهم مع ذلك كانوا يخافون ويحذرون، ويخشون الله فى السر والعلانية، ويتوقعون حدوث شيء قبل شيء؛ لعلمهم أن الله يفعل ما يريد، فهم كما أشرت لا يأمنون مكر الله.

وقد كان أبو بكر رضى الله عنه يقول: «لو وَضَعْتُ إحدى قدمى فى الجنة والآخرى خارجها ما أمنت مكر الله».

فلا ينبغى أن يقول قائل: إن هذه العلامات الدالة على قرب الساعة لا ندركها فلا نخشاها، ولكن يقول: وما يدرينى لعلها تأتى وأنا حى.

إن الله عز وجل يقول: ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ (٣).

وثالثها: أن المسلم الذى يخشى الله ويتقيه ينبغى أن يضاعف من الأعمال الصالحة؛ لأنها هى سفينة النجاة يوم القيامة، وهى التى يترتب عليها رفع الدرجات فى الجنة.

---

(١) الأحزاب: ٦. (٢) التوبة: ١٢٨. (٣) الأحزاب: ٦٣.

أما دخولها فبرحمه الله عز وجل.

فإذا كثرت الأعمال الصالحة وصدرت من قلب مخلص لله عز وجل - فإنها تكون برهاناً صادقاً على صحة الإيمان وكماله. والإيمان مع صاحبه في الجنة ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾.

رابعها: معرفة الأعمال المنجية من عَذَاب الله حتى يتسنى للعامل أن يختار منها أحسنها وأحبها إلى الله عز وجل.

ومن أجلِّها التوبة النصوح، والعمل بالكتاب والسنة، والإنابة والإخلاص لله وحده في كل صغيرة وكبيرة.

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقولَ نفس يا حسرتَى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقولَ لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ﴾(١).

وفي ذكر العدد هنا فائدة وهى الضبط والحفظ ؛ فإن المستمع لكلام النبى - ﷺ - إذا نسى واحدة سأل عنها من كان معه فى المجلس، أو سأل عنها الراوى، أو بحث عنها فى كتب الحديث، وإلا فإن الأمور التى ينبغى أن نبادرها بالأعمال الصالحة أكثر من أن تحصى، ولذا قال العلماء: ذكر العدد لا مفهوم له، أى: الوقوف عنده ليس مراداً بالضرورة، وإنما يذكر لئلا ينسى.

والمبادرة هى المسارعة والمسابقة، وإعداد العدة قبل الأهبة ، مع الحرص على ما ينفع ، واتخاذ الحيطة والحذر مما يعوق المسيرة عن إدراك البغية.

ولم يقل النبى - ﷺ -: بادروا بالأعمال الصالحة ؛ للعلم بها من سياق الكلام.

---

(١) الزمر: ٥٣ - ٥٧.

وما عُلم يجوز حذفه، بل يكون حذفه أولى من ذكره عند علماء البلاغة؛ لأن فى الحذف إيجازاً، والإيجاز ضرب من الإعجاز البيانى.

والعقل يدرك من الإيجاز أحياناً ما لا يدركه من الإطناب.

واللبيب يفهم من الإشارة أكثر مما يفهمه غيره من العبارة. فتأمل ذلك تجده صحيحاً، وبالله توفيقك.

* * *

وتعال بنا الآن ننظر إلى هذه الأمور الستة التى أمرنا النبى - ﷺ - بمبادرتها والإعداد لها قبل إثباتها.

الأول: طلوع الشمس من مغربها، وهى من العلامات التى إذا وقعت أُغلق باب التوبة عمن لم يكن قد تاب وآمن قبلها.

وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً﴾ (١).

روى البخارى ومسلم فى تفسير هذه الآية، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل».

ولمسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

قال الطبرى: (معنى الآية: لا ينفع كافراً - لم يكن آمن قبل الطلوع - إيمانٌ بعد الطلوع، ولا ينفع مؤمناً - لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع - عملٌ صالح بعد الطلوع؛ لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ - حكم من آمن وعمل عند الغرغرة، وذلك لا يفيد شيئاً، كما قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ (٢).

---

(١) الأنعام: ١٥٨.　　(٢) غافر: ٨٥.

وكما ثبت فى الحديث الصحيح (١) : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»). انتهى.

قال الضحاك: من أدركه بعض الآيات، وهو على عمل صالح مع إيمانه - قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية، كما قبل منه قبل ذلك. فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية - فلا يقبل منه؛ لأنها حالة اضطرار، كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدّقوا، فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك؛ لمعاينتهم الأهوال والشدائد التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة.

أقول: والأدلة على ذلك كثيرة منها:

(أ) ما رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

(ب) وروى الترمذى وصححه عن صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «باب من قِبَلِ المغرب مسيرة عرضه (أو قال: يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض؛ مفتوحاً للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه».

(جـ) وروى أبو داود عن معاوية - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

والحكمة فى عدم قبول الإيمان والتوبة عند طلوع الشمس من مغربها أن هذه العلامة هى أول ما يحدث من تغير العالم العلوى، فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضرورى بالمعاينة، وارتفع الإيمان بالغيب، وهو أصل من أعظم أصول الإيمان.

ولكن كيف تطلع الشمس من مغربها؟.

أقول: علم ذلك عند ربى؛ لكن روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما،

---

(١) رواه الترمذى فى: كتاب الدعوات - ٤٥.

عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس إذا غربت؟، قلت: لا أدرى، قال: إنها تنتهى فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً».

وطلوع الشمس من مغربها هو أول علامات الساعة الكبرى ظهوراً على الراجح من أقوال العلماء؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، فأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً».

ولا إشكال فى هذا الحديث؛ فإن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العلوية ظهوراً، وخروج الدابة هو أول الآيات الأرضية ظهوراً، وليس بينهما إلا زمن يسير، هكذا ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية، وهو توفيق حسن.

* * *

العلامة الثانية من علامات قرب الساعة: «الدخان» الوارد ذكره فى قوله تعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾[1].

وقد اختلف المفسرون فى هذا الدخان الذى يحمل فى طياته العذاب على قولين:

وجمهور المفسرين على أنه كان ضرباً من العذاب أخذ الله به المشركين، استجابة لدعوة يقال إن النبى ﷺ دعا بها على مضر، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

وقد اشتد القحط وعم الجدب، حتى أكلوا الجيف والعِلْهِز[2]. قالوا: وكان

---

(١) الدخان: ١٠ – ١٢.　　(٢) بقايا الجلد اليابس.

الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدّث الرجل صاحبه ولا يراه لكثرة الدخان .. ثم إنهم جاءوا إلى الرسول ﷺ مستشفعين، فشفع لهم، وكشف الله الضر عنهم ... فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً ..

ورأى القلة من المفسرين أن هذا الدخان الذى يغشى الناس هو ما يطلع على الناس يوم القيامة من أهوالها ومرجفاتها ...

ودليل الجمهور مستمد من الآيات نفسها، فقوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يفيد أن كشف العذاب فى الدنيا وليس هو ما يفجأ الناس قبل يوم القيامة؛ إذ لا يقبل الله إيمان من آمن بعد طلوع الشمس من مغربها، أو ظهور الدجال، ولا يرفع العذاب عن أحد يومئذ، وهذا يفيد أن الكشف هو لعذاب وقع بالفعل لأهل مكة، كما سيأتى بيانه بعد سطور.

وقوله تعالى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ وعيد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المشركين الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه، بأن يؤمنوا إذا كشف الضر عنهم، فلما كشف عنهم الضر عادوا إلى ما نهوا عنه.

وهذا يعنى أن الفعل الذى وقع الوعيد عليه كان فى الدنيا؛ لأنه لا وعيد على ما يقع من الناس فى الآخرة.

ودليلهم من السنة ما رواه البخارى عن محمد بن كثير عن سفيان الثورى عن الأعمش، ومنصور عن أبى الضحى عن مسروق قال: بينما رجل يحدث فى كندة، قال: يجىء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ففزعنا فأتينا ابن مسعود، قال: وكان متكئاً، فغضب فجلس فقال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، إن قريشاً أبطأوا عن الإسلام فدعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف»، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة، والعظام، يرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وقومك قد هلكوا فادع الله.

فقرأ هذه الآية: ﴿فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا

عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ إلى قوله: ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فذلك يوم بدر ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ فذلك يوم بدر، و﴿ آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ والروم قد مضى فقد مضت الأربع.

وقد أخرجه البخاري أيضاً ومسلم من حديث الأعمش ومنصور به نحوه.

وفي رواية: «فقد مضى القمر [1]، والدخان، والروم، واللزام» [2].

وقد ساقه البخاري من طرق كثيرة بألفاظ متعددة.

وقد يسأل سائل فيقول: كيف يقع عذاب على هؤلاء المشركين، وقد وعد الله سبحانه وتعالى النبي الكريم ألا يعذّب قومه وهو فيهم، كما يقول الله تعالى: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [3] فكيف هذا؟.

والجواب - والله أعلم -: أن هذا العذاب الذي لقيه المشركون من قحط أو قتل - ليس هو العذاب الذي كان يؤخذ به أقوام الرسل من قبل، والذي كان بلاءً شاملاً يستأصل القوم، ويأتي على كل شيء، فلا تبقى منهم باقية، كما حَلَّ بقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب مدين، وقوم لوط ... وإنما هذا العذاب الذي نزل بالمشركين - لم يكن إلا وجهاً من وجوه الحياة التي كانوا يتقلبون فيها، فإذا نزل بهم قحط فقد عرفوا هذا القحط من قبل وذاقوا العذاب منه، وإن أصيبوا في أنفسهم في معركة من المعارك كيوم بدر، فما أكثر المعارك التي أريقت فيها دماؤهم وأزهقت أرواحهم، ولكن الذي يجعل لهذا العذاب الذي ينزل بالمشركين طعماً جديداً، هو أنه يأتي من الله بدعاء النبي عليهم، وذلك فيما أصابهم من قحط، أو على يد أصحابه يوم بدر، فهذا هو الذي يجعل لهذا العذاب حساباً خاصاً عندهم، وأثراً مضاعفاً في نفوسهم.

---

(١) أي ظهر انشقاق القمر.

(٢) واللزام ما وقع لأهل مكة في بدر من قتل وأسر.

(٣) الأنفال: ٣٣.

هذا ما يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قل هل تَرَبصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ (١) .

فالنبى والمسلمون معه إنما يتربص بهم وينتظر أن يحل بهم عذاب من عند الله، وهو هذا القحط الذى حل بهم، أو أن يحل بهم عذاب بأيدى المؤمنين، وهو ما أصابهم على أيدى المسلمين من خزى وهوان فى ميادين القتال، حتى لقد انتهى الأمر بدخول المسلمين عليهم مكة واستسلامهم للنبى ﷺ وإسلامهم لله رب العالمين.

ومن جهة أخرى فإن هؤلاء المشركين قد دخلوا جميعاً فى الإسلام ولم يمت منهم على الكفر إلا أعداد قليلة بالنسبة لمجموعهم، سواء من مات منهم فى ميدان القتال بأيدى المسلمين، أو من مات حتف أنفه.

وهذا من شأنه ألا يوقع حكماً عاماً على هؤلاء المشركين بالعذاب الأليم يوم القيامة، وذلك لأنهم سيصبحون عما قليل فى عداد المؤمنين بالله.

وعلى هذا فإن ما يتهددهم به القرآن من عذاب هو العذاب الدنيوى، الذى يرونه رأى العين، والذى يكون فيه عبرة وعظة، تفتح لهم الطريق إلى الإيمان بالله، كما يقول الله سبحانه عن غزوة بدر: ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ (٢) .

* * *

وأما الدجال - فلعنة الله عليه - سيظهر آخر الزمان، واسمه المسيح - بالحاء لا بالخاء - وهو أعور العين رويت فيه جملة من الأحاديث.

منها ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال

---

(١) التوبة: ٥٢ . (٢) آل عمران: ١٣ .

رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبيٌّ قومَه: إنه أعور؛ وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة هي النار، وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه».

وقد ذكرت في مقدمة هذه الوصية ما قاله الرسول ﷺ في شأنه، وهو فتنة للناس كان النبي ﷺ يستعيذ منه في صلاته ، فيقول في آخر تشهده الثاني في دعائه: «وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ومن عذاب النار وبئس المصير».

* * *

وأما الدابة التي تخرج آخر الزمان فتكلم الناس، فقد جاء ذكرها في القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾.

وقد روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وأصحاب السنن عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج؛ وخروج الدجال، وخروج عيسى بن مريم ، وثلاث خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا،وتقيل معهم حيث قالوا».

والدابة التي تخرج في آخر الزمان هي دابة حيوانية على خلاف ما نعرفه توبخ الكافر على كفره.

وقيل: هي ليست دابة واحدة ولكنها أنواع من الدواب، لا يعلم عددها إلا الله، فهي اسم جنس لنوع مخصوص من الدواب التي ترسل من الله لتعذيب من طغى وتكبر، كما تقول : «أرسل الله على أرض فلان دودة أتلفت زرعه» أي ديداناً كثيرة من نوع واحد مخصوص.

قال القاسمي في تفسيره: (وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة، لم يصحح البخاري منها شيئاً ، لاضطراب متونها وضعف رجالها.

وأمثل مأثورها ما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً».

وقد تقدم هذا الحديث في أوائل شرح هذه الوصية.

* * *

وأما الخامسة التي أوصانا النبي ﷺ بمبادرتها بالأعمال فهي «خاصة أحدنا» وهي الموت.

والموت كأس كل الناس شاربه، وباب كل الناس داخله، ونسيانه ضلال مبين، والغفلة عنه وعما بعده دليل على فساد العقل وقسوة القلب.

والكيس من الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً.

ولا شك أن الإكثار من ذكر الموت يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة، ويدفع المسلم إلى الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره، ويريح النفس من دعاويها الباطلة وقولها بلسان الحال والمقال: لو كان كذا لكان كذا وكذا.

والدنيا مزرعة للآخرة، وخير الناس من طال أجله وحسن عمله، وشر الناس من طال أجله وساء عمله.

والمؤمن الحق من يعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، ويتخفف من ذنوبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مستعيناً بالله عز وجل في فعل الطاعات وترك المعاصي قائلاً بلسان الحال والمقال ما قاله شعيب لقومه: ﴿إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

ومن أهم ما يبتدر به الموت أن يتوب العبد إلى الله توبة نصوحاً في جميع أوقاته وحالاته، وأن يبرهن على صدقه في توبته بترك الذنوب وعدم الإصرار عليها؛ فإن من يتوب وهو يصر على الذنب كان كالمستهزئ بربه تبارك وتعالى.

وقد سمعت رابعة العدوية رجلاً يستغفر الله وهو على الذنب، فقالت: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار. وكأنها تعرّض به أو تعظه بطريقة مهذبة.

---

(١) سورة هود: ٨٨.

وأكمل الناس إيماناً - أعظمهم لله إخلاصاً، وأكثرهم شكراً، وأشدهم ندماً على ما بدر منهم، وأسرعهم إلى صنائع المعروف، وأبعدهم عن مصارع السوء، وأشدهم حباً للقاء الله عز وجل.

ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

وسيأتى فى ذكر الموت آثار كثيرة فى وصايا أخرى إن شاء الله تعالى.

* * *

وأما السادسة فهو «أمر العامة» أى ولاية شئونهم الدنيوية.

فعلى المسلم أن يبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يشغله أمر الناس عن فعل الكثير من الطاعات، فربما يتولى منصباً يشغل أكثر أوقاته فلا يتمكن من تأدية الوظيفة المهمة التى خلقه الله من أجلها، وهى العبادة.

نعم إنَّ تولى شئون الناس نوع من العبادة ولكنه لا يفى بكل ما أمره الله به.

ومن هنا كان على المسلم أن يوازن بين مطالب الدين ومطالب الدنيا موازنة مبنية على ترجيح الجانب الأخروى على الجانب الدنيوى؛ فالآخرة خير وأبقى.

وبعد، فإن هذه الوصية دافعة لنا إلى ما فيه سعادتنا فى الدنيا والآخرة، وإنها لعزمة من عزمات نبينا ﷺ تأخذنا بقوة إلى الجد فى القول والعمل والمسارعة إلى ما فيه مرضاة الله عز وجل بكل ما أوتينا من قوة وحزم، قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وتهون علينا مصائب الدنيا وتزهدنا فيها وتقوى همتنا فى طلب الآخرة.

ومن جعل الآخرة مبلغ همه ومنتهى أمله فقد فاز فوزا عظيماً.

روى ابن ماجه فى سننه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة».

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

(١٦٩) ألا تبايعون رسول الله

عن أبى عبد الرحمن عوف [١] بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟» وكنا حديثَ عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟، قال: «أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا»، وأسر كلمةً خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه» [٢].

* * *

كان النبى ﷺ يوصى أصحابه رضوان الله عليهم بالتعفف عن المسألة والتنزه عما فى أيدى الناس، والقناعة بما فى أيديهم والزهد فى الدنيا بوجه عام، والاعتزاز بالله عز وجل، والثقة بفضله، وحسن التوكل عليه، والرضا بقضائه وقدره، وإقراره بالعبادة والتوجه إليه بالدعاء الخالص فى تمسكن وتواضع.

وفى هذه الوصية يرسم النبى ﷺ الخطى لمن أراد العزة وسعى إليها، ويحدد معالم الطريق إلى الله فى تؤدة واتزان، فيسأل أصحابه البيعة على أمور تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة، فيستوضحون منه ﷺ عن بنود المبايعة وقواعدها وشروطها، فيجيبهم الرسول ﷺ بما جاء فى هذا الحديث.

* * *

يقول الراوى عوف بن مالك: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة» أى كان عددنا قليلاً لا يتجاوز التسعة، وهو يدل على أن الذين

---

(١) هو عوف بن مالك بن أبى عوف (الأشجعى) الغطفانى رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم فى الزكاة، وأبو داود فيها، والنسائى فى الصلاة، وابن ماجه فى الجهاد. انظر دليل الفالحين جـ ٢ ص ٥٢٩، ٥٣٠.

بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة كانوا يعدون على الأصابع؛ لأنها بيعة لا يوفى بها إلا الأخيار من عظماء الرجال.

وهذا لا يمنع أن يكون الرسول ﷺ قد عرض هذه البيعة على آخرين وآخرين، فبايعه هؤلاء وأولئك على السمع والطاعة والوفاء، لما فيها من خيرى الدنيا والآخرة.

وقوله: «جلوساً عند رسول الله ﷺ» فيه تأدب معه ﷺ فى الرواية عنه؛ إذ لم يقل – مثلاً – : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ؛إذ فى المعية نوع تسوية ولو من بعيد، بخلاف العندية فإنها لا تعنى التسوية من قريب ولا من بعيد، ولكنها تعنى القرب والمجاورة، فافهم الفرق بين التعبيرين وعض عليه بالنواجز، وتعلم الأدب مع النبى ﷺ من أصحابه واجعلهم قدوتك فى أقوالك وأفعالك، فهم من بحار علمه قد اغترفوا، وعلى طريقه نهجوا فكانوا على الهدى، لمن استهدى أدلاء.

وقوله ﷺ: «ألا تبايعون رسول الله» فيه دعوة بلطف إلى ما يريد أن يبايعهم عليه؛ فالاستفهام هنا للمبالغة فى الحث على المبايعة والترغيب فى الإسراع إليها بحزم وعزم، وقوله: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ» أولى فى الملاطفة والرفق من قوله مثلاً: ألا تبايعوننى؛ فإن عنوان الرسالة يشعر المخاطبين بعظمة البيعة وعظمة المبايَع والمبايِع.

وقول الراوى: «وكنا حديث عهد ببيعة» أى حديث عهد بأسلام، ويقصد بالبيعة بيعة العقبة الثانية قبل البيعة على الهجرة وبيعة الجهاد والصبر عليه.

والمبايعة معناها: المعاهدة، مأخوذة من البيع، وهو تبادل المنافع بين البائع والمشترى، والمناولة للسلعة والثمن بالأيدى، فشبه من يضع يده فى يد أخيه ليعاهده على شىء بالبائع والمشترى حين يضع كل منهما يده فى يد الآخر؛ توكيداً لإتمام البيع والرضا به.

قال الراوى: «فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله». أى قد عاهدناك من قبل على السمع والطاعة.

ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله» مرة أخرى؛ للدلالة على أنه يريد أن يبايعوه على أمور أخرى غير التى بايعوه عليها وإن كانت وثيقة الصلة بها.

قال الراوى: «فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟» أى: قد نزلنا على رغبتك فى المبايعة وهيأنا أنفسنا لها، فنزل الأمر المستقبل منزلة الماضى؛ لتحقيق الوقوع وتوكيد المبادرة إلى المبايعة من غير توقف ولا توانٍ، كقوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أى هو آت لا ريب فيه.

وقد عرفنا من خلال دراستنا لعلم البلاغة أن التعبير بالفعل الماضى عن المضارع يكون لتحقيق الوقوع، والتعبير بالفعل المضارع عن الماضى يكون من أجل استحضار الصورة فى ذهن المخاطب، كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام: ﴿إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾ فهو يستحضر صورة الذبح التى رآها فى المنام بقلبه وعقله ويدعو ولده إلى استحضارها منه ليرى رأيه فيها (١).

ثم سأل الراوى رسول الله ﷺ عن الأمور التى يريد أن يبايعهم عليها، فقال رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه: «أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس».

وقد ذكرها على وجه الخصوص؛ لأنها أفضل العبادات على الإطلاق، فالصلاة برهان على صحة الإيمان وسلامة اليقين كما عرفنا فى وصايا سابقة.

قال ﷺ: «وتسمعوا وتطيعوا». أى تسمعوا النصح وتقبلوه وتطيعوا الله والرسول وكل من أمركم بالمعروف ونهاكم عن المنكر ودعاكم إلى الخير.

قال الراوى: «وأسر كلمةً خفيةً». أى همس فى آذاننا همسة الناصح الأمين بكلمة أخفاها؛ لتكون أوقع فى النفس وأعمق فى الدلالة على حبه لهم وحرصه عليهم.

وهذا شأن من ينصح رجلاً بنصيحة غالية يشعره حين يكاشفه بها بصوت خافت أنه يؤثره بها على غيره، ويقدمها له تحفة منه إليه.

---

(١) انظر ما كتبته فى هذه القصة فى كتابى: قصص القرآن، وكتابى: تفسير سورة الصافات؛ فإنك تجد فيهما ما يسرك إن شاء الله.

قال رسول الله ﷺ بصوت خافت حنون: «ولا تسألوا الناس شيئاً».

يا لها من وصية يمشى المَجْدُ فى ركابها، وتسير العزة فى رحابها نحو من سمعها فوعاها وعمل بها.

إن هذه الوصية الأخيرة ترجمة لأوصاف أناس أعزهم الله وعظم شأنهم فى العالمين، وأثنى عليهم ثناءً يغبطون عليه فى قوله عز وجل: ﴿للفقراء الذين أُحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ (١).

فقد ارتسمت العفة على وجوههم فكستها جلالاً وجمالاً وهيبة وسماحة ووجاهة، بحيث إذا رآهم الرائى لا يظن أنهم من أهل الفقر والفاقة؛ لأنهم استغنوا بالله وحده عمن سواه وأحسنوا التوكل عليه، فكفاهم ربهم ذل السؤال ووسمهم بسيما العزة والغنى.

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ (٢).

إن الغنى غنى النفس، وإن العزة كل العزة فى الإيمان، والخير كل الخير فى حسن التوكل على الله، والسعادة كل السعادة فى تقوى الله عز وجل.

يقول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض – يعنى المال –، ولكن الغنى غنى النفس» (٣).

ويقول ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» (٤).

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».

---

(١) البقرة: ٢٧٣. (٢) الطلاق: ٣.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لا أرزأ (١) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا.

فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليه حقه الذى قسم الله له فى هذا الفىء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبى ﷺ حتى تُوفى (٢).

وعنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف، يعفه الله، ومن يستغن، يغنه الله» (٣).

واليد العليا هى المنفقة - كما جاء فى حديث آخر - واليد السفلى هى السائلة، والفرق بينهما كالفرق ما بين العزة والذلة.

وعلى المرء أن يبدأ بنفسه وبمن يعول من أهله، ثم يعطى من ماله الأقرب فالأقرب من الفقراء والمساكين من غير مَنّ ولا أذى.

وخير الصدقة ما أخرجه من فضل ماله وكان مستغن عنه؛ لقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أى ما زاد عن الحاجة وسهل على النفس إخراجه.

ومن يطلب العفة عما فى أيدى الناس، يعفه الله عنهم بفضله وكرمه.

أما من يستمرئ السؤال ويستسهله ويتخذه عادة، فإنه يظل فى حاجة إليهم دائماً حتى يتوب إلى الله من ذلك ويعف نفسه عنهم.

وقد جاء فى الخبر: «من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر».

وما أحسن قول القائل:

لا تسألْ بُنَىَّ آدم حاجةً ... وسل الذى أبوابه لا تحجبُ

الله يغضبُ إن تركتَ سُؤَالَهُ ... وبُنَىُّ آدم حين يُسْأَلُ يَغْضَبُ

(١) أى: لا أسأل أحداً بعدك. (٢) رواه البخارى ومسلم. (٣) رواه البخارى.

إن المسلم الحق هو الذى يعتز بالله عز وجل، ويعيش فى كنفه راضياً بقضائه وقدره، قانعاً بعطائه، شاكراً لنعمائه، يرى فى المحن منحاً فيشكر ربه تبارك وتعالى ويحمده حمداً متواصلاً فى المنشط والمكره، ولا يغفل عن ذكره فى ليله ونهاره؛ إذ لولا الذكر ما اطمأن القلب، وطمأنينة القلب هى النعمة الكبرى على الإطلاق، ولا ينالها إلا المؤمنون المخلصون.

يقول الله عز وجل: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) .

أى بذكر الله لا بغيره تطمئن القلوب، وهذا هو السر فى تقديم الجار والمجرور؛ فإن التقديم يفيد الاختصاص - كما هو معروف - عند علماء البلاغة.

وعزة المؤمن فى إيمانه وعفته ، وتقواه وجهاده فى سبيل الله ، وتفرغ قلبه لخالقه ومولاه.

فلا عزة لكافر مهما أوتى من مال وجاه.

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (٢) .

وكيف يعز الله من كفر به وجحد نعمه وخرج عن الفطرة التى فطره عليها وطلبها من غيره!!

يقول الله عز وجل: ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ (٣) .

وكيف ينال العزة من سأل الناس وألَحَّ فى المسألة وبالغ فى الإلحاح ! إنه أمر يتنافى تماماً مع التعفف والتوكل، وهما من أعظم شُعب الإيمان وأسماها.

ولذا حذر النبى ﷺ من السؤال ونَفَّرَ منه الأسوياء من الرجال، فقال فيما قال: «من سألَ الناسَ تَكَثُّراً، فإنما يسألُ جَمْراً، فَلْيَسْتَقِلَّ أو فليستكثر» (٤) .

أى من سأل الناس وهو فى غير حاجة ماسّة إلى السؤال ليكثر من ماله - كما يفعل المحترفون للتسول - فإن مسألته تكون عليه ناراً فى الدنيا وفى الآخرة، فمن شاء استكثر من السؤال، ومن شاء استقل؛ فالجزاء يكون على قدر الكثرة والقلة، ولا يخفى ما فى ذلك من توبيخ وتقريع وتنفير وتحذير.

---

(١) الرعد: ٢٨. (٢) المنافقون: ٨. (٣) فاطر: ١٠.

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إن المسألة لا تجوز إلا لمن اضطر إليها؛ لما فيها من خدش للكرامة وذهاب لماء الوجه.

يقول رسول الله ﷺ: «إن المسألة كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجل وجهَهُ، إلا أن يسأل الرجلُ سلطاناً أو فى أمر لا بُدَّ منه» (١).

وما دامت المسألة تكُد وجه الرجل أى تخدشه وتذهب بحيائه - فإنها لا تجوز؛ لأن الحياء شعبة من الإيمان، بل هو من أهم شعبه كما قَدَّمنا، فمن ذهب حياؤه ذهب إيمانه، فلا ينبغى أن يلجأ الرجل إليها إلا للضرورة القصوى، وليتوجه أولاً إلى من بيده أمر المسلمين ، فإن لم يسعفه توجه إلى الأخيار من الناس فعسى أن يجد عندهم ما يسد به خلته.

ولكن عليه أن يتوجه إلى الله بقلبه ويسأله قضاء حاجته على يد من شاء من الناس، فيقول فى نفسه بضراعة وخشوع: اللهم إنى أتوجه إليك بقلبى لقضاء حاجتى ، وأذهب إلى فلان أخذاً بالأسباب، فاجعله سبباً لقضاء حاجتى إن شئت، أو اجعل غيره سبباً لذلك، واختر لى الخير حيث كان وأرضنى به، واكفنى بالحلال الطيب.

فعندئذ يكون فى الحقيقة متوجهاً إلى الله وحده آخذاً بالأسباب كما أمره.

وإذا سأل واحداً من الناس فلا يُلِحَّ عليه فى المسألة ولا يكثر من الشكوى؛ فإن الشكوى لغير الله مذلة للناس ، وإساءة أدب مع الله عز وجل.

لا تَشْكُوَنَّ لِغَيْرِ رَبِّكَ عِلَّةً فهُو العليمُ وغيرُهُ لا يَعْلَمُ
فإذا شَكَوْتَ لغير ربك إنما تشكو رحيماً للذى لا يَرْحَمُ

والناس لا يحبون الشكوى والضجر والإلحاح فى المسألة؛ لأن كل واحد منهم مشغول بنفسه ، ولديه ما يكفيه من هموم الدنيا وأوجاعها، وهم يبغضون من يشكو إليهم كل البغض، ويحتقرون كل من يسألهم شيئاً ولو كان تراباً.

لو سُئِلَ الناس التراب لأوشكوا إذا قيل: هات أن يَمَلُّوا فَيَمْنَعُوا

---

(١) رواه الترمذى عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب، وقال: حديث حسن صحيح.

قال رسول الله ﷺ : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس، لن تُسَدَّ فَاقَتُهُ، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » (١) .

أى: من أصابه فقر شديد فشكى إلى الناس ما نزل به واعتمد عليهم فى قضاء حوائجه - وَكَلَهُ الله إليهم، فلم ينل منهم شيئاً؛ لأن قلوبهم بيد الله عز وجل، وهو لم يتوجه إليه بقلبه.

ولو سأل الله وحده واتخذهم أسباباً فقط - لأعطاه ما يعطى السائلين من واسع فضله ورحمته، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء إذا لاذ به واحتمى بحماه.

ولقد ضرب أصحاب النبى ﷺ المثل الأعلى فى العزة والإباء والثقة بفضل الله ، فكانوا لا يسألون الناس شيئاً ، ولا ينظرون إلى ما فى أيديهم، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله.

وقد بايعوا نبيهم ﷺ على ذلك فوفوا له بما عاهدوه عليه وبالغوا فى الوفاء، حتى كان أحدهم إذا سقط سوطه من فوق جمله، لا يسأل أحداً أن يناوله إياه. فكانوا قدوة لغيرهم فى العزة والتعفف والإباء ، رضوان الله عليهم أجمعين.

وينبغى علينا أن نحذو حذوهم فى الكف عما فى أيدى الناس والقناعة بما فى أيدينا ، وبذل ما زاد عن حاجاتنا لذوى الحاجات ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، والطاعة على قدر الطاقة كما يقول الفقهاء.

ومن بذل وعف فقد استكمل الجود والكرم.

وخير الناس أنفعهم للناس وأبعدهم عما فى أيديهم.

ومن أراد العزة، سلك مسالكها مستعيناً بالله على نفسه وهواه وشيطانه ودنياه.

فمن فعل هذا، كان فى الثريا، يرمقه الناس بأبصارهم، ويغبطونه على ما هو فيه من غنى وإن كان قليل المال مغمور النسب.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقال: حديث حسن.

وما أحسن قول الشاعر:

إِذَا أظمــأتْكَ أكفُّ اللئــام   كفتك القنـاعة شــبعاً وريّا

فكن رجلاً رِجْلُه فى الثرى   وهامـــة همتـــه فى الثريا

فإن إراقـــة مـــاء الحيـــا   ة دون إراقـــة مـــاء المحيّـــا

إن الإسلام أعز معتنقيه بعزة الإيمان واليقين، وَمَكَّنَ لهم فى الأرض، وأسند إليهم أزِمَّةَ الأمور فى تعميرها وإصلاحها وإقامة حدود الله فيها بروح من التعاون البناء والمساواة التامة، والعدالة المطلقة والحب المتبادل، والإخلاص لله فى القول والعمل، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والسمع والطاعة لمن أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وعلمهم كيف يسمو المرء منهم بنفسه عن الدنايا حتى يصل إلى مراتب القرب من خالقه ومولاه، فيعتصم به ويتوكل عليه ويخضع إليه ولا يخضع لأحد سواه ؛ لعلمه التام أن الناس لا ينفعونه إلا بشىء قد كتبه الله له، وأنهم لن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه، وأنهم مجرد ممر للعطاء أو مظهر للمنع.

روى الطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تُرضين أحداً بسخط الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا ترده عنك كراهية كاره، وإن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوْح والفرج فى الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن فى السخط».

وهذا الحديث لا يعنى جحود الصنيع ولا ازدراء الفضل لمن أسدوا الفضل؛ فإن الحديث يقول: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» (١) .

ولكن معناه: ألا يُستعبد المرء بمنة وصلته حتى تداس كرامته ! فإن المنة لله أسبق، ولا يجوز للمعطى أن يقصد بهبته شراء الأنفس والتصرف فيها كما

---

(١) رواه الترمذى.

يحب؛ فإن هذا يحبط أجره، وكان ذلك القصد - ولا يزال - شأن الذين يؤتون لغير الله، ولذلك تأفف الأحرار من عطاياهم:

لاه ابن عمّك، لا أفضلت في نسب عني ولا أنت دياني فتخزوني

أما الذين يعطون لله، ويؤدون حقوق العباد ابتغاء وجهه، فقد قال رسول الله ﷺ في بيان مكافآتهم: «من أُعطى عطاء فليجز به إن وجد، فإن لم يجد فليثن به، فإن من أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»[١].

* * *

وبعد فقد طوفت بك - أيها القارئ الكريم - حول هذه البيعة النبوية في مواطن العز والكرم، والإباء والشمم؛ لعلك تبايع ربك عز وجل وتعاهد نبيك ﷺ على أن تعبد ربك عز وجل بإخلاص تام، وأن تقيم الصلوات الخمس في أوقاتها مع الجماعة، وأن تسمع وتطيع من أمرك بمعروف أو نهاك عن منكر، وأن تقنع بما آتاك الله وتزهد فيما في أيدى الناس ما استطعت.

وقد مر بك وصية كريمة في هذا الكتاب جاء فيها قوله ﷺ: «عليك باليأس مما في أيدى الناس؛ فإنه الغنى، وإياك والطمع؛ فإنه الفقر الحاضر، وصَلِّ الصلاة وأنت مودع»[٢].

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) الوصية رقم: (٢٨).

(١٧٠) لا يمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحقٍ

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا لا يمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحقٍ إذا رآه أو شهده؛ فإنه لا يقرب أجلاً، ولا يباعد من رزقٍ أن يقولَ بحقٍ أو يُذَكِّرَ بعظيم» (١) .

* * *

المؤمن الحق من يعرف الحق ويعرف أهله، فينصره وينصر أهله، ويدافع عنه حيثما كان، ويدعو إليه فى ليله ونهاره، ويجمع قلبه عليه فى حلِّه وترحاله، ويعرف الباطل باطلاً فيجتنبه ، ويدعو الناس إلى اجتنابه ويحذرهم مَغَبَّتَهُ فى الدنيا وعاقبته فى الآخرة؛ فالحق أحق أن يتبع، وليس للباطل مع الحق موضع، وليس للمبطلين على أهل الحق سبيل؛ فأهل الحق منصورون فى كل مكان وزمان وإن اعترتهم فى سبيل النصر عقبات وعراقيل.

قال تعالى فى محكم التنزيل: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (٢) .

وقال جل شأنه: ﴿ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ (٣) .

ولقد عَرَّف الله أهل الحق بأوصافهم فقال : ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾(٤) .

وهذه الوصية تدعو أهل الحق إلى أن يقولوا الحق ولو كان مُرًّا، وأن يشهدوا بما عملوا دون رهبة من أحد أو خوف من غُرْم، أو طمع فى غُنْم، لعظيم ثقتهم بربهم وحسن توكلهم عليه، وإيمانهم ورضاهم بقضائه وقدره.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بسند حسن: ١٠/١١٤١٢ .
(٢) الصافات: ١٧١ - ١٧٣ .
(٣) الحج: ٤٠ .
(٤) الحج: ٤١ .

فتعالوا بنا ننظر فى هذه الوصية نظرة تأمل واتعاظ؛ لعلنا نهتدى إلى الحق فنعتنقه ونعمل بمقتضاه، ونقيم الشهادة لله، بغَضِّ النظر عن أى اعتبار يصدنا عن ذلك. والله المستعان.

* * *

قوله ﷺ: «ألا لا يمنعنَّ أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده».

معناه: لا يَحُولَنَّ حائلٌ بينه وبين الإدلاء برأيه فى قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل العلمية - مهما كان صغيراً فى السن أو قليلاً فى المال أو مغموراً فى النسب؛ فإن لصاحب الحق مقالاً، والمسلم الحق هو الذى ينطلق بقوة الحق إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، دون أن يرهب الناس؛ لأن من خاف من الله لا يخاف من الناس.

وإذا دعى إلى الشهادة أتى بها على وجهها من غير التواء ولا زيادة ولا نقص؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شَنآنُ قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾(٢).

والقسط: هو منتهى العدل، والمعنى: يا من آمنتم بالله، كونوا دائماً قائمين على الحق تحمونه وتنصرونه، وتشهدون له بأنه حق، وتشهدون لأهله بأنهم محقون فيما قالوا وفيما فعلوا وفيما ادعوا ولو كان ذلك فى غير صالحكم، أو فى غير صالح الوالدين والأقربين، بغَضِّ النظر عن الغنى والفقر بالنسبة للمشهود له أو المشهود عليه؛ فالله أولى بأن تنصروه، وهو أولى بالمشهود له والمشهود عليه،

---

(١) النساء: ١٣٥.　　(٢) المائدة: ٨.

فأدوا الشهادة على وجهها ولا تأخذكم فى الله لومة لائم، ولا تأخذكم أيضاً رأفة فى دين الله؛ فالله أولى بالعدل وأحق، فإذا قلتم الحق فقد دعوتم إلى العدل وسعيتم فى إحقاق الحق وإبطال الباطل، فلا ينبغى أن تلووا الشهادة وتحرفوها عن مواضعها، أو تعرضوا عن شيء له دخل فى تحقيق الحق وإبطال الباطل فتهملوه عمداً لأمر فى نفوسكم وأنتم تعلمون أن الله لا تخفى عليه خافية.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾ أى لا يَحْملنَّكُم بغضهم لما تدلون به، أو بغضهم لكم أو للمشهود له أو للمشهود عليه - لا يحملنكم ذلك كله على ترك العدل؛ فإن العدل يقربكم للتقوى، ويقيكم عذاب الله فى الدنيا والآخرة.

وقد قال النبى ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه فى وصية طويلة سبق شرحها -: «وقل الحق ولو كان مُرّاً» (١).

ومرارة الحق تصحبها حلاوة النصر على النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذى يأمر بالفحشاء والمنكر، والدنيا التى تغر وتَمُرُّ، والهوى الذى يُعمى ويُصِمُّ.

والشعور بحلاوة النصر ثواب دنيوى، وفى الآخرة عظيم الأجر فى جنة عرضها السماوات والأرض.

والويل لمن يرغب فى حطام الدنيا ويُفَوِّتُ على نفسه هذا الثواب المزدوج، وهو يعلم أن الدنيا ظل زائل وعارية مستردة، وأنه ليس للإنسان فيها إلا ما أكل فأفنى وما لبس فأبلى وما تَصَدَّق فأبقى.

* * *

وقد علل النبى ﷺ هذا التحذير بتعليل لا ينكره عاقل، فقال: «إنه لا يُقَرِّبُ أجلاً ولا يباعد من رزق أن يقولَ بحق أو يذكِّر بعظيم».

وهذا التعليل ترجمة لقوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (٢).

فالأجل مكتوب والرزق مضمون، وكل شيء عنده بمقدار.

---

(١) وصية رقم: ٦٠ جـ٢.   (٢) التوبة: ٥١.

وقد قال ﷺ في حديث آخر سبق شرحه: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١) .

والمؤمن الحق هو الذى يحصر همته فى إحقاق الحق ولا يبالى أرضى الناس أم سخطوا، ولايخشى منهم صولة ولا جولة ولا سطوة؛ لأنه قد آمن بالقدر إيماناً لا يخالجه شك، فجعل مبلغ همه نصرة الحق فى أى موطن وبأى سلاح دون أن يُحَدِّثَ نفسه بما يعوقه عن أداء واجبه والدفاع عن دينه وعن حرماته وحرمات المسلمين.

* * *

ولقد تعلم أصحاب النبى ﷺ منه كيف تكون الشجاعة فى إحقاق الحق ودرء الباطل، وكيف تكون الجرأة فى إبداء الرأى وإسداء النصح حسبة لله عز وجل.

فقد كان يستشيرهم فى جميع الأمور التى لم ينزل فيها وحى، ويجمع فى مجلس الشورى الشباب والشيوخ، ويستشير النساء أحياناً فى بعض الأمور التى يكون لهن فيها رأىٌ وخبرة.

وقد أمره الله بذلك فقال: ﴿ وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾(٢) .

لقد استشارهم فى أسرى بدر فأشار عليه عمر – رضى الله عنه – بقتلهم، وأشار عليه أبو بكر – رضى الله عنه – بالعفو عنهم أو بقبول الفداء منهم، فنزل على رأى أبى بكر؛ لما فيه من صلة للرحم ومصلحة للمسلمين، ومال أكثرهم لهذا الرأى واستجابوا له.

واستشارهم فى غزوة أحد، فأشار عليه الشيوخ أن يمكث بالمدينة ، فإذا دخلها المشركون حاربوهم على رءوس الحارات والأزقة فأبادوهم عن آخرهم،

---

(١) رقم : ٣ جـ ١ .   (٢) آل عمران : ١٥٩ .

أو أبادوا بعضهم وأسروا بعضهم، وأشار الشباب عليه بالخروج إليهم، وكان رأى النبى ﷺ مع رأى الشيوخ، إلا أنه نزل على رأى الشباب؛ لأنهم كانوا كثرة، فدخل بيته ولبس سلاحه، ثم خرج عليهم، فقال بعض الشباب: يا رسول الله، لعلنا استكرهناك - أى حملناكِ على أمر لا تريده - فإن شئت فانزل على رأيك، فقال كلمته المشهورة: «ما كان لنبى لبس سلاحه أن ينزعه حتى يحكم بينه وبين عدوه».

إنه الحزم الذى يرتبط بالتوكل على الله ولا يفارقه أبداً، والعزم الذى يرتبط بالمشورة؛ لأن رأى الجماعة لا تشقى البلاد به.

وفى غزوة بدر قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأى والمشورة - وكان النبى ﷺ قد نزل فى مكان لا ماء فيه، أو ماؤه قليل - فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأى والمشورة»، فأشار عليه أن ينزل عند عين ماء يقال لها: بدر، فاستجاب له من فوره وارتحل إلى المكان الذى أشار به عليه.

ولعل النبى ﷺ فعل ذلك ليدربهم على إبداء الرأى والنظر فيما ينفع وما يضر، وما يصلح للحرب وما لا يصلح، وهو القائد المُلْهم والنبى الذى يوحى إليه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه.

وبالرأى والمشورة حسم المسلمون كثيراً من الأمور التى كادت تزلزل أقدامهم وتُفَرِّقُ جمعهم.

وأعظم هذه الأمور فى تاريخ المسلمين الأمر الذى اختاروا فيه أبا بكر خليفة لرسول الله ﷺ، فلولا الحزم والعزم والمشورة والإخلاص - لاقتتل المسلمون إلى يومهم هذا.

والتاريخ حافل بهذه المآثر الخالدة على مر الزمان.

ومن الواجب علينا نحن المسلمين أن نحذو حذوهم فى أقوالهم وأفعالهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

(١٧١) إنى أُحبُّكَ فى اللهِ

عن أنس بن مالك رضى الله عنه «أنَ رجلاً كان عند النبى ﷺ فمر به رجل فقال : يا رسول الله ، إني لأحب هذا ، فقال له النبي ﷺ : أَعْلَمْته؟ قال : لا . قال : أَعْلمْه ، قال : فلحقه ، فقال : إنى أحبُّك فى الله ، فقال : أحبُّك الذى أحببتنى له»(١) .

* * *

الحب فى الله عز وجل غاية لا يدركها إلا من سلمت سريرته، وحمدت سيرته، وحسن معدنه، وفقه فى دينه، وسلمت فطرته من المؤثرات البيئية الضارة والأهواء الضالة، وهذا فى الرجال عزيز نادر وجوده فى هذا الزمان، لكن أمثاله فى الصحابة كثير، وفى التابعين عدد لا بأس به .

فخير القرون قرن النبى ﷺ ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم تكون أثرة وفتنة وشر لا يُدرك مداه ولا يعرف منتهاه .

قال رسول الله ﷺ : « خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته »(٢) .

لقد كان أصحاب النبى ﷺ أصحاب قلوب كبيرة سلمت من كل ما يعكر صفو الإيمان، ويكدر جلوة اليقين، فتآخوا على الحب – اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه، وعاشوا به متعانقين يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه بما لديه ولو كان فى أشد الحاجة إليه .

ولقد تحقق الإخاء بينهم بكلمة الله عز وجل فانصهر المهاجرون بعضهم فى بعض، وانصهر الأوس والخزرج بعضهم فى بعض، ثم انصهر المهاجرون والأنصار فى بوتقة واحدة، فتعاونوا جميعاً بالحب على البر والتقوى، وائتلفت قلوبهم على كلمة سواء فكانوا جميعاً يداً واحدة على من عاداهم .

---

(١) رواه أبو داود كتاب الأدب ، باب الرجل يحب الرجل على خير يراه .

(٢) رواه أحمد فى مسنده عن ابن مسعود .

وما كانوا يستطيعون ذلك من تلقاء أنفسهم قطعاً، ولكن الله عز وجل قد ألف بين قلوبهم فكانوا بنعمته إخواناً ، بكل ما تحمله الأخوة من معنى.

ولقد امتن الله على نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا الائتلاف الذى ليس له مثيل فى التاريخ فقال: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبَك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين. وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) .

ولما كان الحب أسمى شيء فى الحياة أوصى النبى ﷺ بإظهاره والتعبير عنه بالأقوال والأفعال الدالة عليه ؛ ليتعمق فى النفوس أكثر وأكثر ، ويؤتى ثماره اليانعة بين المحبين فقال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» (٢) .

لأنه إذا أخبره بأنه يحبه بادله حباً بحب وقرباً بقرب ، ونشأت بينهما علاقات طيبة وصلات وثيقة ، كثيراً ما تؤدى إلى التعاون البناء بينهما وبين أسرتيهما.

وهذا الحديث يحمل معنى الحديث الذى نحن بصدد شرحه وإيضاح معانيه الخفية ولطائفه البيانية ؛ فالحديث قد يكون ظاهر المعنى واضح الدلالة على مقصوده ولكن يكون فى طياته أسرار خفية، لا يقع عليها إلا الراسخون فى العلم.

فهناك فرق بين فهم المعنى وفقهه.

فالفهم هو إدراك معانى الألفاظ ودلالتها على نحو قاصر عن إدراك ما وراء المعانى من مقاصد ومرامى، بخلاف الفقه فإنه هو إدراك المعانى الدقيقة ومعرفة أسرارها وآثارها وأبعادها، وقد قلت فى كتابى أصول التفسير: إدراك المعانى فهم، وإدراك المرامى فقه.

يقول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» (٣) يعنى يجعله ذا علم غزير وخبرة واسعة بأصول العقيدة والشريعة.

---

(١) الأنفال : ٦٢ – ٦٣ .

(٢) رواه أبو داود : كتاب الأدب ، باب الرجل يحب الرجل على خير يراه.

(٣) رواه البخارى.

والناس متفاوتون تفاوتاً كبيراً فى فهم النصوص الشرعية، فمنهم من يقف عند النص ولا يعدوه مع أن هناك قرائن كثيرة تدل على تخصيصه أو تقييده؛ وذلك لجهله بفنون الاستنباط الصحيح والاجتهاد الواعي.

ومنهم من ينظر إلى روح النص ومفهومه على ضوء ما جاء فى نصوص أخرى تخصصه أو تقيده، أو تُفصِّل إجماله أو تدفع إشكاله، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره؛ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» (١).

ومعنى نضر: أظهر على وجهه البهجة والسرور، وجعله مستنيراً بنور الإيمان.

وتعالوا بنا الآن نلقى الضوء على هذا الحديث.

* * *

يروى أنس بن مالك قصة رجل كان عند النبى ﷺ فمر رجل على مجلسه فقال: يا رسول الله، إنى أحب هذا الرجل، لعله يدعو له بدوام حبه له أو يدعو لمن يحبه أو يدعو لهما معاً بمزيد من الحب والألفة، فزاده النبى ﷺ علماً فى مجال الحب وأراه آثاره وأوصاه بخير وصية تعمق هذا الحب وتوجهه الوجهة الصحيحة فقال عليه الصلاة والسلام: «أعلمته؟» أى هل أخبرته أنك تحبه بلسان الحال أو بلسان المقال؛ حتى يبادلك حباً بحب؟ فقال الرجل: لا.

قال الرسول ﷺ: «أعلمه؟» أى قم فأخبره بأنك تحبه؛ فإن الحب أمانة يجب أن تؤديها، وتأديتها إظهارها لمن تحبه.

قال أنس: «فلحقه»، أى قام إليه حتى أدركه تنفيذاً لأمر النبى ﷺ، واستجابة لمطلبه العظيم.

فلما أدركه وصافحه قال: «إنى أحبك فى الله»، أى أحبك حباً خالصاً لوجهه الكريم لا لأمر آخر من أمور الدنيا.

---

(١) رواه الترمذى عن معاذ بن جبل.

فقال الرجل: «أحبك الذى أحببتنى له».

وهى دعوة خير له من الدنيا وما فيها؛لأنها وقعت فى وقت كان الرجل مشغولاً بتنفيذ أمر الرسول ﷺ، فكانت هذه الدعوة جزاء له، فلا بد أن تقع موقع القبول من قبل الله عز وجل، لأن كلاً منهما يعمل لوجه الله خالصاً.

وقد صدرت هذه الدعوة عن حب فدلت على أنهما متحابان فى الله من غير أرحام تجمعهما أو أغراض دنيوية تحيط بحبهما.

ولو صدقا فى هذا الحب لكانا من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

ولقد كان جواب هذا الرجل فى قمة الأدب؛ إذ لم يقل له بلسان المقال: وأنا أحبك؛ لأن هذا الاعتراف منه بحبه على هذا النحو لا يبلغ من صاحبه أعماق قلبه، ولا ينزل من نفسه منزلة القبول الحسن، بخلاف ما قاله الرجل؛ لأنه يدل على أمرين متلازمين:

الأمر الأول: الإخبار بأنه يحبه بأسلوب حكيم.

والثانى: الدعاء له بأعظم ما يبتغيه المسلم فى دنياه وآخرته؛ إذ ليس هناك مطلب أعظم من حب الله عز وجل.

إنه قمة المطالب كلها على الإطلاق؛ لأن الله عز وجل إذا أحب عبداً رفعه مكاناً علياً، ووفقه إلى طاعته وأعانه على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأدخله جنته مع عباده الصالحين المقربين.

والحب لله هو الجامع بين المحبين على الهدى فى الدنيا، والجامع لهم فى أعلى عليين فى جنة عرضها السماوات والأرض.

وقد جاء فى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه: أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟، قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: حب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى» .

والحب فى الله له ثمرات يانعة يجنيها المتحابون ما دام الحب بينهم قائماً .

ومن أعظم ثمراته الشعور بحلاوة الإيمان تسرى فى القلوب سريان الدم فى العروق فتنتعش وتطمئن .

يقول النبى ﷺ – كما فى الصحيحين – عن أنس رضى الله عنه : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف فى النار» .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث : أن من أحب أنساناً لغرض من أغراض الدنيا فليتخلص من هذا الغرض الدنيوى، ويخلص حبه لله عز وجل حتى ينال درجة المحبين فى الله، وتحصل له ثمرات هذا الحب ويجد حلاوته فى قلبه .

وأنه إذا أحب إنساناً لله، فليخبره بذلك ليتعمق الحب بينهما أكثر وأكثر.

وأنه إذا أخبر المحب من يحبه فليقل له : أنا أحبك فى الله حتى ؛ لا يظن به الظنون .

وعلى المحبوب أن يدعو للمحب بما دعا به هذا الرجل لما قال له : إنى أحبك فى الله .

وبهذا يكون قد أدى كل محب لمن يحب حقه، والله فوقهما يسمع ويرى ويعلم السر والنجوى ، ولديه الجزاء الأوفى فى الدرجات العلى .

وإذا رأى رجل إنساناً يحب آخر فليقل له : هل أعلمته بحبك له؟، كما سأل النبى ﷺ الرجل، فإن قال له : لا . فليقل له : أخبره بذلك حتى يؤدم بينكما ويزداد الصفاء والوفاء فى ظل الحب البرىء من الأغراض الدنيوية .

واعلم – يا أخى ـ أن الحب فى الله له أمارات تدل عليه .

جماعها في التعريف الذى وضعه العلماء له؛ إذ قالوا : الحب فى الله هو الذى لا ينقص بالإساءة ولا يزيد بالإحسان.

وذلك لخلوه من الأغراض الدنيوية.

وقد كنت لا أتصور صدق هذا التعريف، وأقول فى نفسى: كيف لا ينقص الحب بالإساءة ولا يزيد بالإحسان، إن هذا غير معقول.

ثم أحببت إنساناً حباً شديداً خالصاً لله تعالى فمرض هذا الإنسان الذى أحبه كل الحب، فكنت أتمنى أن يموت ليستريح رأفة به وإشفاقاً عليه، وكنت فى الوقت نفسه أتمنى أن يعيش لأستمتع بوجوده وما كنت أفضل أمنية على الأخرى، وكان هذا الإنسان لصيق الصلة بى، وقد أضر بى مرضه كثيراً فما نقص حبى له ولا تأثر أبداً بهذا الضرر، فأيقنت يومها أن هذا التعريف صحيح، لأن الحب فى الله له صفة الدوام والكمال، فإن لم يكن كذلك فلا يكون حباً خالصاً لله. فما أعظم هذا الحب؛ وما أجمل آثاره وثمراته. ومن ذاق عرف.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا حبه وحب من يحبه إنه سميع مجيب.

* * *

(١٧٢) لا تنسنا يا أُخَىَّ من دعائك

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: استأذنت النبى - ﷺ - فى العمرة فأذن لى، وقال: «لا تنسنا يا أُخىَّ من دعائك».

فقال كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا.

وفى رواية قال: «أشركنا يا أُخى فى دعائك» (١).

* * *

كان أصحاب النبى - ﷺ - يستشيرونه فى أمرهم كله إذا لم يجدوا نصاً من كتاب الله تعالى أو نصاً جرى على لسانه - صلوات الله وسلامه عليه - يريهم وجه الصواب فيما يفعلون، وفيما يذرون؛ فكان الرجل إذا أراد سفراً استشاره فى ذلك، وإذا أراد نكاحاً أخبره بما أراد؛ لعله يشير عليه أو يدعو له بخير.

وهذا أدب تخلقوا به وكان دافعهم فى ذلك توقيره والإعلان عن حبه وتقدير رأيه وانتظار نصحه وترشيده وتوجيهه إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى دار الدنيا والآخرة.

ولقد أثنى الله عليهم فى هذا الأدب ثناءً حسناً فقال جل شأنه: ﴿إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استئذنوك لبعض شأنهم فَأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفورٌ رحيم﴾ (٢).

وهذا هو عمر بن الخطاب يجىء إليه مستئذناً فى العمرة، وهو من أحب الناس إليه بعد أبى بكر - رضى الله عنهما - لعله يشير عليه بما يراه حزماً وعزماً، أو ينصحه فيما ينفعه فى دينه ودنياه، أو يدعو له بخير كما هو شأنه دائماً مع أصحابه الكرام البررة.

فيدعو النبى - ﷺ - له بما شاء الله أن يدعو به ويقول له كلمة يودعه بها فتكون هذه الكلمة أحب إليه من الدنيا وما فيها.

---

(١) رواه أبو داود رقم: ١٤٩٨، والترمذى بسند حسن رقم: ٣٥٥٧.

(٢) النور: ٦٢.

وهـذه الكلمة وصـية خاصـة لعمر فى حينها ، وعامة لجميع المسلمين بالتبعية – كما سيتضح لنا – فى الشرح والتحليل.

وهذه الكلمة تدل على منتهى التواضع الذى تحلي به هذا النبى الكريم، أشرقت بنورها فى قلب عمر فتهلل وجهه واستبشر خيراً ، وكاد يطير من شدة الفرح والسرور، وصدق فيه قول الشاعر:

لقـد زادنى فرحـاً وتيهـاً   وكـدت بأَخْمَصِى أطأ الثُّرَيَّا

دخولى تحت قولك يا عبادى   وأن صَـيَّرتَ أحمـدَ لى نبياً

وتدل هذه الكلمـة أيضـاً على تعـميق الأخـوة الإسـلامـيـة بين الرئيس والمرءوس، وبين الأستاذ والتلميذ، وبين كل من تجمعهم صلة الإيمان، أو رابطة النسب والمصاهرة.

لقـد كان عمر يحب النبى ﷺ أكثر من حبـه لنفسـه ؛ فقد قال له يوماً «يا رسـول الله، أنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى»، فقـال له الرسـول الكريم – صلوات الله عليه وسلامه – : «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك»، فقال عمر: « فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى» قال: «الآن يا عمر» (١) .

أى أنت الآن عندى كامل الإيمان؛ إذ ليس وراء ذلك الحب من مطلب.

* * *

قال رسـول الله – ﷺ – له وهو ماض فى طريقـه إلى العمرة : «لا تنسنا يا أُخَىَّ من دعائك»، وهى كلمة فيها من الملاطفة والمجاملة ما فيها.

إنها كلمة بر ووفاء ممن اجتمعت فيه شمائل البر كلها، تلقاها عمر ولم يكن يتوقعها؛ لاحتقاره لنفسه وتواضعه لله ولرسوله، ولكنها جاءته من قلب كبير فملكت عليه مشاعره وملأت أرجاء قلبه، فتفجرت ينابيع الحب الساكن فى جنباته، وأحس بسكينة غامرة لم يكن يجد لها مثيلاً قبل ذلك، فانبعث إلى

---

(١) رواه البخارى.

مكة بقوتها ومشى على نورها، وكانت له زاداً روحياً فى ذهابه وإيابه، بل كانت له زاداً روحياً فى عمره كله.

إنها كلمة وداع مصحوبة بوصية فيها خير له فى دينه ودنياه.

وكثيراً ما تكون كلمات الوداع قصيرة جامعة لحكم بالغة، ووصايا مهمة.

فماذا يريد النبى - ﷺ - بهذه الكلمة؟!

هل يريد منه الدعاء فعلاً؟ أم يريد أن يؤنسه بها ليظل موصول القلب به كأنه حاضر معه فى المدينة، وجالس عنده يسمعه ويراه؟ أم كان يريد أن يعلمه ما يقول لمن أراد العمرة أو الحج؟

كل ذلك محتمل.

ولا يخفى علينا ما فى التصغير من ملاطفة وإكبار، فقد قال له: «يا أُخَىَّ».

وهل كان الرسول - ﷺ - فى حاجة إلى دعاء عمر؟!

أقول نعم؛ لأن الدعاء مخ العبادة وفيه خير عظيم للداعى والمدعو له، ورسول الله ﷺ يرجو من فضل الله الكثير والكثير.

ولما كان فضل الله لا يحد بحدٍ لم يقف رجاء الرسول ﷺ عند حد.

ولهذا أمرنا الله أن نصلى ونسلم عليه كثيراً فى صلاتنا، ومجالسنا، وفى كل مكان طاهر نذهب إليه، وكلما ذكرناه أو سمعنا اسمه؛ فقال جل شأنه: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ (١).

وقد أمرنا النبى - ﷺ - بأن ندعو له فى مواطن كثيرة وأوقات مختلفة؛ فقال فيما قال: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ؛ فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله بها عليه عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له شفاعتى» (٢).

---

(١) الأحزاب: ٥٦.

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر.

وقال أيضاً: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة» (١).

الرسول ﷺ كان واثقاً من وعد ربه بأن له الوسيلة، ولكن أمرنا بأن ندعو له بها لننال شفاعته ونشاركه فى الأجر.

وفى دعائنا للرسول ﷺ تشريف لنا، وتعظيم لشأننا، وتعبير عن حبنا له.

قال عمر - رضى الله عنه - بعد أن روى هذه المقولة التى لم يحظ أحد بمثلها: «كلمة ما يسرني أن لى بها الدنيا» يريد أنها كلمة جمعت فى طياتها من الخير ما لا يرضى به بديلاً.

فالدنيا هينة لا تساوى عند الله جناح بعوضة، فلا يعقل أن يكون أراد هذا التقدير، ولكنه أراد أن هذا الكلمة نعمة لا تعدلها نعمة مهما بلغت.

وهذا التعبير شائع عند العرب إذا أرادوا التفخيم والتعظيم لشيء ملكوه وتمكنوا من نواصيه.

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث: أن النبى ﷺ كان رحيماً ودوداً، يعايش أصحابه معايشة ملؤها الحب والصفاء، وعمادها البساطة ورفع الكلفة، فهو ﷺ لا يتعالى عليهم، ولا يحب أن يتميز عن واحد منهم، ولا يريهم من نفسه ما يحملهم على الخوف منه والحذر من مجاذبة أطراف الحديث معه، ولا يكون أبداً بمعزل عن مخالطتهم والتعرف على أحوالهم المعيشية، ولا يدخر وسعاً فى قضاء حوائجهم ومسايرتهم فيما يحبونه، مما يوافق الشرع ويخضع للعرف المتبع بين العقلاء من ذوى النخوة والمروءة والإيثار.

لهذا آمنوا به عن حب وإجلال، واستجابوا له طائعين منقادين لأمر الله عز وجل، يجلسون عنده كأن على رءوسهم الطير، ولا يقومون من مجلسه حتى

---

(١) رواه البخارى عن جابر.

يقوم، ولا يخالفون عن أمره، ولا يقطعون امراً دونه، ولا يجدون حرجاً فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه.

فهذا عمر رضى الله عنه يستأذنه فى الخروج إلى مكة ليعتمر، فلا يأذن له فحسب! ولكن يقول له كلمة تذهب فيها نفسه كل مذهب، وتسرح فيها خواطره، وتريه الرسول ﷺ وهو ينزل إليه من علٍ ليصافحه بهذه الكلمة ويتحفه بها، فيحملها عمر بين جوانحه ما عاش، ويحفر لها فى ذهنه مكاناً؛ لتظل ماثلة فى كيانه كله.

ولقد تأثرت – أنا – بهذه الكلمة ولم تكن قد قيلت لى، وأدركت أبعادها وعايشتها وازداد حبى بها لقائلها ولمن قيلت له ، فهى كلمة لا يذوق حلاوتها إلا المؤمن المحب لله ورسوله.

إنها كلمة جعلها النبى ﷺ فى عقبه ، فاستظل بظلها من عرف معناها ومغزاها، وفتح لها قلبه وعقله.

وما علينا لو ودعنا بها من أراد الحج والعمرة، أو أراد سفراً فى طاعة، أو هجرة فى سبيل الله.

ولماذا لا يسأل كل واحد منا أخاه أن يدعو له؛ فإن دعاء الأخ لأخيه فى ظاهر الغيب لا يرد إن شاء الله.

ولماذا لا نتتبع الحكمة الجامعة فى كلام النبى ﷺ فنعايشها ونحفظها ونعمل بها، ونتخذ منها الدواء لكل داء ، والمنطلق لكل عمل صالح يحبه الله ويحبه الناس.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق والسداد.

* * *

(١٧٣) لا تجعلوا قبرى عيداً

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قَبْرى عِيداً، وصَلُّوا علىَّ؛ فإن صَلاتَكُم تَبْلُغُنى حيثُ كُنْتُم» (١).

* * *

كان النبى - ﷺ - يحرص كل الحرص على مخالفة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر والضلال فى عباداتهم وفى عاداتهم التى يصبغونها بصبغة دينية، ويوصى أصحابه والذين يجيئون من بعدهم بذلك، ويحذرهم تحذيراً شديداً من أن يمارسوا فى أعيادهم ما كان يمارسه هؤلاء من لهو ولعب وصخب وطقوس يظهرون فيها حبهم وتعظيمهم لأنبيائهم وأوليائهم وصالحيهم.

فقد قال فيما قال: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٢) أى مكاناً للصلاة وغيرها من أنواع العبادات، يشدون إليها الرحال، ويبذلون فى الاحتفال بها كثيراً من الأموال، ويذبحون عندها الذبائح تقرباً إلى أصحابها؛ فإن ذلك كان يصرفهم عن الإخلاص التام فى عبادة الله - تبارك وتعالى - باتخاذهم وسائط يتوسلون بهم إليه.

ولما كان النبى - ﷺ - أعظم الخلق عند الله وأكرم الرسل خشى أن يُعظم قبره تعظيماً يؤدى إلى إفساد العقيدة الصحيحة، أو إساءة الأدب مع الله تبارك وتعالى - نهاهم عن المبالغة فى تعظيمه حَيّاً وميتاً.

فقال فيما قال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدُ الله ورسوله» (٣).

أى: لا تعظمونى تعظيماً كتعظيم النصارى لعيسى ابن مريم فترفعونى

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح، ورواه أحمد والنسائى.

(٢) رواه مالك فى موطئه، السفر ٨٥، وابن حنبل ٢ : ٢٤٦.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء، وتقدم شرحه فى الوصية ٤٥.

فوق قدرى، ولكن الزموا الأدب مع الله عز وجل، وصفونى بما وصفنى الله به، فقولوا: محمد عبد الله ورسوله ، كما أقول.

ولم يكن أصحابه الأخيار يجاوزون الحد فى مدحه وإطرائه؛ لأنهم عرفوا الله بأوصافه الكمالية، وعرفوا الحد الذى يقفون عنده فى تعظيمه والثناء عليه ﷺ، ولكنه حذرهم من ذلك ليكون هذا التحذير نافذاً من خلالهم إلى من وراءهم ممن هم حديثوا عهد بالإسلام، وممن يجىء بعدهم إلى يوم الدين.

وفى هذه الوصية نهى وأمر وخبر.

فقد نهى عن اتخاذ قبره عيداً، وأمر بالصلاة عليه، وأخبر أن صلاتنا عليه تبلغه.

فتعالوا بنا ننظر فى هذه الوصية؛ لنتعرف سَوِيّاً ما اشتملته من الأحكام والعبر.

* * *

قوله ﷺ : «لا تجعلوا قبرى عيداً» هو كقوله فى الحديث المتقدم : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد» فهذه الدعوة بيان للمراد من قوله: «لا تجعلوا قبرى عيداً» تعودون إليه كلما ذهبتم عنه؛ من أجل أن تعظموه، كما عظمت اليهود والنصارى قبور أنبيائهم؛ فإن تكرار الزيارة فى اليوم مرتين أو ثلاث بدعة من البدع وموافقة لأهل الكتاب، ومبالغة فى التعظيم لا مبرر لها.

ولكن لا بأس من ارتياد مسجده للصلاة فيه.

وكثرة الزيارة تؤدى إلى الألفة، والألفة تؤدى فى الغالب إلى الإقلال من الشوق إليه، وربما تؤدى إلى رفع الكلفة وإساءة الأدب والتهاون فى آداب الزيارة المشروعة.

وقد يراد بهذا النهى معنى آخر يضاف إلى هذا المعنى، وهو أن يحتفلوا بيوم مولده أو يوم وفاته عند قبره، كما يفعل الناس اليوم مع أوليائهم الذين أقاموا لهم الأضرحة هنا وهناك.

ولقد ذكر شراح هذا الحديث أقوالاً أخرى تقارب هذا القول أو تباعده.

فمنهم من قال: المراد بذلك: النهى عن اجتماعهم لزيارته كاجتماعهم فى أعيادهم، فيأكلون عند قبره ويشربون، ويلهون ويلعبون، فيخلطون العادة بالعبادة، وهو ما يفعله الجهال الآن عند الأضرحة فى الموالد والمناسبات الأخرى.

ومنهم من قال: لا تجعلوا زيارته عادة تعتادونها فى أيام معينة؛ فإن الزيارة مستحبة ما لم تكن عادة؛ لأن الاعتياد على الشيء المستحب يخرجه عن الاستحباب أحياناً إلى السنة التى ينبغى المحافظة عليها.

وقد عرف أصحاب النبى - ﷺ - السنة وفرقوا بينها وبين المستحب، بأسلوب أيسر من أسلوب الفقهاء، فكانوا يحافظون على السنن التى رأوا النبى - ﷺ - يحافظ عليها أكثر من التى رأوه يفعلها حيناً ويتركها حيناً.

روى البخارى عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا قبل المغرب ركعتين، ثم قال: صلوا قبل المغرب ركعتين، ثم قال فى الثالثة: لمن شاء؛ كراهية أن يتخذها الناس سنة». أى كراهة أن يداوم الناس عليها.

فزيارة النبى ﷺ من المستحبات التى يفعلها المسلم حيناً ويتركها حيناً، لا من السنن التى ينبغى أن يداوم عليها؛ فإن المداومة على زيارة قبره ﷺ قد يشغل الزائرين عن أمور أهم منها.

ومن العلماء من يرى أن المعنى لا تقللوا من زيارة قبرى فتجعلوها فى العام مرتين.

والأصح ما ذكرناه أولاً والله أعلم بالصواب.

* * *

ولزيارة قبر النبى - ﷺ - آداب يستحب لنا أن نلم بها حتى إذا منَّ الله علينا بزيارة مسجده وقبره أديناها على الوجه الأكمل وبالطريق الأمثل.

وينبغى أن نعلم أولاً أن زيارة النبى - ﷺ - فى مسجده لها فضل عظيم؛ فهى قربة من أعظم القربات فى مجال الزيارات التى حث النبى ﷺ عليها ورغب فيها.

فقد روى البزار والدارقطنى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «من زار قبرى وجبت له شفاعتى».

وروى الدارقطني والطبراني عنه أيضاً قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا تعمده حاجة إلا زيارتي كان حقاً على أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

وروى الدارقطني والطبراني والبيهقي عنه أن النبي ﷺ قال: «من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي».

فإذا توجهت - أيها المسلم الكريم - إلى المدينة المنورة قاصداً زيارة قبر الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - فأكثر من الصلاة والسلام عليه طول الطريق، واسأل الله تعالى أن ينفعك بهذه الزيارة وأن يقبلها منك، وأن يمنحك من لدنه العفو والعافية وحسن الختام.

ويستحب أن تغتسل وتلبس أحسن ما عندك من الثياب، وتتطيب بما معك من الطيب؛ استعداداً لدخولك المدينة الطيبة، فإذا ما دخلتها فقل: باسم الله، رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً، اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وارزقني من زيارة رسولك ﷺ ما رزقت أولياءك وأهل طاعتك، واغفر لي وارحمني يا خير مسئول، اللهم إني أسألك خير هذه البلدة وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها.

ولتكن متواضعاً خاشعاً مستحضراً في قلبك أنها البلد التي اختارها الله تعالى داراً لهجرة نبيه ﷺ ومهبطاً للوحي الأمين.

وإذا أردت - يا أخي المسلم - دخول المسجد النبوي - فادخل برجلك اليمنى، وعليك السكينة والوقار، وقل: «باسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، رب اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك»، وصل تحية المسجد عند المنبر بحيث يكون عمود المنبر جهة كتفك الأيمن إن أمكن، فهذا هو موقف النبي ﷺ - على ما قيل - قبل أن يوسع المسجد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثم تقدم نحو القبر الشريف ولا تهجم عليه، ولا تلتصق به، ولا تمد يديك عليه، بل استقبل جداره، واستدبر القبلة متباعداً عنه نحو مترين أو ثلاث؛ لما روى أبو حنيفة أن ابن عمر رضى الله عنهما قال: من السنة أن تأتى قبر النبى ﷺ من قبل القبلة وتجعل ظهرك إلى القبلة، وتستقبل القبر بوجهك، ثم تقول: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

هذا، وللزائر أن يزيد: السلام عليك يا خير خلق الله يا إمام المتقين يا سيد المرسلين، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، فجزاك الله عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم إنك قلت: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما﴾ وقد أتيتك يا رسول الله مستغفراً من ذنوبى مستشفعاً بك إلى ربى فأسألك يا رب أن توجب لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، اللهم اجعله أول الشافعين يا أرحم الراحمين. ثم يدعو لوالديه وللمسلمين.

ويبلغ سلام من أوصاه بتبليغ سلامه، فيقول: السلام عليك يا رسول الله من فلان ابن فلان، أو فلان ابن فلان يسلم عليك يا رسول الله.

بعد ذلك يستحب لك - أيها الزائر المحب لرسول الله ﷺ - أن تتأخر عن يمينك قدر متر فتقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، السلام عليك يا صاحب رسول الله ﷺ وأنيسه فى الغار وأمينه على الأسرار، جزاك الله عن أمة محمد ﷺ خيراً.

ثم تتأخر عن يمينك قدر متر وقل: السلام عليك يا ناصر المسلمين، السلام عليك يا من أعز الله به الإسلام، جزاك الله عن أمة محمداً ﷺ خيراً.

ومن لم يحفظ هذا الثناء فليقتصر على بعضه، فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فعن نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان إذا قدم من سفر دخل المسجد ثم أتى القبر فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه» (١).

هذا .. وينبغي للزائر أن يلاحظ أن النبى ﷺ يسمع كلامه ويرد عليه السلام، لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام» (٢).

هذا .. ومن الأدب ألا يرفع الزائر صوته - جداً - فى مسجد رسول الله ﷺ؛ فرفع الصوت فى أى مسجد مكروه، فما بالك بمسجد رسول الله ﷺ.

قال السائب بن زيد: كنت مضطجعاً فى المسجد فحصبنى رجل - أى قذفنى بالحصى - فرفعت رأسى فإذا عمر رضى الله عنه، فقال: اذهب فأتنى بهذين الرجلين. فجئت بهما. فقال: من أين أنتم؟، قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد ما فارقتمانى حتى أوجعتكما جلداً، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ!!(٣)

ويسن للزائر بعد الزيارة أن يكثر من الصلاة والدعاء فى الروضة الشريفة، ويتحرى الوقوف والدعاء عند المنبر الشريف مقتدياً بالنبى ﷺ، وأن يتحرى الصلاة أيضاً فيما كان مسجداً فى حياة النبى ﷺ لا فيما زيد بعده.

ويسن كلما مر بالقبر الشريف أن يسلم على النبى ﷺ وعلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، ولو كان خارج المسجد.

ويستحب الإكثار من زيارة القبر الشريف لمن كان قادماً من سفر حتى يملأ قلبه حباً لرسول الله ﷺ.

هذا .. ويستحب الإكثار من الصلاة فى المسجد النبوى، لأن الصلاة فيه تعدل فى الأجر ألف صلاة.

---

(١) أخرجه البيهقى.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٣) أخرجه البخارى.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (١) .

وعن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «صلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة فى مسجدى ألف صلاة، وفى بيت المقدس خمسمائة صلاة» (٢) .

هذا . ويستحب لمن طال به المقام أن يزور الأماكن المفضلة والبقاع الطاهرة التى كان يرتادها النبى ﷺ ويصلى فيها، أو يجلس عندها، أو يسلم على أهلها؛ اقتداءً به عليه الصلاة والسلام؛ ليتذكر عند هذه الأماكن الأحداث التاريخية والمشاهد الإيمانية، فينشرح بذلك صدره ويمتلئ بمشاعر الحب والإيمان قلبه.

فيستحب له أن يزور البقيع ، وهو مكان دفن فيه كثير من أصحاب رسول الله ﷺ وأقربائه وأحبائه، فقد كان النبى ﷺ يزورهم فى كل ليلة ويسلم عليهم ويستغفر لهم.

قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع ، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد (٣) » (٤) .

ويستحب زيارة شهداء أحد ويبدأ بقبر حمزة عم النبى ﷺ .

ويستحب زيارة المساجد التى صلى فيها الرسول الكريم ﷺ مثل مسجد قباء، ومسجد الفتح، ومسجد الجمعة، ومسجد الأحزاب، وغيرها من المساجد المعروفة لأهل المدينة ومن جاورهم.

* * *

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) أخرجه البيهقى.
(٣) الغرقد : شجر كان بالبقيع ثم قطع.
(٤) أخرجه مسلم والبيهقى.

وأما قوله ﷺ: «وصلوا على» فإن الأمر فيه للوجوب.

يؤيده قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ (١).

فقد دلت هذه الآية على أن الصلاة والسلام عليه من الواجبات كلما ذكره الذاكرون.

فمن ذكره أو ذُكر عنده ولم يصل عليه - فهو آثم على الصحيح من أقوال الفقهاء.

وقيل: إن الصلاة والسلام عليه فرض فى العمر مرة، ثم تصير سنة مؤكدة بعد ذلك.

وصلاة الله على النبى كما قال البخارى: هى الثناء عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة هى الدعاء له.

فإذا كان الله عز وجل يصلى عليه دائماً عند ملائكته، والملائكة يصلون عليه عند الله - كان من الواجب علينا أن نصلى عليه صلاة دائمة ونسلم عليه سلاماً معطراً بالحب والإخلاص.

وقد قَدَّمَ الله ذكر صلاته عليه وصلاة ملائكته للمبالغة فى حضنا على الصلاة والسلام عليه كلما ذكرناه أو سمعنا من يذكره.

وقد شرع الله الصلاة عليه فى الصلاة، وهى أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وما ذاك إلا لمزيد تعظيمه وتعميق حبه فى قلوبنا، وفى ذلك دلالة على رفعة شأنه وعظيم قدره عنده عز وجل.

قال جل شأنه ممتناً عليه: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾.

وصلاتنا عليه دعاءٌ له، وتعبير صادق عن حبنا إياه، ورغبة منا فى عظيم الأجر وفى مرافقته فى الجنة.

---

(١) الأحزاب: ٥٦.

وقد أفاد هذا الحديث أن صلاتنا عليه تُقَرِّبنا منه نَجِيّاً فى دار الدنيا؛ فإنها تبلغه ويسمعها بأذنه، أو يحيط بها علماً بواسطة الملك الموكل بذلك.

وقد روى أبو داود فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلاَّ رَدَّ اللهُ رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السلام».

ولا تقل: كيف يكون ذلك؛ فإن أمور الآخرة ليست كأمور الدنيا، والأرواح وهى بعيدة عن أجسامها لها عالمها الذى لا مجال للعقل فى إدراك ما فيه.

والواجب علينا أن نسلم بكل ما أخبرنا الله به من الأمور المُغَيَّبَةِ فى كتابه – عز وجل – أو على لسان رسوله – عليه الصلاة والسلام – .

إن صلاتنا على النبى ﷺ هى العروة الوثقى بيننا وبينه، وهى الروح والريحان، يتذوق حلاوتها من أحبه وأحيا سنته وتمنى لقاءه فى اليقظة أو فى المنام، وكان مبلغ همه أن يحشر معه وينال شفاعته ويكون رفيقه فى الجنة.

وقد كان أصحاب النبى ﷺ لا يكفون عن الصلاة عليه، بل كانت هى شغلهم الشاغل؛ لأن قلوبهم قد أشربت حبه، فملك هذا الحب عليهم عقولهم ومشاعرهم وسرى فى كيانهم كله، فكانت الصلاة عليه هى الدواء والشفاء، تحيا بها أرواحهم حياة لا يعرفها إلا من حذا حذوهم ونهج نهجهم واتخذ له سبيلاً إلى القرب من ساحته ﷺ، فجعل الصلاة عليه ديدنه أينما حل أو ارتحل.

وبقدر الحب يعظم الأجر فى الصلاة والسلام عليه، فليس من صلى وسلم عليه وهو غافل كمن صلى وسلم وهو مغمور بحبه ذاكر لربه طالب لقربه ومرضاته.

فمن صلى عليه بقلبه ولسانه – أعظم الله له الأجر، وأجاب دعاءه، وجعله رفيقاً له فى الجنة.

روى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً» أى أعطاه عشر أمثالها من الأجر مع عظمه.

والصلاة من الله لعباده رحمة واسعة وأجر كبير.

وروى الترمذى بإسناد حسن عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَوْلَى الناسِ بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة».

وروى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن فَضَالَةَ بنِ عُبَيْد رضى الله عنه قال: «سَمِعَ رسول الله ﷺ رجلاً يَدْعُو فى صلاته ولم يحمد الله تعالى ولم يُصَلِّ على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: عَجِلَ هذا، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: إذا صَلَّى أحدكم فَلْيَبْدَأ بتحميد رَبِّه سبحانه والثناء عليه، ثم يُصلِّى على النبى ﷺ، ثم يدعو بَعْدُ بما شاء».

فقد أوصانا النبى ﷺ بالصلاة عليه فى الدعاء؛ لِيُرْفَعَ معها؛ فإن الله أكرم من أن يستجيب دعوة ويَرُدَّ أخرى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١٧٤) من سَرَّه أن ينجِّيَه الله

عن أبي قَتَادَةَ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ سَرَّهُ أن يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يومِ القيامةِ فَلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ أو يَضَعْ عَنْهُ» (١) .

* * *

التعاون على البر والتقوى أصل من أصول الدين، تجتمَع فيه المكارم كلها، وتلتقى عنده جميع أصول الأخلاق، وتجتمع عليه جميع القلوب المؤمنة.

يقول الله عز وجل: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (٢) .

والتعاون هو العون المتبادل بين الإنسان وأخيه الإنسان فيما يعود على كل منهما بجلب النفع ودفع الضرر.

والدين إنما وضع لمصالح الناس فى العاجل والآجل.

ومصالح الناس تتمثل فى أمرين أساسيين هما: دفع المفاسد، وجلب المنافع.

ودفع المفاسد مقدم على جلب المنافع، كما يقول علماء الأصول، وهو ما يُعَبِّرُ عنه القرآن بالبر.

والبر كلمة واسعة الدلالة تشمل خصال الخير كلها على كثرتها ووفرتها.

ولا بر من غير تقوى؛ لذا قرن بها فى الآية.

وهى أيضاً كلمة واسعة الدلالة تشمل بعمومها الوقاية من كل شر يضمره الإنسان فى نفسه أو يضمره له غيره.

وهى إذا وقرت فى قلب امرئ كانت له دواءً ناجعاً لكل داء.

قالت عائشة رضى الله عنها: «لله دَرّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاءً».

---

(١) رواه مسلم فى كتاب المساقاة ، باب ٦ ، حديث رقم : ١٥٦٣ .
(٢) المائدة : ٢ .

والناس للناس، لا غنى لأحد منهم عن الآخر؛ فإن بعضهم ظهير لبعض مهما تباعدت بهم الأقطار أو تناءت بهم الديار.

فالإنسان - كما يقول ابن خلدون في مقدمته - مَدَنِيٌّ بطبعه . أي لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن أبناء جنسه، ولا يتمكن بمفرده من قضاء حوائجه مهما أوتي من قوة؛ فقد خلق اجتماعياً، يحب التجمع ويكره العزلة.

والدلالة كلها تشهد بذلك، فرغيف العيش الذي يأكله - قد عملت في صنعه وإعداده عشرات الأيدي، من أول من يُعِدُّ البذر للبيع إلى من يُعِدُّهُ للأكل، بل ينتهي الأمر عند الذي يأكله، فتشترك فيه جميع أعضائه بالمضغ والبلع والهضم وغير ذلك من العمليات التي يصعب علينا عَدُّهَا وحَصْرُهَا.

النـاس للنـاس من بَدْوٍ وحـاضرة بعض لبعضٍ وإن لم يَشْعُرُوا خَدَمُ

والناس يتعاونون على البر والتقوى ما داموا متمسكين بروح الإسلام، فإن ضَعُفَ الإيمان وقل الوازع الديني وانصرفت القلوب إلى الأثرة وحب الذات - لم يكن بينهم بر ولا تقوى.

وعندئذ يشعر الإنسان بأنه يعيش وحيداً في خاصة نفسه، ولا يشعر به أحدٌ إذا جاع أو مرض أو وقع في مأزق، مع أنه يعيش في أرض ليس فيها شبر واحدٌ إلا وعليه إنسان مشغول بنفسه.

يقول الشاعر الحكيم:

النـاسُ للناس ما دام الحيـاءُ بهم والعسرُ واليسرُ ساعاتٌ وأوقاتُ
لا تقطعنَّ يَدًا المعروف عن أحد مـا دُمْتَ تُرْجَـى فَالْأَيَّامُ تَارَاتُ

والحياء شعبة من أهم شعب الإيمان، فهو خير كله، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره، فمن لم يكن لديه حياء - لم يكن لديه إيمان، وبالتالي لا يكون في قلبه رحمة لإنسان.

* * *

وهذه الوصية دعوة لنا إلى وقاية أنفسنا من كرب يوم القيامة بتنفيس كرب الناس وتخفيف آلامهم؛ ليكون الجزاء من جنس العمل.

فمن نَفَّسَ عن معسر بشيء من ماله لسد حاجته وإدخال السرور عليه وإشعاره بأنه ليس وحده في هذه الحياة، مبتغياً بذلك وجه الله تعالى - فإن الله عز وجل يُنَفِّسُ عنه بتنفيس هذه الكرب كُرَباً كثيرة؛ بناءً على أن الحسنة بعشر أمثالها مع مضاعفتها بقدر الإخلاص فيها.

يقول الله عز وجل: ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون ﴾ (١) .

ويقول جل شأنه: ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ (٢) .

ولا فرق بين من يعطى المعسر ما يسد به حاجته ومن يَحُطُّ عنه دينه كله أو بعضه أو ينظره إلى ميسرة.

يقول الله عز وجل: ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تَصَدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٣) .

ويبدو لغير المتأمل أن المتصدق أفضل من المنظر إلى الميسرة، والصحيح أن التفاضل إنما يكون بحسب الإخلاص لله ؛ هذا وذاك.

فهناك من يكون معسراً فى وقت دون وقت، وهو قوى سَوِيٌّ ولديه مال محبوس عنه إلى حين، فهذا يكون إنظاره أولى من التصدق عليه؛ لأن الصدقة لا تجوز على غنى ولا على ذى المِرَّة السوى، كما جاء فى حديث الترمذى.

وهناك من يكون التصدق عليه أفضل ، وهو الفقير والمسكين ومن فى حكمهما من ذوى الحاجات.

ولا شك أن من أنظر المعسر إلى حين ميسرة يكون من ذوى المروءات حقاً.

---

(١) البقرة : ٢٤٥.　(٢) البقرة : ٢٦٥.　(٣) البقرة : ٢٨٠.

وأهل المروءة هم أهل السخاء والجود والكرم، وإن كان العبد كريماً فإن الله أكرم ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾.

ومن تجاوز عن معسر تجاوز الله عنه يوم القيامة.

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «كان رجلٌ يُدَاينُ الناسَ، وكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسراً فتجاوز عنه؛ لعل اللهَ أن يتجاوز عنا، فَلَقِيَ اللهَ فتجاوز عنه».

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى مسعود البدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «حُوسِبَ رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس (١)، وكان موسراً، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه».

وروى مسلم - أيضاً - عن حذيفة - رضى الله عنه - قال: أُتِيَ اللهُ تعالى بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملتَ فى الدنيا؟، قال: - ولا يكتمون الله حديثاً - ، قال: يا رَبِّ آتَيْتَنِى مالَكَ، فكنتُ أبايعُ الناس، وكان من خُلُقِى الجَوَازُ(٢)، فكنتُ أَتَيَسَّرُ على الموسر، وأُنْظِرُ المُعْسِرَ.

فقال الله تعالى: «أنا أحَقُّ بذا منك، تجاوزوا عن عبدى».

فقال عقبة بن عامر، وأبو مسعود الأنصارى رضى الله عنهما: هكذا سمعناه من فِى رسول الله ﷺ.

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَنْظَرَ مُعْسِراً، أو وَضَعَ له (٣) - أَظَلَّهُ الله يوم القيامة تحت ظِلِّ عَرْشِهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ».

* * *

(١) يخالط الناس أى: يعاملهم بالبيوع والمداينة.

(٢) أى: التخفيف والتسامح عن المعسر.

(٣) أى: حَطَّ عنه بعض ما لديه عليه أو كله.

وقـوله ﷺ : «أو يَضَعْ عنـه» لا يقتصر على التجاوز عن الديون كلهـا أو بعضها فحسب، ولكنه يتعدى إلى كل حَقٍّ يستحب للإنسان فى بعض الأحوال أن يتجاوز عنه؛ تَحَلُّماً وتَكَرُّماً، كأن يتجاوز عن سَبِّه له، أو أخذه شيئاً من ماله بغير حق، أو الكيد له والتقصير فى تأدية واجبه نحوه، إلى غير ذلك من الأمور التى يستحب فيها العفو والصفح.

ولقـد كـان النبى ﷺ من أكـرم الناس على مـعـسـر، ومن أحلمـهـم على مخطئ، ومن أشدهم عفواً على مسيء.

وكان أصحابه من أشد الناس محاكاة له فى خلقه الفاضل وسلوكه النبيل.

وكان التابعون لهم يحذون حذوهم بقدر طاقتهم؛ ليلحقوا بهم.

يقول الله عز وجل فى وصفه والثناء عليه: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (١) .

ولين جانبه ﷺ معناه التجاوز عن المسيء منهم وأخذه بالحلم والصفح، والحكمة والموعظة الحسنة، حتى ينقاد لأمر الله ، إن شاء الله له الهداية.

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥٩.

(١٧٥) إِذا آتاكَ اللهُ مالاً فلْيُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته

عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون، فقال : «ألك مال ؟» ، قلت : نعم، قال : «من أى المال ؟» ، قلت : قد آتانى الله من الإبل والغنم، والخيل والرقيق.

قال : «فإذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامته» (١) .

* * *

كان النبى ﷺ يعلم أصحابه كيف يأخذون من الدنيا حظهم من غير إسراف ولا تقتير، ويدعوهم إلى التمتع بالطيبات بالقدر الذى لا يخرج بهم عن حد الاعتدال، ويوصيهم بأن يأخذوا حذرهم من التكلف فى الزهد، والإهمال فى مطالب الجسد الضرورية، ويرسم لهم الطريقة المثلى فى استغلال ما آتاهم الله من فضله فى الحدود التى يحبها الله ويحبها الناس، فالله جميل يحب الجمال، والناس أيضاً يحبون الرجل الذى يظهر بمظهر جميل يريح العين ، ويناسب ما جرى عليه العرف الذى يقره الشرع ويرتضيه.

ولذلك أمر النبى ﷺ مالك بن عوف والد أبى الأحوص أن يكون مظهراً لنعمة الله عليه معبراً عنها باتخاذ ما يناسب حاله من الغنى؛ لأن الإسلام دين الوسطية والاعتدال.

* * *

قال مالك بن عوف راوى هذا الحديث : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون. أى قديم بال ممزق وسخ.

فقال له النبى ﷺ : «ألك مال؟»، وهو سؤال له ما بعده.

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب اللباس، باب غسل الثوب ، حديث رقم: ٤٠٦٣ . ورواه أحمد مطولاً ومختصراً بالفاظ متقاربة حديث رقم: ١٥٨٣٠ وما بعده.

فهو بهذا السؤال يوحى إليه بما يريد أن يوصيه به وينبهه على تقصيره فى حق نفسه، ولا يخفى ما فيه من إنكار عليه أن يظهر بهذا المظهر وهو ذو مال كثير.

وربما يكون الرسول ﷺ يريد أن يعطيه ثوباً من عنده إذا كان فقيراً.

فإن كان يعرفه، فهو ينكر عليه تفريطه فى حق نفسه، وإن لم يكن يعرفه، فهو يريد أن يتحسس حاله ليعطيه مما آتاه الله من فضله.

وشأن المعلم دائماً إذا أراد أن يأمر بأمر هام أو يوصى بوصية نافعة - أن يمهد لها بسؤال يوحى بها ويشير إليها من قريب أو من بعيد.

والنابه الذكى يلمح ما بعد السؤال فيهىء نفسه لسماعه وتقبله.

قال مالك بن عوف: قلت نعم.

وهذه الإجابة تمهد لسؤال آخر لابد منه فقال له الرسول ﷺ: «من أى المال؟». وكان النبى ﷺ يعرف ما كان يملكه العرب من الأموال، فهى لا تخرج عما هو معروف فى شبه الجزيرة العربية، وقد كانوا يطلقون هذا اللفظ على الأنعام بأنواعها الثمانية، والخيل والبغال والحمير، ثم الذهب والفضة والرقيق.

قال مالك بن عوف: قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق.

وكأنه يتحدث بنعمة الله عليه، وقد عرف منه النبى ﷺ ذلك، فقال له: «فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته».

أى ما دام الله قد أعطاك مالاً فأنفق منه على نفسك فحسن ملبسك؛ تحدثاً بنعمة الله عليك؛ فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده إذا أظهرها عبده من غير بطر ولا خيلاء، وفى غير إسراف ولا تبذير.

وينسحب هذا أيضاً على الطعام والشراب والفراش وما إلى ذلك من طيبات الحياة.

والرسول ﷺ يبين له ولنا ما جاء فى كتاب الله تعالى من الحث على التمتع بالطيبات.

كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحل لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ (١) .

وقوله تعالى ممتناً على عباده: ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه: ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٣) .

فمن المستحب أن يأخذ المسلم حظه من دنياه بغير سرف ولا تقتير؛ إيماناً منه بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط، وأن الإسلام دين الوسطية، وهى القصد والاعتدال فى جميع الأمور.

وقد جاء فى أوصاف عباد الرحمن من سورة الفرقان (٤) : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ .

أى : كان الأنفاق وسطاً بين الإسراف والتقتير، فالقوام هو الشيء المعتدل كما هو معروف فى كتب اللغة.

وهذا الحديث حجة على من يدعى أن الزهد فى الدنيا هو التقشف والخشونة والحرمان من المتع الحلال، فيلبسون أخس الثياب وأخشنها، ويظهرون أمام الناس بمظهر مقزز مخالف لما جرى به العرف والتقاليد، ويفرضون ذلك على أتباعهم ومريديهم، ويدعون أنه الورع الذى يدعو إليه الدين ويرضى عنه رب العالمين.

إن الزهد فى الدنيا معناه الاقتصار على الحلال الطيب من غير إسراف ولا تقتير ولا إعجاب ولا خيلاء.

---

(١) المائدة : ٨٧ – ٨٨ .
(٢) الأعراف : ٢٦ .
(٣) الأعراف : ٣١ – ٣٢ .
(٤) آية : ٦٧ .

والورع هو ترك الشبهات؛ استبراءً للدين والعرض، وترك الجائزات إذا كانت تؤدى حتماً إلى الوقوع فى المحرمات.

وهذا الحديث برهان على سماحة الإسلام واتساع أفقه وصلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين واقعى فى منهجه، تقوم أحكامه على تحقيق ما تقتضيه الفطرة وتتطلبه الظروف والمناسبات.

فالمسلم ينبغى أن يظهر بالمظهر اللائق بشخصه وسنه وعلمه ووظيفته وغير ذلك مما يتميز به عن سواه، بحيث يبدو كل مسلم فى مظهر حسن يعبر عن دينه الذى يعتنقه ، ويدل على يسره وسماحته ومسايرته لجميع الظروف والأحوال فى جميع الأزمنة والأمكنة.

فالمسلم صورة صادقة للإسلام فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

* * *

(١٧٦) فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتى يُدعَوْن يوم القيامة غُرّاً مُحَجَّلِين من آثارِ الوضوءِ فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته، فليفعل»(١) .

* * *

الوضوء طهارة مائية من الحدث الأصغر مشتق من الوضاءة ، وهى النور والبهاء والنقاء والصفاء.

قد شرعه الله لتطهير القلوب والأبدان، وجعله شرطاً من شروط صحة الصلاة والطواف بالبيت الحرام، وهذه الطهارة نورٌ لصاحبها يوم القيامة كما كانت نوراً له في الدنيا ينعكس من وجهه على قلبه، ومن قلبه على وجهه، فيكون به وجيهاً فى الظاهر والباطن.

وهذه الطهارة قد عرفت فى الشرائع السماوية ، ولكنها فى شريعتنا أكمل وأتم.

فقد كان الأنبياء يغسلون أعضاء الوضوء مرة واحدة، وكان نبينا ﷺ يغسل أعضاءه ثلاثة مرات؛ مبالغة فى التطهير كما جاء فى كثير من الروايات.

والوضوء يكفر الذنوب، ويمحو الخطايا، ويضاعف الأجر، ويرفع الدرجات، وهو سلاح المؤمن، ويدفع به عن نفسه هواجس النفس، ووساوس الشيطان، ويشعر المؤمن، وهو متوضئ براحة نفسية، وانشراح فى صدره، ونشاط فى بدنه، لا يجده وهو على غير وضوء.

كما أن الوضوء يطفئ جذوة الغضب، ويسطع نوره على وجه المؤمن.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب ٣، ومسلم فى كتاب الطهارة حديث ٢٤٦ .

وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة منها:

ما رواه عبد الله الصُّنابحى رضى الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «إذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر [1] خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظافر يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من أظافر رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة» [2] أى زائدة.

والمراد بالخطايا هنا: الذنوب الصغائر، أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة النصوح.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله!. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره [3]، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط؛ فذلكم الرباط» [4].

والرباط معناه المرابطة للجهاد فى سبيل الله.

ومعنى ذلك أن المواظبة على الطهارة، وانتظار الصلاة بعد الصلاة يعدل الجهاد فى سبيل الله.

* * *

وتتضمن هذه الوصية وعداً حسناً لمن أسبغ الوضوء وأتمه على الوجه المشروع، وزاد على ذلك إطالة الغرة وإطالة التحجيل.

---

(١) الاستنثار هو جذب الماء من الأنف.

(٢) رواه مالك والنسائى وغيرهما بسند صحيح.

(٣) إسباغ الوضوء: إتمامه، على المكاره: أى على وجود ما يكره معه استعمال الماء كالبرد وغيره.

(٤) رواه مسلم والترمذى وغيرهما بألفاظ متقاربة.

لكنِ ما المراد بالغرة والتحجيل، وما المراد بإطالتهما؟

أقول : الغرة نور فى الوجه، والتحجيل: نور فى القدمين، بل وفى اليدين أيضاً.

وإطالتهما بالزيادة على العضو المراد غسله.

وذلك بغسل شىء من مقدم الرأس مع غسل الوجه، وغسل ما فوق الكعبين ولو إلى الركبتين، وغسل ما بعد المرفقين ولو إلى الكتفين ، مع خلاف يسير بين الفقهاء فى الحد الذى تنتهى إليه الزيادة.

والغرة والتحجيل: صفتان تعرف بهما أمة محمد ﷺ يوم القيامة من بين الأمم على كثرة الخلائق يومئذ، وفى ذلك تشريف لهذه الأمة وبيان لفضلها على سائر الأمم.

ورسول الله ﷺ يباهى بأمته الأمم يوم القيامة.

﴿يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير﴾ (١) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددنا لو أنا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: «أنتم أصحابى، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد».

قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟

قال : «أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ محجلة بين ظهرى خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله؟».

قالوا : بلى يا رسول الله.

---

(١) التحريم : ٨.

قال: «فإنهم يأتون غُرّاً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال. أناديهم ألا هلم.

فيقال: إنهم بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً» (١) .

والمعنى أن النبى ﷺ يعرف أمته بين الأمم بنور يكسو وجوههم، ويحلى أرجلهم، وهذا النور اكتسبوه من الوضوء للصلاة فى الدنيا.

فالوضوء نور فى الدنيا يظهر على وجه المصلى، ويسطع فى قلبه، ونور فى الآخرة، يعلو وجهه، ويحجل قدميه.

اللهم اجعل لنا نوراً فى الدنيا ونوراً يوم نلقاك.

*　　*　　*

---

(١) رواه مالك ومسلم.

(١٧٧) يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله

عن أبى مسعود (عقبة بن عمرو البدرى) الأنصارى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يؤمُّ القومَ أقرؤُهُم لكتابِ الله، فإن كانوا فى القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرة، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمُهُم سلماً، ولا يَؤُمَنَّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه».

* * *

الإمامة فى الصلاة ليست كالإمامة فى الحكم؛ لأن إمام الصلاة شفيع لمن خلفه عند الله عز وجل.

ولابد للشفيع أن يكون لديه مؤهلات الشفاعة ، من علم وخلق فاضل وزهد فى الدنيا ، وسبق فى الإسلام أو فى فعل الخيرات.

والإمامة فى الصلاة تتطلب من الإمام أن يكون محبوباً عند من يصلى خلفه، ولا يكون الإمام محبوباً إلا بخصاله الحميدة وعلمه بالكتاب والسنة، وخلقه الحسن وحبه لمن يأتم به.

لذا قدم النبى ﷺ الأحق به عند اجتماع أولى الفضل والنهى فقال:

«يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله .... إلى آخره».

وسنحاول فى شرح هذا الحديث أن نتعرف على المقصد الأسمى من هذا الترتيب مع معرفة الأحكام التى تضمنها ، والله المستعان.

* * *

قوله ﷺ : «يؤم القوم» جملة خبرية فى اللفظ طلبية فى المعنى، يعنى: فليؤم القوم، يدل عليه حديث: «إذا كنتم ثلاثة فليؤمكم أكبركم».

والمراد بالقوم هنا الذكور بالأصالة والإناث بالتبعية؛ لأن العرب يطلقون هذا اللفظ على الذكور دون الإناث، فلا يدخل الإناث معهم إلا بقرينة.

(١) رواه مسلم: ٦٧٣ . ودليل الفالحين جـ ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

والقرينة هنا موجودة وهى قرينة شرعية؛ لأن المرأة مكلفة بالصلاة فى بيتها، ولكن لها أن تصلى مع الجماعة فى المسجد ، فكانت بهذا تابعة للقوم.

والدليل على أن المراد بالقول عند الإطلاق الذكور دون الإناث قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن﴾ (١) .

وقوله ﷺ « أقرؤهم لكتاب الله » أى أكثرهم حفظاً له، وأمهرهم قراءة به، وأعلمهم لمعانيه ومراميه؛ فإن القراء هم الفقهاء بأحكام القرآن وقصصه وأمثاله ومحكمه ومتشابهه.

وقوله ﷺ : « فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة » أى أكثرهم حفظاً للسنة القولية والفعلية والتقريرية (٢) .

ولا غرابة فى أن يكون الرجل عالماً بالقرآن غير ملم بالسنة ، فإن كثيراً من أصحاب النبى ﷺ قد شغله القرآن عن متابعة الأحاديث النبوية وحفظها والنظر فيها.

ولا شك أن الجمع بين العلم بالكتاب والسنة أفضل كثيراً من الاقتصار على أحدهما.

والاقتصار على القرآن وحده أفضل من الاقتصار على السنة وحدها؛ لأن الاقتصار عليه لا يشكل خطراً بخلاف الاقتصار على السنة وحدها؛ فإنه يخطئ كثيراً من اقتصر عليها فى استنباط الأحكام ومعرفة أدلتها؛ لأن القرآن متواتر قطعى الثبوت بخلاف السنة فإن منها المتواتر - وهو قليل - ومنها ما ليس كذلك - وهو الكثير.

وهذا أمر شرحه يطول فلا نشغل أنفسنا به هنا ولكننا نريد أن نعرف لماذا قدم الأقرأ لكتاب الله على الأعلم بالسنة، ولماذا قدم الأعلم على غيره عند التساوى فى العلم بكتاب الله عز وجل.

---

(١) الحجرات: ١١.

(٢) السنة التقريرية: هى الإقرارات التى وردت عنه ﷺ، بمعنى أنه كان يرى الشيء فيقره بسكوته عليه ، فيعتبر هذا السكوت إقراراً بصحته أو بجوازه ، فكان هذا النوع قسماً ثالثاً من أقسام السنة.

فنقول: إن الأعلم بكتاب الله عز وجل يحسن القراءة فيشنِّف آذان من خلفه بقراءته المتقنة وصوته الخاشع، ووقوفه على ما يتم به المعنى، فتكون قراءته أوقع في قلب السامع فلا ينصرف ذهنه عنها، بل يحبس نفسه على سماعها وتدبر معانيها فيخرج منها بزاد طيب يعيش به إلى الصلاة الأخرى.

وهذه الصلاة هى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر حقاً لتوفر الخشوع والتدبر الأمثل من قِبَل الإمام والمأموم.

ويقدم الأعلم بسنة رسول الله ﷺ عند التساوى، لأنه أكثر علماً لأن السنة بيان للقرآن،ولا شك أن من جمع بين البيان والمبين أفضل وأولى بالإمامة من سـواه.

وقوله ﷺ: «فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة».

معناه أن الأقدم فى الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام أولى حينئذ بالإمامة ؛ رعاية لحقه فى السبق إلى الهجرة.

وليس المراد بالهجرة – فى نظرى – الهجرة من مكة إلى المدينة؛ لأنه بعد فتحها لا تكون هناك هجرة منها لتوفر الأمن فيها وانكسار شوكة المشركين بها والله أعلم.

وقوله ﷺ «فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سلماً» أى إسلاماً؛ رعاية لسبقه إلى الإسلام.

لأن الله عز وجل قد أثنى على السابقين إلى الإسلام ثناء حسناً ووعدهم وعداً جميلاً فى مثل قوله جل وعلا: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (١) .

وفى رواية أخرى لمسلم: «أقدمهم سناً».

وفى رواية أخرى أيضاً: «أكبرهم سناً».

---

(١) التوبة : ١٠٠.

وذلك لأن فى تقديمه توقير له ، فلا خير فيمن لا يرحم صغيره ولا يوقر كبيره كما جاء فى الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

وهذا الترتيب ليس واجباً بل هو مستحب؛ إذ يجوز شرعاً من غير خلاف تقديم هذا على ذاك إذا كان يحسن الصلاة .

وهذا الترتيب مثال للتفضيل، فإذا اجتمع بعض القراء وتساووا فى الحفظ قدم أورعهم وأتقاهم، فإن تساووا فى الورع والتقوى قدم أحسنهم صوتاً، فإن تساووا فى حسن الصوت قدم أعلمهم بالسنة على النحو الذى ذكرناه فى تفضيل القراء ، فأكثرهم حفظاً للحديث مقدم على غيره ، وأضبطهم للروايات مقدم على الأحفظ ، والأفقه فى الحديث مقدم على الأحفظ والأضبط .

فإن تساووا فى ذلك كله قدم أقدمهم هجرة ، ثم أقدمهم سلماً ثم أكبرهم سناً .

وقد بالغ العلماء فى أمر التفضيل على سبيل الاستحسان، فقدموا المتزوج على العزب، ثم الأجمل صورة ثم الأجمل زوجة إلى آخر ما ذكروه على سبيل البسط والمباسطة ، وهو نوع من الترف العقلى لا حاجة لنا به فالأولى الاقتصار على ما جاء فى الحديث .

وقوله ﷺ : «ولا يؤمن الرجلُ الرجلَ فى سلطانه» أى فى ولايته أو مقر حكمه أو محل وظيفته أو فى بيته .

فمعنى السلطان هنا أعم وأشمل من ولاية الحكم ، فالرجل سلطان لكل ما ملكه وتسلط عليه بالحيازة والتصرف .

وهذا النهى للكراهة لا للتحريم، فإذا أم الرجلُ الرجلَ فى سلطانه صحت الصلاة مع الكراهة، لما فى ذلك من الاعتداء على صاحب الحق وإساءة الأدب معه فى عدم أخذ الإذن منه .

ولكن ينبغى على صاحب البيت وإمام المسجد وغيرهما إذا حضر السلطان وهو الوالى أن يقدمه للإمامة إكراماً وتوقيراً له .

وكذلك إذا حضر من هو أعلم منه بالكتاب والسنة أو أشد ورعاً وتقى أو أكبر سناً ، بشرط أن يكون أهلاً للإمامة.

وقوله ﷺ : « ولا يقعد فى بيته غلى تكرمته إلا بإذنه » أى لا يجلس على فراشه أو على وسادته إلا إذا أذن له بذلك. فهذا هو العرف السارى بين الناس من أقدم العصور، فلا ينبغى هجره والتعدى عليه.

والاستئذان واجب عند دخول البيت وعند الجلوس فيه وعند الخروج منه كما هو معروف ، فلا يجهلن أحد هذه السلوكيات لأنها من باب المروءات.

والمروءة من الحياء بمنزلة الروح من الجسد، فمن لا مروءة له لا حياء له، ومن لا حياء له لا إيمان له؛ إذ هو شعبة من أهم شعبه وأسماها بعد كلمة التوحيد.

فقد خصه النبى ﷺ بالذكر حين قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ».

وقد جاء فى الحديث : « الحياء خير كله ».

وجاء فى الحديث أيضاً : « إن لم تستح فاصنع ما شئت » [١] .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما تقدم :

١ - رعاية الإسلام للحقوق والواجبات فى جميع الأمور وعلى رأسها إمامة الصلاة؛ لأن الصلاة عماد الدين وركنه الركين.

سواء كانت هذه الحقوق مادية أم كانت معنوية؛ فأهل العلم بالكتاب والسنة مقدمون على غيرهم فى الصلاة وفى غيرها، وبعضهم أولى من بعض بما فضلوا به بعد العلم من زهد وورع وسبق فى الهجرة أو فى الإسلام أو فى السن أو فى غير ذلك من أنواع الفضل.

٢ - حرص الإسلام على احترام العرف الذى أقره الشرع وارتضاه العقل

---

(١) هذه الأحاديث رواها مسلم وغيره.

واستجابت له الفطرة؛ فإن المؤمن كيِّس فطن، ليِّن متواضع، يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه، ويبادله حباً بحب واحتراماً باحترام .

ويسهم كل واحد من المؤمنين فى بناء المجتمع الفاضل الذى يشهد الناس له بالكمال الوافر ، ويدينون طوعاً لهذا الدين الذى جعلهم خير أمة على وجه الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتتعاون على البر والتقوى ، وتجدد إيمانها بالله فى كل صلاة خلف إمام يستحق الإمامة بعلمه وتقواه وسبقه فى أفعال الخير وبعده عن الشر.

إن الإسلام دين السماحة واليسر يحض معتنقيه على الفضيلة حيث كانت وينهاهم عن الرذيلة حيث وجدت، ويدعوهم إلى الحدب والتفاهم والحب المتبادل والتعاون البناء والاجتماع على الخير فى شتى الميادين ولا سيما الاجتماع على الصلاة .

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الإخلاص والسداد فى القول والعمل .

* * *

(١٧٨) لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي» (١) .

* * *

كثرة الكلام من غير ذكر الله تعالى – لغو لا مبرر له، ولا خير فيه، ولا طائل تحته، فهو تبعة من التبعات التي يتحملها المرء ويبوء بإثمها ويتعثر بسببها في مناحي الحياة كلها.

وقد قالوا: من قل كلامه، حمدت عاقبته.

وقالوا: من كثر لغطه، كثر غلطه.

وقالوا: إن كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب.

وقال عمرو بن العاص : الكلام كالدواء ، إن قللت منه نفع ، وإن أكثرت منه ضر.

وقال لقمان الحكيم: إن من الصمت لحكماً وقليل فاعله.

وخير الكلام ما قَلَّ ودلَّ.

والإيجاز في الكلام: ضرب من الإعجاز البياني.

فمن أراد أن يتكلم، فليجعل لسانه وراء قلبه ، لا يتكلم بالكلمة إلا إذا عرف معناها ومرماها؛ لأن الكلمة محسوبة عليه، إذا خرجت من فيه لا يستطيع لها رداً، واعتذاره منها قد لا يجدى نفعاً.

لقد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذبا ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ورحم الله امرأً تكلم فغنم أو سكت فسلم.

---

(١) رواه الترمذى.

وخيرهم: من يتحرى الكلمة التى تسد مسدها وتصيب موضعها وتكون موافقة لقواعد الأدب.

يقول الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(١).

فالأقوال السديدة تنتج آراءً رشيدة، ومن خلال هذه الآراء تتحدد جهاتها وميادينها وآثارها القريبة والبعيدة، فمن قال قولاً سديد – أصلح الله عمله، وبصلاح عمله يكتب له الفوز العظيم فى الدنيا والآخرة، فتدبر آيات القرآن لتفقه معانيها ومراميها، وبالله توفيقك.

* * *

والنهى عن كثرة الكلام ليس على إطلاقه فى هذه الوصية، وإنما هو منصب على الكلام الذى يخلو على كثرته من ذكر الله عز وجل.

والكلام المفيد أربعة أنواع:

الأول: الموجز البليغ ، وهو ما كان قليل الألفاظ كثير المعانى.

الثانى: المساوى ، وهو الذى تتساوى ألفاظه مع معانيه.

الثالث: المطنب ، وهو الكلام الطويل الذى لا يخلو من الفائدة.

الرابع: المسهب ، وهو الكلام الطويل الخالى عن الفائدة.

وأبلغ الأنواع هو الموجز، فالإيجاز ضرب من الإعجاز ، وهو ما يسمى بجوامع الكلم.

والقرآن كله مبنى على الإيجاز.

وكلام الرسول ﷺ أيضاً مبنى على الإيجاز ، فقد أوتى جوامع الكلم فكان أسلوبه فى البلاغة دون أسلوب القرآن وفوق أساليب البلغاء مجتمعين.

---

(١) الأحزاب : ٧٠ – ٧١.

والرسول ﷺ فى هذه الوصية يحذرنا من خلو كلامنا من ذكر الله سواء قل كلامنا أم كثر.

فذكر الله عز وجل يعطى الكلام رونقاً وجمالاً، ويضفى عليه هيبة وجلالاً ويزيد المتكلمين خشوعاً وامتثالاً لله عز وجل، ويجعل الله فى كلامهم خيراً وبركة، ويكون الذكر مكفراً لما بدر منهم أثناء كلامهم من خطايا.

والذكر أيضاً يرقق القلوب القاسية، ويشرح الصدور الضيقة، ويفسح المجال للعقل فى التأمل والنظر، ويعينه على إدراك ما فى هذا الكون الفسيح من آيات بينات دالة على وحدانية الله وقدرته.

إن ذكر الله عز وجل يعمق جذور الإيمان فى القلوب المؤمنة ويثبتها تثبيتاً لا يزعزعه شك ولا تعتريه شبهة.

إن ذكر الله عز وجل هو النعيم الأبدى الذى لا يعدله نعيم دنيوى ولا أخروى.

قال عالم من العلماء العاملين: «عجبت لمن يخرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها!

قالوا: أو فى الدنيا نعيم يا رجل!

قال: نعم فيها نعيم يعدل نعيم الجنة.

قالوا: وما هو؟

قال: ذكر الله».

وقد صدق كل الصدق فيما قال، ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف.

وأهل الجنة فى الجنة لا يتمتعون بشىء إلا وهم يذكرون الله، فذكر الله هو المتعة فى الحقيقة وما سواه من النعيم تابع له ومنضم إليه، وموجب لشكر الله عليه.

فإن أهل الجنة إذا أرادوا متعة سبحوا بحمد الله وإذا انتهوا منها إلى غيرها حمدوا الله.

﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

والكلام إذا خلا من ذكر الله كان على المتكلم وبالاً وخذلاناً وإفساداً لقلبه وإطفاءً لنور بصيرته، ولا سيما إذا طال وكثير من الغلط واللغط واللغو والغيبة والنميمة وما إلى ذلك من الأوزار.

إن القلب يلين بذكر الله ويقسو بتركه، وتشتد قساوته كلما ابتعد صاحبه عن مجالس الذكر، حتى يصير أشد قساوة من الحجارة، فلا يتأتى إصلاحه بعد ذلك فيموت ولا يحيا أبداً.

يقول الله عز وجل: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٢) أى بذكر الله وحده تطمئن القلوب وتستنير بنور الإيمان فتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص كما هو معروف فى علم البلاغة.

والويل كل الويل لمن غفل عن ذكر الله، فإنه يظل فى غفلته حتى يأتيه الموت فينتبه حيث لا يفيده، الانتباه، ويندم حيث لا يفيده الندم ، ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ (٣) .

والغافل عن ذكر الله شيطان رجيم لا قلب له ولا ضمير فلا ينفع فيه وعظ ولا زجر.

﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٤) أى لمن كان له قلب ليِّن رطْب بذكر الله أو ألقى أذنه للذكرى وهو حاضر البديهة صافى الذهن.

ويقول الله عز وجل: ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (٥) .

والويل كل الويل لمن جلس فى مجلس ذكر ولم يكن من الذاكرين؛ لأنه قد

---

(١) يونس : ١٠ . (٢) الرعد : ٢٨ . (٣) الفجر : ٢٣ – ٢٤ .
(٤) ق : ٣٧ . (٥) الحج : ٤٦ .

برهن بذلك على عدم إيمانه؛ إذ لو كان مؤمناً لذكر الله معهم ولو بلسانه فإن الذكر باللسان قد يجلب الذكر بالقلب فى نهاية الأمر ﴿وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (١) .

فإذا لم ينتفع بالذكرى كيف يكون مؤمناً.

﴿فذكِّر إن نفعت الذكرى سيذَّكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ (٢) أى سينتفع بالذكرى من يخشى الله ويتقيه، ويبتعد عنها الأشقى الذى غلبته شقاوته فكان من الضالين المكذبين.

« وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى »، أى صاحب القلب الذى لا يتفتح للموعظة ولا يستجيب للنصح ، ولا يعى ما يلقى إليه ولا يتعقله، فهو قلب أصم أعمى محجوب عن نور الله وهداه.

يقول الله عز وجل: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين﴾ (٣) .

أى هل يستوى من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فى أمور دينه ودنياه ومن ليس كذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ (٤) .

فويل للذين نفرت قلوبهم من ذكر الله، وسخروا من الذاكرين فكانوا كما قال الله فيهم: ﴿وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ (٥) .

* * *

(١) الذاريات : ٥٥. (٢) الأعلى : ٩ – ١٣. (٣) الزمر : ٢٢.
(٤) محمد : ١٤. (٥) الزمر : ٤٥.

ويؤخذ من هذه الوصية فوق ما ذكرناه أن المسلم الذى يخشى الله ويتقيه هو الذى يكثر من ذكر الله ، فيكون كلامه كله أو جله ذكر لله.

وذلك أمر ميسور بحمد الله.

وقد جلست مع رجل فى المسجد الحرام فحدثنى ساعة فما كف لسانه من ذكر الله، فكل كلمة يقولها يبدأها ويختمها بالتسبيح أو الحمد أو الصلاة على النبى ﷺ ، أو إن شاء الله أفعل كذا وكذا ، أو بإذن الله يكون كذا وكذا ، مع الاستمرار فى الدعاء لى وله حتى انفض المجلس وقمنا ذاكرين كما جلسنا ذاكرين فغبطته على ذلك واقتديت به فى هذه الطريقة المثلى والسنة الحسنة، لكنى لم استطع أن أكون مثله كما ينبغى.

وما علينا إلا أن نصحح النية ونؤكد القصد، ونعقد العزم على الإكثار من ذكر الله فى جميع أوقاتنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ونستلهم من الله الرشد، ونستمد منه التوفيق والعون.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

*　　*　　*

(١٧٩) أَىُّ الأعمال أفضل

عن أبى ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أَىُّ الأعمالِ أفضلُ؟. قال: «الإيمانُ بالله والجهادُ فى سبيله».

قال: قلت: أىُّ الرقابِ أفضلُ؟. قال: «أَنْفَسُهَا عند أهلها وأكثرها ثمناً».

قال: قلت: فإن لم أفعل؟. قال: «تُعينُ صَانعاً أو تَصْنَعُ لأَخْرَقَ».

قال: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عن بعضِ العمل؟. قال: «تَكُفُّ شَرَّكَ عن الناس؛ فإنها صدقةٌ منْكَ عَلَى نفسِكَ»[١].

* * *

كان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يسأل النبى ﷺ كثيراً عن أفضل الأعمال عند الله عز وجل وأَوْلاها بالتقديم عند التساوى - فيجيبه النبى ﷺ عما سأل بكل حبور وسرور؛ لأنه كان يحبه حباً شديداً، ويُليه عناية خاصة، ويرى فيه الإسلام كله، يمشى به بين الناس، فيكون لهم نعم القدوة ونعم الرفيق فى الحضر والسفر.

فقد سأله يوماً عن أفضل الأعمال، فقال رسول الله ﷺ: «الإيمان بالله والجهاد فى سبيله».

وهو جواب جمع خصال الخير كلها.

أما الإيمان بالله فهو أصل الأصول العقدية والشرعية والأخلاقية، فهو كما قال عليه الصلاة والسلام: «بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

وقد سُميت شعباً لأن بعضها يتشعب عن بعض، وكلها تنبع منه وتصب

---

(١) رواه مسلم، فى كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم: ١٣٦.

فيه، وهي كل لا يتجزأ، والجهاد شعبة من شعبه، وهو في الذروة العليا من الإسلام.

ولعلك تسأل هنا عن السر في هذا الجواب الجامع فتقول: هل هذا يعتبر جواباً مُحَدَّداً لأفضل الأعمال، وباعثاً للسائل على تَحَرِّيهَا؟

فأقول: إن السر في هذا الجواب الجامع يكمن – والله أعلم – في حب أبي ذر لجميع أعمال البر على التساوي، حتى أنه لم يستطع أن يميز الأفضل منها. وهو منتهى الإيمان؛ لأن المؤمن الذى اكتمل إيمانه لا يستخف بأى عمل فيه طاعة؛ لأنه لا ينظر إلى العمل في ذاته ولا إلى العامل نفسه، ولكنه ينظر إلى من لأجله يكون العمل.

وكذلك لا يستخف بالذنب؛ لأنه لا ينظر إلى صغره وكبره ولكنه ينظر إلى من عصاه.

وعندئذ لا يستطيع أن يختار الأولى من الأعمال لتزاحمها عليه وحبه لها جميعاً، فكان الجواب مطابقاً لحال السائل رضى الله عنه، فهو من أولئك الأعلام الذين يسعون جاهدين إلى تحصيل شعب الإيمان كلها: أعلاها وأدناها؛ ابتغاء رضوان الله عز وجل.

وقد فهم أبو ذر ما تضمنه هذا الجواب وعرف ما يبتغيه الرسول ﷺ منه، وهو الجهاد في سبيل الله، المبنى على الإيمان، وقد كان رجلاً لَمَّاحاً، يعرف مجارى الكلام ومراميه.

إنه يعرف أن الإيمان هو الجامع لخصال الخير كلها فلو اقتصر الرسول ﷺ في الجواب عليه – ما كان جواباً شافياً، ولكن لما أضاف إليه شعبة من أعظم شعبه – عرف أنها هي الجواب، وأن ذكر الإيمان قبله كان شرطاً لصحته وقبوله، فكأنه قال له: جاهد في سبيل الله وأنت مؤمن.

ويسأل أبو ذر مرة أخرى عن أحب الرقاب إلى الله وأولاها بالعتق؛ تَقَرُّباً إليه – فيقول رسول الله ﷺ: «أَنْفَسُهَا عند أهلها وأكثرها ثمناً» أي: أحبها عندهم وأنفعها لديهم وأغلاها ثمناً عند شرائها وعند بيعها.

ولعل أبا ذر قد سأل عن أحب الرقاب إلى الله ليتقرب إليه بعتقها؛ ليكون ذلك العمل متميزاً عن أكثر أعمال الناس؛ إذ ليس عند أكثرهم رقاب يعتقونها.

ومن كانت لديه رقبة، لا يجود بها غالباً إذا كانت أثيرة عنده محبوبة لديه.

وقد كان أبو ذر يحرص كل الحرص على أن يحرر رقبته من النار بتحرير رقبة من الرق؛ لعلمه أن الجزاء من جنس العمل، فسأله عن أحب الرقاب إلى الله ليعتقها، فلما أخبره ﷺ أن أحب الرقاب إلى الله أنفسهما وأكثرها ثمناً، صعب الأمر عليه؛ لشدة فقره يومئذ، فسأله عن شيء يكون أخف عليه من هذا مع أفضليته بالنسبة له، فقال له الرسول ﷺ: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق».

أى تتعاون مع الصانع فى إتمام صنعته وإتقانها على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه ويحبه الناس ويرضونه؛ فإن الصانع مطالب بإتقان الصنعة التى يتعيش منها، فمن أعانه عليها بأى نوع من أنواع المعونة المادية أو المعنوية، فإنه يكون قد أسهم بنصيب فى جودتها وفى زيادة دخله منها وانتفاع الناس بها.

ويكون بذلك قد أطاع الله عز وجل فى قوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (١).

والتعاون مع الصانع فى صنعته من غير أجرة - تقرب إلى الله بها، فكأنه تَصَدَّقَ عليه بالتنازل عنها.

وربما تصل هذه الأجرة بكثرة التعاون مع الصناع مع طول المدة إلى ما يساوى عتق رقبة نفيسة غالية الثمن أو أكثر.

وإعانة الأخرق، وهو الذى لا حرفة له، أو لا خبرة له بالصناعة ولا بغيرها - أيضاً لها أجر عظيم، يساوى عتق رقبة نفيسة أو أكثر.

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (٢).

قال أبو ذر رضى الله عنه قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضَعُفْتُ عن بعض العمل؟

---

(١) المائدة : ٢.   (٢) الرعد : ٨.

أى أخبرنى ماذا أفعل لو عجزت عن تحصيل بعض هذه الأعمال التى تكون أفضل من غيرها، فلم أقدر على الجهاد ولا على عتق الرقاب ولا على إعانة الصانع فى صنعته، ولا على إعانة الأخرق الذى لا حرفة له ولا خبرة له فى تحصيل الرزق؟

فقال ﷺ : «تَكُفُّ شَرَّكَ عن الناس؛ فإنها صدقة منك على نفسك».

وهذا الجواب آية فى الحسن؛ لأن كَفَّ الشر عن الغير من أهم مقاصد الإسلام؛ فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، كما قال الرسول ﷺ(1) .

والدين قد وضع رعاية لصالح الناس فى العاجل والآجل، وهى تتمثل فى جلب المصالح ودفع المفاسد ، فمن لم يستطع أن يجلب للغير مصلحة ، فليدفع عنه مفسدة ولو يكفيه من شره، وهو أقل درجات الإحسان إلى النفس وإلى الغير.

فمن كفى الناس شره، فقد تَصَدَّقَ على نفسه بالتخفيف من أوزارها والتقليل من سيِّئاتها ومعائبها .

ومن اتقى سَيئة كان كمن حسنة.

والحسنات والسيئات توضع فى ميزان العبد يوم القيامة، فمن قَلَّت سَيِّئاته، كفاه من الحسنات القليل.

* * *

هذا شرح موجز لهذه الوصية ولكن لنا فيها نظرات نُجلِّى بها ما يَسْتَكِنُّ وراء المعانى من اللطائف البيانية، التى هى مقصدنا فى هذه الوصايا.

النظرة الأولى : فى الإيمان وشعبه، فإن الرسول ﷺ قد أجاب أبا ذر عن سؤاله الأول بأن أفضل الأعمال: الإيمان بالله، وهى كلمة واسعة الدلالة، لا تعنى مجرد النطق بالشهادتين، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، ولكنها تعنى ما وراء ذلك من الأسرار والآثار؛ فالإيمان هو تعميق الصلة بالله، وتجديد البيعة معه على الدوام ، والإكثار من ذكره فى كل حال بالقلب واللسان، فالمؤمن الحق من كان إيمانه دائماً فى ازدياد.

---

(1) رواه البخارى وغيره.

يقول الله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ (١).

وانطلاقاً من فهمنا لهذه الآيات نفهم معنى الأمر فى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ (٢).

فمعنى «آمنوا»: جَدِّدوا إيمانكم كلما دَبَّ فى قلوبهم الوهن، وداوموا على تجديده بالتقوى وكثرة الذكر، حتى يؤتيكم الله نصيبين من رحمته: نصيباً لإيمانكم الأول، ونصيباً آخر كلما جددتموه وزدتم فيه بتلاوة القرآن وسماعه وتدبره والتفقه فيه، ويجعل لكم نوراً تمشون على هداه بين الناس، وتكونون قدوة لهم فى تجديد الإيمان وتعميق الصلة بالله عز وجل، ويغفر لكم ذنوبكم أولاً بأول كلما جددتم التوبة منها.

ومن خلال فهمنا لهذه الآيات مجتمعة نعرف السر فى قوله ﷺ لأبى ذر: «الإيمان بالله»، فكأنه يقول له: جَدّد إيمانك بالله، واطرد عنك هواجس النفس ووساوس الشيطان، وزد فيه بكثرة الذكر والتفكر فى خلق الله واختلاف الليل والنهار، فكلما ازداد إيمانك وصدق يقينك، كان العمل القليل منك كثيراً.

ونحن نعلم أن صحة العمل وقبوله متوقفة على الإخلاص فيه، والإخلاص لا يتأتى إلا مع الإيمان الكامل؛ وقد جاء فى الحديث الصحيح: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل» (٣).

ومعنى «أخلص دينك»: اجعل خضوعك لله خالصاً؛ فالدين معناه هنا: الخضوع والامتثال.

والإخلاص معناه: تَخَلُّصُ القلب من مراقبة الخلق ومراءاتهم بالأعمال وتعلقه بذى الجلال والإكرام وحده.

---

(١) الأنفال: ٢ – ٤. (٢) الحديد: ٢٨.

(٣) رواه بن أبى الدنيا، والحاكم عن معاذ رضى الله عنه بإسناد صحيح.

ويقاس إيمان المرء بقدر إخلاصه في دينه وتسليم قلبه لخالقه ومولاه.

النظرة الثانية: فى الجهاد، لماذا قرنه النبى ﷺ بالإيمان فى هذه الوصية - هل فى ذلك من سر؟.

أقول: إن الجهاد نوعان: جهاد النفس، وجهاد العدو، ولذلك قرنه الرسول ﷺ بالإيمان؛ فالإيمان - كما ذكرنا أكثر من مرة - عقيدة صحيحة وعمل صالح وخلق فاضل وسلوك نبيل.

ولن يستطيع المرء أن يجاهد عدوه الظاهر إلا إذا استطاع أن يجاهد عدوه الباطن، وهو النفس والشيطان.

فقوله ﷺ: «والجهاد فى سبيله» لا يعنى قتال المشركين وأهل الكتاب ومن هم على شاكلتهم فحسب، ولكن يعنى ما هو أعم من ذلك مادام قد قرنه بالإيمان، وإن كان المتبادر إلى الذهن أنه القتال لرد العدوان.

إن الله عز وجل يقول: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾ (١) أى جاهدوا عدوكم الظاهر والباطن، واجتهدوا فى دفع الشر عنكم وجلب الخير لأنفسكم بالإيمان والعمل الصالح.

فالجهاد الحق هو كبح جماح النفس عن غَيِّهَا وردّها إلى خالقها تائبة منيبة.

فمن قوى إيمانه، قوى عزمه، ومن قوى عزمه، ملك نفسه، ومن ملك نفسه، طرد شيطانه عنها، وعندئذ يكون جنداً من جنود الله يقاتل فى سبيله وابتغاء مرضاته ولا يخشى فيه لومة لائم.

فالإيمان أولاً والجهاد ثانياً وسائر الأعمال الصالحة ثالثاً، وكلها من متطلبات الإيمان ومقتضياته، منه تنبع وفيه تصب.

وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى وغيره: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد».

والمراد بالأمر: الأمر الذى خلق الله الناس من أجله، وهو إفراده بالعبادة.

---

(١) الحج: ٧٨.

ورأسه هو إسلام الوجه إليه، بمعنى إخلاص القلب له، فالوجه معناه: القلب، والإسلام: معناه الإخلاص، كما مر بنا في وصايا سابقة.

النظرة الثالثة: في عتق الرقاب، وهو عمل سعى إليه الإسلام سعياً حثيثاً، ونادى به في تشريعاته الخاصة والعامة، ودعا إليه أصحاب القلوب اليقظة والضمائر الحية.

فقد جاء الإسلام والرق منتشر في شبه الجزيرة العربية وغيرها - فعمل على تحرير الرقاب من هذا الاستعباد والتحكم حتى قضى عليه.

ومن تتبع أحكام الشريعة، وجد أن حيزاً كبيراً منها تعلّق بهذا الأمر الجلل، فعالجه علاجاً ناجعاً، وقضى على آثاره قضاءً تاماً.

وأبو ذر رضي الله عنه قد سأل عن عتق الرقاب لأنه كان يشعر في أعماق نفسه بأن هذا العمل من صميم الإسلام؛ فقد جاء ليحرر الإنسان من كل ما يستعبده أو يعوقه عن السير في طريق الهدى، أو يُحدُّ حريته الشخصية في اختيار الطريق الأمثل وممارسة حياته بصورة أفضل.

وربما دفعه السؤال عن ذلك كثرة ما كان يعانيه الرقيق في القبائل العربية من ذل وهوان وإرهاق، ولا سيما قبيلة غفار التي هو منها، فقد كانوا قوماً غلاظ الطبع، لا يرحم بعضهم بعضاً، فكيف الحال بعبيدهم وإمائهم!

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يشاركون أبا ذر في حرصه على تحريرهم بكل ما لديهم من وسع وطاقة؛ رحمة بهم وإشفاقاً عليهم.

ولقد أوصى النبي ﷺ بحسن معاملتهم، وسَوَّى بينهم وبين الأحرار في كثير من الحقوق، وضَيَّقَ الفجوة التي كانت بينهم، فقال فيما قال: «إخوانكم خولكم - أي عبيدكم - جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، ولْيُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم»(١).

---

(١) رواه البخاري، وانظر شرحه في الجزء الثاني وصية رقم: ٨٢.

وقد أكد الله هذه الأخوة الإيمانية بقوله جل شأنه: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ [1].

وقد بشر النبى ﷺ بالثواب العظيم لمن يعتق عبده أو أمته ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى، فقال فيما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه: «من كانت له جارية فعلمها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران».

وروى أبو داود عن عمرو بن عَبْسَةَ رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار».

وإن أردت أن تعرف كيف حرر الإسلام الرقيق وَرَدَّ إليهم كرامتهم، فاقرأ ما كتبه العقاد فى كتابه: بلال مؤذن الرسول ﷺ.

النظرة الرابعة: فى إعانة الصانع والأخرق، وهى خصلة من أعظم الخصال عند الله أجراً، كما ورد فى السُّنة الصحيحة.

ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا، نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يَسَّرَ على معسر، يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة. ومن سَتَرَ مسلماً، ستره الله فى الدنيا والآخرة. والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه...».

وأبو ذر رضى الله عنه كان فتىً قوياً معواناً بطبعه؛ لهذا وجهه النبى ﷺ للشىء الذى يحسنه ويميل إليه طبعه.

وقد كان النبى ﷺ طبيباً حاذقاً، يعرف كيف يشخص الداء ويصف الدواء ويعطى كل شىء لمن يناسبه، فقد سأله رجل عن أفضل الأعمال، فقال له: «الصلاة لوقتها»، بينما سأله شاب عن أفضل الأعمال، فقال له: «الجهاد فى سبيل الله»، وسألت عائشة عن أفضل الأعمال، فقال: «الحج المبرور». ومن هذا كثير.

---

(١) الحجرات: ١٠.

وعلينا أن نتعلم منه الحكمة فى هداية الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

النظرة الخامسة والأخيرة: فى كف الشر عن الناس، وهو من أدنى درجات الإحسان فى زمن الصحابة والتابعين، أما فى زماننا هذا فهو من أوساطها عند أهل العدل والفضل منا.

أما من دونهم، فكف شرهم عن الناس يعتبر هو الإحسان في أسمى معانيه عندهم. والناس معادن.

نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

(١٨٠) جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوىَّ يبكيان

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ يبايعه، فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوىَّ يبكيان، قال: «ارجع عليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» (١) .

* * *

كانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة على كل مسلم قادر على نفقاتها وتبعاتها، فقد فتح الله بابها بعد بيعة العقبة الثانية للأنصار، وذلك بعد البعثة بثلاث عشرة سنة تقريباً، ولم يغلق بابها إلا بعد فتح مكة حين قال رسول الله ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» (٢) .

وقد بايعه الأنصار على أن ينصروه إذا هاجر إليهم، ويمنعوه من عدوه كما يمنعون أنفسهم وأبناءهم ونساءهم، فهاجر إليهم بعد أن هاجر كثير من أصحابه .

وقد جاءه رجل يبايعه على الهجرة كما بايعه الكثير من أصحابه ، فقال: يا رسول الله، جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوىَّ يبكيان . فهزته هذه الكلمة من الأعماق، وملأت عليه مشاعره ، فقال له بوحى من قلبه الكبير: «ارجع عليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» .

فماذا يعنى قوله هذا؟

والجواب: أن هذه الوصية تعنى أمرين متلازمين يترتب على كل منهما آثار كثيرة .

الأمر الأول: أن إرضاء الوالدين مطلب شرعى لا هوادة فيه، وهو مقدم على الجهاد فى سبيل الله كما سنبين فى هذه الوصية .

---

(١) رواه أبو داود فى الجهاد حديث ٢٥٢٨ ، ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم ٦٤٩٠ وإسناده صحيح جـ ٦ ص ٤٤ .

(٢) رواه البخارى وغيره.

والأمر لثانى: أن الهجرة قبل فتح مكة كانت واجبة على كل مسلم بشرط أن يتحلل أبويه من مغبة تركهما والتخلى عن خدمتهما.

ولا شك أن هذا ليس على إطلاقه كما سنبين هنا إن شاء الله.

وقول الرسول ﷺ: «ارجع عليهما» أبلغ من قوله: «ارجع إليهما»؛ لأن الرجوع إليهما يفيد مجرد عودته إلى المكان الذى يقيمان فيه، وذلك يعرف من (إلى) الدالة على الغاية.

أما التعبير بـ(على) فيفيد أمرين هما: الرجوع إليهما والعطف عليهما.

والمعنى: عد إليهما بقلبك وقالبك واعطف عليهما بكل ما تستطيع من أنواع العطف، حتى ترضيهما فيأذنان لك بالهجرة إن شاءا.

وقوله: «فأضحكهما» لا يعنى الإضحاك فى ذاته وإنما يعنى إذهاب الحزن عنهما، وتسليتهما بحلو الكلام ومواساتهما بالحكمة والموعظة الحسنة والوعد الجميل، حتى يكفر عن الذنب الذى ارتكبه فى حقهما، فقد أبكاهما بفراقه لهما، وكان عليه أن يرضيهما أولاً قبل أن يأتى لمبايعة الرسول ﷺ على الهجرة.

* * *

ويستفاد من هذه الوصية عدة فوائد:

الأولى: أن من الأدب أن يسترضى الولد والديه فى كل أمر يعزم عليه، ولا سيما الهجرة؛ لأنها تبعده عنهما، وتحرمهما من التمتع بوجوده والنظر إليه، وتجعلهما يفكران فى سيره ومصيره بحزن وأسى.

ونحن نعلم ما يعانيه الوالدان من فراق ولدهما وبعده عن ساحتهما، فكان لزاماً عليه ألا يهاجر بدون إذنهما واسترضائهما.

ومن الأدب أن يتولى إذهاب حزنهما كلما بدا عليهما الحزن ولا يغفل عن ملاحظة أحوالهما، لأنه مسئول عن أحوالهما النفسية كما هو مسئول عن أحوالهما المعيشية.

فقد أمر ببرهما والإحسان إليهما، والإحسان كلمة واسعة الدلالة تشمل الإحسان المادى والمعنوى.

وهو من أوجب الواجبات عليه إذ أمر الله به عقب الأمر بعبادته، وذلك في مواضع من كتابه العزيز.

فقال جلا وعلا : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾(١) .

وقال عز شأنه: ﴿ وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾(٢) .

وقال عز من قائل: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً(٣) على وهنٍ وفصاله(٤) في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٥) .

ومن تدبر هذه الآيات علم منزلة بر الوالدين وعرف أنها في الذروة العليا من شعب الإيمان بعد كلمة التوحيد.

* * *

وهل حكم الجهاد في وجوب استئذانهما واسترضائهما كوجوبه في الهجرة؟

أقول: نعم، بل هو أوجب؛ لأن الجهاد فرض كفاية في أغلب الأحوال، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولهما حق لا ينبغي عليه أن يغفله؛ إذ من الواجب أن يكون في خدمتهما وطاعتهما في غير معصية الله عز وجل.

والحرب أخوف لهما عليه من الهجرة، فكان استئذانهما في أمرها والخروج إليها آكد من استئذانهما في الهجرة.

ويؤيد هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال عليه الصلاة والسلام : «أحيٌّ والداك؟» . فقال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» .

---

(١) النساء : ٣٦. (٢) الإسراء : ٢٣. (٣) ضعفاً على ضعف.

(٤) أي فطامه بعد عامين من رضاعه. (٥) لقمان : ١٤- ١٥.

فقد دل هذا الحديث على أن بر الوالدين مقدم على الجهاد، لأن الأصل فى الجهاد أنه فرض على الكفاية - كما أشرنا - ينوب عنه غيره فيه، وبر الوالدين فرض يتعين عليه؛ لأنه لا ينوب عنه فيه غيره غالباً؛ إذ هو من ألصق الناس بهما وأولاهم بخدمتهما ورعايتهما.

وقال رجل لابن عباس رضى الله عنه: إنى نذرت أن أغزوَ الروم، وإن أبوى منعانى، فقال: «أطع أبويك فإن الروم ستجد من يغزوها غيرك».

وروى نحو هذا عن عمر وعثمان رضى الله عنهما، وبه قال الأوزاعى والثورى، وسائر أهل العلم.

ولكن هذا إذا لم يتعين عليه الجهاد، فإن تعين عليه ذهب إليه من غير استئذان، إلا إذا كان ذهابه إليه سبباً فى ضياعهما، بأن كانا مريضين أو عاجزين عن الحركة وليس هناك من يقوم بخدمتهما غيره.

وبعد، فإن الإسلام حريص كل الحرص على أن يحصل كل ذى حق على حقه كاملاً غير منقوص.

فللوالدين حق على ولدهما يجب أن يؤديه إليهما فى حدود طاقته.

وعلى الوالدين حق لولدهما يجب أن يؤدياه إليه.

وميزان العدل فى هذا الدين أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

فإن تعارض واجبان قدم الأولى منهما. والله أعلم.

* * *

(١٨١) لا تؤذوا عباد الله ولا تُعَيِّرُوهم

عن ثوبان - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيِّروهم، ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته» (١) .

* * *

الإسلام دين يدعو معتنقيه إلى التمسك بالفضائل، وهى كثيرة لا تنحصر فى دائرة معينة ولكنها تشمل مناحى الحياة كلها.

وهذه الفضائل على كثرتها تنبع من الإيمان وفيه تصب، فهى شعبه التى يتشعب بعضها من بعض، وتحت كل شعبة من الخصال الكريمة ما لا ينحصر.

وهذه الشعب والخصال ميزانها العدل المطلق والمساواة التامة بين الناس فى الحقوق العامة.

فالناس جميعاً سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

ومن هذا المنطلق كان النبى ﷺ يحذر المسلمين من أن يرى أحدُهم لنفسه فضلاً على الآخر بنسب أو حسب أو مال أو سلطان، وينهاهم عن استخفاف بعضهم ببعض مهما ظهر فيه من العيوب الخلقية والخُلقية وغيرها مما يراه قصار النظر عيباً، كقلة المال وضآلة الوظيفة ونحو ذلك.

فإن من أفتك الآفات التى تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات - استخفاف إنسان بإنسان؛ والنظرة إليه فى سخرية واستهزاء، فذلك من شأنه أن يبعث فى النفوس الكراهية والعدوان والتنافر والتناحر.

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا

---

(١) رواه أحمد بسند صحيح حديث رقم ٢٢٣٠١ .

أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) .

فالخطاب في الآية للمؤمنين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد؛ لأن المؤمن الحق لا يأتي بهذه الأفعال المنكرة بوحي من إيمانه.

والدليل على هذا المفهوم من الخطاب قوله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه (٢) : «يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» .

وقد خاطبهم بوصف الإيمان تحريضاً لهم على استكمال شعبه وخصاله؛ وشحذاً لعزائمهم في التماس المعالي عن طريق التمسك بالفضائل لا عن طريق الاعتزاز بالنسب والاعتزاز بالمال والجاه.

والسخرية من الناس من أعظم أنواع الأذى، فمَن منا يحب أن يسخر منه إنسان كائناً من كان.

إن في السخرية من الناس جرح لمشاعرهم وتنقُّص من إنسانيتهم واحتقار لمكانتهم بين الناس ومقامهم عند الله عز وجل؛ فإن المؤمن أكرم عند الله من ملائكته؛ لأنه أطاعه وانقاد لأوامره وغالب نفسه وهواه وشيطانه ودنياه، وآثر رضا خالقه ومولاه.

ولنا في هذه الآية وما بعدها من سورة الحجرات مواقف كثيرة في وصايا أخرى إن شاء الله تعالى.

والآن نشرع في بيان ما اشتملته هذه الوصية من العظات والعبر. فنقول :

* * *

---

(١) الحجرات : ١١.

(٢) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، ح ٢٠٣٢.

قوله ﷺ : « لا تؤذوا عباد الله » نهيٌ عن الأذى قليله وكثيره بوجه عام.

والأذى لفظ يطلق على الضرر الخفيف غالباً، بدليل قوله تعالى: ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ (١).

أى لن يصلوا إلى الإضرار بكم مهما دبروا لكم من المكايد إلا ضرراً خفيفاً محتملاً، يمر بكم، فلا تعبأون به، وفى هذا الخبر طمأنينة لأصحاب النبى ﷺ.

وعلى ضوء هذا المعنى اللغوى الفريد نستطيع أن نفهم هذا النهى فهماً صحيحاً كما ينبغى، فالمؤمن أخو المؤمن لا يشوكه بشوكة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يجرح مشاعره بكلمة نابية، ولا يحقر من شأنه بنظرة خائنة، ولا يضمر له فى قلبه شيئاً يسوؤه.

يقول الله عز وجل: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق ﴾ (٢).

والمؤمن الحق هو الذى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ويكره لأخيه ما يكرهه لنفسه، فإذا هم بإذائه تحركت التقوى فى قلبه ونازعته فيما يريد أن يقدم عليه وحالت بينه وبين ذلك ودعته إلى كظم الغيظ والعفو والصفح الجميل.

وما أحسن قول عائشة رضى الله عنها: « لله در التقوى ما تركت لذى غيظٍ شفاءً ».

وفى قوله ﷺ : « عباد الله » إشعار للمؤمنين بعظم الإثم وسوء العاقبة، فإن الله يغار على عباده وينتقم لهم ممن آذاهم بأى نوع من أنواع الأذى مهما كان خفيفاً.

والمراد بالعباد هنا المؤمنون بوجه خاص، وغيرهم من المسالمين لهم بوجه عام.

فقد أباح الله لنا معاملة أهل الكتاب، وَحَثَّنَا على الإحسان إليهم إن أظهروا لنا حسن النوايا، ولم يبدؤونا بالأذى، أو يعينوا علينا عدواً.

---

(١) آل عمران: ١١١. (٢) غافر: ١٩ - ٢٠.

قال تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) .

ولفظ العباد مشتق من العبادة غالباً، بخلاف لفظ العبيد فإنه مشتق من العبودية غالباً؛ ولذا فإن التعبير بلفظ العباد يشعر بأولئك الذين يؤمنون بالله ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، ومن تتبع آيات القرآن يجد أن هذا الوصف يكاد يكون للمؤمنين وحدهم.

وقوله ﷺ : «ولا تعيروهم» هو من باب عطف الخاص على العام، أو هو من باب عطف الأشد على الأخف، إن قلنا إن المراد بالأذى أخف أنواع الضرر كما أشرنا.

والمعايرة هى مواجهة المرء بأخس عيوبه، وغمزه فى نسبه ومخاطبته بصفة من الصفات التى لا يحب أن يُخاطَبَ بها.

وفى ذلك عدول عن الإيمان الصحيح ودنوٌّ عن الخلق الفاضل والسلوك النبيل، وشروعٌ فى العدوان الذى قد يبعث الحمية الجاهلية من مكامنها، فتشتعل نار الحرب بسبب شرارة تنطلق من هنا أو هناك، فلا تضع أوزارها بين المتخاصمين إلا بعد أمدٍ مديد وجهد جهيد.

ومعظم النار من مستصغر الشررِ.

وقوله ﷺ : «ولا تطلبوا عوراتهم» أى لا تتبعوها وتلتمسوا معرفة كل شىء عنها؛ فإن فى ذلك اعتداء على الأعراض والحرمات، وكشفاً لما أمر الله بستره وصيانته عن الأعين والأيدى.

وليس هناك ظلم أفظع من هذا، فأعز شىء لدى الإنسان عرضه، وهو يحرص كل الحرص على طهره وعفافه، فإذا جاء إنسان كائناً من كان لينال منه بأى وسيلة من الوسائل، فإنه يكون قد نزع برقع الحياء من وجهه وأتى من الأوزار

(١) الممتحنة : ٨ – ٩.

ما يستعصى على التوبة النصوح؛ إذ من شروط التوبة النصوح رد المظالم إلى أهلها أو استسماحهم فيها، وذلك غير ممكن بالنسبة لهذا العمل الجنائي الخطير.

ومن هنا كان تتبع العورات من الآثام الكبرى التى يعاقب الله عليها بالمثل فى الدنيا، فمن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه فى عقر بيته أو فى جوف رحله كما جاء فى رواية أخرى.

والعورة لها معنيان:

المعنى الأول: هو ما يجب ستره عن الناس.

والثانى: ما يعيب الإنسان فى خلْقه أو فى خُلُقه، وهذه وتلك لا ينبغى على المرء أن يتتبعها ويستقصى أحوالها؛ لأن ذلك يتنافى مع محاسن الإسلام ومثله العليا، وفيه من الدوان ما قد عرفت.

وقد قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (١).

وكل امرئ له عيوبه وله مزاياه، والعاقل من شغله عيبه عن عيوب الناس.

ومن نظر فى عيبه استعظم ذلة نفسه، ومن سل سيف البغى قتل به.

والمسلم الحق من عاش بمعزل عن عيوب الناس، بمعنى أنه لا يسعى لجمع تلك العيوب من هنا وهناك، ولا يحاول أن يطلع عليها، حتى لا يسلط الله عليه من يفعل ذلك به، فكما يدين يدان، وعلى الباغى تدور الدوائر.

وما أحسن قول الشافعى رضى الله عنه:

إن شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وَحَظُّكَ موفور وعرضك صَيِّنُ
لسانُك لا تذكر به عَوْرَةَ امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسنُ
وعينُكَ إن أبدت إليك معائباً ... فصنها وقل يا عين للناس أعينُ
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسنُ

* * *

(١) رواه الترمذي.

(١٨٢) لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنهَوُنَّ عن المنكر

عن حذيفة بنِ اليمانِ رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

«والذى نفسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوف ولَتَنْهَوُنَّ عنِ المُنْكرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عقاباً منه فتدعونه فلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ» (١) .

* * *

الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر من أهم الأسس التى يبنى عليـهـا الدين الذى ارتضاه الله لعباده منذ خلقهم، وهو أصل أصيل فيه، بدونه لا يكون هناك للناس دين.

وبيـان ذلك أن الدين يقـوم على أربعـة أسس رئيسـة ، هى : العـقـيـدة الصحيحة المبنية على التوحيـد الخالص ، والعمـل الصـالح بوصفه برهاناً على صحتها وسلامتها، والخلق الفاضل وهو ينبوع العمل الصالح ومصبه، والسلوك النبيل وهو ترجمة للخلق الفاضل وتعبير عنه.

والمعروف كلمة واسعة الدلالة، تشمل بعمومها هذه الأسس الأربعة وما يندرج تحتها من أصول وفروع.

فكل ما أمر به الله عز وجل يسمى فعله معروفاً وتركه منكراً.

وكل ما نهى الله عنه يسمى تركه معروفاً وفعله منكراً.

وعلى ذلك يكون معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - دعوة الناس إلى امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار البناء والحجج المقنعة.

وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذى، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حديث رقم: ٢١٦٩ . وقال: حديث حسن.

(٢) آية : ١٠٨

فسبيل الله: أوامره ونواهيه، والدعوة إليه: هي بعينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبصيرة: هي الحجة المقنعة البالغة، التي تقوم على تشخيص الداء ووصف الدواء، والتسبيح: هو التوحيد الخالص، الذي ينبغي أن تقوم عليه الدعوة إلى سبيل الله عز وجل.

وقد بَيَّن الله معنى البصيرة في قوله جل وعلا في سورة النحل: ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (١).

والحكمة: هي وضع الشيء في موضعه، بحيث يكون الداعية إلى الله على وعي تام بوسائل النجاح في دعوته، بأن يتخير الوقت المناسب للدعوة والمكان المناسب والكلام المناسب، إلى آخر ما هنالك من الظروف والأحوال والملابسات.

والموعظة الحسنة: هي القول البليغ، الذي يسد مسده ويصيب موضعه، ويحرك في النفوس دواعي الخشوع والامتثال والطاعة، ويهز القلوب من أعماقها فيذيب ما بها من شدة وقساوة.

والجدال بالتي هي أحسن: هو الذي يوصل إلى معرفة الحق من أيسر طريق مأمون العواقب، يخلو من الخصومة، والكبر، والعجب، والرياء، والغرور، وجرح المشاعر والخدش في الأعراض، وغير ذلك مما يتنافى مع الحلم والمروءة.

وقد جمع الله لهذه الأمة المحمدية جميع الفضائل، وأكمل لها الدين وأتم عليها النعمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها تأمر بالمعروف وتأتيه، وتنهى عن المنكر ولا تأتيه، وتجدد إيمانها بالله دائماً بالتوبة النصوح والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٢).

وهذه الآية دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة محكمة

---

(١) آية: ١٢٥.

(٢) آل عمران: ١١٠.

على كل مؤمن قادر على ذلك، مع تفصيل واسع ذكرنا طرفاً منه فى الوصية الثالثة والعشرين – وهى قوله ﷺ : «من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» – فراجع ما ذكرناه هناك.

أما هذه الوصية، فإنها محذرة ومُنذرة، تضع كل مسلم على الطريق الذى ينبغى أن يسلكه للفرار بدينه، والنجاة بنفسه من عذاب الله فى الدنيا والآخرة.

*　*　*

فقوله ﷺ : «والذى نفسى بيده» : قسم مُؤَكَّدٌ لما بعده من الوعيد والتهديد لكل من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكان كثيراً ما يُقسم به فى الأمور ذات الشأن والخطر.

ومعناه: أقسم بالذى نفسى مِلك له ، ماض فيها حكمه عدل فيها قضاؤه.

وقوله ﷺ : «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر» : صيغة من صيغ الحض والتحريض، وهى أبلغ من قوله: افعلوا كذا وكذا.

واللام: حرف توكيد مع القسم، والنون: مؤكِّدة أيضاً، والإتيان بها فى هذه الصيغة واجب تحتمه اللغة.

وهذه الصيغة يترتب عليها – ولابد – جواب لسؤال مقدر فحواه: ماذا يترتب على امتثال هذا الأمر وعلى تركه؟.

ولما كان الجواب عن الامتثال معروفاً من قِبَلِ الشرع، لم يذكره الرسول ﷺ، ولكن ذكر ما يترتب على عدمه فقال: «أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

أى: إن لم تفعلوا، فانتظروا قرب العقاب الذى ينزل بكم، فلا تستطيعون دفعه بالدعاء؛ لعدم قبوله منكم.

أو بعبارة أخرى: والله إن أحد الأمرين واقع لا محالة: إما أن تمتثلوا بما جاءكم عن ربكم فتأمرون بالمعروف وتأتونه ، وتنهون عن المنكر وتحذرونه،

أو ينزل عليكم غضب من ربكم مصحوباً بعقاب شديد، لا تستطيعون دفعه بأنفسكم ولا بدعائكم، فهما أمران لا يجتمعان ولا يرتفعان، فإن أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فتحت لكم أبواب الرحمة، وإن لم تفعلوا، فتحت عليكم أبواب العذاب.

والخطاب في الحديث لكل مكلف لديه القدرة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلا استثناء. والطاعة على قدر الطاقة.

فلا يقولن قائل: هذا الأمر خاص بالأمراء والعلماء دون الأميين؛ فإن الأمر عام ليس له ما يخصصه.

فالأمي يعرف بالفطرة ما يحل وما يحرم، وما يجب وما لا يجب، ويعرف بالضرورة أن هذا الفعل طيب وذاك الفعل خبيث، ويعرف ما يوافق العرف وما يخالفه، يعرف أن هذا الشيء عيب لا ينبغي أن يؤتى، وهذا الشيء ينبغي عرفاً أن يؤتى، فيأمر بالمعروف متى عرفه، وينهى عن المنكر متى أبصره.

فإن لم يستطع أن يأمر وينهى، فلينكر المنكر بقلبه، ويقول في نفسه: اللهم إن هذا منكر لا ترضاه فاغفر لي ولفاعله.

وكثير من العوام يستطيعون أن يقوموا بهذا الواجب أكثر من غيرهم أحياناً، ولا سيما الذين لهم عند الناس قدر ومكانة؛ لصلاحهم وتقواهم وحسن أخلاقهم وتعاونهم على البر والتقوى، وما تحلوا به من الحكمة وحلاوة اللسان، وغير ذلك من الأوصاف التي يحبها الناس ويحبون من تحلى بها.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل في بيته راع، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيتها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسئول عن رعيته، الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

وهذا الحديث بيان مفصل لقوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [1].

---

(١) طه: ١٣٢.

وقوله جل وعلا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (١).

وعلى الأمراء أن يوظفوا طائفة من العلماء العاملين؛ للقيام بهذا الواجب فى كل مدينة وفى كل قرية وفى كل حى ، يأمرون بالمعروف باللسان وبالقدوة، لا باللسان فقط؛ فإن الأمر باللسان وحده دون عمل يقويه، يأتى بنتيجة عكسة فيكون ضرره أكثر من نفعه.

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواءَ لذى السقام وذى الضنى	كيما يصح به وأنت سقيم
وتراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبداً وأنت من الرَّشَادِ عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها	فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فعساك نقبل ما تقول ونهتدى	بالوعظ منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتىَ مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

فإن لم يوظف الحاكم جماعة يقومون بهذا العمل الجليل، فليؤد كل عالم واجبه من جهته محتسباً أجره على الله عز وجل؛ والله تبارك وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فإن لم يكن فى البلد علماء، انتخب الناس من بينهم من يؤدى هذا الواجب على النحو الذى يحبه الله ويرضاه بقدر الطاقة.

وقد رأيت فى بعض القرى جماعة من الأخيار - ومعظمهم عوام - يمشون بين الناس مصلحين ومرشدين، فلا يتركون خصاماً يستفحل خطره بين زوجين أو بين رجلين أو أسرتين إلا أزالوه، ولا يدعون ظالماً يتمادى فى ظلمه إلا منعوه من

---

(١) التحريم: ٦.

التمادى فيه وأخذوا الحق للمظلوم منه، ولا يسمحون لشخص كائناً من كان أن يعتدى على حرمة من الحرمات أو يخالف العرف المتبع مخالفة تَضُرُّ بالناس.

وعرفت منهم رجالاً ينطقون بالحكمة ويعالجون المشكلات بالطرق المثلى فى يسر وسماحة وتواضع يغبطهم عليها العلماء.

ولقد كنا - نحن الذين تخرجنا فى الأزهر - ندعى إلى صلح بين قبيلتين فى أقصى الصعيد فنقول ما نقول، فلا نجد لقولنا آذاناً صاغية، فيأتى رجل أمى يبدو على وجهه الصلاح فيفرح الناس بقدومه ويقدمون له الصلح فيما بينهم هدية له ويجعلونه تعبيراً صادقاً عن فرحتهم به دون أن ينطق بكلمة، ونحن جلوس لا ندرى كيف حدث هذا فى لحظة واحدة. أسحر هذا أم نحن لا نبصر!! وأين نحن منه وأين علمنا!! وتسرح خواطرنا فى هذا الموقف الذى أمدنا بأكبر موعظة وأرانا عيوبنا بصورة مشرقة وأسلوب بسيط.

عرفنا يومها أن القدرة فى الصلح بين الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ليس بالعلم وحده ولكنه بالتقوى والعمل الصالح، وعرفنا أن التقوى والعمل الصالح خير من العلم المجرد عنهما.

وعالِمٌ بعلمه لاَ يَعْمَلُ أَقْوَالُهُ مَرْدُودَةٌ لا تُقْبَلُ

حقاً أقواله مردودة لا تقبل.

وَعَالِمٌ بعلمه لا يَعْمَلَنْ معذبٌ من قبل عُبَّادِ الوَثَنْ

لماذا هو معذب من قبل عبّاد الوثن، يجيبك على هذا قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾(١).

وقد ضرب الرسول ﷺ لنا مثلاً من علماء بني إسرائيل والمتظاهرين بالصلاح منهم فقال: «إن أولَ ما دَخَل النقصُ على بنى إسرائيل كان الرجُلُ يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَهُ وشريبَهُ وقعيدَه، فلما فعلوا ذلك ضربَ الله قلوبَ بعضهم ببعض».

---

(١) الصف: ٢، ٣.

ثم قال: ﴿لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون﴾ (١).

ثم قال: «كلا، والله لتَأمُرُن بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولَتَأخُذُنَّ على يدى الظالم ولتأطُرُنَّهُ على الحقّ أطْراً، ولَتقصُرُنَّهُ على الحقّ قَصْراً - أو لَيضْرِبَنَّ الله بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ على بعض، ثم لَيَلْعَنَنَّكُمْ» (٢).

ومعنى قوله: «ولتأطرنَّهُ على الحق أطراً» لتحملنه على الحق والرضوخ إليه حملاً لا هوادة فيه، والجملة التى بعدها تفسير لها.

ومعنى قوله: «أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض» ليسلطن بعضكم على بعض فتختصمون وتتباغضون وتتناحرون وتختلف قلوبكم فلا تجتمعون على كلمة واحدة. ومن هنا يأتى الدمار وخراب الديار.

﴿وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أَخْذَه أليم شديد﴾(٣).

وفى رواية للبزار والطبرانى فى الأوسط بسند لا بأس به، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

ولعل هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ (٤).

وإذا تولى الظالم أمر ظالم مثله لا يرقب فيه إلاً(٥) ولا ذمة، فيتبادلان الظلم حتى يفتك أحدهما بالآخر.

---

(١) المائدة: ٧٨ - ٨١.

(٢) رواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، فى كتاب الملاحم باب الأمر والنهى.

(٣) هود: ١٠٢. (٤) الأنعام: ١٢٩. (٥) الإلُّ: القرابةُ. والذمة: العهد.

والأخيار إذا عايشوا الأشرار وهادنوهم ولم يأخذوا على أيديهم ويقولوا كلمة الحق لهم فى صراحة ووضوح، كانوا مثلهم، فَحَل بهم جميعاً عذاب الله.

فعلى كل مَن عجز عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن ينكر ذلك بقلبه - كما أشرنا - أو يهاجر إلى أرض أخرى يجد فيها قوماً صالحين.

يقول الله عز وجل: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ (١).

أى اجتنبوا ما يوجب العذاب وابتعدوا عن ساحته واستعينوا على ذلك بالله عز وجل، وعيشوا بعيداً عنهم؛ حتى لا يصيبكم ما يصيبهم، فلا تجدون لأنفسكم ملجأً تلجأون إليه.

إن الله عز وجل قطع عذر من يعايش قوماً ظلموا أنفسهم بالكفر أو بالمعاصى التى دونه يوم القيامة، فقال: ﴿ إن الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فِيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ (٢).

واستثنى منهم من عجز عن الهجرة فقال: ﴿ إلاَّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾.

ووعد المهاجرين فى سبيله وعداً حسناً فى الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسَعَة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٣).

إن الفلاح كل الفلاح لمن آمن بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وآمن بالقدر خيره وشره وأسلم وجهه لله مخلصاً له الدين، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعا إلى الخير، وسارع إليه، وكان لغيره قدوة فيه.

يقول الله عز وجل: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

---

(١) الأنفال: ٢٥. (٢) النساء: ٩٧. (٣) النساء: ٩٧ - ١٠٠.

وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (١).

ويقول جل شأنه: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (٢).

* * *

وقد يقول قائل: ماذا يفعل المسلم فى هذا الزمان الذى انتشرت فيه الفتن وقام المروجون لها على قدم وساق، وتظاهروا على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقالوا مثل ما قال قوم لوط: ﴿ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾(٣).

ماذا يفعل هؤلاء الدعاة المرشدون وقد ضيق الخناق عليهم، وأدخل الكثير منهم غيابات السجون، ولقبوهم بألقاب تنفِّر الناس عنهم، هل يلزمون بيوتهم ويكفون عن دعوة الناس إلى الخير وترك المعاصى، ويكفون عن دعوة الناس إلى الخير وترك المعاصى، أم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مهما كلفهم الأمر وليكن ما يكون؟

أقول: عليك - أيها المسلم - بتقوى الله ما استطعت، وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر كل من يغلب على ظنك أنه يسمع ويطيع، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول ثم الأقرب فالأقرب، واحذر الأشرار ما استطعت، واتخذ لنفسك منهم تقية، ولا تكن منافقاً؛ فإن التقية لا تكون فى النفاق، واجتهد فى طلب العلم؛ فإن العلم يهديك سواء السبيل، ويدلك على الطرق المثلى فى تأدية هذا الواجب، ويحميك من الخوض فى متاهات لا تحمد عواقبها.

والزم صحبة الأخيار، وخذ منهم ما ينفعك، ولا تصحب الأشرار حتى لا يصيبك ما يصيبهم.

---

(١) آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥.   (٢) فصلت: ٣٣ - ٣٤.

(٣) الأعراف: ٨٢.

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون ﴾ (١).

وأبشر - يا أخي - بخير عظيم إن أخلصت لله في القول والعمل ونصرت دينه بما لديك من سلاح، وقلت كلمة الحق ولم تخش في الله لومة لائم، واعلم أن الله يضاعف الأجر بقدر الإخلاص في العمل، ويجزل الثواب في الدنيا والآخرة بقدر المشقة فيه.

ولقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بوصية عظيمة، ينبغي علينا أن نفقه معانيها ومراميها وتضعها في هذا الزمان موضع الاعتبار.

فقد روى الترمذي، وأبو داود، عن أبي أمامة الشعباني قال: سألتُ أبا ثعلبةَ الخُشَنِيَّ - رضي الله عنه - قال: قلت: «يا أبا ثعلبة ما تقول في هذه الآية: ﴿ عليكم أنفسكم ﴾؟.

قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً؛ سألت عنها رسول ﷺ فقال: «ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا موثرةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم».

وفي رواية أبي داود: «قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا، أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين رجلاً منكم» (٢).

نسأل الله أن يجعلنا من خيارهم.

* * *

---

(١) هود: ١١٣.
(٢) تقدم شرح هذا الحديث في الجز الأول وصية رقم (٢٤).

(١٨٣) إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً: فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(١).

* * *

الرضا والكراهة فى حق الله تعالى معناهما: الأمر والنهى أو المثوبة والعقوبة، فكأنه يقول: افعلوا كذا فإنه يرضينى فأثيبكم عليه، ولا تفعلوا كذا فإنه يغضبنى فأعقابكم عليه.

واعلم أن صفات الله تعالى من باب الأفعال لا من باب الانفعال، فيجب أن تؤول هذه الصفات بما يناسب ذاته العلية من التنزيه عن المماثلة.

وقول ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً» أى على وجه الخصوص، وإلا فإن الله يرضى لنا ما فيه سعادتنا فى الدنيا والآخرة وهو كثير لا يحصى، فالإيمان بضع وسبعون شعبة، تحت كل شعبة من الخصال ما لا يعد ولا يستقصى.

وقد كان النبى ﷺ يذكر العدد ليحفظ، وهو منهج تعليمى حكيم.

وهذه الفقرة تنبيه لما سيذكر لكى تستعد النفوس لذكره.

وأول هذه الثلاثة: عبادة الله عز وجل، ومعناها طاعته فيما أمر به ونهى عنه، والانقياد إليه والتسليم له فى الأمر كله، والخضوع لعظمته وإظهار التمسكن والافتقار إليه فى جميع الأحوال.

والثانية: عدم الإشراك به وذلك بأن يكون العبد مخلصاً إخلاصاً تاماً فى عبادته مبتغياً بها وجهه الكريم.

وهذا ما يسمى بالتوحيد الخالص، وهو التوحيد الذى لا يرضى الله به

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات. حديث رقم ١٧١٥ ص ١٣٤٠ جـ٣.

بديلاً، ولا يقبل عملاً من الأعمال إلا به ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : «إن الله طيب لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم» .

فالإخلاص عليه مدار صحة الأعمال وقبولها .

قال جل وعلا : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾(١) أى دين الفطرة القويمة التى لا تشوبها شائبة شرك على الإطلاق .

وقد سبق أن تكلمنا عن الشرك وخطره في وصية سابقة، بل تكلمنا عنه في أكثر من وصية فلا نعيد الكلام فيه هنا .

والثالثة : الاعتصام بحبل الله – عز وجل – أى التمسك بكتابه العزيز وسنة نبيه المطهرة تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾(٢) .

وفى هذه الآية يبين الله لنا أن الاتحاد ضرورة عالمية، بمعنى أن المسلمين جميعاً ينبغى أن يكونوا يداً واحدة على عدوهم وصفاً واحداً فى جميع الميادين .

وهذا لا يتم لهم إلا إذا التفوا حول كتاب الله عز وجل، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وهو كتاب الهداية ومنهج الحياة ، ولن يستطيع المسلمون أن يجمعوا كلمتهم ويوحدوا صفوفهم إلا إذا تدبروا هذا الكتاب وفقهوا معانيه ومراميه، وعملوا بما فيه على قدر طاقتهم البشرية ؛ فبه يكون الاعتصام من الزلل والوقاية من الضلال .

«من قال به صدق، ومن علم علمه سبق، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه فقد هدى إلى صراط مستقيم»(٣) .

إن الوحدة الإسلامية طريق طويل شاق ولكنه ضرورة حياة وصراط دين .

---

(١) البينة : ٥ (٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) من حديث طويل أخرجه الترمذى .

والعمل للوحدة الإسلامية شرف عريق ومجد خالد إذا ما صحبه إيمان بالله، وثقة فى فضله، وتجاوب وجدانى حول الكتاب والسنة، ووعى كامل بمتطلبات العصر ومقتضياته، وفهم الحياة على النحو الذى هى عليه من إيجابيات وسلبيات.

والهُدَى كل الهُدَى فى الاعتصام بالله على النحو الذى أمر به فى قوله جل وعلا: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١).

والاعتصام بالله هو الاعتماد عليه فى جميع الأمور، والرضا بقضائه وقدره والاستعانة به فى تحقيق المطالب ، والعياذ به من شر ما خلق.

قال تعالى: ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٢).

* * *

وقوله ﷺ: « ويكره لكم قيل وقال » معناه: لا يرضى لكم أن تخوضوا فيما لا يعنيكم وتكثروا من اللغو الذى يضر ولا ينفع أو اللغط الذى يوقعكم في الغلط والخلط بين ما ينفع وما لا ينفع، فهذا هو معنى القيل والقال.

والغافل عن ذكر الله هو الذى يشغل نفسه بتتبع عورات الناس والخوض في أعراضهم واغتيابهم، والسعى بينهم بالنميمة ونحو ذلك مما يفعله السفهاء من الناس.

والقيل والقال أنواع:

نوع يتعلق بالعلم، فيذكر المعلم ما قيل وما يقال فى كذا وكذا من المسائل العلمية ، فهذا النوع لا يكرهه الله عز وجل ؛ لأنه ضرورة يُحَتِّمها البحث العلمى.

ونوع يتعلق بأعمال البر وصنائع المعروف والدعوة إلى الإصلاح بالوعظ والإرشاد ، فهذا النوع أيضاً محمود يباركه الله – عز وجل – ويثيب عليه، وهو

---

(١) الحشر: ٧.　　(٢) آل عمران: ١٠١.

داخل فى النوع الأول أو هو في الطريق إليه، فإن الداعية إلى الخير يحتاج فى ذلك إلى أن يقول : (قيل وقال) .

ونوع يكون من لهو الحديث أو لغط الكلام لا يضر ولا ينفع ، وهذا ينبغى على المؤمن أن ينزه لسانه عنه احترازاً مما قد يأتى به من دواعى الشر ودوافعه .

ونوع يضر ولا ينفع ، وهذا يكون على حسب الضرر الذى يتأتى منه، فيعظم الجرم كلما عظم الضرر، فيكون حراماً إن أوقع فى الحرام، ويكون مكروهاً إن أوقع فيما يقاربه من الشبهات .

وقد قال النبى ﷺ : «إن الحلال بَيِّنٌ وإن الحرام بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام» [1] .

فقوله ﷺ : «يكره لكم : قيل وقال» يتناول بعمومه هذه الأنواع الأربعة ويكون الحكم فيها على النحو الذى بيناه .

والكراهة فى اللغة تطلق على ما حكم الله بتحريمه، كما يدل عليه قوله تعالى بعد أن نهى عن كثير من الكبائر: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾ [2] أى محرماً تحريما قاطعاً .

ولكنه عند الفقهاء له اصطلاح خاص ، وهو ما لا يعاقب المكلف على فعله ويثاب على تركه .

ولا مانع أن نحمل ما جاء فى هذه الوصية على المعنيين باعتبارين مختلفين .

ولا شك أن من قل كلامه حمدت عاقبته، ومن كثر لغطه كثر غلطه، ومن تكلم فيما لا يعنيه وقع فيما لا يرضيه، وأن قلة الكلام دليل على عقل الرجل، وكثرته دليل على سفهه أو حماقته .

والمسلم الحق من يشغل نفسه بذكر الله، ولا يضيع لحظة من عمره فيما لا ينفع .

---

(١) حديث رواه البخارى ومسلم.

(٢) الإسراء : ٣٨ .

وقد جاء في الأثر أن لسان المؤمن وراء قلبه لا يتكلم الكلمة إلا إذا عقل معناها وعرف مرماها.

ولسان الفاسق أمام قلبه، يلقي بالكلمة ولا يدرى أين وقعت وماذا فعلت به وبمن سمعها.

فرب كلمة نابية يقولها المرء من غير قصد فيقف منها إخوانه موقف الأسف والاعتذار، ويقف بها بين يدى الله موقف الهوان والصغار.

وما كان أغناه عن ذلك لو اتبع تعاليم دينه القويم فَكف لسانه عن القيل والقال بقدر الإمكان.

وقد قال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وما أحسن قول الشافعي - رضى الله عنه - في هذا المقام:

إِن شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صَيِّنُ

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسنُ

وعينك إن أبدت إليك معايباً ... فصنها وقل يا عين للناس أعينُ

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسنُ

* * *

وأما كثرة السؤال فمكروه إذا لم يترتب عليه فائدة؛ لأن تركه حينئذ أولى، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وخير الناس من يترك ما لا ينفعه في دينه ودنياه؛ لأن التعلق به نوع من السفه.

ولكن هل الكراهة تعم كل سؤال يلح المرء فيه على المسئول؟ أم هناك قيود وحدود؟

الجواب: نعم هناك قيود وحدود؛ فالعام يخصص بأدنى قرينة كما يقول علماء الأصول.

والمتبادر إلى الذهن بادئ ذى بدء أن المراد بكثرة السؤال هنا كثرة الإلحاح فى طلب المعونة من الأغنياء والسادة والكبراء؛ فإن كثرة السؤال حينئذ تكون مذلة للسائل يريق بها ماء وجهه، ويضيع بها دينه أيضاً، ولا يكون من أولئك الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ (١).

وقد مضى القول فى ذل السؤال فى وصية من الوصايا فلا نعيده هنا.

ويضاف إلى ذلك: الإلحاح فى السؤال عن الأخبار التى لا تعنى فى شىء والتى لا يضر الجهل بها حتى ولو كانت من باب العلم بالشىء؛ لأن المطلوب شرعاً هو العلم النافع.

والعلم النافع هو ما أفاد المرء فى دينه ودنياه.

وقد قال الإمام الشاطبى فى الموافقات:

العلوم ثلاثة: علم هو من أصل العلم، وعلم هو من ملحه، وعلم لا هو من أصله ولا هو من ملحه... إلى آخر ما قال فى إحدى مقدماته الثلاثة عشر من الجزء الأول.

فالعلم الذى هو من أصل العلم هو الذى تتوقف عليه صحة الأعمال وقبولها.

والعلم الذى هو من ملحه هو ما ينفع فى أوقات دون أوقات، وما يجد فيه المرء تسلية ومواساة.

والعلم الذى ليس من أصل العلم ولا من ملحه كالسؤال عن حكمة تقبيل الحجر الأسود، ورمى الجمار، والمبيت بمنى، وغير ذلك من الأمور التعبدية التى يكون من الخير الجهل بحكمتها؛ لأن الجهل بحكمتها يعمق الشعور بالطاعة والخضوع لمن أمر بذلك.

والعلم بالحكمة منها يقلل من مدى إظهار العبودية حتماً.

---

(١) البقرة: ٢٧٣.

فالسـؤال الذى لا جـدوى منـه مكروه كراهـة تنزيه ، أو كراهة تحريم ، أو منهى عنـه . كل ذلك بحـسب نوع السـؤال على النحـو الذى بيناه فى القيل والقال .

وقد كره النبى - ﷺ - كثرة السؤال وعابه فى أحاديث كثيرة قد مضى بعضها كقوله : « إنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسـائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ (١) .

وخيرالناس من بذل ما لديه بسخاء وعف عما فى أيدى الناس، واقتصر من السؤال على ما نفع .

* * *

وأما إضاعة المال فهو نوع من الإسراف المذموم والتبذير المشئوم .

وهو من الكبائر كما هو معلوم من قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (٢) .

وقوله جل وعلا ﴿ ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ (٣) .

والمال نعمة من أعظم النعم يحفظ ماء الوجه، ويعين صاحبه على أمور الدين والدنيا، ويدفع عنه غوائل الفقر والمسغبة ، ويجعله من أصحاب اليد العليا إذا ما أنفق منه فى سبيل الله - عز وجل - .

فإضاعته إذن من أكبر الجرائم لا يقدم عليها إلا سفيه ، ولما كان السفهاء

---

(١) المائدة : ١٠١ .
(٢) الأعراف : ٣١ .
(٣) الإسراء : ٢٦ - ٢٧ .

لا يحسنون التصرف فى أموالهم أمر الله العقلاء أن يحجروا عليهم فيها؛ لأنها لم تعد أموالهم بالمعنى المعروف عند الناس، فهو قاصر عن الملكية بسبب قصوره عن التصرف السليم.

قال الله عز وجل ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ (١).

فانظر كيف أسند الله الأموال للمخاطبين دون السفهاء لإشعارهم أنها ملك للجميع على الحقيقة؛ لأن المال مال الله عز وجل ونحن خلفاؤه فيه على أنفسنا وعلى المعوزين من الفقراء والمساكين وغيرهم.

فعندما يملكها من يسيء التصرف فيها نتدخل لمنعه، لأن الضرر لا يقع عليه وحده ولكن يقع على من له حق فى هذا المال إن عاجلاً أو آجلاً، كالورثة ومن يعولهم، بل إن هذا المال قد يتعدى الورثة إلى غيرهم ممن يعملون فيه ويتعيشون منه.

ومن هنا كانت إضاعة المال من الأمور التى يبغضها الله عز وجل.

لكن هل يقال لمن أسرف فى الخير مسرفاً مضيعاً للمال؟

الجواب: لا. لأنه حينئذ يكون قد نزل عن ماله لوجه الله تعالى ابتغاء مرضاته فكيف يسمى مسرفاً؟. اللهم إلا إذا كان يعول صغاراً فإنه ينبغى أن يراعى حقهم فيدخر لهم ما يكفيهم حتى لا يضيعهم.

فقد قال النبى - ﷺ - لسعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - حين أراد أن يتصرف بماله كله: «لأن تذر أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس».

نعم إن من أنفق ماله كله فى سبيل الله لا يكون مبذراً ولا مسرفاً بالشرط الذى ذكرناه.

---

(١) النساء. ٥.

يقال إن رجلاً من الصالحين كان ينفق الكثير والكثير من ماله، فقال له رجل من الأخيار: لا خير في السرف، فقال له: ولا سرف في الخير . فأفحمه.

نعم . إنه لا سرف في الخير؛ لأن المسرف في الخير لا يسمى مضيعاً للمال - كما أشرنا - .

*　　*　　*

وخلاصة القول أن التوحيد الخالص هو أصل الأصول، وأن المسلمين لن تتحقق وحدتهم إلا إذا التفوا حول كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ، واشتغلوا بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وعلى الله قصد السبيل

*　　*　　*

(١٨٤) مُرُوا أولادكم بالصلاة

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

«مُرُوا أولادَكُم بالصلاة ، وهم أبناءُ سبع سنين ، واضربوهم عليها ، وهم أبناءُ عشرٍ ، وفَرِّقُوا بينهم فى المَضاجع» (١) .

* * *

أبناؤنا هم فلذات أكبادنا، وقرة أعيننا، وشفعاؤنا عند الله – عز وجل – يوم القيامة، وهم امتداد لنا فى أعمالنا الصالحة بعد موتنا، وهم خلفنا فى إتمام ما بدأنا فى حياتنا؛ لذا كان من الواجب علينا أن نعتنى عناية خاصة بتربيتهم الجسمية والروحية والعقلية، وتنشئتهم على الخلق الفاضل والسلوك النبيل، ونغرس فيهم حب الله ورسوله.

وقد أوصانا الرسول – ﷺ – بذلك فى أحاديث كثيرة، كان منها هذا الحديث الذى يعتبر – فى نظرى – من أهم الوصايا التربوية التى تتعلق بالنشء.

وذلك لأن الصلاة عماد الدين، وركنه الركين، وهى الصلة الوثيقة بين العبد وربه – عز وجل –، كما بينا فى وصية سابقة. ولها من الفضائل الكثيرة ما عرفناه، وما لم نعرفه.

وسنتكلم هنا عن الثمرات التى يجنيها أبناؤنا فى صغرهم، وبعد بلوغهم؛ لنعرف كيف كانت هذه الوصية من أمهات الوصايا التربوية بالنسبة لهم ولآبائهم، ولكل من له صلة بهم.

فمن الصلاة يتعلم الصغير كيف يعنى بنظافته، ويهتم بصحته من خلال الوضوء، وتحرى النجاسات التى قد تعلق ببدنه، أو بالثوب الذى يلبسه، أو بالمكان الذى يصلى فيه.

ومن الصلاة يتعلم القراءة والتسبيح والتحميد والتكبير، وسائر أنواع الذكر

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم: ٤٩٥.

والدعاء، ويتصل قلبه بخالقه ومولاه اتصالاً يفوق اتصاله بأبويه. وتتعمق هذه الصلة بينه وبين ربه حتى يحبه ويأنس به، وتتعلق روحه بالصلاة حتى تملك عليه مشاعره، وتملأ فراغ وقته، ويجد فيها من المتعة ما لا يجده فى غيرها.

وعندئذٍ يتخلص من تهور الطفولة وسفهها، فيتحول نشاطه من مجرد اللغو واللعب والعبث بالأشياء الرخيصة والنفيسة، إلى نشاط آخر ملىء بالحيوية الجادة. ويسبق عقله سنه، فتدركه الرجولة المبكرة، فيزداد بها جِداً ونشاطاً فى ميادين العمل النافع، ويشعر بقيمته فى الحياة، ولا سيما لو صحب أباه فى المسجد، وصلى مع الجماعة، وصافحه الكبار، وحياه الصغار، واستمع إلى تلاوة القرآن، وسمع من دروس العلم، وانغمس فى هذا الجو الروحى، وتعلق قلبه بالمساجد، وتعود على ارتيادها.

وإذا ما بلغ الحُلُم يكون مهيأً لتلقى التكاليف الشرعية بصدر رحب وقلب مطمئن، فلا يشق عليه القيام بها على وجهها؛ لأن الصلاة صقلت مواهبه، وعمقت تجاربه، وتعلم منها كيف يكف عن المعاصى، ويقبل على الطاعات؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتكفكف من ألاعيب الهوى الجامح الذى ينتاب الصبى فى سن المراهقة، وعند البلوغ.

أضف إلى ذلك أنه عرف كثيراً من أحكام الصلاة وغيرها من أبيه وأمه، وممن استمع إليهم فى المسجد، فإذا ما أداها بعد البلوغ تقع صحيحة مقبولة فى الغالب.

وهو بذلك يعتبر مسلماً مخضرماً - إن صح التعبير-، إذ الطفولة تشبه الجاهلية إلى حد كبير.

* * *

ولما كان الطفل لا يتعقل الأوامر ولا يعرف جدواها قبل سبع سنين - قال عليه الصلاة والسلام: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين» أى مروهم بها أمراً حاسماً بالحكمة والموعظة الحسنة مع الترغيب فيها بأسلوب لا يشق عليهم فهمه، ومن غير دخول فى التفاصيل.

وهذا الأمر إنما يأتى بعد تدريب عليها وهو فى سن الخامسة أو الرابعة،

فقوله – ﷺ –: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين» يشير إلى ذلك من طرف خفي إذ الأمر بالشيء لا يصدر إلا بعد أن يعلم المأمور كيف يقوم بتنفيذ ما أُمر به على النحو المرضي. فتأمل هذا تجده صحيحاً.

والطفل يحاكي أباه في الصلاة وهو ابن سنتين، فيركع بركوعه ويسجد بسجوده، وهو لا يدري لم يفعل هذا ولكنه يحاكيه فيه بطبعه؛ إذ من طبعه المحاكاة المجردة عن أي اعتبار في هذا السن.

لكن كلما تقدم في السن أدرك شيئاً ما مما يراه ويسمعه من أبويه وغيرهما حتى إذا بلغ السابعة من عمره حصل له نوع إدراك خاص لما يراه ويسمعه، واستطاع أن يفسر ذلك تفسيراً يناسب عقله.

وأقل ما يعرفه في هذا السن أن ما يفعله يسمى صلاة، وأن هذه الصلاة تؤدى لله – عز وجل – وأن لها أفعالاً خاصة وأوقاتاً خاصة. إلى غير ذلك من الأحكام التي يفتح الله بها عليه.

ولا تقل إن الطفل قبل سبع سنين لا يعرف كيف يصلي؛ وإلا كيف يفسر إدراكه لما يلقى إليه في المدرسة وهو في سن السادسة من عمره؟ بل كيف يتعلم الكثير من الظواهر التي يراها في الكتب وغيرها وهو في رياض الأطفال وسنه يومئذٍ أربع سنين أو خمس سنين؟!.

ولو درسنا التطور الطفولي والمراحل التي يمر بها الطفل لعرفنا أن سن السابعة هو السن الذي يعقل فيه الطفل الأوامر والنواهي ولكن لا يستطيع إدراك معناها وفحواها وكيفية تنفيذها إلا إذا تعلمها قبل هذا الأمر.

والرسول – ﷺ – حكيم معلم، وطبيب ملهم، ونبي مرسل يوحى إليه، فلابد أن نعتني كل العناية بدراسة الأساليب التي يخاطبنا بها في أوامره ونواهيه ووصاياه وتوجيهاته حتى لا نفرط في فهم أي حرف يكون له معنى في الجملة، ونسأل أنفسنا عند النظر فيما يروى لنا عنه – ﷺ – فنقول: لماذا عبر بهذا الحرف بالذات دون غيره من الحروف؟ ولماذا قدم كذا وأخر كذا؟ ولماذا حذف كذا وذكر كذا؟... إلى غير ذلك مما يُعنى به علماء البلاغة وفقه اللغة.

* * *

وقوله ﷺ: «واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» يحتمل معنيين متلازمين.

الأول: اضربوهم على التقصير في إقامتها، أو التفريط في تأديتها في أوقاتها، أو التفريط في تأديتها مستوفية الأركان والشروط والسنن والمستحبات.

والثاني: اضربوهم على تركها بالكلية.

وهذا وذاك صحيح؛ لأن تركها بالكلية دليل على قسوة قلبه ورعونته وخبث طبعه وطويته، وإيذان بأنه لو ترك وشأنه لطغى وفجر؛ لأنه ترك عبادة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعصم من أقامها عن الزيغ والضلال والغفلة عن ذكر الله.

وأما تأديتها في غير وقتها أو التقصير في إقامتها على النحو المطلوب فإنه دليل على سفهه وخفة عقله واستخفافه بالعبادة، وحبه للهو واللعب وميله للخمول والكسل.

فهذا وذاك لابد أن يُقَوَّم بأسلوب الترهيب بعد أن فشل أبواه في تقويمه بأسلوب الترغيب لمدة ثلاث سنوات، ولاسيما أنه في سن المراهقة، وهي السن المشرفة على سن التكليف؛ فربما يبلغ وهو في العاشرة من عمره كما يحدث لبعض الأطفال في كثير من البلاد.

روى أن عمرو بن العاص بلغ وهو في سن العاشرة وأنجب ابنه عبد الله وهو في سن الحادية عشرة.

وهذا الترهيب لا ينبغي أن يكون قاسياً في بادئ الأمر، بل يأخذه بشيء من الشدة بالقدر الذي يحتمله ولا يضره، فالإذن بالضرب ليس معناه القسوة فيه؛ إذ لو أراد القسوة لوصفه بها، فعدم وصفه بها يجعلنا نطلقه على الأقل لا على الأكثر فنضربه ضرباً غير مبرح لا يكسر عظماً ولا يدمي جلداً، وذلك بحسب حال الطفل الصحية والمعنوية.

وأبوه بصير به وبحاله، فليفعل معه من الشدة ما يمليه عليه ضميره، وتحكم به أبوته الحانية، وليكن أبوه كالطبيب الذي يشخص الداء بحكمة ويعطي الدواء بحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾.

* * *

وفى الحديث أمر آخر وهو: التفريق بينهم فى المضاجع إذا بلغوا سن العاشرة، بأن يجعل لكل منهم فراشه الخاص به، ينام عليه وحده إن أمكن ذلك.

فإن لم يمكن خولف بينهم، بأن يجعل رأس هذا فى جانب، ورأس ذاك فى الجانب الآخر.

وذلك حرصاً على أخلاق الأولاد، ومنعاً لحدوث شيء يخل بالأدب؛ فإن الشيطان يستحوذ على الصبيان فى هذه السن، فيسول لهم أشياء لا ينبغى فعلها.

والرسول - ﷺ - حكيم، لا ينطق عن الهوى، ويجب علينا أن نأخذ أوامره ونواهيه مأخذ الجد والاعتبار، ويستوى فى هذا البنين والبنات، لأن اللفظ فى الحديث عام، وهو قوله: «مروا أولادكم». فالأولاد جمع ولد، والولد لفظ يطلق على كل مولود ذكراً كان أم أنثى.

ثم إن التفريق بين الأولاد الذكور يشعرهم بالرجولة المبكرة ويجعلهم أكثر اعتماداً على أنفسهم، ويحول بينهم وبين القلق الذى قد يحدث نتيجة احتكاك كل منهما بالآخر، أو إحداث أصوات تجلب الخوف لأحدهم وغير ذلك مما يحدث غالباً لمن نام بجوار الآخر

والخير فى التوسعة لمن كانت لديه التوسعة.

وما يقال فى الذكور يقال فى البنات مع الفارق؛ فإذا نامت كل صبية وحدها كانت أكثر اعتماداً على نفسها ووجدت من الراحة وحدها فى نومها أكثر مما تجده مع الأخرى.

والتفرقة بين الأولاد فى المضاجع من بداية سن العاشرة إلى ما شاء، لا فى سن السابعة كما يحلو للبعض أن يفعل؛ فإنهم قبل العاشرة يكونون فى مأمن مما قد ذكرنا.

اللهم إلا إذا بدا للأم أو للأب أن أحد الأبناء قد تحدثه نفسه بشيء مخل

بالأدب، أو ظهرت عليه أمارة تدل على ذلك – وهذا نادر – فإنهما يعزلانه برفق عن سائر إخوته وأخواته دون أن يشعراه بشيء يحرجه أو يزعجه، والنادر لا حكم له على كل حال.

ولا بأس إذا لم تكن هناك سعة أن يناموا جميعاً على فراش واحد ويكون لكل منهم غطاء يخصه.

والأمر على كل حال مجرد إرشاد وتوجيه وليس أمراً يقتضي الوجوب فيما يبدو لنا، إلا إذا غلب على الظن حدوث ما لا تحمد عواقبه، فعندئذ يجب التفريق بينهم دفعاً للمفسدة.

والله تعالى أعلم

*   *   *

(١٨٥) لا يحقر أحدكم نفسه

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نفسه»، قالوا: يا رسول الله، كيف يَحْقِرُ أحدُنا نفسه؟

قال: «يرى أَمْراً لله عليه فيه مقالٌ ثم لا يقول فيه. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فيَّ كذا وكذا؟. فيقول: خَشْيَةُ الناس، فيقول: فَإِيَّاى كُنْتَ أحقَّ أن تَخْشَى»(١).

* * *

عندما يكمل إيمان العبد بالله لا يخشى أحداً سواه، ولا يخضع إلا للحق الذى يُحِقُّهُ خالقه ومولاه، ولا يجبن عن نصرته بالسيف أو باللسان؛ لأنه يعلم تمام العلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشىء لم ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه.

والرسول ﷺ يذكر أصحابه وسائر المسلمين من بعدهم بأن يكونوا للحق أنصاراً حيث كانوا، يدافعون عنه بكل ما لديهم من قوة، فيقول: «لا يحقر أحدكم نفسه» وهو نهىٌ يحتمل عدة معان تردد أصحابه فى المعنى الذى يريده فسألوه عنه فقالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟

وهو سؤال له وجاهته، وهو متوقَّع منهم؛ لأن فى النهى إجمال يحتاج إلى تفصيل وبيان.

ومن شأن المعلم أن يأتى بالأمر أو النهى مجملاً؛ لجلب الانتباه وشحذ الأذهان ومعرفة مدى الاستجابة من المخاطبين، وهو أسلوب تربوى حكيم، عرفنا كثيراً من أطرافه فى هذا الكتاب.

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حديث رقم: ٤٠٠٨. وقال عنه البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وأخرجه أحمد جـ٣ ص ٣٠.

ومعنى «لا يحقر أحدكم نفسه» في هذا الحديث هو ما أجاب به الرسول ﷺ عن هذا السؤال، فتحددَ المعنى المراد وتلاشت من ساحة النهى المعاني الأخرى كالتواضع مثلاً، فإن من شأن المؤمن أن يحقر نفسه فلا يرى لها فضلاً على غيرها، وهو من أبرز صفات عباد الرحمن كما جاء في أواخر سورة الفرقان.

أو كأن لا يعطيها حقها من المتعة الحلال، مبالغة في الزهد والورع وتشديداً عليها وقهراً لها، فإن ذلك ليس من الدين في شيء لمخالفته للمنهج الواقعي الذي رسمه الله تعالى لعباده في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله ﷺ.

قال النبي ﷺ مجيباً عن هذا السؤال: «يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه» والمعنى: أن يرى أحدكم أن لله حقًّا في كلمة حق يقولها فلا يقولها؛ استحياءً من قولها أو خوفاً من أن يؤذَى بسببها، فيكون بذلك مضيِّعاً لحقه سبحانه، مهملاً في نصرة دينه، مقصراً في حق نفسه. والساكت على الحق شيطان أخرس.

ويذكِّر النبي ﷺ أصحابه بما يترتب على هذا التقصير بأن الله عز وجل سيعاقب كل من نكص عن كلمة الحق فيقول له: يا عبدي ما منعك أن تقول فيَّ كذا وكذا؟. أي ما منعك أن تقول في شأني ما ينبغي أن يقال.

فيقول العبد معتذراً: منعني من ذلك خشية الناس.

والخشية معناها: الخوف والاستحياء.

فيقول الله عر وجل مُوَبِّخاً إياه: «فإياي كنت أحق أن تخشى».

أي كان الأجدر بك أن تخشاني ولا تخشى أحداً سواي.

* * *

هذا هو معنى الحديث إجمالاً.

ويؤخذ منه فوق ما ذكرنا أن كلمة الحق ينبغي أن تقال في موضعها وأوانها، وبالأسلوب اللائق بها من غير تَهَيُّبٍ من غني فاجر أو سلطان جائر.

فقد قال النبي ﷺ في وصية أخرى مضى ذكرها: «وقل الحق ولو كان مُرًّا».

ومرارة الحق عند المؤمن أحلى من العسل؛ لأنه يجنى بها من الخير الدنيوى والأخروى ما لا يعلم قدره إلا من بيده الأمر والأجر وعليه المعتمد.

(والرجل الضعيف فى إيمانه، هو الذى يستعبده العرف الغالب ، وتتحكم فى أعماله التقاليد السائدة ، ولو كانت خطأً يجر معه متاعب الدنيا والآخرة.

وقد أحدث الناس فى أفراحهم وأحزانهم بدعاً شتى ، وتواضعوا على الاستمساك بها أشد من استمساكهم بحقائق الدين نفسها.

ولكن المؤمن الحق لا يكترث بأمر ليس له من دين الله سناد ، وهو فى جرأته على العرف والتقاليد سوف يلاقى العنت ، بيد أنه لا ينبغى أن يخشى فى الله لومة لائم، وعليه أن يمضى إلى غايته، لا تعنيه قسوة النقد ولا جراحات الألسنة.

والباطل الذى يروج حيناً ثم يثور الأقوياء عليه فيسقطون مكانته – لا يبقى على كثرة الأشياع أمداً طويلاً ، ورب مخاصم اليوم من أجل باطل انخدع به، أمسى نصيراً لمن خاصمهم، مستريحاً إلى ما علم منهم، مؤيداً لهم بعد شقاق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من أسخط الله فى رضا الناس ، سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه. ومن أرضى الله فى سخط الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه!! حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينيه » (١) .

فليحمد المسلم على ما يوقن به، وليستخفّ بما يلقاه من سخرية واستنكار عندما يشذ عن عرف الجهال ويخط لنفسه خطاً يلتمس به مثوبة الله عز وجل.

ولئن كان الإيمان بالأوهام يُغرى البعض، بأن يسخر ويتهكم، فإن الإيمان والإسلام يجب أن يجعل أصحابه أقوياء راسخين.

﴿ وإذا رَأَوْكَ إن يتخذونك إلا هُزُواً أهذا الذى بعث الله رسولاً . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ (٢) .

---

(١) رواه الطبرانى.

(٢) الفرقان : ٤١ – ٤٢ .

أجل. يجب أن يكون المسلم شاعراً بقوة اليقين فى شخصه، وروعة الإيمان فى نفسه، إن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقى كالطود الأشم، لن تجرُفه الغمار السائدة، ولم تطوه اللجج الصاخبة.

وماذا عسى يفعل النار لامرئ اعتز بإيمانه واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته فى دينه؟. إنهم لو تألبوا عليه جميعاً ما نالوا منه قليلاً ولا كثيراً.

والحق أن فضيلة القوة ترتكز فى نفس المسلم على عقيدة التوحيد، كغيرها من الفضائل التى تجعله يرفض الهوان فى الأرض، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء، ولأنه يستطيع فى نطاق إيمانه أن يكون أمة وحده، وفى فمه قول الله عز وجل: ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾ (١).

ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحاً، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادئ معروفة، لا يصانع على حساب الحق بما يغضُّ من كرامته وكرامة أنصاره، بل يجعل قوته من قوة العقيدة التى يمثلها ويعيش لها، ولا يحيد عن هذه الصراحة أبداً فى تقرير حقيقة ما.

حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم!! فقام رسول الله ﷺ يخطب الناس فقال: «إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة» (٢).

ذلك أن الشخص الذى يحيا فى الحقائق لا يتاجر بالأباطيل، فهو غنى عنها، وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف، تغنى صاحبها عن الدجل والاستغلال، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال.

وقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنبثق من هذا السمو النفسى؛ لأنها تعتمد على مصارحة المخطئين بما فرط منهم ابتغاء محوه لِتُثْبِتَ مكانه الصواب والخير.

---

(١) الأنعام: ١٤. (٢) رواه البخارى.

والذى نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقادة للعيوب الفاشية، جريئاً فى الحملة عليها، لا يتهيب كبيراً ولا يستحى من قريب، ولا تأخذه فى الله لومة لائم.

وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة الكبراء، وأن يناديهم بألفاظ التكريم.

قال رسول الله ﷺ : «إذا قال الرجل للمنافق : يا سيد ، فقد أغضب ربه»(١) .

وإنها لجريمة مضاعفة أن ينتهك امرؤ الحرمات المصونة، ثم يستمع إلى من يُبَجِّلُونَهُ لا إلى من يحقِّرونه.

﴿ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾(٢) .

والرجل الذى يأنس من نفسه قوة الاستجابة لدواعى الحق يواجه من شاء بما شاء، ولا يتوارى ليطعن من وراء ستار.

وليس معنى ذلك أن نجابه بالسوء من نودُّ مساءتهم، بل إذا وجدنا فى امرئ ما عيباً فنحن بإزائه بين أمور معينة: إن كان هذا العيب عاهة فى بدنه، أو ضآلة فى مرتبته، فمن السفاهة التشنيع عليه به عياناً أو غياباً.

وإن كان ذنباً إنزلق إليه وليس من شأنه أن يقارفه إنما هى كبوة الجواد، فمن الدناءة أن نفضح مثله، وأن نشهر بين الناس به.

وإن كان العيب الذى وجدناه جرأة مستهتر أو معصية مجاهر، فهذا الذى يجب أن يقابل بكلمة الحق تقرع أذنيه دون مبالاة.

ولكيما تكون هذه الكلمة خالصة ينبغى أن تبتعد عن مشاعر الشماتة وحب الأذى، وأن تقترن بالرغبة المجردة فى تغيير القبيح وإصلاح الفرد والجماعة.

وليس من هذا البتة أن تذكر العاصى بشر عند أعدائه لتقترب من قلوبهم، أو لتطعم على موائدهم، أو لتتظاهر بالبراءة من الخصال التى ذممتها فيه.

---

(١) رواه الحاكم. (٢) الحج : ١٨.

قال رسـول الله ﷺ : «من أكل برجل مسـلم أكلة فإن الله يطعمـه مثلها من جهنم ، ومن كُسىَ ثوباً برجل مسـلم فإن الله يكسـوه مثله من جهنـم ، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»[1])[2] .

وينبغى على المسلم أن يعطى القدوة من نفسه ولا يعطى الدنية فى دينه وأن يدعو إلى الله على هدى من ربه مقتدياً فى ذلك بمن سبقه من السلف الصالح مخلصاً لله النية فى عمله كله .

﴿قل هـذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[3] .

والبصيرة هى تشخيص الداء ووصف الدواء والحجة المقنعة .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا وإياكم .

* * *

---

(١) رواه أبو داود .   (٢) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) يوسف : ١٠٨ .

(١٨٦) لا تظهر الشماتة لأخيك

عن وَاثِلَةَ بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ الله ويَبْتَلِيكَ» (١) .

* * *

الأخوة الإيمانية تقوم على الحب المتبادل بين المؤمنين، وهذا الحب ينبعث من سلامة القلب من الحقد والحسد ، والغيرة والغرور، والعجب وحب الذات.

فمن آمن بالله إيماناً كاملاً، أحب لأخيه ما أحبه لنفسه، فإن أصابه خير هنأه . وإن أصابه ضر واساه ونفَّس عنه كربته وشاركه آلامه وآماله.

والرسول - ﷺ - في هذه الوصية يخاطب المؤمنين الذين لم يكتمل إيمانهم بعد محذراً من آفة تجلب على صاحبها البلاء ، وتورثه الشقاء، وتحرمه من التمتع بطيبات الحياة، وهي الشماتة.

ومعناها : الفرح المؤقت لبلاء يقع لغيره؛ حسداً له وحقداً عليه، وهي دليل على العداوة والبغضاء، فلا يشمت أحد بأحد إلا لعداوة بينهما قد تكون ظاهرة، وقد تكون كامنة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا تُشْمِتْ بي الأعداء﴾ (٢) أي : لا تمكنهم من إغاظتي بالفرح في بليتي، وهذا ما قاله هارون لأخيه موسى - عليهما السلام - حينما أخذ بشعر لحيته ورأسه لما عبد قومه العجل من بعد خروجه لميقات ربه.

والشماتة دليل على الخيبة والخبال، والعرب تسمي الشامت خائباً فيقولون: رجعوا شَمَاتَى: أي خائبين مخذولين، وخزايا محرومين.

يقولون شَمَّتَه الله: يعني خيبه وفضحه.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب رقم ٥٤ حديث رقم ٢٥٠٦ .
(٢) الأعراف : ١٥٠.

بخلاف تشميت العاطس؛ فإنه دعاء له وتجاوب لحمد الله عز وجل، فإذا ما عطس وحمد الله دعونا له بالعافية والرحمة وحمايته من شماتة أعدائه.

قال ابن سِيدَهْ : شَمَّتَ العاطس، وسَمَّتَ عليه، دعا له ألا يكون فى حال يُشْمَتُ به فيها، والسين لغة فيه.

وقيل معناه: أبعدك الله عن الشماتة، وجَنَّبَكَ ما يُشْمَتُ به عليك. والمعنى متقارب [1].

وقول الرسول ﷺ : «لا تظهر الشماتة لأخيك» نهىٌ عن إظهارها وإخفائها.

وكأنه قال: لا تشمت به أبداً ، وإن وقعت فى قلبك شماتة فلا تعمل على إظهارها، بل اجتهد فى إزالتها بكل ما أوتيت من علم وحكمة.

وإظهار الشماتة يوقظ نار العداوة، ويزيد فى اشتعالها.

ولو عزاه فى مصيبته وواساه بقدر طاقته وأعانه على دفع ضره، لكان ذلك أولى وأقرب للتقوى.

والله عز وجل يقول : ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾[2] .

والمؤمن الحق هو الذى يدع للصلح موضعاً، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلاً، ولا يدنس قلبه بهذه الآفة البغيضة، وهو يعلم أن الدهر ذو غِيَرٌ: يوم له ويوم عليه.

وقد صدق الشاعر حيث يقول:

الناس للناس ما دام الحياء بهم ... والعسر واليسر ساعات وأوقات
لا تقطعن يد المعروف عن أحد ... مادمت تُرْجَى فالأيام تارات

وقد علل النبى - ﷺ - هذا الأمر بقوله: «فيرحمه الله ويبتليك» ليكفكف الشامت دموع فرحه الموقوت، ويكف نفسه عن التمادى فيما يفسد

(١) انظر لسان العرب فيما ذكرناه من اللغة.
(٢) البقرة : ٢٣٧ .

على قلبه وعقله وخلقه ودينه، ويعرضه للمساءة من قبل عدوه الذى شمت به ويجعله مستحقاً للبلاء من قبل الله – عز وجل – وهو جل شأنه بالمرصاد لمن طغى وبغى وأضمر السوء لأخيه ، وتمنى زوال نعمته .

وماذا يكون حال الشامت لو رحم الله عدوه وفتح له أبواب الخير وأسبغ عليه النعمة، وابتلاه بمثل ما ابتلاه به أو أشد .

إنه عندئذٍ يكون أشد خيبة من ذى قبل، فالشامت – كما قلنا – هو الخائب؛ لأن شماتته ترد إليه فى يوم من الأيام، إذ على الباغى تدور الدوائر، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن صارع الحق صُرع، ومن تكبر على الناس ذل .

يقول الله – عز وجل –: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ (١) وهذه حكمة بالغة ينبغى على كل مؤمن أن يأخذ منها العظة والعبرة .

والعافية من الله كلمة واسعة الدلالة فى معناها ومغزاها ومرماها، فهى تعنى معافاة الأبدان من الأمراض والعلل، ومعافاة القلوب من الحقد والحسد والغيرة والنفاق وسائر ما يعكر صفو الإيمان من الآفات ، ومعافاة الأموال من التلف أو النقصان أو خلطها بحرام أو إنفاقها فى غير وجهها .

فهى إذاً – كما قلنا – واسعة الدلالة، تشمل بمنطوقها ومفهومها الإنعام على من يستحقها بكل نعمة يرجوها فى دنياه وآخرته .

وهذا الإنعام يتمثل فى درء المفاسد عنه وجلب المنافع له .

ومثلها العفو، فمن عفا الله عنه عافاه فى دينه ودنياه وأخراه .

ولهذا أوصى النبى ﷺ المؤمنين أن يدعو كل منهم فى الأوقات المباركة بأن يعفو عنه، ويكتفى بذلك؛ لأن الخير كل الخير فيه .

قالت عائشة رضى الله عنها قلت : يا رسول الله، أرأيتَ إن علمتُ أى ليلة ليلة القدر ما أقوله .

قال : «قولى : اللهم، إنك عفو تحب العفو فاعف عنى» (٢) .

---

(١) فاطر : ٤٣ .

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى .

وضد العفو الابتلاء ، وهو أنواع .

فهناك ابتلاء بالخير، وهناك ابتلاء بالشر .

قال تعالى : ﴿ ونبلونكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (١) .

وكل منهما قد يكون عقاباً للمبتلى، وقد يكون تمحيصاً له ومضاعفة لأجره .

ثم إن هذا الابتلاء يكون على درجات في الخير وفي الشر .

فالمؤمن يبتليه الله ابتلاء تمحيص وتطهير وتزكية وتقويم؛ لينال بصبره وجَلَده الدرجات العلا في جنة المأوى، فيكون ابتلاؤه خيراً كله في الحال والمآل؛ لأنه إنَّ أُعطى شكر، وإن ابتلي صبر، فهو مع الله دائماً، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه، عافاه من سخطه ومنحه رضاه، وجعل التقوى شفاءً له من كل داء، ورزقه الرضا بقضائه وقدره، وأراه القدر على حقيقته فآمن إيماناً لا يعتريه شك بأن الله عز وجل لا يفعل الشر ولا يختار لعبده إلا الخير، وأنه أرحم به من نفسه على نفسه .

وأما الكافر فإن الله يهلكه بذنبه في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فإن هلاكه يكون بكفره وإن بدا أنه مُنَعَّمٌ؛ لأن الكفر يبعده عن نعيم دنيوي لا يعرفه أمثاله، وهو ذكر الله .

وقد ذكرت في وصية من الوصايا أن رجلاً صالحاً قال : عجبت لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها .

قال : أو في الدنيا نعيم يا رجل!

قال : نعم .

قالوا : فما هو؟

قال : ذكر الله .

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .

وحرمان الكافر من ذكر الله هو العقاب الذى ما بعده عقاب فى الدنيا، فانظر كيف كان السبب هو المسبب نفسه.

وهذا كالحاسد، يعذبه حسده، حتى قيل: لا تعاقب الحاسد؛ فإن حسده قد عاقبه.

والفاسق من المسلمين يقارب الكافر فى الحرمان بقدر درجته فى الفسق وبعده عن شعب الإيمان، ويكون جزاؤه من جنس عمله فى الدنيا والآخرة.

والشماتة - يا أخى المسلم - نوع من الفسق، ينشأ - كما ذكرنا - عن الحقد والحسد وغيرهما من الآفات المنافية للإيمان الصحيح؛ لهذا كان الشامت عرضة للبلاء؛ معاملة له بسوء فعله.

فمن شمت بأخيه، فقد عرض نفسه لما أصيب به أخوه من البلاء حتماً ما لم يبادر بالتوبة النصوح والعمل الصالح وتطهير نفسه من الآفات التى تعكر عليه صفو إيمانه وتورد الشُّبه على يقينه، فينقلب يقينه بها شكاً، والعياذ بالله تعالى.

إن رسول الله ﷺ يحرص فى هذه الوصية على أن يظل إيمان المؤمن كما هو، لا يعتريه شك ولا يصيبه وَهَنٌ، بل يزداد ويزداد حتى يكون من الأخيار الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (١).

جعلنا الله منهم.

* * *

---

(١) الأنفال: ٢.

(١٨٧) إياكم وسوء ذات البين

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال: «إياكم وسوءَ ذات البَيْن فإنها الحَالِقة» (١) .

*　　*　　*

صلة الأرحام أصل من أصول الدين، وشعبة من شعب الإيمان، وبرهان على سلامة القلب وصدق اليقين.

وهى خلق يزين صاحبه، ويرفع من شأنه بين أهله وأقربائه وجيرانه وكل من يتصل به من قريب أو بعيد.

وليس هناك أحد أفضل ممن يصل رحمه ويحسن إليهم ويعطف عليهم ويحب لهم الخير كما يحبه لنفسه.

وقد أوصى القرآن الكريم بصلة الأرحام محذر من قطيعتها فى آيات كثيرة.

فقال جل شأنه: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢) .

أى واتقوا الله الذى يسأل به بعضكم بعضاً، واتقوا قطيعة الأرحام.

وقال عز وجل: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ (٤) .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب «صفة القيامة» باب ٥٦ رقم ٢٥٠٨ .

(٢) النساء : ١ .　(٣) النساء : ٣٦ .　(٤) الإسراء: ٢٦ - ٢٨ .

أى إن لم تستطع أن تقضى لهم حوائجهم فعدهم وعداً حسناً لحين ميسرة وقل لهم قولاً يسهلُ فهمه ويقبل به عذرك، ولا تعرض عنهم بغضاً لهم ولكن اعرض عنهم ابتغاء رزق من ربك ترجوه لتعطيهم منه.

وقال جل وعلا: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزدْ له فيها حُسناً إن الله غفور شكور ﴾ (١) .

وقد أوصى النبى ﷺ بصلة الرحم فى أحاديث كثيرة لا يكاد يحصيها العادون منها :

١ - ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

٢ - وروى البخارى ومسلم أيضاً عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه ويُنَسَّأ له فى أثره، فليصل رحمه».

ومعنى ينسأ له : يؤخر له فى أجله، والتأخير عبارة عن البركة فى العمر. فقد يعيش الرجل قليلاً وتكون أيامه عامرة بأفعال الخير وصنائع المعروف.

وقد تكلمنا عن صلة الأرحام فى الوصية السابعة عشرة بعد المائة من هذا الكتاب فلا نعيد ما ذكرناه هنا، ولكن نكتفى بشرح هذا الحديث وبيان ما فيه من عظات وعِبر وأحكام وحِكم.

* * *

قوله ﷺ : «إياكم وسوء ذات البين» تحذير من قطيعة ما أراد الله أن يوصل بسوء المعاملة وسوء الظن وسوء الخُلق.

وذات البَيْن : هى ذات الوصل التى تربط بعض الناس ببعض بأى رابطة من الروابط المعتبرة، كالقرابة والجوار والصداقة والزمالة فى العمل والصحبة فى الطريق ونحو ذلك من العلاقات الاجتماعية.

---

(١) الشورى : ٢٣.

ومن أعظم هذه الصلات الأُخوة الإيمانية، فهى العروة الوثقى بين عباد الله الصالحين ، بين أمة لا إله إلا الله أجمعين من لَدُن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فالأُخوة الإيمانية مدلولها واسع يشمل الإنسانية المؤمنة كلها .

فالمسلم أخو المسلم، لا يخذله، ولا يحقره، ولا يحسده . كما جاء فى الحديث الصحيح الذى تقدم ذكره فى هذا الكتاب .

والبَيْن لفظ له معنيان متضادان فهو بمعنى الوصل والقرب وبمعنى القطع والبُعد .

يقال تَقَطَّع بَيْنُهُ أى وصْلُهُ، ومنه قوله تعالى فى قراءةٍ : ﴿لقد تقطَّع بينُكم﴾(١) – بضم النون – يعنى وصلكم .

وجاءت بمعنى القطع والبعد فى مثل قول محمود سامى البارودى:

مَحَا البَيْنُ مَا أَبْقَتْ عُيُونُ المَهَا منِىّ   فَشِبْتُ ولـم أَقْضِ اللُّبَانة من سِنِّى

وسُمى الموت بَيْناً لأنه يفرق بين المحبين .

وهذا التحذير من سوء الصلة بين المؤمنين يشير إلى أمرين هامين:

الأمر الأول : المحافظة على صبغة الله وهى الإيمان؛ لأن سوء الصلة تفسد القلب وتعكر صفوه وتُذْهِبُ نوره فلا يكون للإيمان حينئذٍ محلٌ فيها .

والذى يفسد العلاقات بين الناس هو الحقد والحسد، وسوء الظن والخيانة والغدر والنفاق، والشماتة وسوء الأخلاق بوجه عام.

الأمر الثانى : المحافظة على التعارف الذى خلق الله الناس من أجله، والذى أشار إليه بقوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾(٢) .

ومعنى التعارف فى الآية التقارب فى الأهداف والمنافع ، والتجاور فى الديار

---

(١) الأنعام : ٩٤ .   (٢) الحجرات : ١٣ .

وميادين الأعمال ، والتعاون على البر والتقوى ، وتحقيق ما يصبو إليه كل منهم في هذه الحياة .

وهذا التعارف هو الذى يؤدى إلى التآلف والتحابب الموصول بحبل الله المتين؛ إذ هو الذى بيده نواصى القلوب، يؤلف بينها إن شاء ويفرق بينها إن شاء .

﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ (١) .

وصلة الأرحام تعمق جذور هذه الأخوة الإيمانية، وتجعل لها طعماً خاصاً؛ إذ يكون التراحم مبنياً عليهما معاً . فيقال : فلان أخو فلان فى الإيمان وأخوه فى النسب والرحم .

وصلة الجوار كصلة الرحم، فإذا تجاور المؤمنون فى الديار وغيرها، وكانت بينهم روابط الدم والنسب، كانوا كنفس واحدة تجاذبتهم وشائج القرب والحب من كل جانب، فكان الشأن فيهم أن يصلحوا ما بينهم بهذه الروح التى صهرتهم فى بوتقة واحدة، ويقيموا أمرهم على الدين الذى ارتضاه الله لهم، وفطرهم عليه، وتعبدهم به .

وهـذا الدين هو العروة الوثقى التى لا تنفصم أبداً ولا يتفرق أهلها بدداً، ولا تكون حياتهم سُدىً .

وذلك لأن تواصلهم وتراحمهم هو برهان صحة إيمانهم وسلامة يقينهم .

يقول الله – عز وجل – : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ (٢) .

وقد نزلت هذه الآية فى غزوة بدر حين اختلفوا على الغنائم، فقال المهاجرون : هى لنا؛ لأننا خرجنا من ديارنا وأموالنا ونحن أحوج إليها من غيرنا .

وقال الأنصار : نحن أولى بها منكم لأننا آوينا ونصرنا .

وقال الشباب من هؤلاء وهؤلاء : نحن أولى بها؛ لأننا القوة الضاربة، والطاقة الفعالة .

---

(١) الأنفال : ٦٣ .
(٢) الأنفال : ١ .

وقال الشيوخ: نحن أولى بها لأننا أهل الرأى والمشورة، إلى آخر ما قالوا.

وقد كانوا فى غفلة - حين اختلفوا - سرعان ما انتبهوا منها، فردوا الأمر إلى الله - عز وجل - وسألوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى شأنها، فأنزل الله حكمه فى هذه الآية، وأمرهم بالتقوى؛ فإنها هى خير ما يعصمهم من النزاع على حطام الدنيا والاختلاف على أمرٍ ما كان ينبغى أن يختلفوا عليه.

وأمرهم بإصلاح ذات البين؛ لأن فى ذلك صلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة.

فالاتحاد قوة والتفرق ضعف، والاعتصام بالله هو عماد قوتهم، وسبيل هدايتهم، والتمسك بكتابه وسنة نبيه - ﷺ - هو أساس أخوتهم، ومنهج حياتهم، فلا يقيهم شر أنفسهم إلا الاحتكام إليه والعمل به.

فإذا دب الوهن فى أمة كان السبب فيه الانحراف عن الصراط السوى الذى اختاره الله لعباده، وأمرهم باتباعه.

وعندئذ تقع الأثرة بين أفرادها، ويقول كل واحد منهم نفسى نفسي، فينال منهم عدوهم نيلاً يفرق به جمعهم، ويشتت شملهم، ويذهب قوتهم، فلا تقوم لهم قائمة إلا إذا عادوا إلى هذا الصراط المستقيم: صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض.

﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (١).

* * *

وقد وصف النبى - ﷺ - سوء ذات البين بأنها الحالقة، وقد فسرها فى حديث آخر بقوله: «لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (٢).

وحلق الدين إزالته من القلوب كما يزال الشعر من الرءوس. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ به من الضلال بعد الهدى.

* * *

(١) الأنعام: ١٥٣. (٢) رواه الترمذى.

(١٨٨) ولكن ساعة وساعة

عن حَنْظَلَة الأُسَيِّدىِّ (وكان من كتاب رسول الله ﷺ) قال : لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حَنْظَلَةُ ؟ ! قال : قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ! ما تَقُولُ ؟ ، قال : قلتُ : نكونُ عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنا بالنار والجنة حتى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عَافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً . قال أبو بكر : فوالله، إنا لنلقى مثل هذا .

فانطلقت أنا وأبو بكر ، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ . قلت : نافق حنظلة يا رسول الله ! . فقال رسول الله ﷺ : «وما ذَاكَ ؟» قلت : يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنار والجنة. حتى كأنَّا رَأْىَ عين . فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات . نَسِينَا كثيراً .

فقال رسولَ الله ﷺ : «والذى نفسى بيَده ، إنْ لو تَدُومُون على ما تكونون عندى، وفى الذكر ، لصافحتكم الملائكة عَلى فرشكم وفى طُرُقِكم. ولكن يا حنظلة ، سَاعَةً وسَاعَةً» ثلاثَ مَرَّاتٍ (١) .

* * *

من المبادئ التى ينبغى أن نفهمها من الإسلام، أن أى عمل مشروع من أعمال الدنيا، يصير طاعة لله تبارك وتعالى، وسبباً للثواب عنده، إذا عمره الإخلاص والنية الطيبة، والمقصد الكريم، حتى ولو كان هذا العمل أكلاً أو شرباً أو لبساً أو شهوة .

وقد تربط يد الله العلى الكبير بين موطن تبدو فيه المتعة الحسية أو النعمة المادية، وموطن يسمو بمعنوياته وتضحياته إلى أعلى عليين .

وهذا مشهد من حياة أحد الصحابة الأكرمين، يجلى لنا هذا المعنى الدقيق .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة. ح: ٢٧٥٠ . ورواه الترمذى بنحوه فى كتاب صفة القيامة ٥٩ .

إن هذا الصحابى هو المجاهد البطل الشهيد : حنظلة بن أبى عامر عمرو بن صيفى الأنصارى الأوسى المدنى، الذى كان من سادات الصحابة وفضلائهم، وكان من أهل الصفة الأتقياء الأوفياء، وقد استشهد فى غزوة أحد وغَسلته الملائكة كما جاء فى الخبر، رضى الله عنه وأرضاه (١) .

* * *

وهذه الوصية النبوية جاءت بعد قصة قصيرة ذكرها الرواة لتكون سبباً لورودها.

فقد كان حنظلة رضى الله عنه إذا جلس عند رسول الله ﷺ كان معه بقلبه وقالبه وجميع جوارحه، فإذا تكلم الرسول ﷺ، اقتحم كلامه أعماق فؤاده، وخُيِّلَ إليه أن الجنة أمامه عندما يسمع الترغيب فيها، وأن النار أمامه عندما يسمع الترهيب منها، وكأن عرش الرحمن بارزاً يراه رأى العين بنور بصيرته، فتعتريه خشية شديدة من الله عز وجل فيعزم فى نفسه عزماً مؤكداً على أن يظل مغموراً بهذه الموعظة التى أنسته نفسه وأهله، وأبقت له مشاعر الحب فى الله والرغبة فى ثوابه، والطمع فى واسع رحمته، وأخذت عليه رغبته فى شهوات الدنيا وملذاتها، وأوصدت أمامه الطريق إليها.

لكن إذا ما ذهب إلى بيته، تغير حاله بعض الشىء، وحتَّمَ عليه الواجب نحو أهله أن يلاطفهم ويداعبهم ويُسَلِّيهم ويواسيهم بنظراته الحانية وكلامه الطيب، فظن ذلك نفاقاً منه ومخالفة لأمر الله تعالى، وخُلْفاً للوعد الذى قطعه من نفسه على نفسه، وهَيَّجَه الحنين إلى ما كان عليه وهو عند رسول الله ﷺ، فوقع فى صراع بين ما يجده فى نفسه وهو عند رسول الله ﷺ وبين ما يفعله فى بيته، فدفعه هذا الصراع المرير إلى البكاء الحاد.

ويا له من بكاء يحول بينه وبين النار؛ إذ هو بكاء ناشئ عن خشية لله وطمع فى رضاه.

---

(١) راجع سيرته العطرة فى كتاب الفداء فى الإسلام للدكتور : أحمد الشرباصى جـ ٢ ص ٤٩٩ .

يلقاه أبو بكر رضى الله عنه وهو أتقى منه وأورع فيسأله عن سبب بكائه، فيجيبه بجواب يعبر به أصدق تعبير عما يختلج فى نفسه، فيقول بادئ ذى بدء: نافق حنظلة يا أبا بكر.

هكذا قال، وفيما قال تهمة لنفسه، فهو يرى أنها أمارة بالسوء، وليست كذلك، فيصفها بالنفاق وهو بعيد عنه بعد المشرقين، لكن هكذا يكون الورع.

إن الوَرِع لا يرى نفسه ورعاً، وإلا ما كان كذلك.

يقول حنظلة لأبى بكر مبيناً سبب بكائه: «نكون عند رسول الله - ﷺ - يذكرنا بالنار والجنة، كأنا رأى عين» أى كأننا نراها بأعيننا.

وهذا يدل على أن رسول الله - ﷺ - قد أوتى من الحكمة والبلاغة والقدرة على الإقناع، والأخذ بتلابيب القلوب ما لم يؤته أحد من العالمين.

قال حنظلة: «فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عَافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً» أى: شغلت قلوبنا عن المواعظ التى سمعناها من رسول الله - ﷺ -، فهو لا يريد أنه نسى ما قاله الرسول ﷺ - فيما أرى -؛ لأن كلام الرسول يحفر له فى قلوب الأصحاب مكاناً لا يغادره، فقد كان كل منهم يحرص كل الحرص على سماعه وحفظه عن ظهر قلب، فيعمل بما فيه، ويبلغه من خلفه ممن لم يسمعه، فالنسيان إنما هو لشىء من التأثر الذى كان يجده وهو فى مجلسه - ﷺ -.

قال أبو بكر - رضى الله عنه - مواسياً له: «فوالله! إنا لنلقى مثل هذا» أى: أحوالنا فى ذلك مثل حالك، وهذا أمر جِبِلِّىّ، لا طاقة لنا على دفعه.

قال: «فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ»؛ لنسأله عن هذا الأمر الذى يؤرقنا؛ لعلنا نجد عنده شفاءً لما نجده فى صدورنا من الضيق والحرج.

قال حنظلة: «قلت: نافق حنظلة يا رسول الله» فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «وما ذاك؟».

فقد فطن لحاله من خلال النظر إليه، فسأله عن سبب مجيئه «قال: نافق

حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات. نسينا كثيراً».

عافسنا الأزواج: أى شغلنا بأمورهن، وداعبنهن، وشغلنا بأمور الأولاد والضيعة، وهى مقر العمل والسكنى.

يقال: عافس الأمور معافسة، وعفاساً: مارسها وزاولها، واعتفس القوم: اصطرعوا، وانعفس فى الماء: انغمس (١).

فقال رسول الله - ﷺ - «والذى نفسى بيده ! إنْ لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم».

أى: لكنتم كالملائكة فى لزوم التبتل والانقطاع التام للعبادة دون النظر إلى ما يوافق طبائعكم، ويصلح شأنكم، وشأن من تعولون من النساء والأولاد، فمصافحة الملائكة لهم حينئذ تكون ممكنة؛ لأنهم صاروا مثلهم فى الطاعة المطلقة، وهو أمر ضد ما جبلوا عليه، وخلقوا لأجله.

قال عليه الصلاة والسلام: «ولكن ياحنظلة، ساعةً وساعة» ثلاث مرات.

أى ولكن ساعة تخلو فيها لعبادة ربك والتفكر فى خلق السماوات والأرض، وفى الجنة والنار، وساعة أخرى لراحتك ونومك، وساعة لأهلك وذويك.

وهذه هى الوصية الغالية، التى تردنا إلى العدل فى كل شيء ولا سيما فى تقسيم الأوقات على حسب الحقوق والواجبات.

وقوله - ﷺ -: «ولكن ساعة وساعة» جملة طلبية، بمعنى الأمر.

أى: ولكن اجعل ساعة لربك، وساعة لبدنك، وساعة لأهلك، بحسب قدرتك وطاقتك، وكرر الطلب ثلاثاً؛ مبالغة فى النصح والإرشاد، وتوكيداً لما ينبغى فعله، حسماً لتردده، وحيرته، ودفعاً لاتهام نفسه بالنفاق، فإن ما يفعله يفعله غيره من الأخيار، وعلى رأسهم هو ﷺ.

فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يخلو إلى نسائه، ويداعبهن،

---

(١) انظر المعجم الوسيط.

ويضحكهن، وكان يمرح مع أصحابه ولا يقول إلا حقاً، وكان يشارك أهله مَهْنتهم، ويكنس البيت، ويخيط ثوبه ونعله، وغير ذلك، وكان يذهب إلى الأسواق ويشترى متاعه، ويمارس حياته البشرية وفق ما تجرى به العادات دون إخلال بالعبادات، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقد كان النبى – ﷺ - يحذر أصحابه من الغلو فى الدين، ومن التنطع فى الأقوال والأفعال، وحرمان أنفسهم من طيبات الحياة.

فقد جاء فى صحيح البخارى: «أن ثلاثة نفرٍ جاءوا إلى بيوت نسائه - ﷺ - فسألوهن عن عبادته، فأخبروا بها، فكأنهم تقالُّوها.

فقالوا: أين نحن من رسول الله – ﷺ – وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!

فقال أحدهم: أنا أصوم النهار ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أقوم الليل ولا أرقد، وقال الآخر: وأنا لا أتزوج النساء.

فجاءهم رسول الله – ﷺ – حين علم بأقوالهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا !!

أما إنى أخشاكم لله، وأتقاكم له، وأنا أصوم وأفطر وأقوم الليل وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

والترويح عن النفس ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للمرء عنه، ولكن ينبغى أن يكون بالحلال الطيب وبالطرق المثلى التى لا تتنافى مع الأخلاق الفاضلة التى يتحلى بها من كان يؤمن بالله ورسوله.

وقد قال النبى – ﷺ –: «روحوا القلوب ساعةً فساعة»، وفى رواية «ساعة وساعة» (١).

قال المناوى فى شرحه للجامع: (أى أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب.

---

(١) قال السيوطى فى الجامع الصغير رواه أبو بكر المقرى فى فوائده والقضاعى فى مسند الشهاب عنه عن أنس بن مالك.

قال أبو الدرداء: إني لأجِمُّ فؤادي ببعض الباطل - أي اللهو الجائز - لأنشط للحق.

وذكر عند المصطفى - ﷺ - القرآن والشعر فجاء أبو بكر فقال أقراءة وشعر! فقال: نعم ساعة هذا وساعة ذاك.

وقال علي كرم الله وجهه: أجِمُّوا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان. أي تكِلُّ.

وقال بعضهم: إنما ذكر المصطفى ﷺ لأولئك الأكابر الذين استولت هموم الآخرة على قلوبهم فخشي عليها أن تحترق.

وقال الحكيم في شرح هذا الحديث: الذكر المذهل للنفوس إنما يدوم ساعة وساعة ثم ينقطع، ولولا ذلك ما انتفع بالعيش.

والناس في الذكر طبقات، فمنهم من يدوم له ذكره وقت الذكر ثم تعلوه غفلة حتى يقع في التخليط وهو الظالم لنفسه.

ومنهم من يدوم له ذكره في وقت الذكر ثم تعلوه معرفته بسعة رحمة الله وحسن معاملة عباده فتطيب نفسه بذلك فيصل إلى معاينته، وهو المقتصِد.

وأما أهل اليقين وهم السابقون فقد جاوزوا هذه الخطة ولهم درجات .... إلى أخر ما قال) (١).

يشير الشيخ إلى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد منهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ (٢).

والظالم لنفسه هو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد: هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات. وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

---

(١) فيض القدير جـ ٤ ص ٤١.

(٢) فاطر: ٣٢.

والسابق بالخيرات: هو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: هم أمة محمد ﷺ، وَرَّثَهُمُ الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب (١).

* * *

وخلاصة الخلاصة في هذه الوصية أن الإسلام دين يعبر عن الواقع المألوف أصدق تعبير، ويمنح الإنسان ما هو في حاجة إليه من غير إحراج ولا تشدد؛ فهو دين الوسطية، لا إفراط فيه ولا تفريط، يعطى الروح حقها، والجسد حقه من غير شطط ولا إسراف، ويوجب على المسلم أن يكون عدلاً في تقسيم أوقاته بين العبادات والعادات.

فيجعل وقتاً يخلو فيه بنفسه ليذكر الله – عز وجل – بما وسعه من الذكر.

ويجعل وقتاً لأهله يقضى لهم فيه حاجتهم، ويصلح من شأنهم.

ويجعل وقتاً لراحته.

وجميع ما يفعل في هذه الأوقات يجعله لله، فتكون أنفاسه كلها في ميزانه يوم القيامة.

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ (٢).

إن الساعة التي ينام فيها المسلم ليأخذ قسطه من الراحة ثم ينشط للعبادة، أو لقضاء وطره، أو لإصلاح شئون أهله – له فيها أجر، وكذلك الساعة التي يداعب فيها أهله ويعفهم عن الحرام – له فيها أجر، والساعة التي يلاعب فيها أولاده ويدخل السرور عليهم – له فيها أجر.

وعندئذ تكون حياته كلها لله، وآثاره التي يتركها بعد موته لله، فيكون عبداً ربانياً ينال حظه من الدنيا وحظه من الآخرة، تظله رحمة الله وتحيطه عنايته.

* * *

---

(١) انظر تفسير ابن كثير في هذه الآية. (٢) الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣.

(١٨٩) لقنوا موتاكم لا إله إلا الله

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله» (١) .

* * *

تلقين الميت معناه : تذكيره عند الاحتضار بكلمة التوحيد، بأن يتلفظ بها من حضره؛ لعله يقولها فتكون آخر كلامه من الدنيا، فيثبت الله قلبه عليها حتى تصعد روحه إلى بارئها، وتكون أنيسه فى قبره حتى يبعث، فإذا بعث كانت له نوراً وحجة عند ربه عز وجل.

ويستحب أن ينطق بالشهادتين بجواره، فيقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أو أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

ولكن لا يأمره أن يقولها ؛ فربما يكون المحتضر فى كرب وضيق شديدين فيقول له: « لا » وللموت سكرات وكربات وقانا الله شرها.

عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله؛ فمن قالها عند موته وجبت له الجنة».

قالوا: يا رسول الله، فمن قالها فى صحته؟.

قال: «تلك أوجب وأوجب. ثم قال: والذى نفسى بيده لو جىء بالسماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن فى كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى لرجحت بهن» (٢) .

ومن هذين الحديثين وغيرهما مما هو فى معناهما يستفاد أن تلقين المحتضر الشهادتين سنة ، وأفتى جماعة من الفقهاء بوجوبه لظاهر الأمر فى هذه الأحاديث.

---

(١) أخرجه مسلم. كتاب الجنائز باب تلقين الموتى : لا إله إلا الله حديث : ٩١٦.

(٢) أخرجه الطبرانى بسند رجاله ثقات.

هذا وقد اختلف الفقهاء فى تكرير التلقين.

فقال جماعة: يلقنه مرة واحدة، ويعاود التلقين إذا تكلم المحتضر حرصاً على أن يجعل آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقال جماعة: يرددها ثلاثاً.

وينبغى أن يلقنه الرجل الصالح أو الصديق المحب أو الأب الرحيم، ولا يلقنه عدوه أو المتهم بأنه يحسده أو يتعجل موته؛ فإن المرء لا يتجاوب إلا مع من يحب.

وهذا التلقين خاص بالمسلم كما هو ظاهر.

أما الكافر المحتضر فيعرض عليه الإسلام لحديث أنس أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبى ﷺ وضوءه، ويناوله نعليه، فمرض فأتاه النبى ﷺ: فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه.

فقال له النبى ﷺ: «يا فلان: قل لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبى ﷺ فنظر إلى أبيه.

فقال أبوه: أطع أبا القاسم.

فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

فخرج النبى ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذى أخرجه بى من النار» (١).

ومن هذا نعلم أن المسلم يلقن الشهادتين ولا يقال له: قل، والكافر يقال له قل: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

* * *

إن الرسول ﷺ فى هذه الوصية يأمر المسلمين أن يكون بعضهم عوناً لبعض من وساوس الشيطان وهواجسه وخطراته، ولا سيما عند الموت؛ فإن الشياطين تتكالب على المؤمن عند الاحتضار، وتتكاتف على صده عن الإيمان بالله وحسن

---

(١) أخرجه أحمد بسند جيد.

الظن به، وتدخل الشك على قلبه فى البعث والنشور، وما يكون بعده من حساب وثواب وعقاب، فيكون التلقين حينئذ عوناً لهذا المحتضر، وطرداً للشياطين من ساحة قلبه، وتذكيراً له بوحدانية ربه. وهذه أكبر خدمة يقدمونها إليه فى هذا الوقت العصيب.

إن الله عز وجل قد أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يستعيذ به من حضور الشياطين عند الموت ، والأمر فى الحقيقة لأمته ؛ لأن الشياطين لا يحضرونه.

فقال تعالى: ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ (١) .

وليعلم كل مؤمن أن الخير يبقى وإن طال الزمان به، وأنه من عمل صالحاً فى أخيه المؤمن سخر الله له من يجزيه به؛ فإن لَقَّن أخاه عند موته كلمة التوحيد، سخر الله له من يلقنها له عند موته، وأعانه على النطق بها، وأعاذه من همزات الشياطين وحضورهم إلى ساحته.

واعلم - أيها الأخ المسلم - أن من داوم على ذكر الله تعالى بهذه الكلمة الطيبة، ثبت الله قلبه بها فى الدنيا والآخرة.

فهى القول الثابت فى الوجود كله، فما من شىء إلا وهو ينطق بها بلسان الحال والمقال طوعاً وكرهاً.

يقول الله عز وجل: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٢) .

ثم يقول جل شأنه: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ (٣) .

فأكثر - يا أخى - من ذكر الله حتى يثبت قلبك على التوحيد الخالص فتلقى الله موحداً غير مشرك به فتفوز فوزاً عظيماً.

---

(١) المؤمنون : ٩٧. (٢) سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٥. (٣) سورة إبراهيم: ٢٧.

يقول الله عز وجل: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ (١) .

* * *

كما يلقن المؤمن الشهادتين عند الاحتضار يلقن الشهادتين عقب دفنه بدليل ما جاء في هذه الوصية؛ فإن قوله ﷺ : «لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله» يشمل بعمومه الحالتين معاً، وهذا هو الأصح من أقوال الفقهاء.

فيستحب أن يقف الملقن عند رأسه ويقول له : يا فلان ابن فلان، أو يقول: يا عبد الله ابن أمة الله، اذكر العهد الذى خرجت عليه من الدنيا: «شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ، وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً» .

ويرجح ما ذكرناه أيضاً من أن التلقين مستحب في حالة الاحتضار وعقب الدفن ما أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضى الله عنه أنه قال وهو في النزع الأخير: إذا أنا مت فاصنعوا بى كما أمر النبى ﷺ ، فقال: «إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة فإنه يستوى قاعداً، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله، ولكن لا تشعرون فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً؛ فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا ما نقعد عند من لقن حجته، فيكون الله حجيجه من دونهما» . قال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه؟ قال: «فينسبه إلى حواء: يا فلان ابن حواء» .

* * *

---

(١) الرعد : ٢٨ - ٢٩.

وينبغي على من زار مريضاً يعاني من شدة مرضه أو كان يعاني من سكرات الموت، أن لا يتكلم إلا بخير الكلام وأطيبه، وليكن حضووه عنده خيراً وبركة عليه وعلى أهل بيته؛ فيدعو له بالشفاء والعافية والعفو وحسن الخاتمة، ويدعو لأهله بما فيه صلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة، ويواسيه ويواسى أهله بما أوتى من علم وحكمة، وعظة وعبرة، ويبشره بخير، ويوصيه بحسن الظن بالله، وذلك قبل أن يلقنه الشهادتين؛ لتتهيأ نفسه لهذا التلقين ويحضر قلبه ، فيردد ما يسمعه منه بإخلاص وحبّ واستبشار.

واعلم أن دعاء الأخ لأخيه فى هذا الوقت شفاعة له؛ لأن الملائكة تؤمن على دعائه، فيكون دعاؤه مجاباً إن شاء الله ببركة تأمينهم عليه.

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيراً؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»(١).

نسأل الله العفو والعافية وحسن الختام.

* * *

---

(١) الحديث بطوله رواه مسلم فى صحيحه عن أم سلمة، وقد تقدم شرحه فى الوصية رقم ٨٥ فى الجزء الثانى.

(١٩٠) من غَشَّنا فليس منا

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طعامٍ فأدخل يده فيها، فنالت أصابعُه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟!».

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟.من غَشَّ فليس منى».

وفى رواية له: أن رسول الله – ﷺ – قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشَّنا فليس منا» (١) .

* * *

كان الرسول ﷺ من شدة تواضعة يذهب إلى الأسواق بنفسه؛ ليشترى ما هو فى حاجة إليه، وليتعرف على حال التجار فيها، فيبارك من تحلى بالصدق والأمانة فى المعاملات، ويعظ من يراه مخالفاً لما عليه سلوك المؤمنين المخلصين، ويعلمهم ما يحل لهم وما يحرم عليهم من الأخذ والعطاء، والبيع والشراء.

فمر يوماً على رجل أمامه صبرة – أى كومة من طعام – يبيع منها، فأدخل يده فى قلبها، فنالت أصابعه بللاً، وكأنه كان يعرف بنور بصيرته أن فى الصبرة طعاماً قد أصابه بلل ينقص من قيمته، ولعله لمح ذلك الغش فى وجه الرجل، أو من خلال كلامه مع الناس؛ فمن حاول إخفاء شىء ظهر على صفحات وجهه أو فلتات لسانه.

ولو لم يعرف ذلك ما أدخل يده فى أعماق الطعام.

قال رسول الله ﷺ وقد بدا عليه شىء من الغضب: «ما هذا يا صاحب الطعام؟!».

إنه ينكر عليه سوء صنيعه بإخفاء الطعام المبلول تحت الطعام الجيد.

---

(١) الروايتان لمسلم فى كتاب الإيمان، باب قول النبى – ﷺ – من غشنا فليس منا. ٤٣/١٠١، ١٠٢.

قال الرجـل معتـذراً وهو فى منتهى الخجل – والوجل –: «أصابته السماء يا رسول الله».

يعنى أصابه المطر، فالعرب يسمون المطر سماءً، والسحاب سماءً أيضاً، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء فى لغتهم.

فقال الرسول ﷺ: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟».

وهو طلب فيه رفق وحلم؛ إذ لم يقل له: فهلا جعلته فوق الطعام؛ فإن «ألا» للطلب برفق ولين، بخلاف «هلا» فإنها للطلب بشدة وعنف غالباً.

والرسول ﷺ حليم كريم رحيم بطبعه، يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة المقنعة.

فقد قال لهذا الرجل وأمثاله: «من غش فليس منى» أى من صدر الغش منه فليس على نهجى وسنتى، وليس هو من أحبابى، ولا تناله شفاعتى، ولا يحظىٰ بالانتساب إلىّ يوم القيامة، وإن كان لم يخرج بذلك عن الإسلام.

وفى رواية: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا». والمعنى واحد، ولكنَّ اقتران الغشاش بمن يحمل السلاح على المؤمنين يدل على أنه عدو لهم، يحاربهم فى معايشهم، ويحمل عليهم سلاح البغى فيقتلهم به، ويأكل أموالهم بالباطل، وبهذا السلوك لم يكن منهم على الحقيقة؛ إذ لو كان منهم لرحمهم من ظلمه، وصدقهم فى أقواله وأفعاله، وكان أميناً فى بيعه وشرائه.

فالغشاش إذاً عدو نفسه وعدو أمته، قد سل سيف البغى عليهم، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن صارع الحق صرع، وعلى الباغى تدور الدوائر.

إن الغشاش – ولا سيما فى الأطعمة والأشربة والأدوية – قد يقتل نفساً بريئة بسبب غشه، أو يكون سبباً فى إصابته بمرض شديد لا يبرأ منه.

وكثيراً ما نسمع ونقرأ عن حالات التسمم التى تصيب الأطفال فى المدارس بسبب وجبات غذائية قد فات وقت صلاحيتها للتناول.

وكثيراً ما نسمع ونقرأ عن أدوية مغشوشة قد أدت إلى وفاة عشرات المرضى في البيوت والمستشفيات الخاصة والعامة.

فأين يذهب الغشاش من عذاب الله في الدنيا والآخرة؛ وكيف نسمح له أن يعيش بيننا وهو عدونا!

ومتى يستجيب هؤلاء القتلة المردة لوازع العقل وداعي السماء!

إنه في غفلة عن مصيره المنتظر وقدره المحتوم.

يقول الله عز وجل: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (١).

ويقول جل شأنه: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ (٢).

ويقول عز من قائل: ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شرٌ مكاناً وأضعف جنداً﴾ (٣).

ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (٤).

ويقول - تبارك وتعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مُقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ (٥).

* * *

والإسلام يطلب من معتنقيه قلباً يقظاً، وضميراً حياً، تحفظ به حقوق الله وحقوق الناس، وتصان به الأعمال من التفريط والإهمال والغش والخداع.

ضميراً حياً مع فهم كاملٍ لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) الفجر آية: ١٤. (٢) لقمان: ٢٤. (٣) مريم آية: ٧٥.
(٤) النساء آية: ٢٩ - ٣٠. (٥) إبراهيم آية: ٤٢ - ٤٣.

وهذا الضمير يولد مع المرء ويعيش معه فى أعماقه، فإما أن يظل حياً يقظاً كما هو، وإما أن يموت، أو تعتريه من العوامل البيئية ما يضعفه ويمرضه.

والأمانة التى تدعو إلى رعاية الحقوق، وتعصم عن الدنايا، وتصون المرء عن الزلل والوقوع فى الخطايا – هى التى استقرت فى وجدانه، ورسخت في أعماقه، وهيمنت على الداني والقاصى من مشاعره، حتى صار هواه تبعاً لما جاء به الصادق المصدوق ﷺ.

روى مسلم فى صحيحه عن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأمانة نزلت فى جذور قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة».

أى أن الأمانة صفة فطرية فى الإنسان، تغلغلت فى أعماق نفسه، ولكنه لم يعرف كيف يؤديها على وجهها الصحيح، فلما نزل القرآن بين لهم الرسول ﷺ معانيه ومقاصده، وتعلموا من القرآن والسنة كيف تؤدى الأمانات، وكيف تصان.

لقد تعلموا من الكتاب والسنة أن الأمانة من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. «فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» (١).

وفى هذه الوصية يلقن الرسولُ ﷺ الغشاشَ درساً يتعلم منه حقيقة الأمانة فى أسمى صورها، وأرقى معانيها، وحقيقة الصدق فى الأقوال والأفعال.

والصدق والأمانة صفتان جامعتان لخصال الخير كلها، كل منهما تدل على الأخرى، تنبع منها وفيها تصب، فالصدق أمانة والأمانة صدق.

والمؤمن صادق أمين، لا يميل بطبعه إلى ما ينحرف به عن هاتين الصفتين أبداً.

ولو مال فإنما يميل بغير قصد، وسرعان ما يعرف خطأه فيبادر إلى التوبة النصوح، ورد المظالم إلى أهلها. إن كانت هناك مظالم ترد.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه.

هم الذين قال الله فيهم : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (١) .

جعلنا الله منهم . آمين..

* * *

(١) آل عمران آية : ١٣٥ - ١٣٦ .

(١٩١) حكم اللُّقَطَة

عن زيد بنِ خالدِ الجُهَنِىِّ رضى الله عنه أنه قال : جاء رَجُلٌ إلى النبى ﷺ فسأله عن اللقطة ؟

فقال : «اعْرِفْ عِفَاصَهَا وَوِكَاءَهَا ، ثمَّ عَرِّفْهَا سنة ، فإن جاء صاحبها ، وإلا فَشَأْنَكَ بها» .

قال : فَضَالَّةُ الغنم ؟

قال : «لك أو لأخيك أو للذِّئبِ» .

قال : فضالة الإبل ؟

قال : «مالك ولها ؟ معها سقاؤها وحذاؤها ، تَرِدُ الماءَ وتأكُلُ الشجر حَتَّى يلقاها ربُّهَا» [١] .

* * *

كان أصحاب النبى ﷺ يتقون الشبهات كلها : صغيرها وكبيرها ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؛ وذلك استبراءً لأعراضهم وصيانة لدينهم وحرماتهم عند الله .

فإذا أشكل عليهم أمر ترددوا فيه بين الحل والحرمة استفتوا فيه رسول الله ﷺ فيفتيهم كما علمه ربه عز وجل .

ومن ذلك سؤال الرجل عن حكم اللقطة .

واللقطة : هى كل مال محترم معرض للضياع لا يعرف مالكه، سواء كان هذا المال نقوداً أم ثياباً أم طعاماً كثيراً يسأل عنه صاحبه إذا فقده، وسواء وجد فى الطريق أم فى المسجد أم فى دار غير مسكونة أم فى سيارة أم فى قطار .

ولا يقال للحيوان الضائع لقطة فى الغالب، وإنما يقال له ضالة .

---

(١) رواه مسلم، فى كتاب اللقطة، حديث رقم : ١٧٢٢ .

ولا يقال للطفل لقطة، وإنما يسمى لقيط.

وهذا الرجل لم يسأله عن معنى اللقطة ولكنه يسأله عن حكمها، هل يلتقطها إذا وجدها فى مكان ما، وماذا يعمل بها إذا التقطها، هل يحرزها لنفسه، أم يتصدق بها على ذمة صاحبها، أم يجعلها عنده وديعة حتى يجد صاحبها، أم ينتفع بها فإذا ما جاء ردها إليه؟ إلى آخر ما يدور فى رأس الرجل من تقدير.

فقال له رسول الله ﷺ: «اعْرِفْ عِفَاصَهَا ووكَاءَها، ثم عَرِّفها سنة». أى تَعَرَّف على أوصافها حتى إذا جاء صاحبها ووصفها لك، عرفت صدقه من كذبه، فإن كان صادقاً رددتها إليه، وإن كان كاذباً حجبته عنها.

والعِفَاصُ - بكسر العين - : هو الوعاء الذى تكون فيه اللقطة وغيرها من الأموال من جلد ونحوه.

والوكاء: هو الخيط الذى يُشَدُّ به الوعاء.

قال رسول الله ﷺ: «ثم عرفها سنة» أى اسأل عن صاحبها، وقل: عندى لقطة، من وصف عقاصها ووكاءها، أعطيتها له.

والتعريف بها يكون فى المكان الذى وجدت فيه، أو فى المكان الذى يجتمع الناس فيه كالأسواق ونحوها، وعن طريق أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة وغيرها.

ونفقة التعريف تكون على صاحبها إذا لم يكن فيها إسراف من قبل المعرف، وكذلك نفقة حفظها ورعايتها.

قال عليه الصلاة والسلام: «فإن جاء صاحبها وإلا فشأنَكَ بها» أى إن جاء صاحبها وعَرَّفها أخذها، وإن لم تعرف لها صاحباً بعد السنة فأنت مخير فيها؛ فإن شئت أحرزتها لنفسك وانتفعت بها، وإن شئت تصدقت بها على ذمة صاحبها، وإن شئت أبقيتها عندك سنة أخرى.

والتقاط اللقطة من الأمور التى تعتريها الأحكام الخمسة، وهى: الوجوب، والاستحباب، والحرمة، والكراهة، والإباحة.

فيجب التقاطها إن خاف عليها الضياع، ولا سيما إذا كانت مالاً محترماً ما لم يخش على نفسه من الطمع فيها، وإلا كره له التقاطها.

ويحرم التقاطها إن تأكد من طمعه فيها.

ويستحب التقاطها إن كان يبتغى ردها إلى صاحبها، فهو من باب التعاون الذى أمر الله به.

ويباح ترك اللقطة إن غلب على الظن أن يلقاها صاحبها بنفسه إذا سأل عنها أو ذكر مكانها أو غلب على ظنه أن يأخذها غيره فيردها على صاحبها.

ومن المؤسف أن بعض القوانين لم تترك ذوى المروءات يجرؤون على أخذ اللقطة من مكانها وتعريفها أو تسليمها إلى أحد أقسام الشرطة؛ لما يتعرض له الملتقط من المتاعب والاتهامات وغير ذلك من المصائب وسوء العواقب، الأمر الذى يجعل الناس ينصرفون عن اللقطة واللقيط ولو أدى ذلك إلى ضياع المال وموت الأطفال، والأمر كله لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واللقطة التى ينبغى على الملتقط ردها هى التى يسأل عنها صاحبها عادة، ويحزن على فواتها غالباً.

وإذا كان الشىء هيناً يسيراً، جاز الانتفاع به دون أن يسأل عن صاحبه.

وتقدير المال الذى يسأل عنه صاحبه ولا يترك البحث عنه حتى ييأس من وجوده – موكول للعرف والحالة الاقتصادية، فيختلف البلد الغنى عن البلد الفقير، فدينار يعتبر كثيراً فى بلد ويُعَدُّ قليلاً فى بلد آخر.

* * *

وسأل الرجل رسول الله ﷺ عن ضَالَّة الغنم، فأفتاه بحل أخذها والانتفاع بها بأسلوب مقنع فقال: «لك – وفى رواية أخرى لمسلم: فإنها لك – أو لأخيك أو للذئب» أى إن ظفرت بصاحبها فهى له، وإن تركتها تركتها للذئب، فالأولى أن تأكلها إن لم تجد لها صاحباً.

لكن لو جاء صاحبها بعد أن أكلها فهل عليه غرم أم لا؟

أقول : نعم عليه غرم؛ لأن صاحبها أولى بها حينئذ .

قال الرجل : فضالة الإبل . أى ماذا أفعل فيها .

قال : « ما لَكَ ولها؟ معها سقاؤها وحذاؤها . ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يلقاها ربها » أى اتركها وشأنها؛ فإنها ترد الماء بنفسها وتعرف الطريق إليها بالإلهام، وتشرب فى اليوم مرة واحدة فتملأ كرشها وتصبر على الظمأ .

ومعها حذاؤها : أى أخفافها تتقوى بها على السير مسافات طويلة، فالخف لها بمنزلة الحذاء للرجل والمرأة ، يقيها من صلابة الصخور التى تعترض طريقها فى الصحارى الواسعة .

فمتى وجدها صاحبها أخذها ، وصاحبها أعرف بمكانها، فإذا التقطها شخص وساقها إلى بيته فقد فوتها على صاحبها بتحويلها عن مكانها الذى يتوقع صاحبها أنها فيه .

ولذلك يكره لصاحب ضالة الإبل أن يسأل عنها فى المسجد؛ لأنه لم يجعل لهذا؛ لأن الذين يصلون فيه يحرم عليهم التقاطها فكان عليه أن يسأل عنها فى الأماكن التى ترعى فيها . فإن سأل عنها فى المسجد قيل له : لا ردها الله عليك – كما سبق بيانه فى حديث نَشْد الضالة – وهذا الدعاء عليه زجر له ولا يقصد معناه؛ لأن المسلم لا يدعو على أخيه المسلم، بل يدعو له ويعينه فى مصيبته .

فهو كقولك لمن تُعْجَبُ به أو بصنيعه : قاتلك الله، أو : ثكلتك أمك أو : ويلك، ونحو ذلك من كلمات الإعجاب والزجر .

* * *

وسألنى رجل عن لقطة الحرم فقلت له : إن وجدت مالاً فى الحرم أو فى مكة وخشيت عليه من الضياع فخذه وسل عن صاحبه، أو سلمه للجهات المسئولة .

فإن لم تخف عليه من الضياع فضعه مكانه حتى إذا جاء صاحبه أخذه .

واستفت فى ذلك قلبك .

فإن قلت: إن النبى ﷺ قد نهى عن لقطة الحج كما رواه رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الرحمن بن عثمان التيمى.

قلت: نعم، نهى عن ذلك لمن التقطها للتملك.

أما من التقطها للحفظ فلا مانع منه، فقد أوضح النبى ﷺ ذلك فى حديث آخر فقال: «ولا يحل لقطتها (يعنى مكة) إلا لمنشد» أى لمن أراد أن يسأل عن صاحبها.

هذا ما ذكره النووى فى شرح مسلم.

* * *

تكلمت فى هذه الوصية عن أحكام اللقطة بإيجاز، وأرى - تتمة للفائدة - أن أذكر حكم اللقيط، وهو الطفل الذى يضل الطريق فيجده من لا يعرف داره ولا نسبه، فأقول: يجب على كل مسلم وجد طفلاً ضالاً أن يلتقطه صيانة له من الضياع والهلكة، ويسلمه لأقرب مركز من مراكز الشرطة، أو يسأل عنه أهل المكان الذى التقطه منه، ويبلغ عنه أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ويحسن إليه ويعطف عليه حتى يجد له أهلاً.

فإن لم يجد له أهلاً وأراد أن يربيه فى بيته فلا مانع من ذلك مع مواصلة البحث عن أهله دون يأس، ولكن لا يتبناه، أى لا ينسبه إليه؛ فإن التبنى حرام بنص قوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (١).

فإن كفله الملتقط وجب عليه أن يخبره إذا كبر بأسلوب حكيم أنه قد رباه وأحبه كحبه لولده؛ ليفهم بطريق مباشر أنه ليس ولداً له على الحقيقة، فيقول له مثلاً: إن أباك كان رجلاً من أهل الخير فيما أحسب والله حسيبه، وأنه خرج من

---

(١) الأحزاب: ٤ - ٥.

البلد ولم يعرف له مكان، فإن كان قد مات فنسأل الله أن يغفر له ويرحمه ويفسح له فى جناته، وإن كان على قيد الحياة فربما تراه يوماً ما.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنـان كل الظن أن لا تلاقيـا

ويقول له فى أمه مثل ما قال فى أبيه وأكثر، ويقول له: أنت قد كبرت وصرت رجلاً والحمد لله فادع لأبويك بخير، وقل كما أمر الله عز وجل: ﴿رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً﴾ [1].

ولا تكذب عليهما ولا تبالغ فى إطرائهما فالمبالغة نوع من الكذب، ولكن قل قولاً من السهل أن يفهمه وأن يصدقه ويرضى به؛ وإن لنا فى المعاريض لمندوحة[2]. كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وبعد .. فهذا ما وسعنى إملاؤه فى شرح هذه الوصية، وهى من الوصايا التى نتعلم منها كيف يكون المسلم أميناً عند الله وعند نفسه وعند الناس.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

*   *   *

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) والمعاريض: أقوال تحتمل الصدق والكذب يضطر إليها المرء أحياناً؛ للتخلص من مأزق والخروج من ورطة. والمندوحة هى الرخصة والفرج.

(١٩٢) من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله

عن جُنْدَبِ بْنِ عبـد الله رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صلاة الصبح فهو في ذمَّة الله، فلا يَطْلُبَنَّكُمُ الله من ذمته بشيء؛ فإنه من يَطْلُبْهُ من ذمته بشيءٍ، يُدرِكْهُ ثم يَكُبُّهُ على وجهه فى نار جهنم»[١].

* * *

الصلوات الخمسة تجديد للعهد الذى بين العبد وربه، فإذا صلى العبد صلاة اطمأن قلبه بها وشعر بالوفاء قد ملأ أعماق قلبه، وأحس بأنه أدى الأمانة وتحلل من الحق الذى قطعه على نفسه بالإسلام وطالبه الله به فى هذا الوقت الذى حدده له، ثم ينخرط فى عمله ويُشغل بأمور دنياه فترة قصيرة من الزمن، فإذا بالمنادى يناديه حيَّ على الصلاة حى على الفلاح، فيعود إلى ساحة الصلاة؛ ليتخفف من أوزاره ويتخلَّص من شواغله الدنيوية بعض الشيء، ويدخل فى حرم الله تعالى مرة أخرى فيؤدى ما وجب عليه فى خشوع وخضوع وتمسكن وتواضع، وهكذا يفعل فى يومه وليلته، فيظل على صلة وثيقة بينه وبين ربه عز وجل، ويتعرض لرحمته ومغفرته كلما شعر بوطأة الذنوب وثقلها على قلبه، فيكون بذلك عبداً ربانياً يتقلب فى رحاب العبودية حتى يلقاه.

فأى حياة هذه الحياة؟ إنها لحياة طيبة؛ طيبتها حيوية هذه المشاعر الجَيَّاشة التى تغمر هذا المُصَلِّى قبل التوجه إلى الصلاة وعند الدخول فيها وعند الخروج منها؛ لأنه يكون على انتظارٍ لِلَّتى بعدها.

إنها السعادة فى أسمى مظاهرها وأرقى معانيها. إنها الروح والريحان حقاً إنها النور الذى يمشى به المؤمن فى الناس. إنها الجلال والجمال والكمال.

من واظب عليها فى أوقاتها وَأَدَّاهَا بخشوع وخضوع، فقد حصن نفسه من هواجس النفس ووساوس الشيطان، وعصمها من التقصير فى حقوق الله عز وجل

---

(١) رواه مسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة العشاء والصبح ٤٦ /٦٥٧.

فلم يفرط فى فرض من فرائضه الأخرى، ولم يقترف من الفواحش والمنكرات شيئاً ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ (١) .

وإذا اقترف من الصغائر شيئاً كفَّرَتْهُ الصلاة، فهو مغفور له أبداً ما اجْتنب الكبائر.

يقول الله تعالى : ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ (٢) .

والمراد بالحسنات فى الآية : الصلوات الخمس على وجه الخصوص، وسائر الأعمال الصالحة على وجه العموم.

والمراد بالسيئات : الصغائر؛ بدليل قوله ﷺ : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر» (٣) .

* * *

وهذه الوصية تدعو كل مسلم إلى المحافظة التامة على الصلوات الخمس فى أوقاتها أولاً، والوفاء بعهد الله فى سائر الطاعات، وتحرى الحق فى كل موطن، والحذر من الخيانة والغدر ما أمكن، والتطلع إلى ما عند الله من ثواب، والتوقى من غضبه وعقابه ، والاعتصام به من هواجس النفس ووساوس الشيطان ونزعات الهوى، وذلك بأسلوب موجز بليغ كما هو شأنه فى جميع أوامره ونواهيه؛ فقد أوتى جوامع الكلم؛ خصوصية له خصه الله بها دون سائر الأنبياء والمرسلين.

قال عليه الصلاة والسلام : «من صلّى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله» أى فى العهد الذى قطعه على نفسه وهو فى صلاته؛ فإنه حين استجاب للداعى الذى دعاه إليها وأداها فإنه يكون قد عاهد خالقه ومولاه على السمع والطاعة فى سائر يومه، فإذا جاءت صلاة الظهر، تذكر العهد وجدده، وهكذا فى كل صلاة حتى يصبح فى اليوم التالى فيفعل مثل ما يفعل.

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .　(٢) هود : ١١٤ .　(٣) رواه مسلم.

وقوله : «فلا يَطْلُبَنَّكُمُ الله من ذمته بشيء» نهى عن التفريط فى عهد الله على الطاعة والامتثال، أى فلا تجعلوا الله يطلب منكم حقه فيما قصرتم فيه فتهلكوا؛ فإن لله حقوقاً لا ينبغى التفريط فيها أبداً ما دام العبد قادراً على الوفاء.

قال معللاً هذا النهى: «فإنه من يطلبه من ذمته بشىء يدركه ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم».

أى إنه من يثبت الله عليه خيانة فى شيء من الأمانة التى تحملها يدركه. بمعنى أنه يقهره فى الدنيا بنوع من العذاب، ثم يكبه يوم القيامة على وجهه فى نار جهنم ولا يبالى.

يقال: فلان أدرك فلاناً. أى تبعه حتى نال منه وغلبه.

أو بعبارة أخرى: من طلبه الله للعقوبة بسبب شيء قد قَصَّرَ فيه من عهده الذى قطعه عليه وقطعه هو على نفسه، فإنه لابد أن يدرك ما أراده من عقوبته فى الدنيا وهو العذاب الأصغر، الذى لابد منه؛ لأن العاصى يشعر بالعذاب من خلال المعصية نفسها. والطائع يشعر بالثواب من خلال الطاعة نفسها.

وقد بيّن الله لنا ذلك فى كتابه العزيز فقال فى شأن أصحاب الجنة الذين اتفقوا فيما بينهم على أن يجنوا ثمار جنتهم من غير أن يعطوا منها مسكيناً واحداً بعد أن حكى قصتهم: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾[1].

وقال فى ثواب من آمن به وعمل صالحاً: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طيبة ولنجزيَنَّهُمْ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2].

فالحياة الطيبة: هى الحياة التى يشعر فيها المؤمن بحلاوة الذكر ونشوة الطاعة، وإن عاش فقيراً معدماً.

ومرارة العذاب يعانيها من نسى ربه ونقض عهده أو فَرَّط فى شعبة من شعبه. وعهد الله: دينه.

---

(١) القلم : ٣٣.   (٢) النحل : ٩٧.

يقول الله عز وجل: ﴿فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[1].

* * *

ويؤخذ من هذه الوصية الغالية ثلاث فوائد:

الأولى: ضرورة المواظبة على صلاة الصبح فى وقتها؛ لأنها هى الوقت الذى يعاهد فيه ربه عز وجل على طاعته فى يومه إلى غده، ثم يجدد العهد معه فى اليوم الذى بعده وهكذا.

ولأن صلاة الصبح صلاة تشهدها الملائكة: ملائكة الليل وملائكة النهار، فهؤلاء يلتقون فى هذه الصلاة، فيصعد ملائكة الليل بعد أن يتولى مهامهم ملائكة النهار، فإذا صعدوا سألهم ربهم عن حال عبده الذى كانوا معه وهو أعلم به وبهم؛ ليشهدهم على أنه قد غفر له. وفى إشهادهم تشريف له وتعظيم لشأنه.

وكذلك يجتمعون فى صلاة العصر، فتكون صلاة العصر بداية لتجديدٍ آخر لهذا العهد، فإذا صعد ملائكة النهار أشهدهم ربهم على أنه قد غفر له. فيكون قد شهد له بالليل والنهار عشرون مَلَكاً يتعاقبون على حفظه بأمر الله تبارك وتعالى.

قال رسول الله ﷺ: «تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر وصلاة العصر، فيجتمعون فى صلاة الفجر، فتصعد ملائكة الليل وتثبت ملائكة النهار، ويجتمعون فى صلاة العصر، فتصعد ملائكة النهار، وتبيت ملائكة الليل، فيسألهم ربهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون؛ فاغفر لهم يوم الدين»[2].

---

(١) طه: ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) رواه ابن خزيمة، والبخارى ومسلم بنحوه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ودعاء الملائكة مجاب، وهم شهداء على عباده.

ولهذا سميت صلاة الفجر وصلاة العصر بالصلاة الوسطى أى الفضلى؛ لأنهما صلاتان تشهدهما الملائكة كما قلنا، والأجر فيهما مضاعف.

فقد روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلّى البردين دخل الجنة».

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى بكر بن عمارة بن رُؤَيْبَةَ عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعنى الفجر والعصر. فقال له رجل من أهل البصرة: آنْتَ سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال الرجل: وأنا أشهد أنى سمعته من رسول الله ﷺ. سمعته أذناى ووعاه قلبى.

الفائدة الثانية التى تؤخذ من هذه الوصية: أن فى صلاة الصبح قهر للشيطان وطرد للكسل، وتطييب للنفس، وتنشيط للبدن.

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ، فذكر الله تعالى، انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها؛ فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

وفى رواية ابن ماجه، قال: «... فيصبح طيب النفس، قد أصاب خيراً، وإن لم يفعل أصبح كسلا، خبيث النفس لم يصب خيراً».

الفائدة الثالثة: أن من صلى الصبح فهو فى أمان الله عز وجل وحفظه، ليس للشيطان عليه سبيل، كما يفيده قوله ﷺ: «فهو فى ذمة الله» لأن الذمة تعنى العهد والأمان معاً.

ومن واظب على صلاة الصبح فى جماعة يعرف ذلك من نفسه؛ فهو من

أكثر الناس ذكراً، وأطيبهم نفساً، وأعظمهم نشاطاً، وأسرعهم إلى فعل الخيرات ولزوم الطاعات، وترى على وجهه سِيما الصالحين وسماحة المتقين.

وإنك لتبصر فى وجوه هؤلاء المصلين المواظبين على الصلاة فى أوقاتها مع الجماعة - نوراً لا تبصره فيمن يؤخر الصلاة عن وقتها أو ينام عن صلاة الصبح.

نسأل الله الهداية والتوفيق.

* * *

(١٩٣) أحسنوا أسماءكم

عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أن رسـول الله - ﷺ - قـال: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ» (١) .

* * *

الاسم دليل على صاحبه؛ فهو يسمو به ويُحَدِّدُه فيُعرف به إذا ما ذكر.

والاسم الحسن يحمل لصاحبه ولمن يسمع ذكره فَألاً حسناً، ويبعث فى نفسه نشوة يستعذبها ويُسَرُّ بها.

والاسم القبيح على الضد من ذلك، وله على النفس آثار سيئة، فربما يتعقد الطفل منه حين ينادى به فيتوارى من الناس خجلاً، أو يعتزلهم فيصاب بعقدة الانطواء، وتلازمه هذه العقدة طول حياته.

وربما يكون الاسم القبيح سبباً فى تخلُّفه عن اللحاق بزملائه فى المدرسة. وربما ... وربما ...

لهذا كان اختيار الأسماء من الضرورة بمكان.

وقد قَسَّمَ الفقهاء الأسماء إلى ثلاثة أقسام: قسم يكره التَّسَمِّى به، وقسم يحرم التسمى به، وقسم يستحب التسمى به.

١ - فيكره من الأسماء ما يؤدى نفيه عند السؤال عنه إلى التشاؤم والانقباض، وذلك مثل ما ورد فى صحيح مسلم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً، ولا نجاحاً ولا أفلح؛ فإنك تقول: أثم هو، فلا يكون، فيقول: لا».

أى فإنك إذا قلت: فلان موجود هنا، فقيل لك: لا، تشعر بالتشاؤم، وهو حالة نفسية تجلب الحزن والكآبة فى النفوس المريضة، وغير المريضة أحياناً.

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب، باب فى تغيير الأسماء، حديث رقم: ٤٩٤٨، والدارمى بلفظه فى كتاب الاستئذان، باب فى حسن الأسماء.

فلو سألت أهل البيت: أنجاح موجود أو رباح، أو سرور أو يسار مثلاً، فقالوا لك: لا، وجدت في نفسك شيئاً من الطيرة، وهى ضد التفاؤل؛ وقد أمرنا بالتفاؤل، ونهينا عن الطيرة فى أحاديث كثيرة.

وتكره التسمية بالأسماء القبيحة مثل: حرب، ومرة، وكلب، وكليب، وعاصى، وعاصية، وشيطان، وشهاب، وظالم، وحمار، وأشباهها.

ومن الجهل أن يسمى الرجل ابنه باسم قبيح من أجل أن يعيش، وهذا غالباً ما تفعله النساء فى البوادى والقرى. وتشتد الكراهة بحسب قبح الاسم.

ويكره للرجل والمرأة أن يسمى كل منهما نفسه بما يوهم تزكيته؛ ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن زينب كان اسمها بَرَّة، فقيل: تزكى نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

وفى صحيح مسلم عن زينب بنت أبى سلمة قالت: سميت بَرَّةً، فقال رسول الله ﷺ: سموها زينب.

قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة فسماها زينب.

وفى صحيح مسلم - أيضاً - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت جارية اسمها برة، فحوَّل رسول الله ﷺ اسمها جويرية، وكان يكره أن يقال: «خرج من عند برة».

وفى سنن أبى داود من حديث جابر بن عبد الله قال: أراد النبى ﷺ أن ينهى أن يسمى بيعلى وبركة، وأفلح ويسار ونافع، وبنحو ذلك، ثم رأيته سكت بعد عنها فلم يقل شيئاً، ثم قبض ولم ينه عن ذلك، ثم أراد عمر أن ينهى عن ذلك ثم تركه.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا محمد بن عبيد عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عشت إن شاء الله أنهى أمتى أن يسموا: نافعاً، وأفلح، وبركة».

قال الأعمش: لا أدرى أذكر نافعاً أم لا.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى الزبير عن جابر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عشت إن شاء لأنهين أمتى أن يسموا: رباحاً ونجيحاً، وأفلح ويساراً».

قال ابن القيم: (وفى معنى هذا: مبارك، ومفلح، وخير، وسرور، ونعمة، وما أشبه ذلك؛ فإن المعنى الذى كره له النبى ﷺ التسمية بتلك الأربعة موجود فيها؛ فإنه يقال: أعندك خير؟. أعندك سرور؟ أعندك نعمة؟ فيقول: لا، فتشمئز القلوب من ذلك وتتطير به، وتدخل فى باب المنطق المكروه.

وفى الحديث أنه كره أن يقال: «خرج من عند برة»، مع أن فيه معنى آخر يقتضى النهى، وهو تزكية النفس بأنه مبارك ومفلح، وقد لا يكون كذلك.

وتكره التسمية بأسماء الشياطين: كخنزب، والولهان، والأعور، والأجدع.

قال الشعبى عن مسروق: لقيت عمر بن الخطاب، فقال: من أنت؟ قلت: مسروق بن الأجدع، فقال عمر رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الأجدع: شيطان.

وفى سنن ابن ماجه وزيادات عبد الله فى مسند أبيه من حديث أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال: «إن للوضوء شيطاناً يقال له: الولهان، فاتقوا وسواس الماء».

وشكى إليه عثمان بن أبى العاص من وسواسه فى الصلاة فقال: «ذلك شيطان يقال له: خنزب».

وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن هشام عن أبيه أن رجلاً كان اسمه الحباب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، قال: الحباب: شيطان) [1] أ. هـ.

---

(١) تحفة المودود فى أحكام المولود ص ٩٢ وما بعدها.

وتكره التسمية بأسماء الفراعنة والجبابرة، كفرعون وقارون وهامان والوليد.

قال عبد الرزاق فى الجامع: أخبرنا معمر عن الزهرى قال: أراد رجل أن يسمى ابناً له: الوليد، فنهاه رسول الله ﷺ وقال: «إنه سيكون رجل، يقال له: الوليد يعمل فى أمتى بعمل فرعون فى قومه».

ويكره التسمية بأسماء الملائكة عند بعض الفقهاء كجبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل.

قال أشهب: سئل مالك عن التسمى بجبريل، فكره ذلك ولم يعجبه.

ويرى الشافعية، وكثير من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم جواز التسمية بأسماء الملائكة من غير كراهة. كما أفاده النووى فى المجموع (١).

٢ - ويحرم على العبد أن يتسمى باسم من أسماء الله الحسنى أو يسمى ولده بذلك.

ويحرم أن يتسمى أو يسمى ولده بعبد النبى، أو عبد الرسول، أو عبد الحسين، وغير ذلك من الأسماء التى يضاف فيها لفظ العبودية لغير الله تعالى. وهذا أمر متفق عليه، كما أفاده جمهور الفقهاء.

ويحرم التسمية بملك الملوك، وسلطان السلاطين، وشاهنشاه - يعنى ملك الملوك بالفارسية -؛ فقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك».

وفى رواية: أخنى بدل أخنع.

وفى رواية لمسلم: «أغيظ رجل عند الله يوم القيامة وأخبثه رجل يسمى: ملك الأملاك - لا ملك إلا الله».

ومعنى: أخنع وأخنى: أوضع.

ويقاس على ذلك التسمية بقاضى القضاة، وحاكم الحكام، والحاكم بأمره،

---

(١) انظر هذه المسألة جـ ٨ ص ٣٥٢.

وما فى معنى ذلك؛ فإن قاضى القضاة، وحاكم الحكام، والحاكم بأمره هو الله تعالى وحده.

فمن الورع ترك هذه التسمية؛ فهى إن لم تكن حراماً كانت مكروهة كراهة تحريم؛ لما فيها من إيهام المشاركة لله تعالى فى أخص خصائصه.

٣ - ويستحب من الأسماء عبد الله، وعبد الرحمن. كما جاء فى صحيح مسلم.

ويقاس عليهما: عبد الرحيم، وعبد الملك، وعبد القدوس، وعبد السلام، إلى آخر ما هو منسوب إلى اسم من أسماء الله عز وجل.

وأحب الأسماء أيضاً أسماء الأنبياء، وأفضل أسمائهم: محمد وأحمد، ثم إبراهيم وإسماعيل، ويوسف ويونس، وشعيب وصالح، وموسى وهارون، وزكريا ويحيى.

واعلم أن لكل عصر ما يناسبه من الأسماء، فليس من المحتم أو من المستحب أن نسمى أبناءنا وبناتنا بالأسماء القديمة لشرف أصحابها عند الله وعند الناس - كأبى بكر وعمر، وعثمان وعلى، وكخديجة وفاطمة، وزينب ورقية، وأم كلثوم ومريم، وآسيا وسارة وهاجر.

ولكن من المستحب أن يسمى وليده اسماً معاصراً يسر به ولا يستنكف منه، ولا يكون فيه شبه من أسماء الفرنجة ، ولا من أسماء البدو الغريبة، إذا كان يعيش فى المدن.

فلا يسمى ولده مثلاً: سكراً؛ فإنه لو كبر وذهب إلى المدرسة، يضحك زملاؤه من اسمه هذا ويتندرون به، ولا يكون لائقاً به إذا كبرت سنُّه.

ولا يسميه من الأسماء البشعة، كشكل، وفيشة، وخيشة، وزنقر، وشحَّات ونحوها.

ولا يسمى ابنته مسعدة، ومرزوقة، وكرنبة، وخدوجة، وزنوبة، وسمسمة وبهانة، ونحو ذلك من الأسماء التى نسمعها ولا نستريح لها.

ولقد شاع بين الجهلة من النساء أن المرأة لو سمت ولدها اسماً قبيحاً، فإنه يعيش ولا يصاب بالعين. وهذه أكذوبة لا أساس لها من الصحة.

ولا يسمى المسلم ولده: توتو، وميمى، ورامى، وهانى، وتامر، وغير ذلك من الأسماء التى لا تدل على معنى فى نفسها إلا بتكلف.

ويقبح أن يسمى ابنته: شوشو، وسوسو، وسالى، ودينا، ولولو وغير ذلك من الأسماء التى هى إلى أسماء الفرنجة أقرب.

هذا. والتسمية حق للأب لا للأم عند جمهور العلماء بلا نزاع.

فإن تنازعا فى تسمية الولد كان الحكم له والقول قوله؛ لأنه ينسب إليه.

قال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾(١).

ويوم القيامة ينادى الناس بأسمائهم وأسماء آبائهم كما جاء فى هذه الوصية.

* * *

ولكن لماذا علل النبى ﷺ الأمر بحسن اختيار الأسماء بأننا نخاطب بأسمائنا وأسماء آبائنا يوم القيامة؟

أقول: لأن المؤمنين يوم القيامة يستبشرون بأسمائهم التى ينادون بها ويجدون فيها أُنْساً وسروراً مع إخوانهم فى مواقف القيامة كلها وفى الجنة مع أزواجهم، كما يجدون ذلك فى الدنيا.

وفى هذا التعليل لطيفة أخرى، وهى أن الاسم الحسن يكون علامة على سمو صاحبه فى مستقبل حياته، يشعر بذلك أبواه وسائر أقربائه شعور استبشار وتفاؤل.

فإذا سمى الرجل ولده مثلاً: عبد السلام، تفاءل الناس له بالسلامة والعافية.

---

(١) آية: ٥.

وإذا سماه حسناً أو حسيناً، تفاءلوا به إذا أقبل عليهم أو تحدث إليهم.

وقد كان النبى ﷺ يتفاءل بالأسماء الحسنة ولا يتشاءم بالأسماء القبيحة ولكنه يُغَيِّرُهَا كما سبق بيانه؛ حتى لا يتشاءم الناس منها ويصاب أصحابها بعقدة نفسية من جَرَّائِها.

والله هو الهادى والموفق إلى سواء السبيل.

* * *

(١٩٤) غَطُّوا الإناء وأَوْكُوا السِّقاء

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «غَطُّوا الإِناء، وأَوْكُوا السِّقَاءَ، وأَغْلقُوا البابَ، وأَطْفئُوا السِّراجَ؛ فإن الشيطانَ لا يَحُلُّ سقاءً، ولا يَفتَحُ باباً، ولا يَكْشفُ إناءً، فإن لم يَجِدْ أَحدُكُم إلاَّ أن يَعْرُضَ على إِنَائه عُوداً، ويَذْكُرَ اسم الله فَلْيَفْعَلْ؛ فإن الفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ على أهل البيتِ بيْتَهُم»[١].

* * *

هذه الوصية تُرينا بوضوح أن أخذ الحذر واجب، والاحتياط مطلوب في كل أمر يخشى منه الضرر؛ فأخذ الحذر يقى المرء مما يخافه ويخشاه إن شاء الله تبارك وتعالى، فهو سبب من الأسباب التى ينبغى على المرء أن يأخذ بها وليس عليه بعد ذلك أن ينتظر وقوع المسبب إلا على سبيل الرجاء فى فضل الله والطمع فى رحمته.

فعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب، فمن قصر فى تحصيل الأسباب كان متواكلاً لا متوكلاً ، والتواكل مذموم والتوكل محمود، والفرق بينهما ظاهر.

فالمتوكل هو الذى يعتمد على الله ويثق بفضله مع الأخذ بالأسباب.

والمتواكل يدعى أنه يعتمد على الله ويثق بفضله ولا يأخذ بالأسباب، مع أن الأسباب هى الدليل على صحة الدعوى.

وهذا كقولنا: فلان مريض وفلان متمارض.

ومن لم يأخذ بالأسباب فقد هدم الدين وأتى به من القواعد؛ فقد ربط

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ، فى كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء ... حديث رقم: ٢٠١٢. ورواه البخارى جـ١٠ / ٥٦٢٣ ، ٥٦٢٤ من حديث جابر أيضاً بهذا المعنى. وابن ماجه جـ٢ / ٣٤١٠، وأبو داود جـ٣ / ٣٧٣٢، والترمذى جـ٤ / ١٨١٢ عن أبى الزبير عن جابر بنحوه.

الدين الأسباب بمسبَّبَاتها، فإذا وقع السبب وقع المسبَّب إن أراد الله ذلك؛ وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وهذه الوصية يظن بَادِىَ الرأى أنها وصية بدوية أو ريفية ينتفع بها سكان الصحارى والقرى المُتَخَلِّفَة؛ والحق أنه هو المتخلِّف.

ولو نظر إليها بشىء من التأمل، لوجد أن أهل المدن من المتحضرين ينتفعون بها أكثر بكثير من أولئك الذين يسكنون البوادى والقرى.

فتغطية الإناء تحفظ ما فيه من طعام وشراب وغير ذلك من التلوث بما فى الجو من العوادم والغازات والروائح الكريهة، وتحمى ما فيه من اقتحام الجراثيم الفتاكة والحشرات الضارة؛ والوقاية خير من العلاج.

وتغطية الإناء تصرف حضارى يستدعيه الذوق السليم والفطرة المستقيمة والمصلحة العامة.

فهل تطيب نفسك – بالله عليك – أن تأكل طعاماً من إناء مكشوف مدة طويلة ولا سيما إذا كان قد بات كذلك؟

وربط السقاء، وهو القربة ونحوها، وإحكام غلقه – تصرف حضارى أيضاً؛ فإن الماء يصيبه ما يصيب الطعام، فلابد من حفظه والعناية بتنقيته من كل ما يعتريه من الشوائب، وهو عمل جليل سبق إليه الإسلام فأوصى به على هذا النحو البسيط؛ لنأخذ منه ما ينفعنا فى عصرنا هذا.

فربط السقاء يقابله فى عصرنا إحكام الزجاجات التى يكون فيها الماء، وإحكام غلق الحنفيات والمحابس؛ حتى لا يتسرب الماء منها على الأرض فيضيع هدراً، ويترتب على سيلانه ما نعرفه من الأخطار.

وينبغى أن تعرف أن الإسلام يدعو إلى القصد فى كل شىء ولا سيما فى الماء؛ بوصفه روح الحياة.

قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (١).

---

(١) الأعراف: ٣١.

ومن الإسراف الإهمال في حفظ الطعام حتى يفسد، والإهمال في ترك صنابير المياه مفتوحة فيذهب الماء بدداً، وتضيع جهود الدولة في إخراجه ورفعه إلى المنازل سدىً.

ونحن نعلم مقدار ما تنفقه الدولة على ذلك، ومقدار ما يعانيه الناس من سيلان الماء في الشوارع وانفجار مواسير المياه هنا وهناك بسبب الضغط الشديد عليها من جراء الإسراف في استعماله.

وعن مبالغة النبي ﷺ في الحث على القصد في استعمال الماء أنه مَرَّ يوماً على سعد بن أبي وقاص فقال له: «ما هذا السرف يا سعد؟».

فقال: هل في الماء من سرف؟

قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار» (١).

وقوله ﷺ في هذه الوصية: «وأغلقوا الباب» أمر من الأمور التي يعرفها الناس بداهة ولا يحتاجون فيها إلى إيصاء، ولكن الإنسان من طبعه النسيان، فقد ينسى إغلاق الباب، أو يكسل عن إغلاقه ويقول في نفسه: الدنيا بخير، والبلد أمان، وربنا يستر، ونحو ذلك من الأقوال التي تتعارض مع الحرص والحذر.

وقد قال النبي ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» (٢).

ولا شك أن إغلاق باب الدار أو باب الحجرة يمنع دخول من لا يحب أن يدخل عليه من الأقارب والأجانب، ويمنع أرباب الفسق والفجور من اللصوص وغيرهم أن ينالوا من البيت شيئاً أو يصيبوا أهله بسوء.

وإغلاق الباب يشعر صاحب الدار أو الحجرة بالأمان أكثر وأكثر، فينام في هدوء وراحة بال، وهذا أمر لا يستهان به.

وإما إطفاء السِّراج فهو من الضروريات التي ينبغي أن نحرص عليها عند

---

(١) الحديث رواه أحمد وابن ماجه.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر.

إرادة النوم إذا كان السراج مما يضاء بالغاز ونحوه؛ لما يترتب على وجوده موقداً من الأضرار التى سيأتى ذكرها.

أما المصابيح الكهربائية فإنها لا تقاس عليه؛ لعدم خطورتها ، وإن كان إطفاؤها أولى عند النوم؛ لأن الظلام يجلب النوم بهدوء، وينسى الإنسان متاعبه المادية والمعنوية، ويريحه من الهم المتواصل بعض الشىء.

* * *

ويجىء التعليل لما أوصى به النبى ﷺ فى صورة مشاهدة تقع فى البوادى والقرى والمدن أيضاً، فيقول عليه الصلاة والسلام: «فإن الشيطان لا يَحُلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء».

والعرب يطلقون لفظ الشيطان على كل بشع فى منظره سيئ فى سلوكه يتأتى منه الشر ولا يتأتى منه الخير، وينسبون كل شر إليه، تأدباً مع الله أو تمسكاً بما اعتادوا عليه فى التعبير، فافهم ذلك فإنه مهم فى التأويل.

فالله عز وجل قد شبه شجرة الزقوم برءوس الشياطين لبشاعة منظرها وخبث مطعمها وريحها ، فقال فى سورة الصافات : ﴿طلعها كأنه رءوس الشياطين﴾[1].

وأخبرنا فى قصة موسى عن فتاه يوشع بن نون أنه أسند نسيان الحوت إلى الشيطان فقال فى سورة الكهف: ﴿قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ [2].

وقال الرسول ﷺ للمرأة المستحاضة: «إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان» [3].

فالشيطان يمثل قوى الشر، فإذا جاء لفظه فى حديث فإنه يحمل على محمل يناسب المقام بحسب قرائن الأحوال.

---

(١) آية : ٦٥. (٢) آية : ٦٣.

(٣) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما عن حمنة بن جحش.

فالمراد إذا بالشيطان الذى لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء – كل مؤذ من الهوام وغيرها مما ينبغى توقى خطره.

وقد أوصى النبى ﷺ من لم يجد لإنائه غطاء أن يعرض عليه عوداً ونحوه كمغرفة أو سكين وليقل عند وضعه: باسم الله؛ فإن الله يحفظ ما فيه بعنايته.

ويستحب أن يوضع العود ونحوه باليد اليمنى؛ لأن فيها البركة.

وقال ﷺ فى تعليل إطفاء السراج: «فإن الفويسقة – وهى الفأرة – تضرم على أهل البيت بيتهم» أى تسحب السراج إلى الأرض أو إلى الفراش فيحدث ما لم يكن فى الحسبان؛ لهذا جاز قتلها فى الحرم.

* * *

هذا ما انتهى إليه علمنا فى التحليل والتعليل، ولكن وراء هذا وذاك الكثير والكثير مما لا نعلمه، فربما يتعلق بهذه الأوامر ما يدفع عنا أضراراً كثيرة لا نعلمها.

والعلم يكشف كل يوم جديداً مما كان خافياً عَنَّا، مما يدل دلالة قاطعة على أن وراء هذه الأوامر ما خفى عنا حاله ومآله. والعلم عند الله وحده، والرسول ﷺ يتلقى الوحى منه فلا ينقص فيه ولا يزيد، ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يوحَى ﴾ (١).

وقد علل النبى ﷺ تغطية الإناء وإيكاء السقاء بتعليل آخر فقال: «غَطُّوا الإناء وأَوْكُوا السقاء؛ فإن فى السَّنَة ليلةً ينزل فيها وباءٌ، لا يمرُّ بإناء ليس عليه غطاءٌ، أو سقاءٍ ليس عليه وِكَاءٌ إلا نَزَلَ فيه من ذلك الوباء» (٢).

* * *

وإذا نظرنا إلى هذه الوصية من زاوية أوسع مدى مما ذكر فيها، تبين لنا أن الرسول ﷺ يوصى ولا يحصى؛ لعلمه أن العقول النيرة لا تقف عند حد ما ذكر

---

(١) النجم: ٣ – ٤.

(٢) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، حديث رقم: ٢٠١٤.

ولكنها تقيس الأشباه على الأشباه والنظائر على النظائر، وتحسب لكل شيء حساباً على ضوء ما ذكر، فتقيس مثلاً إطفاء النار الموقدة على السراج المضيء، فيحرص كل مسلم على أن يحصن بيته منها فلا يترك المدفأة مثلاً مفتوحة ثم ينام، فإن ذلك يُشَكِّلُ خطراً عليه أهل بيته، وكذلك المبخرة ونحوها كالبوتجاز وأنابيب الغاز.

وإذا عزم على السفر فَصَل الكهرباء وأغلق محابس المياه وغير ذلك من الأمور التي يخاف أن تتلف أو تسرق.

وهناك أحاديث أخرى تتعاون مع هذا الحديث في القياس منها ما رواه مسلم - أيضاً - في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: احْتَرَقَ بيتٌ على أهله بالمدينة من الليل. فَلَمَّا حُدِّثَ رسول الله ﷺ بشأنهم قال: «إن هذه النار إنما هي عدوٌّ لكم، فإذا نِمتُم فأطفئوها عنكم».

وفقه الأحاديث النبوية أهم من حفظها بكثير؛ فإن بالإمكان الرجوع إليها في مَظَانِّهَا بسهولة بخلاف فقهها؛ فإنه يحتاج منا إلى إعمال فكر وإنعام نظر. «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

نسأل الله عز وجل أن يفقهنا في الدين وأن يعلمنا التأويل.

* * *

(١٩٥) امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شَكَى إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين».

وفى رواية قال: «أَتُحبُّ أن يَلِينَ قَلْبُكَ، وتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟، ارْحَمِ اليَتِيمَ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ، وأَطْعِمْهُ من طعامك - يَلِنْ قَلْبُكَ، وتُدْرِكْ حَاجَتَكَ» (١).

* * *

من علامة إيمان الرجل أنه يشعر بقساوة قلبه إذا قسا؛ وذلك لأن القلب إذا استنار بنور الله على قدر ما فيه من الإيمان، لان بذكر الله واستجاب لما يسمعه ويراه من العظات والعبر، فإذا ضعف الإيمان شيئاً ما، قَلَّ النور وخفت وبهت بقدر ما نقص من الإيمان، وعند ذلك يشعر بالقسوة والغلظة، فيدفعه ما تبقى من الإيمان إلى البحث عن السبب فى نقصانه الذى أدى إلى قسوة قلبه، ويدعوه حاله إلى التفكر الجاد فى إصلاح نفسه، فيأخذ طريقه إلى الإصلاح بكل ما أوتى من عزم وهمَّة حتى يعود إليه إيمانه كما كان.

وهكذا يتعهد نفسه كلما شعر بذلك حتى يلقى الله عز وجل وهو يتقلب بين الخوف منه والطمع فى رحمته.

وهذا رجل مؤمن يجىء إلى النبى ﷺ يسأله عن وسيلة تزيل قسوة قلبه وغلظته، فَيُقَدِّرُ النبى ﷺ حاله ويهتم بالجواب عن سؤاله لأهميته البالغة؛ لأنه سؤال كل مؤمن بلا استثناء، فيقول: «أَتُحبُّ أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك» وهو سؤال له ما بعده، يجلب به انتباه الرجل ويشوقه إلى ما سيرشده إليه كما علمه ربه عز وجل.

ولسان حال الرجل يقول: نعم، نعم أحب ذلك من أعماق قلبى.

---

(١) الرواية الأولى فى مسند أحمد حديث رقم: ٨٩٩٥ وإسناده صحيح.
والرواية الأخرى رواها الطبرانى بسند فيه ضعف عن أبى الدرداء.

فيقول له الرسول ﷺ : «ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك - يَلِنْ قلبك وتدرك حاجتك» .

والمعنى واضح ولكنه يتضمن من الأحكام ما نحن فى حاجة إلى معرفته .

فمن هو اليتيم ؟ وكيف نرحمه ؟ ولماذا نمسح رأسه ؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة تحتاج إلى جواب .

قلت فى «الفقه الواضح من الكتاب والسنة» : اليتيم فى اللغة هو : من مات أبواه أو أحدهما فانفرد عنهما أو عن واحد منهما، فاليُتْمُ فى اللغة : الانفراد .

يقال : درة يتيمة، أى فريدة فى نوعها، ودار يتيمة، أى لا يجاورها بيت من أى جهة من جهاتها الأربع .

وقيل اليتم معناه : الإبطاء، وقد سمى اليتيم يتيماً لأن البر يبطئ عنه . هذا معنى اليتم فى اللغة .

أما فى اصطلاح الفقهاء فمعناه أخص من هذا المعنى، فاليتيم عندهم هو : صغير مات أبوه .

فإذا بلغ زال وصف اليتم عنه وأصبح رجلاً يلى أموره بنفسه ما دام رشيداً، وقد يسمى بعد البلوغ يتيماً باعتبار ما كان؛ لغرض من الأغراض البلاغية، كالمبالغة فى الحث على دفع ماله إليه عند بلوغه الرشد والتحذير من أكل شىء منه .

كما قال تعالى : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾[1] .

ومن المعلوم أنهم لا يؤتون أموالهم إلا بعد البلوغ وحينئذ يزول عنهم وصف اليتم، ولكن الله عز وجل سماهم يتامى بعد البلوغ مبالغة فى حث الأولياء على مراقبته تعالى فى أمرهم عند تسليم أموالهم .

فإن قلتَ : لِمَ لم يعتبر الشرع من فقد أمه يتيماً كالذى فقد أباه؟

قلت : لأن الأب هو الذى يعول الصغير ويرعى شئونه ويقوم بتأديبه وتعليمه، وكثيراً ما يجد ولده فيه من العطف والحنان ما يعوضه عن أمه .

---

(١) سورة النساء : ٢ .

وقد رغب الإسلام القادرين من أهل البر والصلاح فى كفالة اليتامى والإحسان إليهم، والعطف عليهم، وحفظ أموالهم، والعمل على إعدادهم جسمياً ونفسياً وعقلياً حتى يصيروا رجالاً صالحين.

قال تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ (٢).

وقال جل وعلا: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ (٣).

وقال جل ثناؤه: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ (٤).

وقال تبارك وتعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ (٥) وقهره ضربه من غير مصلحة، وتجويعه وإهانته، وجرح مشاعره وإحراجه، وتكليفه بما لا طاقة له عليه، وغير ذلك من سوء المعاملة.

وقد جعل الله زجر اليتيم علامة من علامات التكذيب بالدين.

فقال جل شأنه: ﴿أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾ (٦).

وقال جل شأنه: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ (٧).

وقد كان رسول الله ﷺ يبالغ فى بر اليتيم وإكرامه والعطف عليه، ويرغب أصحابه فى ذلك ترغيباً عظيماً، لا لأنه عاش يتيماً وذاق مرارة اليتم، ولكنه كان يشعر بحاجة اليتيم إلى ذلك.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٠. (٢) سورة النساء: ٢. (٣) سورة النساء: ٦.
(٤) سورة النساء: ٩ – ١٠. (٥) الضحى: ٩.
(٦) الماعون: ١ – ٣. (٧) الفجر: ١٧ – ١٨.

والأحاديث الواردة فى شأن اليتيم كثيرة منها :

قوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفَرَّج بينهما » (١) .

وقوله ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » (٢) .

وقوله ﷺ : « من قَبَضَ يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه، أدخله الله الجنة أَلْبَتَّةَ – أى قطعاً بلا شك – إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر » (٣) .

أى إلا أن يشرك بالله كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٤) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من عَالَ ثلاثةً من الأيتام كان كمن قام لَيْلَهُ وصامَ نهاره وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله، وكنتُ أنا وهو فى الجنة أخوين كما أن هاتين أختان . وألصق أُصْبُعَيْه السَّبَّابَةَ والوسطى » (٥) .

وقال ﷺ : « من مَسَحَ على رأسِ يتيمٍ لم يَمْسَحْهُ إلا لله، كان له فى كل شعرةٍ مرَّتْ عليها يَدُهُ حسناتٌ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيمٍ عنده، كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وفَرَّقَ بين أُصْبُعَيْه : السبابةِ والوُسْطَى » (٦) .

وقال رسول الله ﷺ : « والذى بَعَثَنى بالحق لا يُعَذِّبُ الله يوم القيامة من رحم اليتيم وَلَانَ له فى الكلام، ورَحِمَ يُتْمَهُ وَضَعْفَهُ، ولم يَتَطَاوَلْ على جاره بفضل ما آتاه الله » (٧) .

---

(١) رواه البخارى وأبو داود والترمذى عن سهل بن سعد رضى الله عنه .
(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقال : حديث حسن صحيح .
(٤) النساء : ٤٨ .
(٥) رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما .
(٦) رواه أحمد وغيره .
(٧) رواه الطبرانى، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواته ثقات .

واليتيم إذا كان من المساكين كان إطعامه وبِرُّهُ أعظم أجراً عند الله عز وجل.

والمسلم من ذوى القلوب الرحيمة - ينظر أين يضع صدقته، ويعرف أن أفضل من ينبغى أن يمنحها إياه هم الأرامل واليتامى والمساكين، ولاسيما إذا كانوا على هدى وتقى.

قال رسول الله ﷺ: «السَّاعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله»، وأَحْسِبُهُ قال: «وكالقائم لا يَفْتُرُ وكالصائم لا يُفْطِرُ»[1].

وإليك بعض ما يتعلق باليتامى من أحكام.

* * *

١ - أولى الناس بكفالة اليتيم أقربهم إليه من جهة العصبة.

فإن لم يوجد له قريب من عصبته كفله أقرب الناس إليه من جهة رحمه كجده من أمه وخاله.

فإن لم يوجد له قريب من جهة أمه، أوصى الحاكم به من يقوم بكفالته، أو ألحقه بدار من دور رعاية الأيتام المنتشرة فى طول البلاد وعرضها.

٢ - مخالطة اليتيم فى طعامه وشرابه جائزة.

فقد أباح الله لأولياء اليتامى أن يخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم؛ رفعاً للحرج ودفعاً للمشقة بشرط أن يكون ذلك بقصد الإصلاح وتوخى العدل فى القسمة بقدر الإمكان.

فقال جل شأنه: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم[2] إن الله عزيز حكيم﴾[3].

---

(١) رواه البخارى ومسلم، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) أى: لضيَّق عليكم فى أمر اليتامى.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٠.

روى أبو داود والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لما أنزل الله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾ و﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ - انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه».

فقد دلت هذه الآية على جواز التصرف فى مال اليتيم بما فيه مصلحته العاجلة أو الآجلة من بيع وشراء وغير ذلك، فيجوز لولى اليتيم أن يتجر له فى ماله فيجعل لنفسه من الربح بقدر عمله لو اتجر فى مال شخص آخر.

ويباح له أن يبنى له داره أو يهدمها إن كان فى هدمها مصلحة تعود على اليتيم.

٣ - اتفق الفقهاء على أن لا يجوز لولى اليتيم إن كان غنياً أن يأخذ من مال يتيمه شيئاً.

لقوله تعالى: ﴿ومن كان غَنِيّاً فليستعفف﴾.

والاستعفاف عن الشىء تركه، والعفة هى الامتناع عما لا يحل فعله.

واختلفوا فى الفقير على سبعة أقوال أو أكثر، وخلافهم يرجع إلى مفهوم قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾.

فقال جماعة منهم: يباح للفقير أن يأكل من مال اليتيم بقدر حاجته الضرورية، وحملوا الآية على ظاهرها؛ مستدلين بما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إنى فقير ليس لى شىء ولى يتيم.

فقال رسول الله ﷺ : « كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثل » أى : ولا جامع مال لك ولأولادك من ماله. أو لا تأكل من ماله وتوفر مالك لتدخره لأولادك، يقال : مال مأثول أى مجموع له أصل.

واستدلوا أيضاً بما فى صحيح مسلم : أن عائشة رضى الله عنها قالت فى تفسير الآية : نزلت فى ولى اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه، إذا كان محتاجاً جاز له أن يأكل منه . وهذا هو قول أكثر أهل العلم.

ولليتامى أحكام كثيرة غير التى ذكرناها هنا تطلب من كتب الفقه، وسيأتى بعض أحكامه فى الحديث التالى.

والذى يعنينا فى شرح هذه الوصية وتحليلها أن نتعلم منها كيف تكون الرحمة باليتيم، وهى كلمة واسعة الدلالة تتسع لكل ما من شأنه أن يكون براً به وعطفاً عليه وإحساناً إليه.

وذلك يكون بحسن كفالته والاهتمام بتأديبه وتعليمه وإعداده إعداداً جيداً لخوض ميدان الحياة المختلفة بعزم وحزم، ومعرفة ما ينفعه وما يضره فى أمر دينه ودنياه.

ومسح رأسه تعبير صادق عن حبه له وشفقته به؛ بشرط أن يكون هذا المسح خالصاً لوجه الله تعالى.

والإخلاص عليه مدار صحة الأعمال وقبولها كما هو معلوم.

وإجلاس اليتيم معك إلى طعامك - أيها الأخ المسلم - تعبير عن مساواتك له بأولادك وذوى قرباك، ولا يخفى ما فى ذلك من إيناسه بك وإزالة آثار اليتم عنه بحنانك ومخالطته لك.

إن من أعظم الإحسان إلى اليتيم ألا تُذكِّره بيتمه، وألا تُشعره بفقره ومسكنته، وألا تحمله على أن يضع اليتم فى اعتباره دائماً فيصاب بعقدة نفسية الله أعلم بمدى تأثيرها على أخلاقه وسلوكه حين يبلغ السعى ويخالط الناس.

واعتبر – أيها الأخ المسلم – بقوله تعالى: ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ (١) .

واعلم أنك كما تدين تدان.

والخير يَبْقَى وإن طال الزمانُ به   والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زادِ

هداني الله وإياك إلى الصراط المستقيم.

* * *

(١) النساء : ٩.

(١٩٦) اتَّجِرُوا فى أموال اليَتَامَى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّجِرُوا فى أَمْوَالِ اليَتَامَى؛ لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ» (١).

* * *

الإسلام يحمى الضعفاء - كاليتامى - من أن تنالهم أيدى الظالمين، ويصون أموالهم من الضياع بتشريعاته الصارمة وإرشادته القيمة، فلا يدع يتيماً عرضة للمهانة والمذلة والازدراء، ولا يترك ماله نهباً لأصحاب القلوب القاسية والضمائر الميتة، أو يسمح للخاملين أن يجمدوها حتى تتناقص شيئاً فشيئاً، ثم تزول ويبقى اليتيم بلا مال، فيكون عرضة للمذلة والهوان.

وقد تقدم الكلام فى شأن كفالة اليتامى وبرهم والإحسان إليهم، وجاءت هذه الوصية تأمر أوصياءهم بحفظ أموالهم وتنميتها بالاتجار فيها؛ حتى لا تتناقص بسبب إخراج الزكاة منها.

وهذه الوصية ترجمة جزئية لقوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ (٢) . أى وارزقوهم من ريعها ولا ترزقوهم من أصلها فتنفد.

ولو قال سبحانه: «وارزقوهم منها» لفات هذا المعنى الذى أشارت إليه الآية، وأشار إليه الحديث إشارة جزئية.

وقلنا إنها ترجمة أو إشارة جزئية للآية لأن الرسول ﷺ علق هلاكها على جزئية واحدة وهى الزكاة مع أن أسباب هلاكها كثيرة، كالنفقة منها بإسراف على طعامه وشرابه، وكسائه وفراشه، وتعليمه وغير ذلك.

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط، وقال الهيثمى أخبرنى شيخى يعلى الزين العراقى أن سنده صحيح.

انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى جـ ١ ص ١٠٧.

(٢) النساء: ٥.

والسفهاء فى الآية: هم الذين لا يحسنون التصرف إما لصغرهم أو خفة عقولهم.

فإذا كان للصغير من اليتامى وصى لا يحسن التصرف، تولى أمره من يحسنه من أقرب الناس إليه من جهة العصبة، فإن لم يكن له من جهة عصبته من يحسن التصرف فى شأنه وشأن ماله، تولى أمره رجل من ذوى رحمه كأخيه لأمه أو خاله كما أشرنا فى الوصية السابقة، فإن لم يكن هناك من يحسن التصرف من أقاربه مطلقاً عيّن الحاكم له وصياً من جهته، وراقبه فى تصرفاته بنفسه أو بواسطة من يثق فيهم.

* * *

وقوله ﷺ: «اتجروا» معناه: اعملوا فى ماله بما ينميه من تجارة أو صناعة أو ما أشبه هذا وذاك من الأعمال المنتشرة فى هذا العصر.

وإنما قال: «اتجروا» ولم يقل: اعملوا لأن غالب الأعمال يومئذ كانت تجارية فى الغالب.

وكل ربح فى الواقع إنما يتأتى عن طريق التبادل فى المنافع العامة والخاصة، والتجارة ما هى إلا تبادل منافع بأى أسلوب مشروع، يقوم على العدل والتراضى. فكل الناس تجار على الحقيقة يتفاوتون جميعاً فى شئون الحياة بقانون المصلحة حتى أصبحت التجارة الآن تشمل مناحى الحياة كلها.

لهذا كان الأمر بالاتجار هو أولى من قوله: اعملوا فى أموال اليتامى أو نموها.

إن الله عز وجل سمى العبادة والعمل الصالح تجارة؛ لأن ذلك يعود على العبد بالمنافع العاجلة والآجلة.

فقال جل شأنه: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيَهم أجورَهُمْ ويزيدَهم من فضله إنه غفور شكور﴾ (١).

(١) فاطر: ٢٩ - ٣٠.

وقال فى شأن المنافقين: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (١) .

فالتجارة إذاً مدلولها بعيد المدى، لا يقتصر على المعنى المشهور فيما بيننا .

المهم فى الأمر أن ينمي الوصى مال اليتيم ولا يجمده، وينفق عليه من ربحه لا من أصله .

وهذا هو السر فى قوله: « فى مال اليتامى » إذ لم يقل: اتجروا بها .

ولو قال اتجروا بها لفات أمران لابد من حصولهما :

الأول: ما ذكرناه من تنمية ماله واستغلاله بالطرق الشرعية .

والثانى: ألا يتجر بالمال كله فيغامر به ولكن يتجر فى جزء منه، فإذا ربح فى التجارة وعرف كيف يستغل المال أضاف إلى التجارة جزءاً آخر بقدر ما تسمح به الظروف .

فلو قال: اتجروا بأموال اليتامى ، لتوهم متوهم أن الاتجار يجوز بجميع أموالهم .وهذ لا يجوز فى نظرى؛ لما فيه من المخاطرة ولا سيما فى هذه الظروف المعاصرة؛ فإنها دائمة التقلب بعيدة الأغوار، يحتاج المرء فيها إلى فهم واسع بهذه المتغيرات، وتدريب طويل على فنون التجارة بكافة أنواعها، وخبرة تامة باحتياجات الأسواق ومقتضياتها وألاعيبها .

وقوله ﷺ : « لا تأكلها الزكاة » معناه لئلا تأكلها الزكاة . فحذفت اللام مع أنْ تخفيفاً ، وفى هذا دليل على أن الزكاة تجب فى مال اليتيم على الوصى، يخرجها بالنيابة عنه فى كل حول، وإخراج الزكاة من المال مع الاتجار فيه لا ينقص منه شيئاً يذكر .

ولا يخفى ما فى إخراجها من صيانة للمال من الضياع لقوله ﷺ : « داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة » (٢) .

*   *   *

---

(١) البقرة : ١٦ .

(٢) رواه أبو داود والطبرانى والبيهقى وغيرهم عن الحسن رضى الله عنه، وعن جماعة من الصحابة .

ونخلص من هذا إلى أن الأموال لا ينبغى تجميدها بحال، حتى لو كان ليتيم فقد أباه؛ لأن المال شركة بين الناس جميعاً ينتفع به صاحبه وآخرون من دونه يعملون فيه ويتعيشون منه، فإذا تجمد المال تأخر ركب الحياة، أو توقف؛ لأن المال عصب الحياة وشريانها الحيوى، فهو الطاقة الفعالة التى تبنى وتعمر.

وبدون هذه الطاقة لا يتحقق شيء من العمران؛ فالحياة تقوم على أربعة أسس: الرجال، والمال، والعلم ، والعمل.

نفهم هذا من القرآن والسنة وإجماع الأمة ، ففى نظام المال فى الإسلام نظريات متعددة المناحى بحسب تعدد شئون الحياة.

كل نظرية منها تخدم جانباً من جوانبها، وتجتمع كلها فى إطار واحد وهو رعاية مصالح العباد فى العاجل والآجل.

ونستخلص مما ذكرناه: أن رعاية أموال اليتامى ضرورة اجتماعية واقتصادية وإنسانية بوجه عام، وأن الزكاة واجب شرعى فى المال بوجه عام بالشروط المنصوص عليها فى كتب الفقه كبلوغ النصاب ومرور الحول وما إلى ذلك.

وهى نظام اجتماعى لو أُحسن القيام به ما كان هناك جائع ولا عريان، ولا سائل ولا محروم.

فانظر - أيها الأخ المسلم - فى هذه الوصية وخذ منها ما ينفعك، وسل الله عز وجل أن يفقهك فى الدين ويعلمك التأويل.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١٩٧) صِلْ بين الناس إِذَا تَفَاسَدُوا

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال لأبى أيوب : «أَلاَ أَدُلُّكَ على تِجَارَةٍ» ؟

قال : بَلَى ، قال : «صِلْ بَيْنَ الناس إِذَا تَفَاسَدُوا وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إذا تَبَاعَدُوا»(١) .

* * *

كان النبى ﷺ يوصى أصحابه رضوان الله عليهم بما يناسب كلاً منهم بحسب ما يرى فيه من المؤهلات والخصائص النفسية والخلقية والاجتماعية . فتكون وصيته فى محلها أكثر نفعاً وأعظم وقعاً .

وقد لاحظت فى كثير من الوصايا : أنها تعالج فى نفوس من أسديت إليهم كثيراً من العقد النفسية، وتصلح كثيراً من السلوكيات الاجتماعية، وتصحح المسار لكل من تفرقت به السبل، حتى يستقيم على صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض .

فقد جاءه رجل وقال : يا رسول الله ، أوصنى؟ قال : « لا تكذب » ، وجاءه آخر فقال : أوصنى؟ قال : « لا تغضب » .

وجاءه آخر فقال : أوصنى ؟ قال : « قل : أمنت بالله ثم استقم » .

وهكذا كان حاله مع كل من يتفرس فى وجهه سمة تعجبه فَيُعَمِّقُهَا فيه، أو صفة يبغضها فَيَنْهَاه عنها، ويحذره منها، ويقطع دابرها من نفسه بموعظة بليغة تبلغ أعماق قلبه .

وهذا هو أبو أيوب الأنصارى : خالد بن يزيد بن كليب الخزرجى البخارى رضوان الله عليه يتلقى هذه الوصية من نبيه الذى غمر حبه قلبه فيجد فيها رَوْحه

---

(١) رواه البزار، ورواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بلفظ : « ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟ قال : بلى . قال : صل بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا» .

وريحانه؛ لأنها من الوصايا التى يستطيع أن يقوم بتنفيذها خير قيام، بوصفه رجلاً مسموع الكلام بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار؛ لما له من سوابق خير حسبت له عند الله وعند الناس.

فقد آوى النبى ﷺ فى بيته، وأكرم نزله وأحسن ضيافته وضيافة من معه من أصحابه، وظل عنده ﷺ مقيماً فى بيته سبعة أشهر حتى بنيت حجراته، وتم بناء المسجد.

وقد كان نزوله ﷺ فى بيت أبى أيوب بإرادة الله تعالى لا بإرادته هو.

فقد اصطفَّ أهل المدينة حين هاجر إليهم أمام بيوتهم، يستقبلونه بفرح غامر يتمنى كل واحد منهم أن ينزل ضيفاً عليه. فكلما مر على بيت قال له أهلوه: ها هنا يا رسول الله، ها هنا يا رسول الله.

ويرد الرسول ﷺ عليهم بلطف قائلاً، وهو يشير إلى الناقة: « خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة ».

واتخذت الناقة طريقها حتى انتهت إلى بيوت أخواله من بنى النجار، فتعلقوا بخطامها قائلين: يا رسول الله، هلم إلى أخوالك، أقم عندنا فلدينا العدد والعدة والمنعة.

فقال: « خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة ».

ومشت الناقة حتى بلغت بيت أبى أيوب الأنصارى فبركت أمامه.

ومن يومها عظم شأنه بين المهاجرين والأنصار أكثر من ذى قبل، وأحبوه حباً شديداً، وأطاعوه فى كل أمر يأمرهم به، وهو رجل لا يأمر إلا بخير.

لذا أوصاه النبى ﷺ أن يغتنم هذا الحب الجارف من قِبل أصحابه فيصل الود بين المتقاطعين ويقرب أواصر الحب بين المتباعدين.

وهذه الوصية ليست خاصة به ولكنها نفذت إلينا من خلاله، فلنتقبلها قبولاً حسناً، ونأخذها مأخذ الجد، ونعمل بها بقدر طاقتنا وبحسب ظروفنا ووسائلنا المتاحة مستعينين بالله جل شأنه — فى ذلك.

* * *

قوله ﷺ لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» تشويق له إلى ما سيوصيه به، اقتداءً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ (١) .

والتجارة نوعان: تجارة مع الله ، وتجارة مع الناس.

والأولى: أشرف وأجل وأنفع، وهي المقصودة في هذه الوصية.

والمسلم الحق هو الذي يبتغي بعمله كله وجه الله تعالى، يبيع له نفسه وماله ويهب له أنفاسه كلها وآثاره من بعد موته، فيكون بذلك عبداً ربانياً يتذوق حلاوة العبودية، ويستمتع بنعيمها.

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ (٢) .

والتجارة مع الله أنواعها لا تنحصر، ووسائلها ميسورة لمن طلبها بجد وإخلاص، ولا غنى للعبد عن أي نوع منها، ولكنه يعجز أن يحيط بها علماً؛ فضلاً عن كونه يحيط بها عملاً.

ولعل من أعظم أفعال الخير والمعروف أن يُوفق المسلم بين مختلفين، ويُصلح بين متخاصمين، ويُقرب بين متباعدين؛ فهي من التجارة التي لا تبور عند الله ولا عند الناس.

يقول النبي ﷺ : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا: بلى! . قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (٣) .

والناس بخير ما كان فيهم من يصلح فساد قلوبهم بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار البنّاء.

فإذا ذهب من يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويصلح ذات بينهم، استبدّت بهم الأهواء، واشتعلت نار الفتن فأكلتهم جميعاً.

---

(١) الصف آية: ١٠.
(٢) الأنعام آية : ١٦٢.
(٣) رواه الترمذي.

(إن الخصومة إذا نَمَتْ وغارت جذورها وتفرعت أشواكها،شَلَّتْ زهرات الإيمان الغض، وَأَذْوَتْ ما يوحى به من حنان وسلام.

وعندئذ لا يكون فى أداء العبادات المفروضة خير، ولا تستفيد النفس منها عصمة.

وكثيراً ما تطيش الخصومة بألباب ذويها، فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة لِلَّعْنَة.

وعين السخط تنظر من زاوية داكنة، فهى تَعْمَى عن الفضائل، وتضخم الرذائل، وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب، وذلك كله مما يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه، ويرى منعه أفضل القربات) [1] .

فينبغى على كل مسلم أن يتدارك هذا الخطر قبل استفحاله فيقوم مخلصاً بإصلاح ذات البين بما أوتى من علم وحكمة ، وتقريب وجهات النظر بين المختلفين؛ حتى يعود إليهم ما كان بينهم من صفاء وحب.

يقول الله عز وجل: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ [2] .

* * *

---

(١) انظر خلق المسلم للشيخ محمد :الغزالى تحت عنوان: سلامة الصدر من الأحقاد.
(٢) الحجرات: ٩ – ١٠.

(١٩٨) اتَّقُوا فِراسة المؤمن

عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ؛ فإنه يَنْظُرُ بنُورِ الله عز وجل» (١).

*   *   *

الفِراسة – بكسر الفاء – هى: المهارة فى تعرُّف بواطن الأمور من ظواهرها، واستخلاص الرأى السديد من الآراء المتعددة.

وهى النظر الثاقب فيما يُرى ويُسمع، والبصر النافذ فيما يضر وينفع.

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء: رواه الطبرانى والترمذى من حديث أبى أمامة، وأخرجه الترمذى أيضاً من حديث أبى سعيد الخدرى – يعنى الحكيم الترمذى صاحب نوادر الأصول، وليس أبا عيسى الترمذى صاحب السنن – وقال: غريب. والغريب قد يكون صحيحاً وقد يكون ضعيفاً كما ذكر رجال الحديث.

وقال العجلونى أيضاً: قال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الديلمى بعد أن عزاه للترمذى عن أبى سعيد: وزاد بعضهم: «وينطق بتوفيق الله». ورواه الطبرانى وأبو نعيم والعسكرى عن ثوبان رفعه بلفظ: «احذروا دعوة المسلم وفراسته فإنه ينظر بنور الله وينظر بتوفيق الله». ورواه الديلمى عن أبى الدرداء بلفظ: «اتقوا فراسة العلماء؛ فوالله إنه لحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجعله على أبصارهم» وطرقه كلها ضعيفة، وبعضها متماسك.

ورواه الطبرانى والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» أى بالفراسة. ونحوه قول النبى ﷺ لعمران بن حُصين وقد أخذ بطرف عمامته من ورائه: «واعلم أن الله يحب الناظر الناقد عند مجىء الشبهات».

وقال الهيثمى: اسناد الطبرانى حسن، وذكر السيوطى فى الدرر: أن الترمذى خرجه من حديث ابن عمر وثوبان بزيادة: «وينطق بتوفيق الله» وذكر فى تعقبات الموضوعات: أن الحديث حسن صحيح.

راجع تخريجه فى كشف الخفا جـ١ ص ٤٢، وفيض القدير للمناوى جـ١ ص ١٤٤.

والتَّفَرُّسُ فى الأمور قد يكون مبنيًّا على الذكاء المُفْرِط، والحنكة فى التجربة، والخِبْرَةِ بعادات الناس وظروف الحياة.

ويقال لمن هذا شأنه: ذَكِيٌّ فَطِن، وخبيرٌ مُجرِّب، وَأَلْمَعِيٌّ بصير.

وقد يكون مبنيًّا على البصيرة المستنيرة بنور الله تعالى، بحيث يرى البصير الأمور على ما هى عليه بيقين. وهذا لا يكون إلا للمؤمن.

فالمؤمنون وحدهم هم أصحاب البصائر النَّيِّرة والقلوب المبصرة.

هم الذين استجابوا لربهم، فاستجاب الله لهم، ومَنَّ عليهم بأعظم المِنَنِ التى خصهم بها دون غيرهم.

ومن أعظم هذه المنن على الإطلاق – نور الإيمان، إنه الإلهام المشرق الذى يقتحم قلوبهم كلما فكّروا فى خلق السماوات والأرض ، أو تدبروا فى آيات الله البيِّنات،أو نظروا فى أحوال الناس وظروفهم المادية والمعنوية.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَوَمَنْ كان ميْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مَثَلُهُ فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (١) .

أى : فهل يستوى من كان ميِّتاً بالجهل والكفر فَأَحْيَيْنَاهُ بالعلم والإيمان وجعلنا له نوراً يرتاد به الطريق إلى الهدى ويتعرف به ما يضر وينفع، كمن ظل قائماً على كفره وجهله.

ويقول جل شأنه: ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٢) .

والفراسة الموهوبة أعظم بكثير من الفراسة المكتسبة؛ فالأولى: نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن، والثانية: ذكاء وصنعة، تغنى عنها الفراسة الإيمانية بينما لا تغنى الفراسة المكتسبة عن الأخرى، فتأمل ذلك، تجده صحيحاً.

يدل عليه قوله تعالى عن أولئك المتفرسين بالخبرة والتجربة: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (٣) .

---

(١) الأنعام: ١٢٢ . (٢) النور : ٤٠ .
(٣) الروم : ٧ .

وهل لدى من يغفل عن الآخرة فِراسة على الحقيقة؟

إن الفراسة الحقيقية هى الكياسة، والكياسة هى معرفة وجوه الخير وإدراك أبعادها حالاً ومآلاً، فأين هؤلاء منها.

إن المؤمن هو الكَيِّسُ الفَطِنُ.

وأكيس الناس كما جاء فى الحديث - أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الذين ذهبوا بخيرى الدنيا والآخرة.

ومن هنا نعلم السر فى إضافة الفراسة فى هذه الوصية إلى المؤمن؛ حيث قال: «اتقوا فِراسة المؤمن».

أما غيره فلا نعبأ به؛ لأنه شخص غير مُوَفَّق؛ لعدم استيفائه شروط التوفيق الثلاثة الواردة فى قصة شعيب، وهى: الرغبة فى الإصلاح، والتوكل، والإنابة.

قال تعالى حكاية عنه: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (١).

إن الكافر أعمى ولو كان بصيراً، فمن أين تأتيه الفراسة بمعناها الصحيح؟!.

﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور﴾ (٢).

إن فراسة المؤمن قبس من نور الله عز وجل، قد ضرب لها المثل الذى يُقَرِّبُ المعنى نوع تقريب فقال: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾ (٣).

والمراد بقوله: ﴿مثل نوره﴾: نوره فى قلب عبده المؤمن. هذا هو الراجح من أقوال المفسرين (٤).

---

(١) هود: ٨٨. (٢) الرعد: ١٦. (٣) النور: ٣٥.

(٤) انظر كتابى تفسير سورة النور.

وقوله جل وعلا: ﴿كمشكاة﴾ إلى آخر المثل: تشبيه تمثيلى، فقد شبه صدر المؤمن بالمشكاة وهى الطاقة التى يوضع فيها السراج، وشبه العقل بالمصباح، وشبه القلب بالزجاجة، وشبه كلمة التوحيد بشجرة الزيتون، وشَبَّه الذكر بها بزيت هذه الشجرة.

وأشار بقوله: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ إلى أنها كلمة السواء التى ربطت أهل الأرض بأهل السماء.

من هنا اجتمعت الأنوار والأسرار فى قوله: ﴿نور على نور﴾.

نور الصدر، ونور العقل، ونور القلب، ونور كلمة التوحيد وهى أصل الأنوار كلها.

فمن قالها بقلبه ولسانه وعمل بمقتضاها، فقد أوتى الفراسة.

وهذا ما يدل عليه ختام الآية، فتدبر ذلك واحرص عليه (١).

* * *

وفِراسة المؤمن تزيد وتنقص، كما يزيد الإيمان وينقص، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ (٢).

فقد خاطب الله المؤمنين فى هذه الآية وأمرهم بالتقوى والإيمان، مع أنهم أتقياء مؤمنون؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

والمعنى: دُوموا على تقواكم وإيمانكم، وجَدِّدُوا إيمانكم كلما شعرتم بشىء من نزغات الشيطان أو نزوات الهوى؛ فإنكم لو فعلتم ذلك أعطاكم الله نصيبين من رحمته: نصيباً لأصل الإيمان، ونصيباً لتجديده والمداومة عليه مع التقوى، ويجعل لكم من لدنه نوراً ترون به ما لا يراه غيركم.

---

(١) انظر شرح هذا المثل وتحليله فى كتابى «الأمثال القرآنية دراسة تحليلية».
(٢) الحديد: ٢٨.

وصدق فيهم قول قائلهم:

قُلوبُ العَارِفينَ لها عيونُ ترى ما لا يراه النَّاظِرُونَا

* * *

وبعد هذا التطواف فى فِراسة المؤمن نسأل أنفسنا هذا السؤال:

ما المراد من الأمر فى هذه الوصية؟

والجواب : أن المؤمن يبغض كل البغض أن يرى غيره من المؤمنين على معصية، فإذا أتى المؤمن معصية فجاء إلى مؤمن كامل الإيمان لا يعصى الله فعرف ذلك منه غضب عليه، فيغضب الله لغضبه، فيكون معنى قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن»: احذروا أن تلقوه على معصية ظاهرة أو خفية، ولا سيما المعاصى القلبية، كالكبر، والغرور، والرياء، والعجب، وحب الظهور، والحقد والحسد، وغير ذلك من الآفات التى تعكر صفو الإيمان وتُكَدِّر جلوة اليقين ، فإنه بنور إيمانه الذى ميزه الله به عن عوام المؤمنين – مطلع على ما فى الضمائر ، مشاهد لما فى السرائر، فتفضحوا عنده فيشهد عليكم به غداً عند ربكم؛ وأهل العرفان هم شهداء الله فى أرضه.

ومن بِرِّ المؤمن بأخيه المؤمن أن يَسُرَّهُ بلقائه وطيب حديثه وحسن أدبه، فإذا لقى مؤمن أخاه وهو على معصية، فَطِنَ إليها أقواهما إيماناً وأَسْلَمُهما قلباً، فيسوؤه منظره ومخبره، ويعكّر عليه صفوه الذى يعينه على حسن العبادة، فيضيق صدره بذلك، وربما يتمنى أن لا يلقاه بعد ذلك؛ حتى يتوب توبة نصوحاً.

وقد جاء فى الحديث الصحيح قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» (١) .

وهل هناك ضرر أعظم من هذا؟

قرأت فى بعض الكتب: أن شيخاً جليلاً كان جالساً مع تلاميذه يعلمهم

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ.

أصول الأدب مع الله عز وجل، فاقتحم على مجلسه رجلٌ فجلس معهم، فنظر إليه الشيخ لحظة، ثم خلع عباءته وأعطاها له وقال: ارحل عنا بسلام، فلما أدبر الرجل قال تلميذ من تلاميذه: أعطيت الرجل عباءتك التي ليس لك غيرها والبرد شديد.

قال: لقد اشتريت لكم ليلتكم هذه بعباءتي، فما أرخص الثمن!

يريد أن يقول: إن هذا الرجل لم أتوسم فيه الخير، ولو ظل معنا فسيعكر صفو قلوبنا، ويفسد علينا جِلْسَتنا.

والعمر هو رأس مالنا، كل لحظة تمر محسوبة لنا أو علينا.

إنه قد تَفَرَّسَ في وجهه، فعرف أنه لا يليق أن يكون في مجلسه أمثاله من أرباب المعاصي.

والفراسة: هي تَوَسُّمُ الخير أو الشر في الوجوه، ومعرفةِ ما تنطوي عليه القلوب؛ لأن ما ينطوي في القلب يظهر على صفحات الوجه.

ولا يفقه المعاني والمرامي إلا أمثال هؤلاء المتوسمين؛ فهم أهل التدبر والنظر، وأرباب الفطنة والبصر.

يقول الله عز وجل: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ (١).

وقال جل شأنه في وصف المتعففين: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ (٢).

وقال في شأن المنافقين: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يُخرِج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ (٣).

* * *

---

(١) الحجر: ٧٥. (٢) البقرة: ٢٧٣.
(٣) محمد: ٢٩ – ٣٠.

وقد كان من أعظم الناس فراسة على الإطلاق محمد ﷺ؛ لأنه أتقاهم وأخشاهم لله عز وجل.

ويليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ثم الأمثل فالأمثل حتى يأتى أمر الله.

والفراسة : هى الإلهام – كما ذكرت – وبينهما فارق يسير ذكره العلماء فى كتبهم، فقالوا : الفراسة ضربان :

ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وهو الإلهام، ويسمى صاحبه المحدَّث ، كما فى خبر : «إن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر».

وقد يكون هذا الإلهام فى اليقظة وقد يكون فى المنام.

والثانى : هو ما ذكرنا أنه شىء مكتسب، يشترك فيه المؤمن وغيره مع الفارق الذى أشرنا إليه.

ويقال لهذا الملهم : لديه حاسة سادسة، وتسمى هذه الحاسة بالحَدْث – بسكون الدال.

من ذلك الإلهام ما روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه أوصى ابنته عائشة فى مرض موته ، فقال لها : أوصيك بأخويك وأختيك. ولم تكن لها إلا أخت واحدة ، وكانت امرأته حاملاً . فقالت له : من أين عرفت أن لى أختاً أخرى ؟ ، قال: وقع فى قلبى أن ما فى بطن امرأتى بنتاً . فكانت كذلك.

ورأى عمر رضى الله عنه قوماً من مذحج فيهم الأشتر فَصَعَّدَ النظر فيه وصَوَّب، ثم قال: قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً. فكان منه ما كان.

وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل عليه رجل فَسَلَّم عليه، وكان

قد نظر إلى كعب امرأة، فقال: يدخل أحدكم عَلَيَّ وفى عينيه أثر الزنا، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله، قال: لا؛ ولكنه نور يقذفه الله فى قلب المؤمن. أو كلام هذا معناه.

وروى أن علياً رضى الله عنه قال لأهل الكوفة :سينزل بكم أهل بيت رسول الله ﷺ فيستغيثون بكم فلا يغاثون ، فكان منهم فى شأن الحسين ما كان.

والأخبار فى ذلك كثيرة لا تحصى. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويؤتى نفوسنا تقواها.

* * *

(١٩٩) اتَّبعُوا ولا تَبْتَدعُوا

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّبِعُوا ولا تَبْتَدِعُوا؛ فقد كُفِيتُمْ»[١].

*　*　*

هذه الوصية ترجمة لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[٢].

أى ما جاءكم به الرسول من ربه، فالزموه، فالأخذ فى الآية معناه: اللزوم مع الفهم والإخلاص فى الامتثال.

وما نهاكم عن قوله وفعله، فاحذروه وكفوا عنه؛ فهو من تتمة الامتثال، فالطاعة تتمثل فى الاتباع التام فى هذا وذاك.

وهــذا هو معنى قوله ﷺ: «اتَّبِعُوا ولا تبتدعوا» أى سيروا على النهج الذى وسـمه لكم الله عز وجـل فى كتابه وعلى لسـان رسـوله عليه الصلاة والسـلام، واقتدوا به فى عباداتكم وعاداتكم، ولا تزيدوا فى دينه ما ليس منـه؛ فقـد جاءكم بالهدى، ووَقَفَكُمْ على المحجـة البيضـاء ليلها كنهارها، ووضع لكم المعـالم لتنتهوا إليها، وحـدّ لكم الحـدود التى يجب أن تقفوا عنـدها ولا تتجاوزوها.

وقد أكمل الله لكم الدين، فكان منهجاً لمناحى الحياة كلها، فأغناكم به عن تشريعات البشر وقوانينهم التى ابتكروها بعقولهم القاصرة ونظرهم المحدود.

والاتباع دليل على محبة الله ورسوله، وبرهان على صحة الإيمان وسلامة اليقين.

---

(١) رواه الدارمى بسند صحيح، والديلمى فى مسند الفردوس، وابن عدى والطبرانى، وأدلته كثيرة. انظر كشف الخفا للعجلونى جـ ١ ص ٣٦.

(٢) الحشر: ٧.

قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[1].

وأما الابتداع فى الدين فهو اعتداء عليه وانتهاك لحرماته، واتهام له بالنقص فى تشريعاته، بل هو تقويض لشعائره وهدم لبنيانه.

ولكن ما هى البدعة فى نظر الإسلام؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه فى الفقرات التالية.

* * *

البدعة فى اللغة: هى كل مُحْدَثٍ على غير مثال سبق.

فيكون كل ما حدث بعد رسول الله ﷺ من أمور الدين والدنيا - على هذا التعريف اللغوى - بدعة.

وبذلك يسوغ تقسيمها إلى: بدعة حسنة وبدعة سيئة.

ولكن إذا نظرنا إليها من حيث ما أُحدث بعد رسول الله ﷺ فى الدين فقط، وعرّفناها بأنها: كل حدث لا أصل له فى الدين، فلا يسوغ - فى نظرى - تقسيمها إلى حسنة وسيئة.

والمحتجون بقوله ﷺ: «من سّن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سنَّة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» - المحتجون بهذا الحديث على تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، لم يفهموا الحديث الفهم الصحيح على ما أظن؛ إذ المراد به - والله أعلم - من ابتدع طريقة فى فعل المعروف وامتثال الأوامر، فله الأجر المذكور، ومن اخترع طريقة فى فعل المنكر وارتكاب المعاصى فتبعه الناس فى ذلك، فعليه الوزر المذكور.

ولقد جاء الدين الإسلامى تاماً كاملاً، لا ينبغى لأحد أن يزيد فيه شيئاً، أو ينقص منه شيئاً، كما أشرنا.

---

(١) آل عمران: ٣١.

قـال تعـالى : ﴿ اليـوم أكـملت لكـم دينكـم، وأتممت عليكـم نعـمـتى، ورضيت لكـم الإسلام ديناً ﴾ (١) .

وقد حذر النبى ﷺ من الابتداع فى الدين بالذات.

فـقـال: «من أحـدث فى ديننا هذا مـا ليس منه، فـهـو رَدٌّ» (٢) أى: مـردود عليه.

وعن أبى نجيح العرباض بن سارية السلمى رضى الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنهاموعظة مودع، فأوصنا!!

قال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمَّرَ عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فـسيـرى اختـلافـاً كـثيـراً، فـعليكم بسنتى، وسنة الخلفـاء الراشدين المهـديين، عَضوا عليهـا بالنواجذ، وإياكـم ومحـدثات الأمـور، فإن كل بدعة ضلالة» (٣) .

وعن جـابر رضى الله عنـه قـال: كـان رسـول الله ﷺ يقـول فى خطبـتـه: «أمـا بعـد. فـإن أصـدق الحـديث كـتـابُ الله، وإن أفـضـل الهَـدى هَدْى محـمـد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار» (٤) .

قـال الإمـام الشـافعى - رضى الله عنـه - فى الأم : كل شىء خـالف أمـر رسـول الله ﷺ سـقَط (٥) ، ولا يكون مـعـه رأى ولا قـيـاس؛ فـإن الله تعـالى قطع العـذر بقـول رسـول الله ﷺ، فليس لأحـد مـعـه أمر ولا نهى غير ما أمر هو به. أ. هـ.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقى، والترمذى وقال: حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد ومسلم.

(٥) أى: مهمل ومرفوض شرعاً.

وخلاصة القول: أن البدعة هى كل ما لا أصل له فى الدين يرجع إليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً، وإن كانت تسمى بدعة فى اللغة.

وقد عرَّفها الشاطبى فى أول كتاب الاعتصام تعريفاً أُراه جامعاً مانعاً فقال: «هى طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الطريقة الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه».

فيخرج بهذا التعريف جميع بدع العادات.

وبدع العادات ثلاثة أصناف:

صنف يوافق الدين ولا يخالفه في شيء، كأخذ الزينة المباحة، والسكنى فى المنازل الفخمة، والتنزه فى الحقول والحدائق، ونحو ذلك مما هو معروف.

وصنف يكره فعله شرعاً، كالمبالغة فى زخرفة المساجد والمصاحف وغير ذلك مما نصَّ عليه الفقهاء فى كتبهم.

وصنف محرم، وهو ما يخالف الدين، كالتشبه باليهود والنصارى فى أعيادهم وملابسهم التى نهى الإسلام عنها.

والمسلم الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - عليه أن يلتزم بما جاء فى الكتاب والسنة وما ورد عن السلف الصالح من أصحاب النبى ﷺ والتابعين لهم بإحسان، بوصفهم أعلم الناس بأصول الدين وقواعده.

وعليه أن يعرف الفرق بين بدع العبادات وبدع العادات[1]؛ حتى لا يخلط بينهما فيقع فى المحذور؛ فإن الخلط بينهما قد يترتب عليه تحريم الحلال وإباحة المحظور.

---

(١) راجع ما كتبناه فى البدعة فى الوصية رقم: ٢٠.

وقد قال الله عز وجل : ﴿ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ [1] .

نسأل الله لنا ولكم الفلاح فى الدنيا والآخرة .

* * *

(١) النحل : ١١٦ .

(٢٠٠) لا حسدَ إلا فى اثنتين

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القرآنَ فهو يَتْلُوهُ آناءَ الليل وآناء النهار، فسمعه جارٌ له فقال: لَيْتَنى أوتيتُ مثْلَ ما أُوتِىَ فلانٌ فَعَملْتُ مثْلَ ما يَعْمَلُ، ورجل آتاه الله مالاً فهو يُهلكُهُ في الحق. فقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِى أوتيتُ مِثْلَ ما أُوتِىَ فلان، فَعَمِلْتُ مثل ما يَعْمَلُ» (١) .

* * *

للحسد فى لغة العرب معنيان – أحدهما على الحقيقة والآخر على المجاز.

فالحسد على الحقيقة: هو تمنى زوال نعمة الغير.

ومعناه على المجاز: الغبطة، وهى تمنى مثل ما للغير والحرص على تحصيله، وهو المقصود فى هذه الوصية.

والحسد بمعناه الحقيقى كبيرة من أعظم الكبائر، وهى أول معصية وقعت فى الخليقة، كما سبق بيانه فى هذا الكتاب.

أما الحسد بمعنى الغبطة فهو جائز، بل هو من المُسْتَحَبَّاتِ فى تمنى ما هو قُربة إلى الله تبارك وتعالى.

والمؤمن يتنافس مع غيره من المؤمنين فى فعل الخير حين يغبطه على ذلك؛ فالغبطة تحمل صاحبها على الاقتداء بأصحاب الهمم العليا فى مجاهدة النفس وحملها على الطاعة والانقياد وصنائع المعروف.

يقول الله عز وجل فى التعقيب على ما وعد به الأبرار: ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (٢) .

وقوله ﷺ: «لا حَسَدَ» جملة خبرية فى اللفظ طلبية فى المعنى، أى لا

---

(١) رواه البخارى، فى كتاب فضائل القرآن، باب ٢٠ : «اغتباط صاحب القرآن».

(٢) المطففين : ٢٦ .

تحـسـدوا أحـداً على نعـمـة من النعم ، وإن كنتم - ولابد - فـاعلين ، فليكن ذلك غبطة .

أو بعبارة أخرى : إن كنت تتمنى شيئاً مما لدى الغير، فتمنَّ أن تكون أحد الرجلين .

واحرص على تحقيق هذه الأمنية، والتمس من الوسائل ما يحققها لك .

والوسائل التى تتحقق بها هذه الأمنية كثيرة، لا تخفى على من كانت له دراية واسعة بفقه الكتاب والسنة .

فالرجل الذى علَّمَهُ الله القرآن - ذو حظ عظيم بلا شك . فادع الله عز وجل أن يُعلّمك مثل ما علَّمَهُ، واقرن الدعاء بالعمل : فاذهب إلى مُعَلِّمٍ يعلمك منه بعض السور .

وابدأ معه بقصارها؛ فإنه يَسْهُلُ عليك فى الغالب حفظها، وهى أول ما نزل من القرآن .

وعَلِّمْ ولدك أيضاً معك؛ لعل الله يفتح عليك بسببه .

وليكن معك عزمك وهمَّتُكَ، فلا تكسل على تحقيق هذه الرغبة مهما كلفك الأمر .

وربما يفتح الله عليك فتوح العارفين به، فتحفظ القرآن كله .

وسل الله أن يوفقك للمداومة على قراءته ليلاً ونهاراً؛ فإن قراءته بالليل والنهار هى الروح والريحان فى الدنيا والآخرة .

ولكى تحفظ القرآن بسهولة ويسر، اقرأه مرتلاً على مهل، ولا تسرع فى قراءته؛ فإنك لو أسرعت لا تتمكن أبداً من حفظه .

وابذل جهدك فى تدبير معانيه ومراميه، حتى تتمكن من العمل به . وعندئذ يغبطك الناس على هذه النعمة .

فإن لم يسعفْكَ الوقت ولم تستجب قريحتك للحفظ، فواظب على سماعه بتدبر؛ فإن القارئ كالحالب والسامع كالشارب، كما يقولون.

وإن أردت أن تكون من المنفقين، فانزع حب المال من قلبك، بكثرة الذكر وتَذَكُّرِ الموت، والتفكر فيمن ذهب من الأغنياء ولم يَدَّخِر منه لنفسه شيئاً ينفعه فى الآخرة كيف كان حاله فى الدنيا، وكيف يكون حاله يوم القيامة.

واقرأ كتب الوعظ والإرشاد؛ فإنها ترقق قلبك على الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوى الحاجات، وتدفعك إلى البذل مما فى يديك بطواعية وإخلاص لله، الذى منحك المال وجعلك خليفة فيه.

فهذه الوصية تغريك بهذا العمل؛ إذ لا خير فى الغبطة من غير جد فى الطلب.

وعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب.

ولا شك أن هذه الغبطة المصحوبة بالجد والعمل سوف تمكن صاحبها إن عاجلاً أو آجلاً من تحصيل ما يَتَمَنَّاه كله أو بعضه، فليبدأ كل منا السير على بركة الله فى تحقيق مطلبه وبالله توفيقه.

وقد قال الرسول ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» (١).

(ولما كان تَطَلُّع الإنسان إلى غيره قد يكون فتحاً لأبواب الفتنة، وتعلقاً بالمنى الباطلة، واشتهاءً لما يحسبه الشخص نافعاً له، وهو فى الحقيقة ضارٌ به، — أرشد الإسلام إلى ما ينبغى طلبه والتنافس فيه، فقال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين» إلخ.

والحسد فى الحديث تمنى مثيل النعمة، لا تمنى زوالها، كما ذكرنا.

---

(١) رواه مسلم.

والمقصود أن يكون المثل الأعلى الذى يستهدفه الإنسان جليلاً رائعاً؛ فإن من سقوط الهمة أن ترتبط الآمال بالتافه من الأحوال.

وهناك شئون يُعتبر التشبث بطلبها عبثاً لا يورث إلا الحسرة، وقد ينتهى بالحق على الناس، لا لشيء إلا لأن الله خصهم بمواهب فطرية أو بمنافع تقوم على هذه المواهب) (١).

وفى هذه الشئون وأمثالها يقول الله تعالى: ﴿ولا تَتَمَنَّوا ما فَضَّلَ اللهُ به بَعْضَكُمْ على بعضٍ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ (٢). فالتمنى له حدود ينبغى أن ينتهى إليها.

ويكفى المؤمن أن يشارك أخاه المؤمن فى هذه النعمة وغيرها مشاركة وجدانية، ويسأل الله عز وجل أن يحشره معه يوم القيامة إن مات على الإيمان، ويسكنه معه فسيح جناته، وأن تناله بركته فى الدنيا، ونحو ذلك مما فى وسعه أن يتمناه.

* * *

ويستفاد من هذا الحديث فوق ما ذكرناه فائدتان:

الفائدة الأولى: أن من أعظم النعم التى أنعم الله بها على المؤمن حفظ القرآن والمداومة على تلاوته مع تدبره والعمل به، والإخلاص له فى تعليمه للناس وبيان معانيه ومقاصده بقدر الطاقة.

الثانية: الترغيب فى بذل المال بسخاء وافر لمن يستحق العون من الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوى الحاجات، وتوقى الشح ما أمكن؛ فإن الشح مهلك لأهله.

فقوله ﷺ: «ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه فى الحق» يدل على أنه لم يترك للشح عليه سبيلاً، فهو يقول به هكذا وهكذا من غير حساب، ولا ينفق شيئاً منه إلا فى الحق.

---

(١) انظر خلق المسلم للشيخ الغزالى تحت عنوان: سلامة الصدر من الأحقاد.

(٢) النساء: ٣٢.

لكن هذا مشروط بأن لا يكون له من الأولاد ما هو فى حاجة شديدة إليه؛ لقوله ﷺ : « ... لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » (١) .

ولا يسمى إنفاق المال كله إسرافاً أو تبذيراً إذا كان فى سبل الخير ولم يكن هناك مانع شرعى من ذلك .

ومن طريف ما يحكى أن رجلاً لقى أخاه فى الطريق فعاتبه على إنفاق ماله فى سبيل الله وقال له: لا خير فى السَّرَف، فقال له أخوه: ولا سَرَفَ فى الخير.

نعم، لا سرف فى الخير؛ إذ ليس لابن آدم من ماله إلا ما يبلغه حاجته .

يقول رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالى مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى (٢) . وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » (٣) .

ويقول النبى ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ » قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : « فإن ماله ما قَدَّم، ومال وارثه ما أخر »(٤) .

والخلاصة أن أصول النعم مجموعة فى الإيمان، فمن أوتى الإيمان فقد أوتى الخير كله .

إلا أن المؤمن قد يفوق غيره بخصائص كثيرة يرتفع بها عند ربه درجات كالعلم وحفظ القرآن والمداومة على قراءته، والمال الكثير الذى يوفقه الله لإنفاقه فى الحق ، ونحو ذلك مما لا يحصى عده، فلا ينبغى للمؤمن أن يحسد أخاه على نعمة من هذه النعم ولكن له أن يغبطه عليها، وقد عرفنا الفرق بين الحسد والغبطة .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) رواه البخارى.
(٢) أى مَلَكَهُ وأبقاه لنفسه .
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخارى.

(٢٠١) أَفْشُوا السلامَ وأطعموا الطعامَ

عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال: لما قَدمَ رسول الله ﷺ المدينة، استشرفه الناس فقالوا: قَدمَ رسولُ الله، قَدمَ رسول الله، فخرجت فيمن خرج، فلما رأيت وجهه عرفت أَن وَجْهَهُ ليس بِوَجْهِ كَذَّاب، فكان أول ما سمعته يقول:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السلام، وَأَطْعِمُوا الطعامَ، وصِلُوا الأَرْحَامَ، وصَلُّوا بالليل والناسُ نيامٌ، تَدْخُلُوا الجنة بِسَلَامٍ»(١) .

*　*　*

إذا أراد الله بعبد خيراً، هداه إلى دينه القويم وصراطه المستقيم، وثَبَّتَ قلبه على الإيمان الصادق فسعد بذلك فى دنياه وآخرته.

وعبد الله بن سلام حبر من أحبار اليهود، كان واحداً من أولئك الذين هداهم الله إلى الإسلام، فاجتمع عليه لُبُّهُ وقلبُهُ فعقل عن الرسول ﷺ كثيراً من الكلمات الجامعة والحِكَمِ البالغة،ووعاها وأدَّاها كما سمعها بأمانة وإخلاص.

وهذه الوصية واحدة منها، وهى أول ما سمعه من رسول الله ﷺ حين نزل المدينة.

يقول رضى الله عنه: «لما قدم الرسول ﷺ المدينة، استشرفه الناس» أى انتظروه وأسرعوا إلى استقباله على المشارف، وهى الأماكن المرتفعة.

وفى رواية الترمذى وابن ماجه: «انْجَفَلَ الناس إليه» أى جاءوه جماعات جماعات من هنا وهناك.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الدارمى فى سننه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الليل. وكتاب الاستئذان، باب إفشاء السلام.

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب صفة القيامة، باب (٤٢) وقال: هذا حديث صحيح، وليس فيه «وصلوا الأرحام». ورواه ابن ماجه فى سننه كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فى قيام الليل.

قال: «فخرجت فيمن خرج، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كَذَّاب» أى عرفت الصدق كُلَّهُ من صفحات وجهه، ولم أشك أنه نبى مرسلٌ، قد اجتمعت فيه كل النعوت التى جاءت فى التوراة والإنجيل.

والعاقل اللبيب له فراسة قَلَّ أن تخطئ، فهو بذكائه وفطنته، وعلمه وخبرته – استطاع من أول نظرة إلى وجه النبى الكريم أن يتعرف عليه، كما يَتَعَرَّفُ الرجل على ابنه من صلبه، ولديه كل الدلائل التى تشير من قريب ومن بعيد إلى أنه هو ذلك النبى المنتظر.

ذلك النبى الذى ختم الله به النَّبِيِّين، وأكمل به الدين، وأتمَّ به النعمة.

إن هذا الحبر لا يخفى عليه أمر هذا النبى الكريم، فهو يعرف نعوته كلها، ويعرف زمان بعثته، ومكانه الذى يعيش فيه ويبعث منه إلى الناس كافة.

ومن قبله كان بَحِيَرا الراهب، فقد رآه مع عمه أبى طالب فى قافلة تجارية كانت متوجهة من مكة إلى الشام، وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فعرف أنه نبى وتأكد من ذلك حين أبصر خاتم النبوة فى كتفه اليمنى، فقال لعمه: إن لابن أخيك هذا شأناً، فاحذر عليه اليهود والنصارى، أو عُدْ به إلى مكة؛ فإنه النبى المنتظر.

فما من حبر من أحبار اليهود ولا راهب من رهبان النصارى له ذكاء وفطنة – إلا عرف فيه سمات النبوة.

يقول الله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (١).

يروى أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام هل تجد رسول الله ﷺ فى التوراة.

قال: والله إنى لأجده، وإن معرفتى بمحمد أشد من معرفتى منى بابنى.

قال: كيف ذاك؟

قال: أجده بصفته ونعته، أما ابنى فلا أدرى ما تصنع النساء!

---

(١) البقرة: ١٤٦.

قال عبد الله: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس ... » إلى آخر الحديث.

يريد أن يقول: إنه نبى ينطق بالحكمة، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وهذه من نعوته عندهم في التوراة والإنجيل، فكان سماعه مؤكداً لرؤيته؛ فوجهه وجه نبى، وكلامه كلام نبى، فلم يَسَعْهُ إلا اتباعه، فاتبعه على هدى من ربه ونور.

* * *

وقد تضمنت هذه الوصية أربع شُعب من شُعب الإيمان.

الشُّعْبَةُ الأولى : إفشاء السلام، أى إلقاؤه وردُّه.

والإلقاء والرد يحمل فى طياته نشر السلام بين المؤمنين فى ربوع البلاد؛ فالسلام هو الأمان، فإذا ألقى الرجل السلام على أخيه، فقد أَمَّنَهُ على نفسه وماله، وكذلك إذا رَدَّه عليه.

وبالسلام يسود الحب بين المؤمنين، وتتقارب أفئدتهم وأرواحهم، وتلتقى أهدافهم حول نصرة الدين وتحقيق ما يصبون إليه بروح التعاون والإخاء.

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أدلكم على شىء إذا فعلتموه تَحَابَبْتُمْ؟ – أفشوا السلام بينكم ».

وليس المعنى مقصوراً على إلقاء السلام ورده، بل المعنى أوسع من ذلك بكثير، يشمل بعمومه نشر الأمان بجميع الوسائل المتاحة، كتلاشى الجدل العقيم؛ فإنه يؤدى إلى العداوة والبغضاء، وتناسى الأحقاد والضغائن؛ فإن تناسيها يُبْعِدُ عن الناس شبح المكايد التى يمليها الشيطان لضعفاء الإيمان ومرضى النفوس والعقول.

فالإفشاء معناه: النشر على نطاق واسع، وإظهار ما كان خافياً من الحب ونحوه مما قد يستره المرء حياءً أو كبراً.

ولذا أمر النبى ﷺ الرجل إذا أحب أخاه أن يخبره بذلك؛ لتتوثق عُرَى الإخاء والمودة بينهما.

فقد روى أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رجلاً كان عند النبى ﷺ فمر به رجل فقال: يا رسول الله، إنى لأحب هذا، فقال له النبى ﷺ : «أعلمته؟» قال: لا. قال: «أعلمْه»، قال: فلحقه فقال: إنى أحبك فى الله، فقال: أحبك الذى أحببتنى له (١).

وقد مضى الكلام على أحكام السلام فى الوصية رقم (٤٧) من الجزء الأول، فراجعه إن شئت.

* * *

الشعبة الثانية : إطعام الطعام، أى بذله لمن هو فى حاجة إليه بسخاء وطيب نفس، فهو خير ما يُقَدَّمُ للأهل والأقارب والضيفان، والفقراء والمساكين ومن على شاكلتهم.

والطعام يشمل بعمومه كل ما يُطعم ويُشرب، ويذوق المرء طعمه فى فمه مما يتقوى به البدن.

وإطعام الطعام نخوة عربية جاء الإسلام فباركها ودعا إليها وَرَغَّبَ فيها، واعتبرها شعبة من شعب الإيمان وشعيرة من شعائر الإسلام فى كثير من المواطن والمناسبات.

فهناك الأضحية، والعقيقة، والوليمة، والهدى، والفدو، وغيرها مما سنَّه الرسول ﷺ لأمته.

ولقد كانت قريش من أكرم العرب وأكثرهم قِرىً للضيف على الإطلاق، ولا سيما بنو عبد مناف، أجداد النبى ﷺ.

وكان محمد عليه الصلاة والسلام فى الجود لا يُدَانَى.

وكان علىٌّ رضى الله عنه يحاول أن يحاكى النبى ﷺ فى ذلك.

---

(١) تقدم شرحه رقم : ١٧٠.

قال الشاعر:

يا أيها الرجل المُحَوِّلُ رَحْلَه هلاَّ نزلت بآل عبد مناف
هَبِلَتْكَ[1] أمُّكَ لو نزَلْتَ بَحيِّهم مَنَعُوكَ من فَقْرٍ ومن إقْرَاف[2]
الخَالطينَ غَنيَّهُم بفقيرهم حَتَّى يَعُودَ فَقيرُهُمْ كالْكَافى
المَالئينَ جفَانَهم وصَلُودَهُمْ[3] حتى تعودَ الشمسُ بالرُّجَاف[4]
منهم علىٌّ والنبىُ محمدٌ القَائلاَن هَلُمَّ للأضْيَاف

والإسلام حين يُرَغِّبُ معتنقيه فى إطعام الطعام إنما يُوَثِّقُ بينهم تلك الصفة الإنسانية، التى تقوم على التعارف والتعاون البناء فى جميع المجالات، باعتبار أن الإنسان مدنى بالطبع، هو فى حاجة دائمة إلى معونة أخيه الإنسان.

ويعمق على وجه الخصوص تلك الأخوة الإيمانية، التى تقوم على المحبة والمودة، والعدل، والفضل، والمعروف.

والطعام – كما نعلم – من حوائج الإنسان الرئيسية، لا يستغنى عنه بحال؛ فكانت الدعوة إليه والمشاركة فيه من أعظم أنواع البر.

والاجتماع على الطعام فيه بركة، فمن دعا أخاه إلى مائدته ليأكل معه وكان طعامه قليلاً؛ فإن الله عز وجل يفيض عليه من بركاته ما يجعله كافياً.

وقد جربنا ذلك فرأيناه كذلك.

روى أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه، عن وَحْشِىٍّ بن حرب عن أبيه عن جَدِّه قال: قالوا: يا رسول الله، إنا نأكلُ ولا نشبع، قال: «تجتمعون على

---

(١) هَبِلَتْكَ أمك – بكسر الباء – : فقدتك، وتقال أحياناً فى معنى المدح والإعجاب، فيراد به: ما أعلَمَه، أو ما أصوب رأيه – المعجم الوسيط.

(٢) الإقراف: المرض.

(٣) الصَّلُودُ: القُدُور والمراجل البطيئة الغَلْي.

(٤) الرَّجَّافُ: البحر، أو يوم القيامة. والمراد: المالئين قصاعهم وقدورهم باللحم يأكل منه الضيفان مهما كثروا، من الغروب حتى تطلع الشمس فى بحر النهار وذلك إلى يوم القيامة.

طعامكم أو تَتَفَرَّقُونَ؟» قالوا: نَتَفَرَّقُ، قال: «اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله تعالى يُبَارَكْ لكم فيه».

وروى مسلم والترمذى وابن ماجه عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طعام الواحدِ يَكْفِى الاثنين، وَطَعَامُ الاثنين يَكْفِى الأربَعَةَ، وطعامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِى الثَّمَانِيَةَ».

وقد تَقَدَّمَ الكلام على إكرام الضيف فى الجزء الأول من الوصية الخامسة، فراجعه إن شئت.

* * *

الشعبة الثالثة: صلة الأرحام، وهى مطلب من أسمى المطالب التى يُعنى الإسلام بها ويُرَغِّبُ فيها.

وهى قربة من أعظم القربات التى يتقرب بها العبد لخالقه ومولاه.

وقد تَقَدَّمَ الكلام عليها فى الوصية رقم (١١٧) من الجزء الثانى.

ونضيف هنا على ما قلناه هناك أن صلة الأرحام تقوم على أربعة مبادئ أساسية:

المبدأ الأول: الحب المتبادل بين أولى الأرحام والعصبات، فإن لم يكن هناك حُبٌّ باعتبار أن القلوب بيد الله عز وجل - قام المعروف مقامه.

والمعروف: هو العادات والسلوكيات التى لا تصطدم مع الشرع، ولا تعارض نصاً من نصوصه.

المبدأ الثانى: هو العدل، بأن يُعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

وذلك بأن يقابل المرء الإحسان بإحسان مثله أو بأحسن منه؛ وفق قوله تعالى: ﴿وإذا حيِّيتم بتحية فحيوا بأحسنَ منها أو رُدُّوهَا إن الله كان على كل شىء حسيباً﴾(١).

---

(١) النساء: ٨٦.

والمبدأ الثالث: هو الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾[١].

والفضل معناه: أن يتذكر المسلم محاسن أخيه المسلم وينسى مساويه، ولاسيما إذا كان أخوه هذا من ذوى رحمه؛ لأن ذكر المحاسن يُعين المسلم على برٍّ إخوانه وأرحامه بسخاء وإخلاص، بخلاف ذكر المساوى فإنه يُقَسِّى القلوب ويباعد بينها، ويحجب عن الإنسان رؤية محاسن أخيه، حتى لا يكاد يرى له حسنة يَعُدُّها.

وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكن عينَ السخطِ تُبْدِى المساويا

المبدأ الرابع: هو العفو والصفح والغفران.

وذلك لأن هذه الأمور الثلاثة المتلازمة تتيح لصاحبها أن ينطلق إلى فعل الخير لا يلوى على شىء، ولا يعوقه فى سبيل الخير عائق ما دام قد تَسَلَّحَ بهذه الصفات التى إن دلت على شىء فإنما تدل على عزم صادق وهمَّة عالية وحلم رشيد.

يقول الله عز وجل: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[٢].

ويقول: ﴿ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لَمِن عزم الأمور﴾[٣].

ويقول عز شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾[٤].

والعفو: ترك العقاب، والصفح: ترك العتاب، والغفر: نسيان ما كان.

* * *

الشعبة الرابعة: هى الصلاة بالليل والناس نيام.

وهى من أفضل الصلوات بعد المكتوبة، كما جاء فى صحيح مسلم، يواظب عليها من يخشى الله ويتقيه.

---

(١) البقرة: ٢٣٧. (٢) الشورى: ٤٠.

(٣) الشورى: ٤٣. (٤) التغابن: ١٤.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على قوام الليل ثناءً حسناً ، فقال جل شأنه : ﴿ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ (١) .

والمعنى : هل يستوى أولئك القائمون الساجدون آناء الليل، والغافلون المعرضون عن ذكر الله تعالى؟

إنهم لا يستوون، لا فى العقل، ولا فى الفضل.

فالساجدون القائمون، قوم عقلاء، يخشون العاقبة، ويعدون للأمر عدته، ويعلمون أنهم لم يخلقوا إلا للعبادة، فهم يحرصون على ما ينفعهم فى آخرتهم، ويرجون ما هو خير لهم فى دينهم ودنياهم، وهو رحمة الله عز وجل.

قال تعالى : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (٢) .

والمعرضون على النقيض من ذلك . فتأمل.

وقال تعالى فى سورة الذاريات مشيداً بفضل قيام الليل، ومثنياً على القائمين، ومبشراً إياهم بالجنة والنعيم المقيم : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سجَّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أُخفِىَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٤) .

روى سعيد بن منصور فى سننه عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة الداء عن الجسد » .

---

(١) الزمر : ٩ .
(٢) الزخرف : ٣٢ .
(٣) الذاريات : ١٥ – ١٨ .
(٤) سورة السجدة : ١٥ – ١٧ .

وقال سهل بن سعد: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، احبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، وعش ما شئت فإنك ميت، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس» (١) .

وروى الطبراني بإسناد حسن عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة (٢) قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يُقتل، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه، فيقول الله: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه.

والذي له امرأة حسنة، وفرش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد.

والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهر ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء».

وروى ابن حبان في صحيحه والأصبهاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض كل جعظري جواظ صخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة».

قال أهل اللغة: الجعظري: الشديد الغليظ، والجواظ: الأكول، والصخاب: الصيَّاح، والجيفة بالليل: هو الذي يغط في نوم عميق، فلا يستيقظ للصلاة، فهو كالجيفة الملقاة لا حس فيها ولا حركة، وذلك من كثرة ما يعانيه بالنهار من تعب وصخب، فهو كما قال الرسول ﷺ: «حمار بالنهار» لا هم له سوى ملء بطنه، يعلم من أمر الدنيا، ولا يعلم من أمر الدين، فربما يعيش من العمر سبعين سنة ولا يعرف آداب الاستنجاء.

فهذا الرجل وأمثاله، يبغضهم الله ويطردهم من رحمته، فيخسرون الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل ح: ١٠٥٤١.
(٢) فرقة من الجيش.

وأحرى بالعبد أن يقسم وقته، فيجعل منه لربه، ويجعل منه لبدنه، ويجعل منه لزوجه وأولاده، عملاً بالحديث الصحيح: «إن لربك عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه»[1].

هذه هى الشعب الأربعة التى جاءت فى هذه الوصية، وهى بمجموعها تشتمل على خصال الخير كلها، وتحفظ للمؤمنين حسن صلتهم بربهم وحسن صلة بعضهم ببعض.

ويكفى أنها تكون سبباً فى دخول الجنة بسلام، من غير عوائق ولا فزع ولا جزع ولا يأس من رحمة الله.

بها يزحزحون عن النار، وبها ترفع مقاماتهم مع الأبرار.

نسأل الله أن يجعلنا منهم. آمين.

* * *

---

(١) هذا النص من قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء يعظه به، وصدقه فيه النبى ﷺ بقوله: «صدق سلمان». والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب رقم ٥١، والترمذى فى الزهد ٦٤.

الفهـــرس

رقم الوصية	الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٩٩/٥٣١٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 295 - 075 - 8

دار العدنان للطباعة
دار السلام ت: ٣١٨٠١٥٣